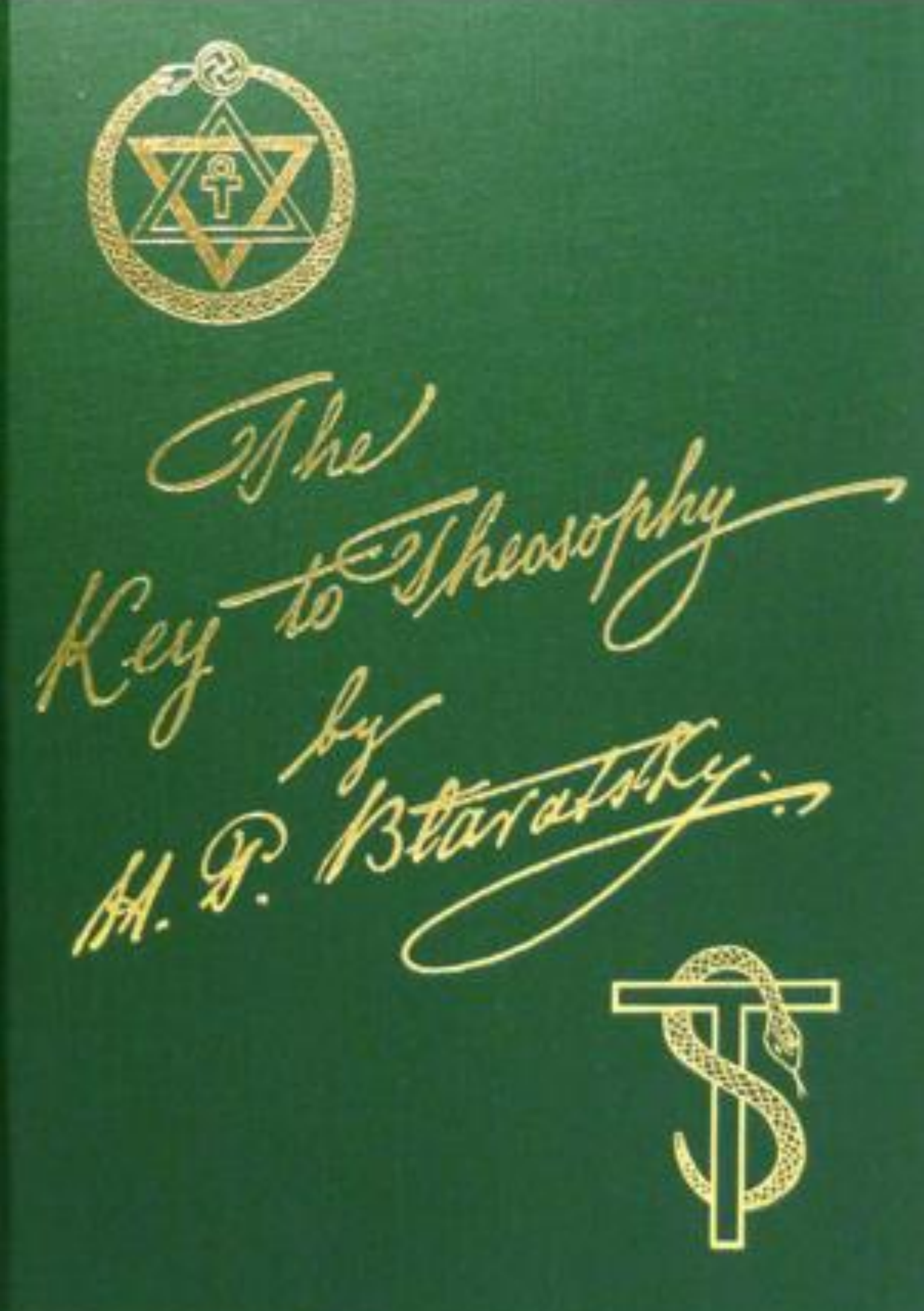

The Key to Theosophy
by
H. P. Blavatsky

THE KEY TO THEOSOPHY

BEING

A CLEAR EXPOSITION, IN THE FORM OF QUESTION AND ANSWER,

OF THE ETHICS, SCIENCE, AND PHILOSOPHY

FOR THE STUDY OF WHICH THE THEOSOPHICAL SOCIETY HAS BEEN FOUNDED.

BY

H. P. BLAVATSKY

London :

THE THEOSOPHICAL PUBLISHING COMPANY LIMITED.

7, DUKE STREET, ADELPHI, W.C.

New York :

W. Q. JUDGE, 21, PARK ROW.

H. P. BLAVATSKY

LA CLEF DE LA THÉOSOPHIE

Un exposé clair sous forme de questions et de réponses

DE L'ÉTHIQUE, DE LA SCIENCE ET DE LA PHILOSOPHIE

Pour l'étude desquelles la Société Théosophique a été fondée.

Traduction française du texte original (Londres, 1889) : THE KEY TO THEOSOPHY, augmentée du Glossaire de l'édition de 1890.

Dedicated

By "H. P. B."

To all her Pupils

that

They may Learn and Teach

In their turn.

إهداء

بقلم:

ه. ب. ب

إلى جميع تلاميذها

ليتعلموا ويعلموا بدورهم

مقدمة المؤلف

يتم التعبير عن القصد من هذا الكتاب بالضبط من خلال عنوانه "مفتاح الثيوصوفيا" ولا يحتاج إلا لبضع كلمات من الشرح. إن الكتاب ليس عرضاً كاملاً أو شاملا للثيوصوفيا، بل هو فقط مفتاح لفتح الباب لمزيد من دراسة أكثر عمقاً.

إنه يرسم الخطوط العريضة لدين - الحكمة ويشرح مبادئه الأساسية، في حين أنه بنفس الوقت، يجيب على الاعتراضات التي يثيرها عادة الإنسان الغربي العادي، ويسعى جاهداً بقدر الإمكان، لعرض مفاهيم غير مألوفة في شكل مبسط ولغة واضحة.

لا يمكن التوقع من هذا الكتاب أن يجعل الثيوصوفيا مفهومة للقارئ دون بذل مجهود عقلي من جانبه، لكن من المأمول أن تكون الغموضات المستمرة ليست من اللغة بل من طبيعة الفكر ويرجع ذلك إلى عمق الموضوع وليس لغموضه.

بالنسبة لأولئك الذين يكون ذكاؤهم بليداً أو خاملاً، فإن الثيوصوفيا ستبقى بالتأكيد أحجية لأنه، في العالم الفكري

وكذلك في العالم الروحي، يجب على الجميع التقدم من خلال جهودهم الخاصة.

لا يمكن للمؤلفة التفكير بدلاً من القارئ، بالإضافة إلى ذلك فإن هذا الأخير لن يستفيد منه، على افتراض أن مثل هذا التفكير بالوكالة كان ممكناً. منذ فترة طويلة شعرت بالحاجة إلى عرض مثل هذا الكتاب بين المهتمين بالجمعية الثيوصوفية وبعملها، ويجب أن نأمل أن يقوم بتقديم معلومات مجردة من الصعوبات التقنية قدر المستطاع إلى معظم الذين استيقظ انتباههم ولكنهم لم يتمكنوا بعد من عبور عتبة الأسئلة دون الحصول على إجابات من أجل الوصول إلى قناعة راسخة.

لقد تم الحرص على فرز ما هو صحيح مما هو خطأ في تعاليم الأرواحيين عن الحياة بعد الوفاة وإظهار الطبيعة الحقيقية للظواهر الأرواحية. في السابق، لأن التفسيرات من هذا النوع قد أثارت بالفعل الكثير من الغضب ضد شخص المؤلفة المتفانية.

يفضل الروحيون، مثل كثيرين غيرهم، تصديق ما يرضيهم بدلاً من الحقيقة: إنهم يغضبون كثيراً ضد أي شخص يدمر وهمّ يعجبهم.

خلال العام الماضي، كانت الثيوصوفيا هدفاً لجميع السهام السامة للأرواحية كما لو كان حاملو جزء من الحقيقة يشعرون بمزيد من الخصومة ضد حاملي الحقيقة الكاملة، أكثر من أولئك الذين لا يستطيعون التفاخر أو الادعاء بامتلاك فتات منها.

تود المؤلفة أن تتقدم بالشكر الجزيل للعديد من الثيوصوفيين الذين أرسلوا لها اقتراحات وأسئلة، أو الذين قدموا بعض الإسهامات الثانية أثناء كتابة هذا الكتاب.

سيكون الكتاب أكثر فائدة، وذلك بفضل مساعدتهم، وسيكون هذا أفضل مكافأة لهم[1].

ه.ب.ب.[2]

[1] تمت ترجمة الكتاب من النسخة الفرنسية. لقد اعتمدت هنا الترجمة البسيطة المتاحة للجميع. تمَّ اقتباس معاني وكلمات وجمل ومصطلحات من ترجمة ديمتري أفييرينوس لجمال لغته العربية واليونانية.

[2] اختصار لإسم المؤلفة: هيلينا بتروفنا بلافاتسكي.

الباب الأول

الثيوصوفيا والجمعية الثيوصوفية

معنى الاسم

سؤال: غالباً ما يُشار للثيوصوفيا ولعقائدها بأنها دين جديد مُبتَدع وعصري. هل هي دين؟

الثيوصوفي: لا، إنها ليست كذلك. الثيوصوفيا هي المعرفة أو العلم الإلهي.

سؤال: ما هو المعنى الحقيقي للمصطلح؟

الثيوصوفي: "الحكمة الإلهية" أو (ثيوصوفيا)[3] أو حكمة الآلهة، كما يعني (ثيوغونيا)[4] علم أنساب الآلهة. في اليونانية تعني كلمة (ثيو)[5] إلهاً، أحد الكائنات الإلهية، وبالتأكيد ليس "إله" بالمعنى الذي نعطيه اليوم لهذه الكلمة. لذلك فإنه لا يجب أن يُقال عن المصطلح أنه "حكمة الله" حسب قول البعض أو كما يترجمه البعض الآخر، بل الحكمة الإلهية مثل تلك التي تمتلكها الآلهة. المصطلح يعود إلى آلاف السنين.

سؤال: ما هو أصل الاسم؟

الثيوصوفي: لقد جاءنا من فلاسفة الإسكندرية الذين أُطلق عليهم اسم عشاق الحقيقة، أو محبي الحقيقة[6]، من (فيل)[7] "مُحب"، ومن (أليثيا)[8] "الحقيقة". تعود كلمة ثيوصوفيا إلى القرن الثالث من عصرنا، وظهرت مع أمونيوس ساكاس وتلاميذه الذين أسسوا النظام الثيوصوفي الاصطفائي.[9]

---

[3] Θεοσοφία.

[4] Θεογονία.

[5] Θεός.

[6] Philalèthes.

[7] Φιλ.

[8] άλήΘεια.

[9] كان يُطلق عليهم أيضاً اسم القياسيين أو التناظريين. كما يشرح ذلك البروفسور ألكساندر وايلدر (عضو في الجمعية الثيوصوفية) في كتابه "الفلسفة الانتقائية". ["الفلسفة الاصطفائية"، النص متضمن في كتاب - الأفلاطونية المحدثة والخيمياء، منشورات ألباني، نيويورك ويد بارسونز أند كومباني - طبعة عام، 1869]. أُطلق هذا الاسم على هؤلاء الفلاسفة نتيجة لعادتهم في تفسير جميع الحكايات والأساطير المقدسة بالإضافة

سؤال: وماذا كان الهدف من هذا النظام؟

الثيوصوفي: قبل كل شيء، كان لغرس بعض الحقائق الأخلاقية العظيمة لتلاميذه ولجميع أولئك الذين كانوا "عشاق الحقيقة". ومن هنا جاء الشعار الذي تبنته الجمعية الثيوصوفية "لا يوجد دين أعلى من الحقيقة[10]". الهدف

إلى الأساطير والأسرار، وفقاً لقاعدة أو مبدأ التشابه والتماثل، بحيث تُعتبر الأحداث التي تم سردها على أنها حدثت في العالم الخارجي، وأنها تمثل عمليات وتجارب الروح البشرية. كما تم تسميتهم أيضاً بالأفلاطونيين الجدد. على الرغم من أن الثيوصوفيا أو النظام الثيوصوفي الاصطفائي يُنسب عادةً إلى القرن الثالث، إلا أنه يجب تتبع أصله لعصر أبعد بكثير إذا كان يجب علينا أن نؤمن بالفيلسوف ديوجين اللايروسي الذي يعزو النظام إلى الكاهن المصري بوت آمون. الذي عاش في بداية سلالة البطالمة. يخبرنا المؤلف نفسه أن الاسم قبطي ويعني أنه قد تمَّ تكريسه لآمون، إله الحكمة. كلمة الثيوصوفيا هي ما يعادل بالسنسكريتية مصطلح براهما فيديا، المعرفة الإلهية.

[10] كانت الثيوصوفيا الاصطفائية تنقسم إلى ثلاثة جوانب رئيسية: 1- الاعتقاد بالألوهية - أو بجوهر لامتناهٍ - مطلق، لا يُدرَك كنهه، سامي، وهو أصل كل الطبيعة، وأصل كل ما هو موجود، ما هو مرئي وغير مرئي. 2- الاعتقاد بطبيعة الإنسان الأزلية الخالدة، لأنها، بكونها إشعاع من النفس الكونية، فهي بالضرورة من جوهر واحد معها. 3- الثيورجيا، أو "العمل الإلهي"، أو القيام بعمل الآلهة، وهي مشتقة من كلمتين (ثيوس)، "الإله"، و (إرغون)، "عمل" أو "مهنة". والمصطلح قديم جداً، لكنه، لما كان ينتمي إلى مفردات الأسرار، فإنه لم يكن شائع الاستعمال. فبحسب اعتقاد سرَّاني – برهن عليه عملياً النطساء أو الحكماء والكهنة المسارَرون – يستطيع الإنسان، فيما إذا جعل نقاءه كنقاء الكائنات الأثيرية – أي فيما إذا عاد إلى نقاء طبيعته الأصلية – أن يحض الآلهة على تلقينه الأسرار الإلهية، بل وحتى على إظهار ذاتهم له ذاتياً أو موضوعياً. هذا كان المظهر السامي لما يُعرف اليوم بالأرواحية. لكن الثيورجيا أصبحت فيما بعد ولكن، بعد إساءة عامة الناس للثيورجيا

لعدم فهمهم لها، ووصل البعض لغاية اعتبارها نوعاً من استحضار الأرواح، فقط تمَّ حظرها في كل مكان تقريباً. إن السحر الاحتفالي لبعض الكاباليين العصريين ليس سوى صورة زائفة لثيورجيا جامبليك.
الثيوصوفيا المعاصرة تتجنب وترفض هذين النوعين من السحر و "استحضار الأرواح" الذي تعتبره خطيراً جداً. تتطلب الثيورجيا الإلهية الأصيلة نقاء وقداسة حياة خارقة تقريباً، وإلا فإنها ستتحول إلى الوساطة الأرواحية أو إلى السحر الأسود. رفض أول تلاميذ أمونيوس ساكاس (الذي أطلق عليه اسم ثيوديداكتوس "من علمته الآلهة"، مثل أفلوطين وخليفته بورفير، الثيورجيا في بادئ الأمر، لكن تم أخيراً قبولها بفضل جامبليك الذي كتب كتاباً في هذا الصدد (المعروف باسم: مقالة في الأسرار) الذي قدمه تحت اسم معلمه، كاهن مصري شهير، أبمون. ولد أمونيوس ساكاس من أبوين مسيحيين، ولكن بما أن الروحانية العقائدية للمسيحية قد سببت له النفور منذ طفولته، فقد أصبح من أتباع الأفلاطونية المحدثة، وقيل عنه، كما قيل عن (جاكوب) يعقوب بوهم وغيره من الرائين والصوفيين السرانيين، أن الحكمة الإلهية قد كشفت له عن نفسها في المنام وفي الرؤى. ومن هنا جاءت لقبه ثيوديداكتوس. لقد قرر التوفيق بين جميع الأنظمة الدينية، وعن طريق إظهار هوية أصلهم الواحد، ترسيخ اعتقاد عالمي واحد قائم على الأخلاق. كانت حياته غير قابلة للوم ونقية جداً، وكانت معرفته عميقة جداً وواسعة للغاية لدرجة أن العديد من آباء الكنيسة كانوا تلاميذه سراً. يتحدث كليمنضس الاسكندرية عنه بأعلى درجات التقدير. كان أفلوطين، وهو بمثابة "القديس يوحنا" لأمونيوس، رجل من أعلى الاستقامة وأعمق التعلم، ويحظى باحترام وتقدير عالمي. في سن التاسعة والثلاثين رافق الإمبراطور الروماني غورديان وجيشه إلى الشرق، ليتعلم من حكماء باكتريان والهند. أسس مدرسة للفلسفة في روما. قام تلميذه بورفير، وهو يهودي اهتدى للهيلينية واسمه الحقيقي مالشوس (مالك)، بجمع جميع أعمال معلمه، وهو نفسه كان مؤلفاً مشهوراً وقدم تفسيراً مجازياً لأجزاء معينة من أعمال هوميروس. كان نظام التأمل الذي يستخدمه الفيلاليثون هو الغبطة أو الاستغراق، وهو نظام مشابه للممارسة الهندية لليوغا. كل ما هو معروف عن هذه المدرسة الإصطفائية يرجع إلى اوريجينوس، لونجين

الرئيسي لمؤسسي المدرسة الثيوصوفية الاصطفائية كان أحد الأهداف الثلاثة للجمعية الثيوصوفية، خليفتها المعاصرة: التوفيق بين جميع الأديان والطوائف والأمم في نظام أخلاقي مشترك قائم على الحقائق الأبدية.

سؤال: كيف يمكنكم إثبات أن هذا ليس سوى حلماً مستحيلاً وأن جميع ديانات العالم تقوم بالفعل على الحقيقة الواحدة نفسها؟

الثيوصوفي: نثبت ذلك من خلال التحليل والدراسة المقارنة لهذه الأديان. كان "الدين - الحكمة" واحداً في العصور القديمة، وقد ثُبِتت لنا هوية جميع الفلسفات الدينية البدائية من خلال العقائد المتطابقة التي كانت تُعلم للمسارين في سياق المساررة وتلقن الأسرار، وهي كانت طريقة منهجية منتشرة سابقاً عالمياً. "جميع العبادات القديمة تكشف عن وجود ثيوصوفيا واحدة كانت سابقة لهم. المفتاح الذي يفتح الواحدة منهم، يجب أن يفتحها جميعاً، أو أنه ليس هو المفتاح الحقيقي". (وايلدر، المصدر آنف الذكر).

وأفلوطين، تلاميذ أمونيوس المباشرين. (انظر أ. وايلدر، المصدر المذكور أعلاه).

غاية الجمعية الثيوصوفية

سؤال: في زمن أمونيوس ساكاس، كانت هناك العديد من الديانات القديمة العظيمة، وفقط في مصر وفلسطين كانت الطوائف عديدة بالفعل. فكيف تمكن من التوفيق بينهما؟

الثيوصوفي: عن طريق القيام بما نحاول القيام به الآن. لقد كان الأفلاطونيون الجدد يشكلون مجموعة مهمة وينتمون إلى مدارس فلسفية دينية مختلفة[11]، كما هو الحال مع ثيوصوفينا. في ذلك الوقت، أكد اليهودي أرسطوبولس أن أخلاقيات أرسطو

---

[11] في عهد فيلادلفيا، وطدت اليهودية نفسها في الإسكندرية، وفي الحال، أصبح معلمي الهيلينية منافسين خطيرين لكلية حاخامات بابل. كما علق البروفيسور ألكسندر ويلدر بحكمة شديدة: "في ذلك الوقت، كانت تُعرض الفلسفات اليونانية والأنظمة البوذية والفيدانتية والمازدية في نفس الوقت؟ لم يكن مفاجئاً أن يعتقد البشر الحكماء في أن المشاجرات الكلامية يجب أن تتوقف، وأنهم قبلوا باحتمالية استنباط هذه العقائد المختلفة من نظام واحد متناغم (...) كان البانتين والأثناغور وكليمنص على دراية جيدة بالفلسفة الأفلاطونية، وفهموا وحدتها الأساسية مع الأنظمة الشرقية.

تمثل التعاليم الباطنية لقانون موسى، وفيلون اليهودي كان يحاول التوفيق بين أسفار موسى الخمسة مع فلسفة فيثاغورس والفلسفة الأفلاطونية. وأثبت جوزيف أن طائفة الأسينيين الكرملية لم تكن سوى المقلدين والمتابعين للمعالجين المصريين (أو الشافين)، وهو الأمر نفسه في الوقت الحاضر. يمكننا الإشارة إلى أنساب كل دين مسيحي، وكذلك أيضاً النسب لكل طائفة حتى الأصغر بينها.

هذه الطوائف هي براعم طفيفة أو فروع صغيرة من الفروع الرئيسية، ولكنها كلها أغصان وفروع انبثقت من نفس الجذع: الدين - الحكمة. إثبات ذلك كان هو هدف أمونيوس، الذي سعى جاهداً إلى جلب الغرباء والمسيحيين واليهود والوثنيين لترك خلافاتهم ومنازعاتهم جانباً، متذكرين فقط أنهم كانوا يحوزون جميعاً على نفس الحقيقة تحت زينة مختلفة، وأنهم كانوا جميعهم من نفس الأم[12] وهذا هو أيضاً هدف الثيوصوفيا.

---

[12] إليكم ما يقوله المؤرخ موشيم عن أمونيوس: "إذ أنه قد أدرك أنه ليس فقط فلاسفة اليونان، بل وأيضاً جميع الدول البربرية المختلفة، قد اتفقوا تماماً على جميع النقاط الأساسية، فقد حدد لنفسه هدف تقديم الألف عقيدة من هذه الطوائف المختلفة، وذلك بطريقة تُظهر أنها كلها من نفس الأصل الواحد، وتميل جميعها إلى نفس الغاية الواحدة". إذا كان المؤلف الذي يعالج موضوع أمونيوس في موسوعة إيدنبرغ يعرف ما الذي يتحدث عنه، فهو بالضبط ما يصفه الثيوصوفيين المعاصرين، مع قناعاتهم وعملهم، عندما يدلي بالتعليق التالي حول عشاق الحقيقة: "لقد تبنوا عقائد مقبولة في مصر (العقائد الباطنية هي تلك من الهند) المُتعلقة من ناحية، بالكون والألوهية، التي تُعتبر أنها تشكل كلٍ واحدٍ عظيم، ومن ناحية ثانية، تلك التي تتعلق بخلود العالم (...) لقد أنشأ نظاماً من الانضباط الأخلاقي الذي يتيح للناس عموماً الحرية في العيش وفقاً

سؤال: ما هي السلطات التي تستندون عليها لتعزيز ما تقولونه عن ثيوصوفيي الإسكندرية القدماء؟

الثيوصوفي: على عدد كبير جداً من المؤلفين المعروفين وأحدهم هو موشيم الذي يقول:

[كان أمونيوس يُعلم أن دين الناس مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالفلسفة، وبما أن هذه، قد فُسِدَت تدريجياً وظلت غامضة نتيجة آراء بشرية بحتة وخرافات وأكاذيب، وأنه كان لا بد من استعادتها إلى نقاوتها الأصلية بالتخلص من كل هذه الحثالة وشرحها وفقاً للمبادئ الفلسفية، ووفقاً له أيضاً، فإن كل ما كان في ذهن المسيح هو استعادة وترميم حكمة القدماء إلى سلامتها ومنزلتها الأولية، ووضع قيود على الامتداد العالمي للخرافات، ووفقاً للحال، لتصحيح أو اجتثاث الأخطاء المختلفة التي تم إدخالها في مختلف الديانات الشعبية].

وهذا بالضبط ما يقوله الثيوصوفيون المعاصرون. ولكن بينما كان الفيلاليثي العظيم مدعوماً ويتلقى المساعدة في عمله من قبل اثنين من آباء الكنيسة وهما، كليمنضس وأثيناغوروس ومن قبل حاخامات الكنيس الفقهاء، ومن قبل فلاسفة الأكاديمية وأولئك من الغيضة، وبينما هو نفسه قد علم عقيدة مشتركة للجميع، لنا نحن، الذين نتبعها بهذه الطريقة، ليس فقط نحن غير معترف بنا، بل أيضاً على العكس من ذلك، نحن مهانون ومضطهدون. وهذا يثبت أن البشر كانوا قبل ألف

لقوانين بلده وأوامر الطبيعة، ولكن هذا الأمر تَطَلب من الحكيم أن يمجد الفكر من خلال التأمل.

وخمسمائة عام، أكثر تسامحاً مما هم عليه في هذا العصر المتنور.

سؤال: هل شجعت الكنيسة آمونيوس ودعمته لسبب أنه على الرغم من هرطقاته، فقد عَلَم المسيحية وكان هو نفسه مسيحياً؟

الثيوصوفي: على الإطلاق. وُلد مسيحياً، لكنه لم يقبل مسيحية الكنيسة. كما يقول المؤلف نفسه [أ. وايلدر في إعادة صياغة موشيم]:

"كان عليه فقط شرح تعاليمه من خلال الالتزام بأعمدة هرمس القديمة، التي عرفها أفلاطون وفيثاغورس من قبله والتي ألهموها لتوضيح فلسفتهم. وجد نفس العقائد في مقدمة الإنجيل بحسب القديس يوحنا، لقد افترض بحق أن هدف يسوع كان أن يستعيد في سلامتها البدئية عقيدة الحكمة العظيمة. واعتبر أن قصص الكتاب المقدس وقصص الآلهة يجب أن تكون أيقونات لتوضيح الحقيقة، أو خرافات بسيطة ينبغي رفضها".

وكما يمكن قراءتها في موسوعة إدنبره:

"لقد أدرك أن يسوع المسيح كان إنساناً ممتازًا و- صديق الله - لكنه ادعى أن هدفه ليس إلغاء عبادة الشياطين تماماً - أي الآلهة - وأنه كان يقترح فقط تنقية الدين القديم".

دين – الحكمة الباطني عبر العصور

سؤال: نظراً لأن أمونيوس لم يكتب شيئاً على الإطلاق، فكيف يمكن التأكد من أنها كانت هذه عقائده؟

الثيوصوفي: لم يترك بوذا ولا فيثاغورس ولا كونفوشيوس ولا أورفيوس ولا سقراط ولا حتى يسوع أي شيء مكتوباً.

ومع ذلك، فإن معظمهم من الشخصيات التاريخية، وعقائدهم كلها وصلت إلينا. كان تلاميذ أمونيوس (من بينهم أوريجينوس وهرينيوس) هم من كتبوا الأطروحات وشرحوا أخلاقيات معلمهم. هذه الاطروحات هي بالتأكيد تاريخية، إن لم يكن أكثر من كتابات الرسل.

علاوة على ذلك، ترك تلاميذه، أوريجينوس، أفلوطين ولونجين (الذي كان مستشاراً للملكة زنوبيا الشهيرة) جميعهم شهادات ضخمة عن النظام الفيلاليثي، على الأقل إلى الحد الذي كانت فيه شهادتهم الإيمانية معروفة علانية، لأن مدرستهم، كانت تتضمن، إلى جانب العقائد والتعاليم الظاهرية عقائد وتعاليم باطنية.

سؤال - كيف وصلت هذه العقائد إلينا طالما أنك تقول إن ما يُسمى دين - الحكمة كان باطني؟

الثيوصوفي: دين - الحكمة كان دائماً واحد، وبما أنها الكلمة الأخيرة لكل معرفة إنسانية ممكنة، فقد تم الحفاظ عليها بعناية. لقد كانت موجودة منذ أزمان طويلة قبل وجود الثيوصوفيين الإسكندرانيين، واستمرت حتى يومنا هذا، وسوف تستمر بعد زوال كل الديانات والفلسفات الثانية.

سؤال: أين تم حفظه ومن قبل من؟

الثيوصوفي: في دائرة من المساررين من كل البلدان: بين الباحثين العميقين عن الحقيقة - تلاميذهم - وفي أجزاء من العالم حيث كانت هذه الموضوعات موضع تقدير دائم قبل كل شيء وفي تعميقها: في الهند وآسيا الوسطى وبلاد فارس.

سؤال - هل يمكنك أن تعطيني دليل على باطنيتها؟

الثيوصوفي: أفضل دليل يمكنك الحصول عليه هو في الواقع أن العبادة الدينية - أو بالأحرى الفلسفية - تضمنت في العصور القديمة تعاليم باطنية، أو سرية، وعبادة ظاهرية (أو خارجية وعامة). علاوة على ذلك، من الحقائق المعروفة أن أسرار القدماء قد قُسمت، في جميع الدول، إلى أسرار "كبيرة" (سرية)، وإلى أسرار "ثانوية" (عامة)، كما هو الحال، على سبيل المثال، في الشعائر الشهيرة المسماة "الألوسينية" في اليونان. منذ الأبطال الهيروفان في ساموثراس أو مصر، فإن البراهمانيين المساررين في الهند القديمة إلى الربانيين

العبريين كلهم، قد أخفوا معتقداتهم الحقيقية عن عامة الناس تحت غطاء السرية خوفاً من تدنيسها.

أعطى الربانيين[13] اليهود نظريتهم الدينية العلمانية اسم ميركافا (أو الجسم الخارجي)، أي "المركبة"، أو الغلاف الذي يحوي النفس الخفية، وبعبارة ثانية، المعرفة السرية السامية لهؤلاء الربانيين. ولم يحدث على الإطلاق، في أي أمة من العصور القديمة، أن كشف الكهنة للجماهير عن الأسرار الفلسفية الحقيقية، لم يعطوهم سوى الغلاف الخارجي.

تمتلك البوذية الشمالية مركباتها "الكبرى" و "والصغرى" والمعروفة باسم ماهايانا (المدرسة الباطنية) وهينايانا (المدرسة الظاهرية). لا يمكن إلقاء اللوم عليهم بسبب هذه السرية، لأنه لن يخطر بفكركم إطعام خرافكم بمقالات مأخوذة من علماء النبات بدلاً من العشب الذي يناسبها. فيثاغورس دعا غنوصه "معرفة الموجودات[14]" واحتفظ بها لتلاميذه المحلفين فقط، الذين يمكنهم استيعاب مثل هذا الغذاء العقلي والرضى به. وكان يلزم تلاميذه، تحت قسم اليمين، بالصمت والسرية.

الأبجديات الباطنية والرموز العددية السرية مُستمدة من الكتابات الهراطيقية المصرية القديمة، والتي كان مفتاحها في السابق في حيازة العلماء الكتبة المقدسين أو الكهنة المصريين المساررين. كما يخبرنا مدوني سيرة حياته، فقد لَزَمَ أمونيوس ساكاس تلاميذه تحت قسم اليمين، بعدم الكشف عن عقائده

---

[13] يُطلق على رجل الدين اليهودي اسم – رابي – أو حاخام.

[14] "ή γνωσιζ των όντων".

العليا لأحد باستثناء أولئك الذين تلقوا بالفعل تعاليم في المعرفة الأولية والذين أقسموا اليمين. أخيراً، ألا نجد الأمر نفسه في التمييز بين العقائد السرية والعقائد العامة في المسيحية الأولية، وبين الغنوصيين، وحتى في تعاليم المسيح؟ ألم يتحدث يسوع إلى الجموع بأمثال ذات معنيين[15] وألم يحتفظ بالتفسير الغيبي لتلاميذه وحدهم؟ قال لهم: "لقد أُعطي لكم معرفة أسرار ملكوت الله، ولكن بالنسبة لباقي الناس، فكل شيء يلقى إليهم برموز وأمثال". (انجيل مرقس، 4، 11). قام جوهر تعاليم طائفة الأسينيين في اليهودية وجبل الكرمل، على التمييزات المماثلة من خلال تقسيم أعضائهم إلى مبتدئين وإخوة وكاملين أو مساررين (أ، ويلدر - المصدر المذكور). يمكن ذكر أمثلة مماثلة من جميع البلدان.

سؤال: هل يمكن الوصول إلى "الحكمة السرية" من خلال الدراسة وحدها؟ الموسوعات تُعَرِف الثيوصوفيا بنفس طريقة موسوعة ويبستر على وجه التقريب "اتصال مزعوم مع الله ومع أرواح عليا، ويترتب على ذلك، اكتساب المعرفة الخارقة عن طريق الوسائل الفيزيائية والعمليات الكيميائية". فهل هذا الأمر صحيح؟

الثيوصوفي: لا أعتقد ذلك. وليس هناك معجمي يمكنه أن يشرح لنفسه أو للآخرين كيف يمكن الحصول على المعرفة التي تتجاوز معرفة البشر عن طريق الطرق الفيزيائية أو الكيميائية. لو قال وبستر "بواسطة العمليات الميتافيزيائية والخيميائية"، لكان تعريفه صحيحاً تقريباً، ولكن حسب تقديمه

---

[15] معنى تعليمي إصلاحي ظاهري، ومعنى باطني غيبي.

لها، فإنه أمر منافٍ للعقل. أكد الثيوصوفيين القدامى كما يفعل المعاصرين، على أنه لا يمكن لما هو لانهائي أن يُعرف من قبل ما هو منتهي، أي ما يمكن أن تدركه الذات المتناهية، بل يمكن توصيل الجوهر الإلهي إلى الذات الروحية العليا في حالة الانخطاف الروحي[16]. لا يمكن الوصول إلى هذه الحالة، على عكس التنويم المغناطيسي، عن طريق "الوسائل الفيزيائية والكيميائية".

سؤال: ما هو التعريف الذي تقدمه عن الانخطاف الروحي؟

الثيوصوفي: وفقاً لتعريف فلوطين، فإن الانخطاف الحقيقي هو "الحالة التي يتحرر فيها العقل من وعيه المحدود ويتواصل مع اللامتناهي عن طريق التوحد به". يقول البروفيسور وايلدر إنها أعلى حالة يمكن للإنسان تحقيقها لكن ليس بحالة دائمة ولا يستطيع سوى عدد قليل جداً من الأفراد القيام بذلك. في الواقع، هذه الحالة مماثلة لتلك المعروفة في الهند تحت اسم سمادهي. تُمارس هذا الأخيرة من قبل اليوغيين، الذين يسهلونها جسدياً بأقصى قدر ممكن من الامتناع عن الطعام والشراب، وعقلانياً من خلال جهد متواصل لتنقية ورفع الفكر.

التأمل هو صلاة صامتة غير منطوقة عَرَفها أفلاطون بأنها "توق الروح المضطرم إلى الإلهي" لا تطلب فيها خيراً معيناً (وفقاً للمعنى الذي ينسب عادةً للصلاة)، ولكن من أجل الصلاح نفسه - الخير الأسمى الكوني الذي نحن جميعاً جزء منه على

---

[16] الانخطاف الروحي، الوجد، النشوة.

الأرض، والذي جوهره هو المصدر الذي نحن منه قد خرجنا جميعاً. لهذا السبب، يضيف أفلاطون: "كن صامتاً في حضور الكائنات الإلهية، حتى تبدد غيوم عينيك وتجعلك قادراً على الرؤية، لصالح النور المنبعث منهم من رؤية ما هو خير بحكم طبيعته، وليس ما يبدو خيراً في نظرك أنت[17]".

سؤال: إذاً الثيوصوفيا ليست، كما يزعم البعض نظاماً تم اختراعه حديثاً؟

الثيوصوفي: الجهلة وحدهم يستطيعون أن يقولوا ذلك. إنها قديمة قدم العالم، إن لم يكن بالاسم، فعلى الأقل بسبب تعاليمها وأخلاقها، كما أنها النظام الأشمل والأكثر استقامة على الإطلاق.

---

17 هذا ما يصفه المؤلف الأكاديمي للكتاب المنوه عنه عدة مرات، الأستاذ أ. وايلدر، بـ "التصوير الروحي": "الروح هي الغرفة المظلمة التي يتم فيها تثبيت الحقائق والأحداث، في المستقبل، والماضي والحاضر، والعقل يدرك ذلك. خارج عالمنا اليومي المحدود، كل شيء يشبه يوم واحد، أو حالة واحدة، حيث يتم تضمين الماضي والمستقبل في الحاضر (...). الموت هو النشوة القصوى على الأرض. ثم تتحرر الروح من قيود الجسد ويتحد الجزء النبيل مع الطبيعة العليا ويشارك الحكمة والتعلم المسبق للكائنات العليا ". إن الثيوصوفيا الحقيقية هي، بالنسبة للسرانيين، الحالة التي يصفها أبولونيوس الثياني في هذه المصطلحات: "أستطيع أن أرى الحاضر والمستقبل كمرآة واضحة. لا يتعين على الإنسان الحكيم انتظار أبخرة الأرض ولا فساد الهواء لتوقع الأحداث (...). الثيوي، أو الآلهة، ترى المستقبل، البشر العاديين، يرون الحاضر الحكماء يرون ما هو على وشك الحدوث". عبارة "ثيوصوفيا الحكماء" التي يتحدث عنها جيداً، تُرجمت من خلال التعبير "ملكوت الله فينا".

سؤال: كيف إذن، ظلت الثيوصوفيا غير معروفة لهذه الدرجة لأمم نصف الكرة الغربي؟ لماذا بقيت كتاباً مختوماً للأجناس البشرية التي بكل المقاييس هي الأكثر ثقافة والأكثر تقدماً؟

الثيوصوفي: نحن نؤمن أنه كانت هناك أمم مثقفة ذات يوم وبالتأكيد كانت أكثر "تقدماً" روحياً مما نحن عليه الآن. ولكن هناك العديد من الأسباب لهذا الجهل المتعمد. يقدم القديس بولس واحدة منها إلى الأثينيين المثقفين، مستحضراً الخسارة لعدة قرون لكل الحدس الروحي الحقيقي وحتى لأي اهتمام بأشياء الروح، بسبب الاهتمام الحصري لأشياء الحواس. والوقوع في عبودية طويلة تحت نير الحرف الميت للعقيدة والطقوس. ولكن السبب الأساسي هو أن الثيوصوفيا الحقيقية كانت دائما سرية.

سؤال: لقد زودتنا بأدلة على السرية التي أبقيت حول هذه العقائد، لكن لماذا هذا الكتمان والسرية في الحقيقة؟

الثيوصوفي: كانت الأسباب على النحو التالي: أولاً، إنحراف الطبيعة الإنسانية بشكل عام، وأنانيتها كانتا تدفعان دائماً البشر العاديين إلى تلبية رغباتهم الشخصية، على حساب زملائهم وأقاربهم، لذلك كان من المستحيل أن تُعطى أسرار إلهية لنظير هؤلاء الأفراد. ثانياً، لا يمكن الوثوق بهم للحفاظ على المعرفة المقدسة والإلهية من التدهور. علاوة على ذلك، هذا السبب الأخير هو الذي كان في أصل تحريف أكثر الحقائق والرموز تسامياً، وكذلك التحول التدريجي للأشياء الروحية إلى تمثلات ومظاهر مجسمة وملموسة. إنها بكلمات ثانية، هي التي أدت إلى ابتذال فكرة الإلهي وفتح الباب أمام عبادة الأصنام.

الثيوصوفيا ليست البوذية

سؤال: غالباً ما يُطلق عليكم اسم "البوذيين الباطنيين". هل أنتم جميعاً تلاميذ غوتاما بوذا؟

الثيوصوفي: ليس أكثر من أن جميع الموسيقيين هم من تلاميذ فاغنر. بعضنا هم بوذيين بسبب دينهم، ومع ذلك، هناك عدد أكبر بكثير من الهندوس والبراهمان من البوذيين بيننا وحتى أنه هناك أكثر من الأوروبيين والمسيحيين المولودين مسيحيين من البوذيين المهتدين. ينبع الخطأ من سوء تفسير المعنى الحقيقي لاسم عمل السيد سينيت الممتاز: البوذية الباطنية[18]. هذا المصطلح ينبغي أن يكون مكتوباً البودهية[19] مع حرف "د" واحد بدلاً من اثنين[20]، لأنه بعد ذلك كانت ستعني البودهية كما كان يعني أن يقول عنها، وهذا يعني "الحكمة" (بودها، بودهي "الذكاء" "الحكمة") بدلاً من البوذية، فلسفة غوتاما الدينية. بالنسبة للثيوصوفيا، كما قلت سابقاً، هي دين – الحكمة.

---

[18] A.P. Sinnett, Esoteric Buddhism, Londres.
[19] Boudhisme.
[20] Bouddhisme.

سؤال: ما هو الفرق بين البوذية[21]، الديانة التي أسسها أمير كابيلافاستو، والبودهية[22] "الحكمة"، والتي كما قلت للتو مرادفة للثيوصوفيا؟

الثيوصوفي: بالضبط نفس الشيء في الفرق بين الطقوس واللاهوت العقائدي للكنائس والطوائف، وبين تعاليم المسيح السرية، والتي تُسمى "أسرار ملكوت السماء". بوذا يعني "المستنير" والمشتقة من بودها[23]، أو الفهم والإدراك والحكمة. وهب هذا النسغ للتعاليم الباطنية التي قدمها غوتاما فقط للآرهات[24] الذين اختارهم.

سؤال: لكن بعض المستشرقين ينكرون أن بوذا قد علم أي عقيدة باطنية.

الثيوصوفي: يمكنهم كذلك انكار أن الطبيعة لها أسرارها بالنسبة لرجال العلم. سأثبت ذلك لاحقاً من خلال التذكير بالمحادثة التي أجراها بوذا مع تلميذه أناندا. كانت تعاليمه الباطنية ببساطة غوبتا فيديا (المعرفة السرية) للبراهمانيين القدماء، المعرفة التي فقد مفتاحها خلفاؤهم المعاصرون باستثناء القليل منهم. أما بالنسبة لهذه الفيديا[25] نفسها، فقد

---

[21] **Bouddhisme.**

[22] **Boudhisme.**

[23] **Bodha.**

[24] **الآرهات هم التلاميذ المتقدمين بالروح وهم على مقربة من مرتبة المسارر أو الحكيم.**

[25] **Vidyâ.**

اتخذت شكل ما يُسمى الآن العقائد الداخلية لمدرسة ماهايانا[26] للبوذية الشمالية.

أولئك الذين ينكرون ذلك هم فقط المستشرقون الجاهلون. أنصحك بقراءة البوذية الصينية للكاهن ج. إدكينز[27]- وخاصة الفصول المتعلقة بالمدارس الظاهرية والباطنية وتعاليمهما ودراسة شهادة كل العالم القديم حول هذا الموضوع.

سؤال: ولكن أليست أخلاق الثيوصوفيا مطابقة لتلك التي علمها بوذا؟

الثيوصوفي: بالتأكيد، لأن هذه الأخلاق هي روح دين - الحكمة، ولأنها كانت ذات يوم ملكاً مشتركاً لكل المساررين في جميع الأمم. لكن بوذا كان أول من أدخل هذه الأخلاق السامية في تعاليمه المقدمة للجميع، وجعلها أساس وجوهر نظامه العام. وهذا هو ما يجعل الفرق شاسع بين البوذية الظاهرية وجميع الديانات الأُخرى. في هذه الديانات، فإن الطقوس والعقائد تحتل المركز الأول، بينما في البوذية كان التركيز دائماً بشكل أكثر على الأخلاق. هذا ما يفسر التشابه، الذي يصل تقريباً إلى نقطة التماثل، بين أخلاقيات الثيوصوفيا وبين دين بوذا.

سؤال: هل هناك اختلافات مهمة بينهما؟

---

[26] Mahâyâna.

[27] J. Edkins, Chinese Buddhism. (Le Bouddhisme chinois), Londres 1870 ; 2e édition révisée, Londres : K. Paul, Trench, Trübner & Co, 1893 (المترجم)

الثيوصوفي: واحدة من أعظم الاختلافات بين الثيوصوفيا وبين البوذية الظاهرية، هي أن هذه الأخيرة، ممثلة بكنيسة الجنوب، تنفي بالمطلق:

أ) وجود أي ألوهية.

ب) أي حياة واعية بعد الوفاة، أو حتى أي فردية ذاتية الوعي قادرة على الاستمرار على قيد الحياة في الإنسان.

هذا، على الأقل، هي تعاليم الطائفة السيامية، التي تُعتبر الآن من أنقى أشكال البوذية الظاهرية. وهكذا هو الأمر، لم يشر للمرء سوى لتعاليم بوذا العامة. سأشرح كذلك لاحقاً سبب تردده.

ومهما كان الأمر، فإن مدارس الكنيسة البوذية الشمالية، التي أُنشئت في البلدان التي انسحب منها الآرهات بعد وفاة المعلم تُعلم كل ما يُسمى الآن بالعقائد الثيوصوفية، لأن هذه هي جزء من معرفة "المسارين" والتي تُظهر كيف تم التضحية بالحقيقة لصالح الحرف الميت من قبل الأرثوذكسية المفرطة في البوذية الجنوبية. ولكن يا للعظمة والارتقاء التي يمكن أن نجدها في هذه العقائد، الأكثر فلسفية، والأكثر نبلاً، وأكثر علمية، حتى لو أخذناها بشكل حرفي، من تلك الموجودة في أي كنيسة أو دين آخر؟ ومع ذلك الثيوصوفيا ليست البوذية.

الباب الثاني

الثيوصوفيا الظاهرية والثيوصوفيا الباطنية

ما ليست عليه الجمعية الثيوصوفية المعاصرة

سؤال: إذاً، ألا تُعتبر عقائدكم تجديداً للبوذية، ولا هي مستعارة بالكامل من الثيوصوفيا الأفلاطونية المحُدثة؟

الثيوصوفي: لا. لكن لا يمكنني أن أقدم لكم إجابة على هذه الأسئلة أفضل من هذا المقطع من دراسة عن "الثيوصوفيا"

التي قدمها الدكتور ج. دي. باك، ع.ج.ث[28] في المؤتمر الثيوصوفي الأخير في شيكاغو (أبريل، 1889). لغاية اليوم لم يُعَبر أوفَهِم أي ثيوصوفي الجوهر الحقيقي للثيوصوفيا بشكل أفضل من صديقنا المحترم، الطبيب باك:

"تأسست الجمعية الثيوصوفية بهدف نشر العقائد الثيوصوفية وتعزيز الحياة الثيوصوفية. الجمعية الثيوصوفية الحالية ليست الأولى من نوعها. لديّ عمل بعنوان - المحاضر الثيوصوفية للجمعية الفيلادلفية -[29] نُشرت في لندن عام 1697، وآخر بعنوان - مدخل إلى الثيوصوفيا، أو علم سر المسيح - أي سر الألوهة والطبيعة والخلق، التي تتضمن فلسفة جميع القوى النشطة للحياة، السحرية والروحية، التي تشكل دليل عملي يؤدي إلى النقاء، والقداسة، والكمال الإنجيلي الأكثر سمواً وكذلك لاكتساب الرؤية الإلهية، والفنون المقدسة والقوى الملائكية كما هو الحال مع قوى التجدد الأُخرى- المجلد المنشور في لندن في عام 1855"[30]. وفيما يلي كلمة الإهداء لهذا العمل:

---

[28] اختصار لجملة "عضو بالجمعية الثيوصوفية"

[29] المحاضرات الثيوصوفية للجمعية الفيلادلفية، لندن (1697). (ملاحظة المترجم).

[30] « Introduction to Theosophy, or the Science of the Mystery of Christ ; that is, of Deity, Nature, and Creature, embracing the philosophy of all the working powers of life, magical and spiritual, and forming a practical guide to the sublimest purity, sanctity, and evangelical perfection ; also to the attainment of divine

"إلى طلاب الجامعات والكليات والمدارس المسيحية، إلى أساتذة العلوم الميتافيزيائية والميكانيكية والطبيعية بجميع أشكالها، وإلى عموم المثقفين الرجال والنساء من مذهب الإيمان الأرثوذكسي القويم، إلى الربوبيين، الآريين الموحدين واتباع سويدنبرغ وأنصار المعتقدات الخاطئة والتي لا أساس لها من الصحة، والعقلانيين، والمشككين من جميع الأنواع إلى المؤمنين بروح الحق المستنير، الذين ينتمون إلى الإسلام واليهودية، وكذلك للأديان الأبوية البطريركية المشرقية، ولكن بشكل خاص لرعاة الإنجيل و للمبشرين الذين يبشرون كل من الشعوب الهمجية والمفكرة، هذه المقدمة عن الثيوصوفيا أو علم الأساس وسر كل شيء، هي مهداة لكم بتواضع ودّ للغاية".

في العام التالي (1856) ظهر مجلد آخر، في قطع ملكي من 600 صفحة، في حروف رباعية فاخرة، بعنوان "مقتطفات ثيوصوفية". تم طباعة هذا الكتاب 500 نسخة فقط تم توزيعها مجاناً على المكتبات والجامعات. هذه الحركات الأولى، التي كانت عديدة، وُلدت في حضن الكنيسة بفضل أشخاص ذوي التقوى والإخلاص العظيمين، ولهم سمعة لا غبار عليها وجميع هذه الكتابات، المتوافقة في شكلها مع الأرثوذكسية القويمة، استخدمت التعبيرات المسيحية، ومثل أعمال الإنسان البارز في الكنيسة وليام لو، كانت ملحوظة للقارئ العادي فقط بجدتها وبتقواها. في تنوعها، كانت كل هذه الحركات تهدف

---

vision, and the holy angelic arts, potencies, and other prerogatives of the regeneration » — Londres (1855) (المترجم).

فقط إلى الكشف عن المعاني العميقة والنطاق الأصلي للكتاب المقدس المسيحي وشرحها على أنها توضح تطور الحياة الثيوصوفية. سرعان ما تم نسيان هذه الكتب وهي غير معروفة بشكل عام. لقد سعت لإصلاح الكهنوت بهدف إيقاظ التقوى الأصيلة، ولم يتم استقبالها بشكل جيد. مجرد إطلاق كلمة "بدعة" عليها كانت كافية لجعلها تقع في غياهب النسيان محفوظة نظير جميع الأعمال الطوباوية من هذا النوع. في زمن الإصلاح قام جان روشلين بمحاولة مماثلة، وحصل على نفس النتيجة، على الرغم من أنه كان صديقاً حميماً للوثر الذي كان يصغي لنصائحه. الأرثوذكسية التقليدية لم ترغب أبداً في الحصول على تعاليم وتنوير.

لقد تم الإيضاح لهؤلاء الإصلاحيين، كما فعل فيستوس لبولس، أن تبحرهم بالعلم قد جعلهم يصابون بالجنون، وأنه سيكون من الخطر بالنسبة لهم الرغبة في الذهاب إلى أبعد من ذلك.

إذا كان أحد يعرف كيفية النظر إلى ما وراء اللغة الخاصة المُستخدمة إلى حد ما، والتي كانت عند هؤلاء الكُتاب، في جزء منها، مسألة عادة وتربية، وجزئياً، للتكيف مع القيود الدينية التي تفرضها السلطة الزمنية. وإذا ذهبنا إلى لبّ الأشياء، نجد أن هذه الكتابات كانت ثيوصوفية، بالمعنى الدقيق للكلمة والمكرسة فقط لمعرفة الطبيعة البشرية والحياة العليا للروح.

لقد قيل أحياناً أن الحركة الثيوصوفية الحالية كانت محاولة لتحويل المسيحية إلى البوذية، مما يعني ببساطة أن كلمة

"بدعة" فقدت كل قوة للترويج. كان هناك دائماً أفراد فهموا بشكل أو بآخر العقائد الثيوصوفية ودمجوها في نسيج حياتهم. هذه العقائد ليست حصرية لأي دين ولا تقتصر على أي مجتمع أو حقبة معينة. إنها تراث جميع النفوس البشرية. كل إنسان مدعو إلى تحديد عقيدة خاصة به، وفقاً لطبيعته واحتياجاته ووفقاً لخبراته المختلفة. هذا قد يفسر لماذا أولئك الذين تخيلوا أن الثيوصوفيا هي دين جديد قد بحثوا عبثاً عن عقيدتها وطقوسها. عقيدتها هي الولاء للحقيقة، وطقوسها هي تكريم كل حقيقة من خلال وضعها موضع التنفيذ.

نفهم من ذلك مدى سوء فهم جموع البشر لمبدأ الأخوية العالمية، وكيف أنه نادراً ما تعترف جموع البشر بأهميتها السامية، وذلك من خلال رؤيتنا لتنوع الآراء والتفسيرات الخيالية التي تدور حول الجمعية الثيوصوفية. تأسست هذه الجمعية على مبدأ واحد: الأخوية الأساسية لجميع البشر، كما تم صياغتها باختصار وتم عرضها بشكل ناقص أعلاه. لقد هوجمت باعتبارها بوذية ومعادية للمسيحية، ولكن يمكن أن تكون الاثنتان على حد سواء، في حين أن البوذية والمسيحية كما كشفها مؤسسوها الملهمون، تجعل الأخوية النقطة الأساسية في عقيدتهم وفي الحياة. تم اعتبار الثيوصوفيا أيضاً شيئاً جديداً تحت الشمس، أو في أحسن الأحوال، كعقيدة سرانية قديمة متنكرة تحت اسم جديد. إذا كان صحيحاً أن العديد من الجمعيات، التي تأسست على مبادئ الإيثار أو الإخاء الجوهري، واتحدت من أجل دعمها، قد حملت أسماء مختلفة فإنه من الصحيح أيضاً أن العديد من المجموعات قد تمت تسميتها ثيوصوفية وكرست نفسها لمبادئ وأهداف

مماثلة لتلك الموجودة في الجمعية الحالية التي تحمل هذا الاسم. في كل هذه الجمعيات المختلفة، كان المبدأ الأساسي هو نفسه، ولم يكن الباقي إلا ثانوياً، ولكن هذا لم يمنع الكثير من الناس من الانجذاب إلى التفاصيل الثانوية وإهمال أو تجاهل الأساسيات.

لا يمكننا إعطاء أفضل إجابة على أسئلتك أو أكثر وضوحاً من هذه التي ندين بها لأحد أكثر الثيوصوفيين تقديراً وإخلاصاً.

سؤال: أي نظام تفضلون أو تنتمون ما عدا النظام الأخلاقي البوذي؟

الثيوصوفي: ولا واحد منها، وإلى جميعها. نحن لا نلتزم بأي دين أو فلسفة على وجه الخصوص، نحن نأخذ ما لدي كلٍ منها ما هو خير. ولكن من المناسب أن يُقال مرة أُخرى أن الثيوصوفيا، مثلها مثل أي نظام آخر من العصور القديمة تنقسم إلى أقسام ظاهرية وباطنية.

سؤال: ما هو الفرق بينهما؟

الثيوصوفي: يتمتع أعضاء الجمعية الثيوصوفية بأوسع المعاني، بحرية التعبير عن أي دين أو فلسفة - أو لا شيء، إن كانوا يفضلون - شريطة أن يكونوا متعاطفين مع هدف واحد (على الأقل) من الأهداف الثلاثة للجمعية وعلى استعداد لوضعه موضع التطبيق (أو) لوضعهم موضع التطبيق.
الجمعية هي منظمة محبة للبشر وعلمية تهدف إلى نشر فكرة الأخوية في الممارسة العملية وليس من الناحية النظرية. يمكن لأعضائها أن يكونوا مسيحيين أو مسلمين، يهود أو فارسيين

أو بوذيين أو براهمانيين، روحانيين أو ماديين المعتقد - لا يهم. لكن كل عضو يجب أن يكون إما فيلانثروبي محباً للبشر أو ضليعاً أو متخصصاً في الأدب الآري وغيره من الآداب القديمة أو باحثاً في مجال الظواهر النفسية.

باختصار، يجب أن يُساهم إن أمكن، في تحقيق واحد على الأقل من أهداف البرنامج. خلاف ذلك، ليس لديه سبب ليصبح "عضواً في الجمعية الثيوصوفية". هؤلاء هم الأشخاص الذين يشكلون غالبية الجمعية الظاهرية، والتي تتكون من أعضاء "منتسبين" و "غير منتسبين[31]". هؤلاء الأعضاء قد يصبحون أو لا يصبحون في الواقع ثيوصوفيين. إنهم أعضاء بفعل أنهم انضموا إلى الجمعية، لكن هذه الجمعية لا تملك القدرة على جعل من لا يمتلك الإحساس بالتناسب الإلهي في الأشياء ثيوصوفياً، أو من يفهم الفلسفة - إذا جاز التعبير عنها بهذه الطريقة - بطريقته الطائفية والأنانية. "صالح من يعمل الصلاح"، هو مَثَل يمكن إعادة صياغته هكذا: "ثيوصوفي هو الذي يُمارس الثيوصوفيا عملياً".

---

[31] العضو "المنتسب" هو الشخص الذي انضم إلى فرع معين من "ج. ث". العضو "غير المنتسب" ينتمي إلى الجمعية بشكل عام، ويحمل دبلوماً من المقر الرئيسي (أديار - مدراس) ولكن ليس له علاقة بأي فرع أو محفل.

الثيوصوفيون وأعضاء "ج. ث"

سؤال: بحسب ما فهمت مما قلته للتوٍ، يمكن أن ينطبق هذا فقط على الأعضاء "العاديين"، الذين لا يلتزمون بقسم اليمين. ولكن ماذا عن أولئك الذين يكرسون أنفسهم للدراسة الباطنية للثيوصوفيا؟ هل هم الثيوصوفيين الحقيقيين؟

الثيوصوفي: ليس بالضرورة، ما لم يثبتوا ذلك. تم قبولهم في المجموعة الداخلية الباطنية وأقسموا على اتباع قواعد النظام الغيبي، بأكبر قدر ممكن من الدقة. إنها مهمة صعبة لأن أول وأهم القواعد هي التجرد الكامل عن الشخصية - مما يعني أن العضو المُحَلف يجب أن يصبح إيثارياً مثالياً، دون أن يفكر على الإطلاق بنفسه، يجب أن ينسى الغرور وفخره من خلال التفكير في خير زملائه، وذلك بدءاً من إخوانه الأصحاب من الدائرة الباطنية. إذا كان يريد أن يستفيد من التعاليم الباطنية

فيجب عليه أن يعيش حياة التعفف في كل شيء، من إنكار الذات، إلى التحلي بالأخلاق التامة، بينما يؤدي واجباته تجاه الجميع. عدد قليل من الثيوصوفيين الحقيقيين في (ج.ث) يتواجدون بين هؤلاء الأعضاء. وهذا لا يعني أنه خارج (ج.ث) والدائرة الباطنية، لا يوجد ثيوصوفيين حقيقيين. لأنه يوجد هناك البعض منهم، وهم أكثر مما يمكن أن نعتقد، وهم بالتأكيد أكثر عدداً من أولئك الذين هم من بين الأعضاء العاديين في (ج. ث).

سؤال: ما الفائدة بعد ذلك من الانضمام إلى هذه الجمعية المسماة ثيوصوفية؟ ما الدافع الذي يمكن الاستناد إليه؟

الثيوصوفي: لا يوجد، إن لم يكن ميزة الحصول على تعليمات باطنية، مع عقائد أصيلة من "دين - الحكمة" وكذلك (إذا تم تطبيق البرنامج الحقيقي بشكل جيد) للحصول على عون كبير من المساعدة والتعاطف المتبادل. الوحدة هي القوة وتؤدي إلى الانسجام، وبذل الجهود المنسقة والمنظمة جيداً تنتج العجائب. هذا هو سر جميع الجمعيات والمجتمعات منذ فجر الإنسانية.

سؤال: ولكن لماذا لا يستطيع، الإنسان المتوازن عقلياً والمصمم في السعي لتحقيق هدفه، لنقل على سبيل المثال فرداً قادراً على بذل الطاقة والمثابرة التي لا تُقهر، أن يصبح عالماً بالعلوم الغيبية، أو حتى حكيماً، إذا عمل بمفرده؟

الثيوصوفي: يمكنه ذلك، ولكن هناك عشرة آلاف فرصة لأن يفشل مقابل فرصة واحدة له بأن ينجح. سأقدم لك واحداً فقط من العديد من الأسباب. لا يوجد اليوم أي كتاب عن العلوم الغيبية أو عن الثيورجيا يمكنه أن يكشف بلغة واضحة عن

أسرار الخيمياء أو عن ثيوصوفيا العصر الوسيط. كُلّهم مكتوبين بمصطلحات رمزية، أو بأمثال، وبما أن مفتاح تأويلهم قد فُقِدَ منذ قرون في الغرب، فكيف سيتعلم الإنسان المعنى الحقيقي لما يقرأه ويدرسه؟ هنا يكمن الخطر الأكبر، مع خطورة التحول إلى السحر الأسود اللاواعي، أو الوقوع في الوساطة الأرواحية الأكثر عضالاً.

من ليس لديه مسارر كمعلم، فمن الأفضل له ألا يهتم بدراسة خطيرة للغاية. انظر حولك ماذا ترى؟ في حين أن ثلثي الأشخاص المتحضرين لا يهتمون أبداً بفكرة أن هناك أي شيء يستحق العناء في الثيوصوفيا، العلوم الغيبية، الروحانية، أو القبالة، فإن الثلث الباقي، الذي ليس لديه هذا الاحتقار، يتكون من العناصر الأكثر تجانساً والأكثر تعارضاً. يعتقد البعض في الجانب الباطني السراني وحتى بالجانب الفائق للطبيعة (!) ولكن كلٍ بطريقته الخاصة. يندفع آخرون بتهور بمفردهم إلى دراسة القبالة، أو النفسانية، أو المسمرية، أو الروحانية، أو أي شكل آخر من أشكال التصوف والسرانية. النتيجة: لا يوجد شخصان يفكران بنفس الطريقة، أو متوافقان على أي من المبادئ الأساسية للعلوم الغيبية، على الرغم من أن هناك الكثير ممن يزعمون أنهم عثروا على المعرفة النهائية، والذين يودون أن يظهروا في عيون عامة الناس بأنهم حكماء كاملين.

لا توجد معرفة علمية ودقيقة عن العلوم الغيبية يمكن الوصول إليها في الغرب - ولا حتى علم التنجيم الحقيقي، الفرع الوحيد من العلوم الغيبية الذي لديه، في تعاليمه الظاهرية، نظام وقوانين محددة، ولكن لا أحد لديه أي فكرة عن معنى العلوم الغيبية الحقيقية. البعض يحد من الحكمة القديمة بالقبالة

والزوهار اليهودي، والذي يفسره كل واحد بطريقته الخاصة باتباع الحرف الميت من الأساليب الحاخامية.

البعض الآخر يعتبر سويدنبورج، أو بوهم، بأنهم الممثلين لأسمى درجات الحكمة، بينما لا يزال آخرون يجدون في المسمرية السر العظيم للسحر القديم. بدون استثناء، فإن كل من وضعوا نظرياتهم موضع التنفيذ، فإنه سرعان ما ينتهي بهم الأمر، بسبب جهلهم، إلى الوقوع في السحر الأسود. محظوظين أولئك الذين ينجون من ذلك، لأنهم لا يمتلكون أي اختبار أو معيار يسمح لهم بالتمييز بين الصواب والخطأ.

سؤال: هل من الضروري أن نفهم أن المجموعة الباطنية من (ج.ث) تدعي أنها تتلقى معارفها من حكماء حقيقيين أو من معلمي الحكمة الباطنية؟

الثيوصوفي: ليس مباشرة. الوجود الشخصي لمثل هؤلاء المعلمين ليس ضرورياً. يكفي أن يعطوا إرشادات لبعض أولئك الذين درسوا لسنوات تحت إشرافهم، والذين كرسوا حياتهم كلها لخدمتهم، وهؤلاء بدورهم يمكن أن ينقلوا المعرفة المكتسبة للآخرين الذين لم تتح لهم هذه الفرصة. الأفضل هو حيازة جزء من العلم الحقيقي، وليس كتلة من علم واسع الاطلاع مُساء فهمه واستيعابه. أوقية من الذهب أفضل من طن من الغبار.

سؤال: لكن كيف تعرف إذا ما كانت الأوقية الذهبية هي نقية وليست مجرد تقليد؟

الثيوصوفي: الشجرة تُعرَف من ثمارها، والنظام من نتائجه. عندما يكون خصومنا قادرين على أن يثبتوا لنا أن أي طالب منعزل، من دارسي العلوم الغيبية، كان قادراً على أن يصبح حكيماً قديساً، مثل أمونيوس ساكاس أو حتى أفلوطين أو حتى أنه ثيورجياً مثل جامبليك، أو أنه يمكن أن ينتج حقائق استثنائية من النوع المنسوب إلى سان جيرمان، دون أن يكون هناك أي معلم يوجهه، وكل هذا دون أن يكون وسيطاً أرواحياً أو نفسانياً يخدع نفسه أو مشعوذ، حينها سنعترف بخطأنا.

لكن حتى ذلك الحين، يفضل الثيوصوفيين اتباع القانون الطبيعي المُختبر لتقاليد العلوم المقدسة. هناك سرانيين حققوا اكتشافات كبيرة في الكيمياء وفي العلوم الغيبية - اكتشافات متاخمة للخيمياء والعلوم الغيبية، آخرون، قاموا، بقوة العبقرية المطلقة، بإعادة اكتشاف بعض المقتطفات، إن لم يكن كلها، من الأبجديات المفقودة لـ "لغة الأسرار"، والتي، بالتالي استطاعوا قراءة اللفائف العبرية بشكل صحيح. وهناك غيرهم ممن قد التقطوا، نظراً لكونهم رائين، لمحات رائعة عن أسرار الطبيعة الخفية. لكن كل هؤلاء الناس كنوا اخصائيين. أحدهم مخترع للنظريات، وآخر مخترع للعبرية - في هذه الحالة هو قبالي عبراني طائفي - والثالث هو سويدنبرغ الأزمنة الحديثة الذي يرفض وينفي كل شيء خارج علمه أو دينه الخاص. لكن لا يوجد أحد يستطيع التباهي بأنه حقق مكاسب للعالم، أو حتى للأمة، أو حتى لنفسه.

باستثناء عدد قليل من الشافين - من تلك الفئة التي تنعتها أكاديميات الطب بصفة الشعوذة والدجل - لم يساعد أي منهم الإنسانية بعلمه، ولا حتى الأفراد في مجتمعه. أين هم

الكلدانيون القدامى - أولئك الذين أجروا علاجات شفائية رائعة "ليس بالتعاويذ، بل بالنباتات الطبية البسيطة؟" أين سنرى أبولونيوس تياني جديد، يشفي المرضى ويقيم الموتى، في أي بلد وتحت أي ظرف من الظروف؟ نحن نعرف في أوروبا بعض المتخصصين من الفئة الأولى ولكن ليسوا من الفئة الثانية ما عدا في آسيا، حيث لا يزال يتم الحفاظ على السر المتمثل في ضرورة أن "يعيش اليوغيين في الموت".

سؤال: هل هدف الثيوصوفيا هو إنتاج نظير هؤلاء الحكماء الذين لديهم القدرة على الشفاء؟

الثيوصوفي: لديها العديد من الأهداف، لكن من بينها كلها ومن أهم الأهداف، هي تلك التي يمكن أن تؤدي إلى تخفيف المعاناة الإنسانية، بأي شكل من الأشكال، المعنوية والبدنية. ونحن نعتقد أن المعاناة المعنوية أهم بكثير من المعاناة الجسدية. للثيوصوفيا مهمة وهي غرس الأخلاق، وتطهر النفس، إذا كانت تريد تخفيف معاناة الجسد، الذي تعود علة كل شروره باستثناء حالات الحوادث، إلى منشأ وراثي. ليس من خلال دراسة العلوم الغيبية من أجل غايات أنانية، أو لتلبية طموح شخصي، بدافع الكبرياء أو الغرور، يمكن للمرء أن يحقق الهدف الحقيقي للثيوصوفيا: ألا وهو مساعدة الإنسانية التي تُعاني. كما أنه ليس من خلال دراسة فرع واحد من الفلسفة الباطنية، يمكن أن يصبح المرء عالماً بالغيبيات، بل بدراسته كلها، إن لم يكن عن طريق إتقان كل منها.

سؤال: لتحقيق هذا الهدف الأساسي، هل يتم تقديم المساعدة فقط لأولئك الذين يدرسون العلوم الباطنية؟

الثيوصوفي: على الإطلاق. يحق لكل عضو عادي حسب رغبته، الحصول على الإرشادات الثيوصوفية العامة، لكن هناك القليل ممن هم على استعداد ليصبحوا "أعضاء نشطين" ويفضل معظمهم البقاء يعاسيب الثيوصوفيا. ولكن يجب على المرء أن يعرف أنه يتم تشجيع البحث الفردي في (ج.ث) شريطة ألا يتجاوز الحد الذي يفصل بين الظاهري عن الباطني بين السحر اللاواعي عن السحر الواعي.

الفرق بين الثيوصوفيا والعلوم الغيبية

سؤال: أنت تتحدث عن الثيوصوفيا وعن العلوم الغيبية. فهل هما متطابقان؟

الثيوصوفي: أبداً على الإطلاق. في الواقع يمكن للإنسان أن يكون ثيوصوفياً جيداً، سواء داخل الجمعية أو خارجها، دون أن يكون بأي شكل من أشكال عالماً غيبياً. لكن لا يمكن لأحد أن يكون عالماً غيبياً حقيقياً دون أن يكون ثيوصوفياً حقيقياً في نفس الوقت، وإلا فهو ببساطة ساحر أسود، سواء كان مدركاً لذلك أو غير مدرك.

سؤال: ماذا تقصد بذلك؟

الثيوصوفي: سبق أن أوضحت أنه يجب على الثيوصوفي الحقيقي أن يضع موضع التطبيق أعلى المُثل الأخلاقية، وأن يعمل جاهداً على تحقيق وحدته مع البشرية جمعاء، وأن يعمل باستمرار دائم من أجل الآخرين. من الواضح أنه إذا لم يقم عالم الغيبيات بكل هذه الواجبات، فإنه يتصرف حتماً بطريقة أنانية لمصلحته الشخصية، وإذا اكتسب قوة أكثر قابلية للاستخدام من الناحية العملية أكثر من البشر الآخرين، فإنه يصبح، بسبب ذلك في الواقع، عدواً أكثر خطورة على العالم وعلى من حوله، من الأشخاص العاديين. وهذا واضح.

سؤال: إذاً، هل يكون عالم الغيبيات مجرد إنسان يتمتع بقوة أكبر من الآخرين؟

الثيوصوفي: بل أكثر من ذلك في الواقع، إذا كان حقاً عالماً بالغيبيات مستنيراً وضليعاً في ممارسة فنه وليس مجرد عالم بالغيبيات بالإسم. العلوم الغيبية ليست كما تصفها الموسوعات "علوم وهمية تعود إلى العصور الوسطى، التي تتناول الفعل أو التأثير المفترض للمزايا الغيبية، أو القوى الخارقة للطبيعة مثل السحر، الخيمياء، استحضار الأرواح والتنجيم".

على العكس من ذلك، فهي علوم حقيقية وواقعية وخطيرة للغاية. إنها تُعَلم القوة السرية للأشياء في الطبيعة، بتطويرها للقوى الخفية "الكامنة في الإنسان" وتنميتها، مما يمنحه مزايا هائلة على البشر الأكثر جهلاً منه. التنويم المغناطيسي الذي أصبح الآن واسع الانتشار وموضوع البحث العلمي الجاد، هو مثال جيد. لقد تم اكتشاف القوة المنومة بالصدفة تقريباً، بمجرد أن مهدت لها المسمرية الطريق.

الآن، يمكن لمنوم مغناطيسي ضليع أن يستخدمها تقريباً لأي غرض من الأغراض، بإجباره إنسان على فعل سلوك لاشعوري منه بمجرد إيحاء لعمل سلوك مثير للضحك وصولاً إلى فعل ارتكاب الجريمة ويكون بأغلب الأحيان بالنيابة عن المنوم المغناطيسي ولمصلحته. أليست هذه القوة رهيبة وخطرة إذا تركناها في أيدي أشخاص عديمي الضمير؟ وحتى الآن، تذكر أن التنويم المغناطيسي هو فرع واحد فقط من الفروع الثانوية للعلوم الغيبية.

سؤال: ولكن أليست كل هذه العلوم الغيبية، مثل السحر والشعوذة، معتبرة من أكثر البشر ثقافة وتعلماً، بأنها بقايا تشهد على الجهل والخرافات القديمة؟

الثيوصوفي: اسمح لي أن أشير إلى أن ملاحظتك هي ذات حدين. يُعتبر البشر "الأكثر ثقافة وتعليم" بينكم، أن المسيحية وكذلك أيضاً جميع الديانات الأُخرى، هي كأثر من الجهل والخرافات. مهما كان الأمر، فقد بدأ الناس الآن يؤمنون بالتنويم المغنطيسي، والبعض بالأرواح، وحتى بين الأكثر ثقافة، يؤمنون بالثيوصوفيا والظواهر. لكن من بينهم باستثناء الدعاة والمتعصبين العميان، سوف يعترف بأنه يؤمن بمعجزات الكتاب المقدس؟ هذا هو الاختلاف. يمكننا أن نجد ثيوصوفيين جيدين وحقيقيين يؤمنون بما هو خارق للطبيعة بما في ذلك بالمعجزات الإلهية، ولكن لا يوجد أي عالم بالغيبيات يؤمن بذلك. لأن عالم الغيبيات يمارس الثيوصوفيا العلمية، المبنية على المعرفة الدقيقة للعمليات السرية للطبيعة. في حين أن الثيوصوفي الذي يستخدم القوى غير الطبيعية المزعومة، دون أن يكون لديه نور العلوم الغيبية، سوف يميل ببساطة نحو شكل خطير من الوساطة الأرواحية، لأنه، رغم تمسكه بالثيوصوفيا، وبأخلاقياتها التي هي الأكثر تسامياً مما يمكن أن يدركها، فإنه يمارسها بشكل أعمى، ويدعمها بإيمان صادق ولكنه أعمى.

رغم أنه كل من، الثيوصوفي أو الأرواحي، يحاولان أن ينميا أحد فروع العلم الغيبي - مثل التنويم المغنطيسي، أو المسمرية، أو حتى فن الوسائل السرية لإنتاج الظواهر الفيزيائية، إلخ، ولكن من دون امتلاك معرفة التفسير المنطقي لهذه القوى، فإنه يشبه القارب بدون دفة يتلاطم بالمحيط المتموج.

الفرق بين الثيوصوفيا والأرواحية

سؤال: لكن ألا تؤمنون بالأرواحية؟

الثيوصوفي: إذا كنت تعني بـ "الأرواحية" التفسير الذي قدمه الأرواحيين لظواهر معينة غير طبيعية، فإننا بالتأكيد لا نعتقد بها. إنهم يدعون، في الواقع، أن جميع هذه التجليات تنتجها "أرواح" أشخاص، وعادة ما يكونون آباؤهم، الذين غادروا هذا العالم ويعودون إليه، بزعم أنهم يتصلوا بأولئك الذين يحبونهم، أو بأولئك المتعلقين بهم. نحن نرفض تماماً هذه الفكرة على الإطلاق. نحن نؤكد أن أرواح الموتى لا يمكنها العودة إلى الأرض، إلا في حالات نادرة واستثنائية من المحتمل أن أتحدث عنها بدون شك لاحقاً. علاوة على ذلك إنهم لا يتواصلون أكثر مع البشر، إلا من خلال وسائل ذاتية بحتة. ما يظهر بموضوعية هو فقط شبح الإنسان المادي السابق. أما فيما يتعلق بالأرواحية النفسية، وإذا جاز التعبير "الروحية" فنحن نعتقد في ذلك بالتأكيد.

سؤال: هل تنكرون الظواهر أيضاً؟

الثيوصوفي: بالتأكيد لا، باستثناء حالات الاحتيال المتعمد.

سؤال: كيف تفسرها إذاً؟

الثيوصوفي: بعدة طرق. أسباب التجليات من هذا النوع ليست على الإطلاق بهذه البساطة كما يود الأرواحيين أن

يؤمنوا بها. أولاً، عادةً ما تكون "الإله المنُزل بواسطة آلة"[32] لما يُسمى بـ "التجليات المزعومة" هو عادة الجسم النجمي أو "النموذج - القرين" للوسيط الأرواحي أو أحد مساعديه. هذا الجسم النجمي هو أيضاً السبب أو القوة النشطة التي تعمل في ظواهر الكتابة على لوحة، والتجليات من نوع "دافنبورت"[33] إلخ.

سؤال: أنت تقول "بشكل عام"، لكن ما الذي ينتج عن الظواهر الأُخرى؟

الثيوصوفي: هذا يعتمد على طبيعة التجليات. في بعض الأحيان تكون البقايا النجميّة، البقايا أو "القواقع" التي تُركت في كاما لوكا[34] من شخصيات قد اندثرت. وفي أوقات ثانية هي عنصريات. كلمة "روح" لها معنى واسع ومتعدد. أنا حقاً لا

---

[32] Le deus ex machina.
هذه العبارة تذكرنا بالمسرح القديم، حيث تم استخدام جهاز ميكانيكي لإظهار الإله بطريقة مذهلة في نظر الجمهور من أجل حل موقف صعب. بشكل عام، بلافاتسكي تستخدم هذا التعبير بمعنى وكيل أو تأثير شخصية غير معروفة تتدخل لإنتاج تأثير "عجائبي " ظاهري. (المترجم).

[33] كان الشقيقان دافنبورت وسيطان أرواحيان، وقد جاء في كتاب السيدة بلافاتسكي إيزيس مكشوفة النقاب إنهما خرجا من السجن بدون ذكر تفاصيل إضافية. إنما في المجلد الثالث من الأعمال الكاملة، ص 15، في مقال بعنوان "الفيزياء التجاوزية" (ظهر في المجلد الثاني من مجلة الثيوصوفي، شباط 1881) نقرأ، بعد تعداد للظواهر التي يُحدثها الوسطاء الأرواحيون، ما يلي: "[...] كان الشقيقان دافنبورت يبديان أيادي منفصلة عن نافذة حجرتهما، وآلات موسيقية تطير عبر الجو [...]". (المترجم).

[34] منطقة في العالم النوراني حيث تتفكك الأجساد النورانية للأموات.

أعرف ما الذي يعنيه الأرواحيين بهذا المصطلح، ولكن إذا فهمنا ما يقولون، فإن الظواهر الفيزيائية هي نتاج الأنا أو الإيغو المتجسدة من جديد، "الفردية" الروحية الخالدة. هذا افتراض نرفضه تماماً. لأن الفردية الواعية للكائنات غير المتجسدة لا يمكن أن تتجسم وتتمظهر، ولا يمكنها أن تترك مجالها العقلي الخاص بديفاخان[35]، للعودة للمستوى الموضوعي الأرضي.

سؤال: ومع ذلك، فإن العديد من الاتصالات الواردة من "الأرواح" تشهد ليس فقط على الذكاء بل أيضاً على معرفة الحقائق التي يتم يجهلها الوسيط الأرواحي والتي لا تتواجد أحياناً بوعي في ذهن المحقق ولا في ذهن أي من الحضور.

الثيوصوفي: هذا لا يثبت بالضرورة أن الذكاء والمعرفة التي تتحدث عنها ينتميان إلى أرواح، أو ينبعان من نفوس غير متجسدة. هناك حالات للسائرين في نومهم الذين قاموا، في حالة نشوة اصطناعية[36]، بتأليف الموسيقى والشعر، وحل المشكلات الرياضية، دون أن يدرسوا الموسيقى أو الرياضيات. أجاب آخرون بذكاء على الأسئلة المطروحة عليهم وحتى في كثير من الحالات تحدثوا لغات مختلفة، مثل العبرية واللاتينية، والتي كانوا يجهلونها تماماً في حالة اليقظة - كل

---

[35] هي منطقة تدخلها الإيغو لتنال الغبطة المؤقتة قبل تقمصها من جديد على الأرض، وهي تشبه من بعيد السماء في الديانات الإبراهيمية، ولكنها حالة مؤقتة.

[36] الوقوع في حالة غيبوبة اصطناعية.

ذلك في حالة النوم العميق. هل تؤكد، مع ذلك، أن كل هذا كان عمل "أرواح"؟

سؤال: ولكن كيف تفسرها إذن؟

الثيوصوفي: نحن نؤكد على أن الشرارة الإلهية في الإنسان هي، في جوهرها واحدة مع الروح الكونية، ومماثلة لها، إن "ذاتنا الروحية" هي كلية العلم عملياً، لكنها لا تستطيع إظهار معرفتها بسبب العقبات التي تعارضها المادة. وبالتالي، كلما تم تقليل هذه العقبات - بمعنى آخر، كلما أصبح الجسم المادي مشلولاً في نشاطه ووعيه المستقل، كما يحدث في النوم أو في حالة نشوة عميقة، أو في حالة المرض - كلما زادت قدرة الذات الداخلية على إظهار نفسها بشكل مثالي في هذا المستوى. هذا هو تفسيرنا للظواهر الرائعة حقاً في الرتب العليا، والتي تشهد بلا شك على وجود الذكاء والمعرفة. أما بالنسبة للتجليات ذات الترتيب الأدنى، مثل الظواهر الفيزيائية والتوجهات المبتذلة والحديث عن "الروح" بشكل عام فسيكون من الضروري، لشرح أهم تعاليمنا عنها فقط،، وجود مساحة ووقت أكبر لا يمكننا تكريسهم لهم الآن.

علاوة على ذلك، ليست لدينا رغبة في التدخل في معتقدات الأرواحيين، أكثر من التدخل بأي معتقد آخر. بالنسبة لأولئك الذين يؤمنون "بالأرواح"، يجب أن تقع مسؤولية إثبات البرهان، والالتزام بتقديم الأدلة. في الوقت الحاضر، على الرغم من أنهم ما زالوا مقتنعين بأن تجليات النظام الأعلى تحدث من خلال تدخل النفوس غير المتجسدة، فإن أكثر علماء الأرواحية نفوذاً، فضلاً عن أكثرهم تعليماً وذكاء، هم أول من

يعترف بأنه لا يجب أن تُعزى كل هذه الظواهر إلى الأرواح. بمرور الوقت، سوف يتوصَّلون تدريجياً إلى الإقرار بالحقيقة كلها. ولكن في الوقت نفسه، ليس لدينا الحق ولا الرغبة في العمل على إهدائهم إلى وجهة نظرنا. والأهم من ذلك، هو موقفنا نفسه فيما يخص الظاهرات النفسانية والروحانية البحتة حيث نؤمن بإمكانية اتصال روح الإنسان الحي مع روح الشخصيات غير المتجسدة[37].

سؤال: هذا يعني أنكم ترفضون فلسفة الأرواحية برمتها؟

---

[37] نقول في مثل هذه الحالات أنْها ليست أرواح الموتى هي التي تنزل على الأرض، بل أن أرواح الأحياء هي التي تصعد إلى النفوس الروحانية النقية. والحق إنه ليس هناك ثمة صعود ولا نزول، إنما هو تغيير في حالة الوسيط أو وضعه النفسي. إذ إن جسمه يصاب بالشلل أو "بالغشية"، تنفلت الأيغو الروحية من عقالها وتجد نفسها على نفس مستوى وعي الأرواح غير المتجسِّدة. كذلك فإنه إذا وُجِد انجذاب روحي بين الاثنتين، فإنه يمكنهما التواصل، كما يحدث مراراً في الأحلام. أما الفارق بين طبيعة وساطية وأُخرى غير حساسة فهو التالي: إن روح الوسيط المتحررة تتيسر لها فرصة التأثير على الأعضاء المنفعلة لجسمه المغشي عليه وجعلها تفعل وتنطق وتكتب حسب المطلوب والرغبة. إن بوسع الأنية - الإيغو - أن تجعله يردد كالصدى، باللغة البشرية، خواطر الكيان غير المتجسِّد وأفكاره، بالإضافة إلى أفكارها وخواطرها هي نفسها. لكن البنية غير المستقبِلة وغير الحساسة لشخص وضعي جداً لا يمكن التأثير فيها على هذا النحو. من هنا فإنه، على تعذر وجود إنسان لا تتواصل أنيَّته تواصلاً حراً خلال نوم جسمه مع الذين أحبتهم وفقدتهم، لا تستبقي ذاكرة الشخص عندما يصحو من هذا التواصل أي استذكار للأمر، اللهم إلا ذكره أحلام مبهمة، بسبب من وضعيَّة غلافه الجسماني ودماغه وعدم قابليتهما للتلقي.

الثيوصوفي: طبعاً، إذا كنت تعني بكلمة "فلسفة" نظرياتهم الغشيمة. لكنهم في الحقيقة لا يملكون فلسفة. إن أفضلهم وأشد المدافعين عنهم فكراً وجِدّية يقولون ذلك. أما حقيقتهم الأساسية التي وحدها لا يشوبها عيب، ألا وهي أن الظواهر تجري من خلال الوسطاء الواقعين تحت سلطان قوى وذكاء خفي، فما من أحد ينكرها أو يمكنه إنكارها، اللهم إلا واحد من الماديين العميان من مدرسة هكسلي. أما فيما يخص فلسفتهم فدعني أقرأ لك ما يقول عنهم وعن فلسفتهم محّرر [جريدة] النور القدير الذي لن يجد الأرواحيون نصيراً أحكم أو أوفى منه. إليك ما كتب "م. أ. أوكسُن" أحد الأرواحيين الفلسفيين القلائل، بصدد نقص التنظيم لديهم وتعصُّبهم الأعمى:

"إن إمعان النظر في هذه النقطة هم من الضروري بمكان نظراً لأهميتها الحيوية. لدينا تجربة ومعرفة تصبح كل معرفة بالمقارنة معها طفيفة. الأرواحي العادي يغتاظ إذا تجرأ أحدهم وفنَّد معرفته الواثقة بالمستقبل ويقينه المطلق في الحياة الآتية. فحيث يمدُّ غيره من البشر أيادي واهنة تتلمس طريقها في المستقبل المظلم يسير هو بجسارة كمن يمتلك خريطة ويعرف طريقه، حيث توقف غيره من البشر عند مطمح ورِع أو ارتضوا إيماناً وراثياً، فمن دواعي فخره أنه يعرف ما يكتفون بالإيمان به، وأنه يستطيع بفضل مخازنه الغنية أن يتدارك المعتقدات المتداعية المشيدة على الأمل وحده. إنه رائع في معالجته أقرب آمال الإنسان إلى قلبه. إنه كمن يقول: إنكم تتطلَّعون إلى ما أستطيع أن أبرهن عليه. لقد قبلتم معتقداً تقليدياً فيما أستطيع أن أثبته تجريبياً بحسب أشد مناهج العلم صرامة. المعتقدات القديمة تتداعى اخرجوا منها وكونوا مستقلين. إنها تحوي من البهتان بقدر ما تحوي من الحقيقة. لن يكون شموخ بنائكم ثابتاً مالم

تبنوا على أساس متين من الوقائع التي لا يتطرق إليها الشك. كل المعتقدات تنهار من حولكم. تجنبوا الكارثة واخرجوا منها".

"ولكن حينما يصل الأمر إلى التعامل عملياً مع هذا الشخص الرائع، ماذا تكون النتيجة؟ غريبة جداً ومخيّبة للآمال جداً. إنه شديد الثقة في حجَّته إلى حدِّ أنه لا يكلف نفسه عناء التحقُّق من التأويلات التي يقدِّمها الآخرون لوقائعه. لقد عَنِيَت حكمة العصور بإيجاد تفسير لما يعتبره صواباً مبرهناً عليه. لكنه لا يلقي نظرة عابرة على أبحاثها. إنه حتى لا يتفق مع أخيه الأرواحي كل الاتفاق. إن هذا ليعيد إلى أذهاننا قصة الأسكتلندية العجوز التي شكَّلت مع زوجها "كنيسة". وحدهما كانا يملكان مفاتيح السماوات، أو بالحري وحدها، لأنها "لم تكن واثقة تماماً من جيمي". على النحو نفسه تهز مذاهب الأرواحيين المنقسمة والمعاودة للانقسام والمعاودة لمعاودة الانقسام إلى مالانهاية رؤوسها، و- واحدها غير واثق تماماً من الآخر. وهنا أيضاً تبقى التجربة الجماعية للبشرية حول هذه النقطة صامدة لا تتبدل، ألا وهي أن الاتحاد قوة، والتفرقة مصدر للضعف والفشل. والرعاع، إذ يُدرَّبون وينظَّمون، يصبحون، كتفاً إلى كتف، جيشاً كل جندي فيه ند لمئة من الرجال غير المنظَّمين ممَّن قد يحملون عليه. التنظيم في كل قطاع من النشاط البشري يعني النجاح وتوفير الوقت والمجهود والفائدة والتنمية. أما غياب المنهج ونقص التخطيط والعمل العشوائي والنشاط المتقطِّع والجهد غير المنظَّم كلها يعني الفشل الذريع. إن صوت البشرية ليصادق على هذه الحقيقة. هل يقبل الأرواحي بهذا الحكم ويتصرف وفقاً للنتيجة؟ إنه حقاً لا يفعل. إنه يرفض التنظيم. إنه قانون لنفسه وشوكة في خصر جيرانه".

سؤال: قيل لي إن الجمعية الثيوصوفية تأسست أصلاً من أجل سحق الروحانية والإيمان ببقاء الفردية الإنسانية؟

الثيوصوفي: لقد أسيء افهامك الموضوع، لأن جميع معتقداتنا تستند إلى هذه الفردية الخالدة. ولكن، مثل كثيرين آخرين، أنت تخلط بين الشخصية والفردية. لا يبدو أن علماء النفس الغربيين قد فرقوا بوضوح بين الاثنين. ومع ذلك، فإن هذا الاختلاف بالتحديد هو الذي يوفر المفتاح لفهم الفلسفة الشرقية والذي هو أصل الاختلاف بين التعاليم الثيوصوفية والروحية. يجب أن أعلن هنا، رغم المخاطرة بزيادة العداء ضدنا من قبل بعض الأرواحيين، إن الثيوصوفيا هي الأرواحية النقية والحقيقية[38] في حين أن النظام الحديث الذي تمارسه اليوم الجماهير، والذي يُسمى بنفس الاسم، هو ببساطة المادية المتعالية.

سؤال: يرجى توضيح أفكارك حول هذا الموضوع بوضوح أكثر.

الثيوصوفي: على الرغم من أن عقائدنا تؤكد على تماثل الروح والمادة، إلا أننا نقول إن الروح هي مادة بالكمون، وأن المادة هي ببساطة روح متبلورة (مثلما أن الجليد ليس سوى بخار وقد تكثف وتَصَلَّب)، ونؤكد على أن مصطلح الروح لا يمكن أن يُطَبَق إلا على الفردية الحقة، لأن الحالة الأصلية والأبدية للكل ليست

---

[38]spiritualisme في اللغة الإنجليزية، تم أيضاً استخدام كلمة الروحانية والتي تعني الروحانية، منذ القرن التاسع عشر، بمعنى الأرواحية في الأوساط الأنغلو - ساكسونية، ومن هنا كان الغموض المحدد الذي استخدمته بلافاتسكي هنا لتوضيح التعارض بين الثيوصوفيا والأرواحية. (المترجم).

هي الروح، بل، إذا جاز التعبير أن أقول، هي ما يتجاوز الروح (المادة المرئية والصلبة هي ببساطة تجليها الدوري).

سؤال: لكن ما الفرق بين هذه "الفردية الحقة" وبين "الذات" أو "الإيغو" التي ندركها جميعاً؟

الثيوصوفي: قبل أن أتمكن من الإجابة عليك، يجب أن نتفق على المعنى الذي يجب إعطاءه لـ "الأنا" أو "الإيغو". نحن نميز بين الحقيقة الأولية المتمثلة في الوعي الذاتي، الشعور البسيط بأنني "أنا"، وبين التفكير الأكثر تعقيداً "أنا السيد دوبون" أو "السيدة دوراند". بالنسبة لنا نحن الذين نؤمن بالولادات المتعاقبة لنفس الإيغو -أو ما يُسمى التقمص- فإن هذا التمييز يشكل المحور الأساسي الذي يتم فيه توضيح الفكرة بأكملها.

أنت ترى أن "السيد دوبون" يمثل، في الواقع، سلسلة طويلة من التجارب اليومية التي ترتبط ببعضها البعض بخيط الذاكرة لتشكيل ما يسميه "السيد دوبون" في النهاية - ذاته -. لكن أياً من هذه "التجارب" لا تشكل حقاً "الأنا" أو الإيغو، كما أنها لا تمنح "السيد دوبون" الشعور بأنه ذاته، لأنه ينسى معظم تجاربه اليومية، ولا توفر له الشعور "بالآنية" إلا في حالة ديمومتها. لهذا السبب، نحن، الثيوصوفيين، نميز بين هذه المجموعة من "التجارب" التي نسميها الشخصية الزائفة (لأنها محدودة وعابرة) وبين هذا العنصر في الإنسان الذي يمنحها الشعور ب "أنني أنا" وهو الذي نسميه الفردية الحقة. ونحن نقول إن هذه "الأنا"، أو الفردية، تلعب، على غرار الممثل، العديد من الأدوار على مسرح الحياة[39]. دعنا ندعو كل حياة جديدة من نفس الأنا

[39] انظر (القسم الثامن) "الفردية والشخصية".

على الأرض، أمسية تقضيها على المسرح. في إحدى الأمسيات يظهر الممثل، أو "الأنا"، في دور "ماكبث"، وفي أمسية ثانية في فيلم "شايلوك"، وفي الثالثة هي "روميو"، وفي الرابعة "هاملت"، أو "الملك لير"، وما إلى ذلك، حتى تجتاز دورة التجسد بأكملها. تبدأ "الأنا" رحلة حج حياتها على شكل عفريت أو "جني" تلعب دور كومبارس صامت، إنها جندي، أو خادم أو أحد أعضاء الجوقة، ثم تتسلق الرتب وتلعب "الأدوار المنطوقة" وتكون - أحياناً أدوار مهمة، وأحياناً أدوار لا أهمية لها - حتى تنسحب أخيراً من المسرح، بعد أن تكون قد لعبت دور "بروسبيرو" الساحر.

سؤال: لقد فهمت. أنت تقول إن هذه الأنا الحقة لا يمكن أن تعود إلى الأرض بعد الموت. ولكن إذا كان الممثل قد احتفظ بشعور فرديته، ألا يتمتع بحرية العودة إلى مسرح أفعاله السابقة، إذا كان يرغب في ذلك؟

الثيوصوفي: نقول لا، لأن مثل هذه العودة إلى الأرض لا تتوافق مع أي حالة من الغبطة النقية وغير المختلطة بعد الموت، حيث سأثبت لك ذلك. نقول إن الإنسان يعاني الكثير من البؤس غير المستحق أثناء حياته، سواء كان ذلك بسبب خطأ أولئك الذين يرتبط بهم، أو بسبب بيئته، وأنه من المؤكد أنه يحق له التمتع بحالة مثالية من الهدوء والراحة، إن لم نقل بالغبطة، قبل أن يرزح تحت عبء الحياة من جديد. ولكننا سنكون قادرين على دراسة هذا السؤال بالتفصيل في وقت لاحق.

لماذا قُبِلت الثيوصوفيا؟

سؤال: أنا أفهمك إلى حد ما، لكنني أرى أن تعاليمك أكثر تعقيداً وأكثر ميتافيزيائية من تعاليم الأرواحية أو الفكر الديني الحالي. هل يمكن أن تخبرني لماذا أثار منهج الثيوصوفيا هذا الذي تدافع عنه، الكثير من الاهتمام والكراهية بنفس الوقت؟

الثيوصوفي: أعتقد أن هناك عدة أسباب لذلك. دعنا نذكر من بين أمور أُخرى: (1) رد الفعل الكبير الناجم عن النظريات المادية الفظيعة السائدة حالياً بين الذين يكشفون العقائد العلمية. (2) السخط العام الناجم عن اللاهوت الزائف لمختلف الكنائس المسيحية والعدد المتزايد من الطوائف التي تشن حرباً على بعضها البعض. (3) الاعتقاد المتنامي بأن المعتقدات المختلفة المتناقضة بشكل صارخ في حد ذاتها وفي نزاع متبادل لا يمكن أن تكون صحيحة، وأن المطالبات التي لم يتم التحقق منها لا يمكن أن تكون حقيقية، ويصبح عدم الثقة الطبيعي بالأديان التقليدية أقوى عندما يلاحظ المرء عجزها التام في الحفاظ على الأخلاق وتنقية المجتمع والجماهير. (4) اقتناع كثير من الناس، واليقين من القلة، بأنه يجب أن يكون هناك نظام فلسفي وديني في مكان ما، وهو نظام علمي، وليس

مجرد تخميني، وأخيراً بمعنى أنه سيكون مناسباً أن تبحث عن مثل هذا النظام في التعاليم السابقة لأي اعتقاد حديث.

سؤال: لكن كيف يتم نشر هذا النظام على وجه التحديد الآن؟

الثيوصوفي: لأن الأوقات قد أصبحت ناضجة، كما يتضح من الجهود الحثيثة التي يبذلها الكثير من الباحثين الجادين اليوم لاكتشاف الحقيقة بأي ثمن وفي أي مكان مخفي. في مواجهة هذه الملاحظة، سمح الأوصياء على هذه الحقيقة بالكشف عن بعض الأجزاء على الأقل. لو تأخر تأسيس الجمعية الثيوصوفية لبضع سنوات، لكانت نصف الشعوب المتحضرة قد أصبحت مادية بشكل مفرط اليوم، والنصف الآخر مجسم مؤنسن وظاهري.

سؤال: هل من الضروري اعتبار الثيوصوفيا، بطريقة أو بأُخرى، بأنها وحيّ وكشف إلهي؟

الثيوصوفي: ولا بأي حال من الأحوال، ولا حتى بمعنى الكشف الجديد القادم مباشرة من كائنات عليا خارقة للطبيعة أو حتى فوق إنسانية. إذا كان هناك وحيّ، فيجب أن يؤخذ بمعنى "كشف" للحقائق القديمة - القديمة جداً - إلى الذكاءات التي لم تكن تعرفها الناس حتى الآن والذين لم يعلموا حتى بوجود مثل هذه المعرفة القديمة[40]، وكان قد تمَّ الحفاظ عليها عبر القرون.

---

[40] بات من "المعتاد"، ولاسيما مؤخراً، تسفيه الفكرة القائلة بأنه كان ثمة يوماً، في أسرار الأمم العظيمة المتحضرة، كالمصريين والإغريق أو الرومان، شيء غير شعوذة الكهنة. حتى جماعة وردة الصليب (الصليب الوردي) لم يكونوا بخير من أنصاف مخبولين، أنصاف دجالين. ولقد

سؤال: لقد تحدثت عن "الاضطهاد". إذا كانت الحقيقة هي كما قدمتها الثيوصوفيا، فلماذا واجهت معارضة شديدة ولماذا لم يتم قبولها على نطاق أوسع؟

الثيوصوفي: هنا مرة ثانية، لأسباب عديدة مختلفة، إحداها الكراهية التي يعيشها كثير من الناس لما يسمونه "الابتكارات". الأنانية هي محافظة بشكل أساسي وتكره أن يزعج المرء هدوئها. إنها تفضل كذبة، سهلة ومرضية، على أعظم الحقائق، إذا كانت تتطلب هذه الأخيرة التضحية بأدنى رفاهية. قوة القصور الذاتي العقلية كبيرة في مواجهة أي شيء لا يعد بأي فائدة أو مكافأة في المستقبل القريب. عصرنا هو في الأساس غير روحي وواقعي. علاوة على ذلك، يجب علينا النظر في الطابع غير المألوف لتعاليم الثيوصوفيا ولطبيعة عقائدها العويصة بعض الشيء، والتي يتناقض بعضها تماماً مع العديد من التخيلات البشرية العزيزة على الطائفيين، والتي لها جذور عميقة في المعتقدات الشعبية. إذا

وُضِعت كتب عديدة فيهم، وظهر مبتدئون، ما كانوا بسامعين باسمهم قبل بضعة سنوات، يتنطسون لمبحث الخيمياء وفلاسفة النار والسرَّانية عموماً بوصفهم النقاد اللوذعيين والعارفين المحققين. ومع ذلك تُعرَف سلسلة طويلة من هِيروفنطيي مصر والهند وبلاد الكلدان والعربية، إلى جانب أعظم فلاسفة اليونان والغرب وحكمائهما، بشَمْلِها تحت تسمية الحكمة والعلم الإلهي كل معرفة، من حيث إن هؤلاء اعتبروا أساس وأصل كل فن وعلم إلهياً في الجوهر. ولقد اعتبر أفلاطون الأسرار فائقة القدسية، كما صرح كليمنضُس الاسكندراني الذي كان سورِر بالأسرار الإلفسينية بأن "العقائد المدرَّسة فيها تشتمل على نهاية العلم البشري. هل لنا أن نفهم من ذلك أن أفلاطون وكليمنضُس كانا دجالين أو مخبولين، أو كلا الأمرين معاً؟". (ستروماتا – الخامس – الحادي عشر).

أضفنا إلى ذلك، الجهود الشخصية ونقاء الحياة المطلوبة لأولئك الذين يرغبون في أن يصبحوا تلاميذ من الدائرة الداخلية الباطنية، وكذلك العدد الصغير جداً من الناس الذين ينجذبون إلى مدونة أخلاقية خالية تماماً من أي دافع أناني فعندئذٍ أنت ستفهم بسهولة لماذا محكوم على تقدم الثيوصوفيا أن يكون بطيئاً ومضنياً. إنها فلسفة أولئك الذين يعانون بشكل أساسي، والذين فقدوا كل الأمل في الخروج من مستنقع الحياة بوسائل ثانية. علاوة على ذلك، فإن تاريخ أي نظام من المعتقدات أو الأخلاق، تم زرعه حديثاً في تربة غريبة، يدل على أن بداياته كانت دائماً تعرقلها جميع العقبات التي قد تثيرها الظلامية والأنانية. في الحقيقة "تاج المُبتكِر هو تاج الشوك!". هدم المباني القديمة التي أكلتها الدود لا يخلو من خطر.

سؤال: كل ما قلته للتو يتعلق بأخلاقيات وفلسفة (ج.ث) هل يمكنك أن تعطيني الآن فكرة عامة عن الجمعية نفسها وأهدافها وتشريعاتها؟

الثيوصوفي: كل هذا لم يكن سراً على الإطلاق. اطرح أسئلتك، وسوف تتلقى إجابات دقيقة.

سؤال: لكنني سمعت أنكم مقيدون بقسم اليمين؟

الثيوصوفي: فقط في القسم السراني أو "الباطني".

سؤال: سمعت أيضاً أن بعض الأعضاء الذين يغادرون الجمعية لم يعودوا يؤمنون بأنهم ملزمون بقسم اليمين الذي أدوه. هل هم على حق؟

الثيوصوفي: هذا يثبت أن فكرتهم عن الشرف غير كاملة. كيف يمكن أن يكونوا على حق؟ كما تم التعبير عنه بشكل جيد في مجلة الدرب[41]، نُشرتنا الثيوصوفيا المطبوعة في نيويورك، حيث تم إثارة مثل هذه الحالة: "لنفترض أن جندياً يُحاكم بسبب انتهاكه قسمه وخرقه للنظام، ويتم تسريحه وفقاً لذلك. غاضباً من العدالة التي تضربه، والذي كان يعرف جزاءاته مقدماً، ها هو ينتقل إلى العدو عن طريق نشر معلومات كاذبة - وبالتالي يصبح جاسوساً وخائناً - للانتقام من رئيسه السابق، مدعياً أن عقوبته قد حررته من قسم الولاء للقضية التي خدمها. هل تعتقد أن هناك ما يبرر القيام بذلك؟ ألا يستحق أن يُعامل كإنسان بدون شرف، وكجبان؟".

سؤال: هذا رأيي، لكن بعض الناس يفكرون بطريقة مختلفة.

الثيوصوفي: فليتحملوا ذنبهم! سنتحدث عن ذلك لاحقاً، إذا كنت تود ذلك.

---

[41] الدرب، المجلد. الرابع، يوليو 1889، ص. 98 (المترجم).

الباب الثالث

تنظيم الجمعية الثيوصوفية[42]

أهداف الجمعية

سؤال: ما هي أهداف "الجمعية الثيوصوفية"؟

الثيوصوفي: إنهم، وقد كانوا من البداية، ثلاثة: 1) تشكيل نواة للأخوية العالمية الإنسانية، دون تمييز بسبب العرق أو اللون أو المعتقد. 2) تشجيع دراسة الكتب المقدسة الآرية والكتب المقدسة الأُخرى والأديان وعلوم العالم وغيرها وإثبات أهمية الأدب الآسيوي القديم، خاصةً الفلسفات البراهمانية والبوذية والزرادشتية. 3) دراسة أسرار الطبيعة الخفية من كل الجوانب الممكنة، وخاصة القوى النفسية والروحية الكامنة

---

[42] انظر ("الملحق1") القواعد الرسمية لـ "ج. ث" وهي، اختصار لـ "الجمعية الثيوصوفية".

في الإنسان. هنا، أوجزنا، الأهداف الرئيسية الثلاثة للجمعية الثيوصوفية.

سؤال: هل يمكنك أن تعطيني معلومات أكثر تفصيلاً عنهم؟

الثيوصوفي: يمكننا تقسيم هذه الأهداف الثلاثة إلى العديد من البنود التوضيحية التي قد تبدو ضرورية.

سؤال: لنبدأ إذاً مع أول واحد. ما هي الوسائل التي تستخدمها لإيقاظ شعور الأخوية بين الأعراق التي، كما نعلم، تختلف كثيراً عن بعضها البعض من حيث الأديان والعادات والمعتقدات وطرق التفكير؟

الثيوصوفي: اسمح لي أن أضيف ما يبدو أنك لا تريد التعبير عنه. نعلم، بالطبع، أنه باستثناء بقايا من الأجناس - الفارسية واليهود - ليس فقط الأمم متعارضة مع بعضها البعض، بل أيضاً كل منها يعاني من الانقسامات الداخلية. هذا ينطبق بشكل خاص على الأمم المسيحية، أو ما يُسمى بالأمم المتحضرة. لهذا السبب أنت مندهش، لماذا يبدو هدفنا الأول كأنه يوتوبيا أليس كذلك؟

سؤال: حسناً، نعم! ولكن ماذا لديك للاعتراض على هذا؟

الثيوصوفي: لا أنكر الواقع، لكن لدي الكثير لأقوله حول الضرورة إلى إزالة الأسباب التي تجعل الأخوية العالمية، لغاية الآن، تبدو وكأنها يوتوبيا[43].

---

[43] مدينة فاضلة مثالية.

سؤال: ما هي هذه الأسباب، وفقاً لك؟

الثيوصوفي: أولاً وقبل كل شيء، أنانية الطبيعة البشرية. بدلاً من أن يتم استئصالها، يتم تعزيز هذه الأنانية يومياً وتحفيزها لإثارة شعور قوي لا يُقاوم، من خلال تأثير التعليم الديني الحالي، الذي لا يميل فقط إلى تشجيعه، بل أيضاً إلى تبريره صراحة. لقد تم تشويه مفاهيم الناس عن الخير والشر بالكامل بسبب القبول الحرفي للكتاب المقدس العبري. لقد أصبح كل إنكار للذات الوارد في تعاليم يسوع الإيثارية موضوعاً نظرياً يفسح المجال أمام المواعظ الشفوية على المنبر. على العكس من ذلك، فإن المفاهيم الأنانية العملية التي تم تعليمها في الكتاب المقدس الموسوي، والتي وقف ضدها المسيح بشدة قد ترسخت في أعماق حياة الدول الغربية. أصبحت "العين بالعين، والسن بالسن" أول مبدأ في قانونك. الآن، أقول بصراحة ودون خوف أن الثيوصوفيا وحدها هي التي يمكنها القضاء على تحريف هذه العقيدة، والكثير غيرها.

الأصل المشترك للإنسان

سؤال: وكيف ذلك؟

الثيوصوفي: ببساطة عن طريق إظهار النقاط التالية، من خلال الحجج المنطقية والفلسفية والميتافيزيائية وحتى العلمية:

أ) جميع البشر لهم نفس الأصل الروحي والجسدي، وهو التعليم الأساسي للثيوصوفيا. ب) بما أن البشرية هي من الجوهر الواحد نفسه، وأن هذا الجوهر هو واحد - لانهائي وغير مخلوق وأزلي، سواء كنا نسميه الله أو الطبيعة - فهذا يعني أنه لا يوجد شيء يمكنه أن يؤثر على أمة أو على إنسان، دون أن يؤثر في الوقت نفسه على جميع الدول الأُخرى وجميع البشر الآخرين. هذا مؤكد وواضح مثل تأثير الحجر الذي يتم إلقاؤه في البركة: الاضطراب الناتج ينتهي بالضرورة إلى تحريك كل قطرة ماء موجودة هناك.

سؤال: ولكن هذا ليس تعليم المسيح: إنه بالأحرى مفهوم حلولي.

الثيوصوفي: هنا يكمن خطأك. هذه الفكرة مسيحية بحتة رغم أنها ليست يهودية. وهذا قد يكون هو السبب وراء تفضيل دولكم، التي تتبع الكتاب المقدس العبري، تجاهله.

سؤال: مثل هذا الاتهام غير عادل وغير صحيح. على أية دلائل تستند في مزاعمك؟

الثيوصوفي: براهيني هي هنا، في متناول يدي. يُنسب للسيد المسيح القول "أحبوا بعضكم بعضاً"، و "أحبوا أعدائكم ... لأنكم إذا كنتم تحبون [فقط] أولئك الذين يحبونكم، فأي أجر لكم [أو استحقاق]؟ أليس العشارون[44] أنفسهم يفعلون ذلك[45]؟".

"وإذا كنتم لا تسلمون إلا على إخوانكم فقط، فأين الشيء الاستثنائي الذي تفعلونه؟ ألا يفعل العشارين ذلك أيضاً؟". هذه هي كلمات المسيح. ولكن قيل في سفر التكوين (9، 25): "ملعون كنعان! فليكن عبد العبيد لأخوته!". هذا هو السبب في أن الناس الذين هم مسيحيون ويتبعون الكتاب المقدس يفضلون شريعة موسى على قانون المحبة الذي أعطاه المسيح. إنهم يبنون أنفسهم على العهد القديم، الذي يفسح المجال لجميع المشاعر، وقوانين الغزو والاستيلاء على أراضي الغير والطغيان تجاه الأعراق التي يصفونها بأنها أقل شأناً. ماهي الجرائم التي لم تُرتكب بناء على الإيمان على هذه الفقرة الجهنمية من سفر التكوين (إذا كانت قد اتخذت بمعنى

---

44 كان العشارون يُعتبرون آنذاك لصوصاً ونشالين. وكان اسم العشار ومهنته يمثلان في نظر اليهود أبشع ما في الدنيا إطلاقاً. فكان يُحرَّم عليهم دخول الهيكل اليهودي. ويتكلم الإنجيلي متى في (18: 17) على "الوثني" و"العشار" بوصفهما شيئاً واحداً. إلا أن هؤلاء ما كانوا غير جباة الضرائب الرومان الذين يشغلون عين المنصب الذي يشغله الموظفون الإنكليز في الهند وغيرها من البلدان المستعمرة.

45 متى (5، 44-47) (المترجم).

الحرف الميت)! التاريخ وحده هو الذي يمكنه أن يعطينا فكرة رغم أنها لا تزال غير كافية[46].

سؤال: لقد سمعتك تقول إن تماثل ووحدة أصلنا الجسدي قد ثُبتت من خلال العلم، ووحدة أصلنا الروحي قد برهن عليها دين الحكمة. ومع ذلك، فإن الداروينيين لا يُظهرون عاطفة ومودة أخوية كبيرة.

---

[46] مع حلول نهاية العصر الوسيط كان الرق، راضخاً لسلطان القوى الأخلاقية، قد اختفى عملياً من أوروبا، لكن حدثين بالغي الشأن وقعا تغلَّبا على سلطان هذه القوى الفاعلة في المجتمع الأوروبي وأطلقا من عقالها جمهرة من المصائب على الأرض نادراً ما عرفت البشرية مثلها. أحد هذين الحدثين كان أول رحلة إلى ساحل مأهول بالهمج كان الاتجار بالبشر فيه رائجاً، وكان الحدث الآخر اكتشاف عالم جديد انفتحت فيه مناجم ثروة طائلة، على أن تُستورَد اليد العاملة لاستثمارها. أربعمئة سنة والرجال والنساء والأطفال يُنتزعون من كل مَن يعرفون ويحبون ليباعوا على ساحل أفريقيا لتجار أجانب؛ فكانوا يُسلسَلون في أجواف السفن – الموتى مع الأحياء في أحيان كثيرة – في أثناء "العبور الأوسط" المروِّع، حيث ألقي بمئتين وخمسين ألفاً من أصل ثلاثة ملايين وربع المليون منهم في البحر إبان هذا العبور المميت، فيما كُتب على مَن تبقى منهم بؤس لا يوصف في المناجم أو تحت السياط في حقول القصب والرز. إن المسؤولية عن هذه الجريمة النكراء تقع على عاتق الكنيسة المسيحية. 'باسم الثالوث الأقدس' عقدت الحكومة الإسبانية (الكاثوليكية الرومانية) أكثر من عشر معاهدات تجيز بيع خمسمئة ألف إنسان؛ وفي عام 1562 أبحر السِر جون هوكنز في جولته الشيطانية لشراء أرقاء في أفريقيا وبيعهم في جزر الهند الغربية على متن سفينة حملت اسم يسوع المقدس؛ بينما كافأته أليصابات، الملكة البروتستنتية، على النجاح الذي أصابه في مغامرته، وهي الأولى من نوعها يقوم بها إنكليز في هذا الاتجار غير الإنساني بأن أجازت له أن يلبس شعاراً لنبالته 'نصف مغربي بلونه الأصلي، مشدود الوثاق، أو، بعبارة أخرى، عبداً زنجياً مسلسلاً'." فتوحات الصليب (مقتبس من الصحيفة اللاأدرية).

الثيوصوفي: هذا صحيح تماماً. هذا هو بالتحديد ما يُظهر عدم كفاية النظم المادية، والذي يثبت أننا نحن، الثيوصوفيين على حق. إن معرفة أن لدينا نفس الأصل المادي لا يحفز فينا مشاعر أعلى وأعمق. المادة، المحرومة من نفسها وروحها وهذا يعني المحرومة من جوهرها الإلهي، لا يمكنها التحدث إلى قلب الإنسان. لكن تماثل ووحدة النفس والروح، للإنسان الحقيقي الخالد، كما تُعلمنا الثيوصوفيا، بمجرد أن تم البرهان عليها وتأصلت جذورها في قلوبنا، يجب أن تقودنا قدماً على طريق المحبة الحقيقية والنية الأخوية الطيبة.

سؤال: لكن كيف تشرح الثيوصوفيا الأصل المشترك للإنسانية؟

الثيوصوفي: من خلال التعليم أن أصل كل الطبيعة الموضوعية والتجريدية، وأي شيء آخر يمكن أن يوجد في الكون، المنظور وغير المنظور، يكون، وكان، وسيكون دائماً جوهراً فريداً مطلقاً، من حيث ينبع كل شيء وإلى رحمه كل شيء يعود. هذه هي الفلسفة الآرية، والتي لم يتم تمثيلها بالكامل إلا في النظم الفيدية والبوذية. مع وضع هذا الهدف في الاعتبار، فمن واجب جميع الثيوصوفيين الإسهام بكل الوسائل العملية، وفي جميع البلدان، في نشر تعليم غير طائفي مذهبي.

سؤال - ولكن، ماذا تنصح القوانين الأساسية المكتوبة للجمعية للأعضاء أن يفعلوا غير هذه؟

الثيوصوفي: بإيقاظ شعور الأخوية بين الأمم، والمساعدة في التبادل الدولي للفنون والمنتجات المفيدة، وتقديم المشورة والمعلومات، والتعاون مع جميع الأفراد والجمعيات ذات

الاهتمام (بشرط مع ذلك) إضافة على بنود التأسيس أنه "لن يتم جني أي ربح أو نسبة مئوية من قبل الشركة أو - الأعضاء - مقابل خدماتهم بموجب أنظمة الجمعية الثيوصوفية". على سبيل المثال، كتوضيح عملي، تنظيم الجمعية الثيوصوفية، كما وصفها إدوارد بيلامي في كتابه الرائع - بعد مئة عام - أو عام 2000[47]، يمثل بشكل مثير للإعجاب الفكرة الثيوصوفية لما ينبغي أن تكون الخطوة الأولى الكبرى نحو التحقيق الكامل للإخاء العالمي. الأشياء التي يصفها لا تصل إلى الكمال، لأن الأنانية لا تزال موجودة وتستمر في العمل في قلوب البشر.

ولكن عموماً الأنانية والفردية قد تم التغلب عليهما من خلال الشعور بالتضامن والإخاء المتبادل، وطريقة الحياة التي يقدمها لنا تقلل من الأسباب التي تميل إلى خلق الأنانية والحفاظ عليها.

سؤال - في هذه الحالة، بوصفك ثيوصوفي، هل ستشارك في جهد ما لتحقيق هذا المُثل الأعلى؟

الثيوصوفي: بالتأكيد، وقد أثبتنا ذلك من خلال العمل. ألم تسمع عن الأندية "القومية"، وكذلك "الوطنية[48]"، التي كان

---

[47] **Edward Bellamy, Looking Backward, 2000-1887. États-Unis 1887. Nouvelle édition, New York : Random House, Inc., 1951. Édition française, trad. Paul Rey, Paris : E. Dentu éditeur 1891. Réédition, Paris : Elie Pizzoli, 1978. (المترجم).**

[48] **بلافاتسكي تنوه للحركات القومية الأممية وهي حركة نشأت في الولايات المتحدة بعد ظهور كتاب بلمي - بعد مائة عام: 2000-1887. لاضرورة للتوضيح إن هذه الحركة لا تمت بصلة إلى "الأممية"**

قد تم إنشاؤها في أمريكا منذ نشر كتاب بيلامي؟ إنهم يؤكدون أنفسهم بطريقة واضحة، وسوف يفعلون ذلك أكثر وأكثر في المستقبل. حسناً! تم إطلاق هذه الأندية وهذا الحزب في البداية من قبل الثيوصوفيين. واحد من الأولين، النادي الوطني في بوسطن، وهو بمثابة رئيس وسكرتير الثيوصوفيين، وغالبية أعضائه التنفيذيين ينتمون إلى الجمعية الثيوصوفية. إن دستور هذه الأندية والحزب الذي يشكلونه يوضح بوضوح تأثير الثيوصوفيا والجمعية، لأنها قد اتخذت كأساس لها، المبدأ الأساسي الأول، وهو الأخوية الإنسانية كما تعلمها الثيوصوفيا. قيل في إعلان مبادئهم: "مبدأ الأخوية الإنسانية هو واحد من الحقائق الأبدية التي تحكم تقدم العالم بطرق تميز الطبيعة الإنسانية عن الوحشية". ما هو أكثر ثيوصوفي من ذلك؟ لكن هذا لا يكفي. من المهم أيضاً تثبيت الفكرة بين البشر بأنه، إذا كان جذر الإنسانية واحداً، فيجب أن تكون هناك حقيقة واحدة تجد تعبيرها في جميع الديانات المختلفة - باستثناء الدين اليهودي لأنك لا تجد أنها أعربت عن ذلك حتى في الكابالا.

سؤال: هذا يشير إلى الأصل المشترك للأديان، قد تكون على حق في هذه النقطة. ولكن كيف ينطبق هذا على الأخوية التي تُمارس على المستوى المادي؟

الشيوعية لأنها عبارة عن حركة تناصر الإخاء بين البشر والمساواة الاقتصادية والاجتماعية وتأميم بعض المؤسسات. ومن هنا اسمها. ولقد أغرت أهدافها عدداً من الثيوصوفيين الأمريكيين بالانتساب إلى أندية أممية ففعلوا ذلك، حتى اتخذت الحركة مساراً سياسياً عام 1890 فاستقالوا منها. (المترجم).

الثيوصوفي: أولاً، لأن ما هو حقيقي على المستوى الميتافيزيائي يجب أن يكون صحيحاً أيضاً على المستوى المادي. ثانياً، لأنه لا يوجد مصدر خصب للكراهية والصراعات أكثر من الاختلافات الدينية. عندما تؤمن مجموعة أو ثانية على أنها المالك الوحيد للحقيقة المطلقة، فمن الطبيعي أن تنظر في الوقت نفسه إلى الآخرين بأنهم تحت تأثير الضلال أو الشيطان بالكامل. أوضح للبشر أنه لا يوجد لدى أي منهم الحقيقة كاملة، ولكن وجهات نظرهم تكمل بعضها البعض، وأن الحقيقة الكاملة لا يمكن العثور عليها إلا في مزيج من كل وجهات النظر هذه. بعد القضاء على الخطأ الذي ارتكبه كلٍ منهم، سيتم تأسيس أخوية حقيقية في مسائل الدين. ينطبق المنطق نفسه هذا على العالم المادي.

سؤال: - تابع شرحك، أرجوك.

الثيوصوفي: لنأخذ مثالاً: يتكون النبات من جذر وساق والعديد من البراعم والأوراق. مثلما أن البشرية ككل تشكل الساق الذي ينمو من الجذر الروحي، كذلك يمكن اعتبار الساق بمثابة وحدة النبات. عند إلحاق إصابة بالساق، فمن الواضح أن جميع البراعم والأوراق ستعاني. إنه نفس الشيء مع الإنسانية.

سؤال: نعم، لكن إذا أصبت ورقة أو برعماً، فأنت لا تتسبب في إصابة النبتة بأكملها.

الثيوصوفي: وبالتالي، هل تعتقد أنه بمهاجمة رجل واحد لا تؤذي البشرية جمعاء؟ ولكن كيف يمكنك أن تعرف؟ ألا تعلم أن

العلوم المادية بحد ذاتها تعلم أن أدنى ضرر لنبات يمكن أن يؤثر على مجمل نموه وتطوره في المستقبل؟ القياس مثالي وأنت مخطئ. ومع ذلك، يبدو أنك نسيت أن الجسم كله يمكن أن يعاني في كثير من الأحيان من جرح في إصبع، وأن هذه الإصابة يمكن أن تتفاعل على الجهاز العصبي بأكمله، ناهيك عن التذكير بأنه قد يكون هناك القوانين الروحية الأُخرى التي تؤثر على النباتات والحيوانات وكذلك الإنسانية، على الرغم من أنك قد تنكر وجودها، لأنك لا تعترف بعملها على النباتات والحيوانات.

سؤال: عن أية قوانين تتحدث؟

الثيوصوفي: نحن نسميها القوانين الكارمية. لكنك لن تفهم المعنى الكامل لهذا المصطلح ما لم تدرس العلوم الغيبية. ومع ذلك، فإن حجتي تستند في الواقع إلى المقايسة والتشابه مع النبات وليس على افتراض وجود هذه القوانين. طور هذه الفكرة، وطبقها عالمياً، وسوف ترى عما قريب، في الفلسفة الحقيقية، أن أي عمل مادي يستلزم بالضرورة خلق نتيجة أخلاقية ودائمة. إذا سببت الضرر لإنسان عن طريق إلحاق الأذى الجسدي به، فقد تعتقد أن جروحه وألمه لن تمتد إلى جيرانه بأي حال، وإلى إلى بشر الأمم الأُخرى. نحن، على العكس من ذلك، نؤكد أنهم سيفعلون ذلك في الوقت المناسب. لهذا السبب نقول إن المشاعر الأخوية التي يبشر بها جميع المصلحين العظماء، وخاصة بوذا والمسيح، لن تكون ممكنة على الأرض إلا عندما يصل جميع البشر إلى الفهم والاعتراف كحقيقة بديهية، بأنه لا يمكن للمرء أن يؤذي إنساناً واحداً دون

الإضرار في الوقت ذاته، ليس فقط إيذاء نفسه، بل على المدى البعيد، البشرية جمعاء.

الأهداف الباقية

سؤال: هل يمكن أن تشرح لي الآن ما الأساليب التي تقترحها لتحقيق هدفك الثاني؟

الثيوصوفي: من خلال جمع، في مكتبة مقرنا الرئيسي في أديار - مدراس[49] (أعضاء الفروع يفعلون الشيء نفسه من أجل مكتباتهم المحلية) جميع الأعمال الجيدة التي يمكن أن نجدها في الديانات العالمية، ووضع معلومات صحيحة حول الفلسفات والتقاليد والأساطير المختلفة في الماضي ونشرها على نطاق واسع بجميع الوسائل القابلة للاستخدام.

على سبيل المثال عن طريق ترجمة ونشر أعمال أصلية قيمة وكذلك مقتطفات من هذه الأعمال وتعليقات عنها، أو عن طريق تنظيم دورات أو مؤتمرات مع المثقفين في مجالات تخصصهم.

سؤال: وفيما يتعلق بالهدف الثالث: تطوير القدرات الروحية أو النفسية الكامنة في الإنسان؟

---

[49] تأسست الجمعية الثيوصوفية في نيويورك وهناك كان مقرها الرئيسي، لاحقاً تم نقل المقر إلى أديار في مقاطعة مدراس بالهند. (المترجم).

الثيوصوفي: يجب أن يتم ذلك أيضاً من خلال طبع وتوزيع المنشورات في الأماكن التي يتعذر فيها إعطاء المحاضرات أو توجيه الدروس مباشرة للناس.

واجبنا هو أن نبقي الحدس الروحي على قيد الحياة في الإنسان، لمعارضة التعصب وإلغاء آثاره، بعد تحليله بحكمة وتقديم أدلة على طابعه غير العقلاني، أيا كان شكل هذا التعصب، ديني أو علمي أو اجتماعي، وخاصة لمحاربة التقوى الكاذبة، سواء في شكل الطائفية الدينية أو الاعتقاد في المعجزات، أو أي شيء خارق للطبيعة. ما يتعين علينا هو السعي وراء معرفة جميع قوانين الطبيعة ونشرها، لتشجيع دراسة تلك القوانين التي أُسيء فهمها من قبل الإنسانية المعاصرة - ما يُسمى بالعلوم الغيبية، والتي تستند في الواقع على المعرفة الحقيقية للطبيعة، وليس، كما هي الآن، على المعتقدات الخرافية المبنية على أساس الإيمان الأعمى والسلطة غير العقلانية.

الأساطير والتقاليد الشعبية، مهما كانت رائعة في بعض الحالات، تؤدي، إذا تم تحليلها بعناية، إلى اكتشاف أسرار الطبيعة الهامة المفقودة منذ زمن بعيد. وبالتالي تهدف الجمعية إلى مواصلة هذا الخط من البحث، على أمل توسيع مجال الملاحظة العلمية والفلسفية.

الطبيعة المقدسة لقسم اليمين

سؤال - هل لديكم نظام أخلاقي معين معمول به في الجمعية؟

الثيوصوفي: مبادئ الأخلاق موجودة ومحددة بوضوح وفي متناول من يريد اتباعها. إنها تشكل صفوة الأخلاق العالمية وجوهرها، تم جمعها من تعاليم جميع المصلحين العظماء في العالم. ستجد، بالتالي، كونفوشيوس وزرادشت، ولاو تسو والبهاغافاد غيتا، ومبادئ غوتاما بوذا ويسوع الناصري وهيليل وتلاميذه، وتلك الخاصة بفيثاغورس، وسقراط وأفلاطون، ومن مدارسهم.

سؤال: ولكن هل يعمل أعضاء جمعيتك بهذه المبادئ؟ لقد سمعت أن هناك مناوشات وخلافات خطيرة بينهم.

الثيوصوفي: هذا أمر طبيعي تماماً لأنه على الرغم من أنه يمكن القول إن الإصلاح (بشكله الحالي) جديد، فإن الرجال والنساء الذين سيكون من الضروري إصلاحهم يتمتعون بنفس الطبيعة البشرية الخاطئة كما كانوا من قبل. كما قلنا، الأعضاء النشطاء الجادين هم قليلون، ومن ناحية أُخرى، هناك العديد من الأشخاص المخلصين والمستعدين الذين يبذلون قصارى جهدهم للعيش وفقاً لمُثلهم الخاص ومُثل الجمعية. من واجبنا مساعدة وتشجيع كل عضو على تطوير نفسه فكرياً ومعنوياً وروحياً، ولكن يجب ألا نلوم أو ندين الذين فشلوا في هذا المسعى. ليس لدينا، بالمعنى الدقيق للكلمة، أي حق في رفض

قبول أي شخص، لا سيما في قسم الباطنية في الجمعية الذي "يدخل مثل من ولد من جديد". ولكن إذا اختار أحد الأعضاء على الرغم من قسمه اليمين المقدس على كلمة الشرف وباسم ذاته الخالدة، بعد هذه "الولادة الجديدة" - مع الإنسان الجديد - مواصلة الحفاظ على الرذائل والعيوب حسب طريقته القديمة في الحياة ولا يزال يتمتع بها داخل الجمعية، عند ذلك بالطبع سيُطلب منه على الأرجح الاستقالة والانسحاب. وإذا رفض سوف يعرض نفسه للطرد. لدينا، في الحالات القصوى من هذا النوع، قواعد أكثر صرامة.

سؤال: هل يمكنك ذكر البعض منها؟

الثيوصوفي: بالتأكيد. في المقام الأول، لا يحق لأي عضو في الجمعية، سواء كان شخصاً من القسم الظاهري أو الباطني، أن يفرض آرائه الشخصية على عضو آخر. "ليس من القانوني لأي ممثل رسمي للجمعية الأم أن يُعبر علناً، سواء أكان ذلك بالكلام أو بالفعل، عن أي عداء أو تفضيل ملحوظ لأي قسم[50] ما، ديني أو فلسفي. لكل البشر الحق المتساوي في رؤية الخصائص الأساسية لمعتقداتهم الدينية في محكمة عالم محايد، ولا يحق لأي ممثل رسمي للجمعية، عند ممارسة وظائفه، أن يعظ الأفكار والمعتقدات الطائفية في اجتماع للأعضاء، ما لم يكن الجمهور يتكون من زملاء من نفس الدين. بعد تحذير مناسب، يُعاقب على انتهاك هذه القاعدة بالتعليق أو الطرد". هذا هو واحد من العيوب تجاه الجمعية

---

[50] "فرع"، أو محفل، يتكون فقط من أتباع ديانة، أو فرع بدون وظيفة in partibus. كما يقولون الآن بأبهة. وهو فرع لأتباع نفس الديانة.

ككل. فيما يتعلق بالقسم الداخلي، الذي يُسمى الآن قسم الباطنية، ففي ما يلي القواعد التي تمت صياغتها واعتمادها في وقت مبكر من عام 1880: "لا يجوز لأي عضو أن يستخدم بأنانية أياً من المعارف التي اطلع عليها من قبل أي عضو آخر في القسم الأول (حالياً "درجة" أعلى). أي خرق لهذه القاعدة سوف يُعاقب عليه بالطرد". ومع ذلك، قبل أن يتم إيصال هذه المعرفة، يجب على الشخص الذي يرغب في الحصول عليها أن يلتزم التزاماً رسمياً بعدم استخدامها لأغراض أنانية أو الكشف عنها دون إذن.

سؤال: ولكن إذا طُرد شخص ما، أو إذا استقال من قسم الباطنية، فهل له الحرية في الكشف عما تعلمه، أو مخالفة أي من فقرات القسم الذي كان قد أقسم عليه والتزم به؟

الثيوصوفي: بالتأكيد لا. طرده أو استقالته لا يعفيه إلا من التزامه بالطاعة للمعلم ومن واجبه بالقيام بدور نشط في أعمال الجمعية، ولكن بالتأكيد لا يحله من قسمه المقدس بالحفاظ على السر.

سؤال: ولكن هل هذا منطقي وعادل؟

الثيوصوفي: بكل تأكيد. كل رجل أو امرأة يمتلك أدنى شعور بالشرف، يجب أن يقسم قَسَم من السرية من خلال إشراك القَسَم بكلمة شرف، ومن باب أولى، من خلال استدعاء ذاته العليا - الإله الداخلي - بارتباطه بهم حتى الموت.

وحتى بعد مغادرة القسم الباطني والجمعية، لا يوجد رجل، ولا امرأة، ذوي شرف، يمكن أن يفكرا في الانقلاب على منظمة

حية - كانا قد التزما بها بقسم اليمين - أو أن يهاجمانها أو يسببا لها الأذى.

سؤال: ولكن أليس في هذا بعض المبالغة؟

الثيوصوفي: ربما، وفقاً للمعيار الأخلاقي الحالي الذي هو بمستوى منخفض. ولكن ما هو القسم إذا كان لا يربطنا بذلك؟ كيف يمكن للمرء أن يتوقع أن يتلقى المعرفة السرانية إذا كان بوسعه، بطريقته الخاصة، أن يحرر نفسه من جميع الالتزامات التي تعهد بها؟ أي أمان وأي ثقة وأي ضمان يمكن أن يوجد بين البشر إذا لم يكن لليمين من هذا النوع قوة قسرية ملزمة فعلياً؟ صدقوني، إن قانون العقاب (الكارما) سرعان ما ينال أي شخص ينكث بقسم اليمين، وربما بالسرعة نفسها عند ازدراء أي رجل شرف، حتى على المستوى المادي هذا.

وكما تقول مجلة "الدرب" في نيويورك التي ذكرنا للتو في هذا الصدد: "ما أن يقسم المرء اليمين، حتى يلزمه إلى الأبد في العالم الأخلاقي وكذلك في العوالم الغيبية. إذا انتهكناه مرة واحدة وإذا عوقبنا على ذلك، فليس لنا ما يبرر انتهاكه مرة أُخرى. طالما أننا نستمر بانتهاك القَسَم، فإن رد فعل البندول القوي للقانون (الكارما) سيرتد علينا". {الدرب، المجلد الرابع يوليو 1889، ص. 98-9).

الباب الرابع

الصلة بين الجمعية[51] والثيوصوفيا

التسامي بالذات[52]

سؤال: هل السمو الأخلاقي إذاً، هو الذي تصر عليه جمعيتك بشكل خاص؟

الثيوصوفي: بالتأكيد! كل من يريد أن يصبح ثيوصوفياً حقيقياً يجب أن يسعى جاهداً للعيش على هذا النحو.

سؤال: إذا كان هذا هو الحال، فكما كنت قد أشرت أنا سابقاً فإن سلوك بعض الأعضاء يتعارض جذرياً مع هذه القاعدة الأساسية.

الثيوصوفي: هذا صحيح بالفعل. لكن هذا لا يمكن تجنبه بيننا أكثر من حالة أولئك الذين يدعون أنفسهم مسيحيين ولكنهم يتصرفون كشياطين. الخطأ لا يكمن في قوانيننا أو قواعدنا ولكن في الطبيعة البشرية. حتى في بعض الفروع العامة الظاهرية الخارجية، أقسم الأعضاء ب "ذاتهم العليا" على أن

الجمعية الثيوصوفية. [51]

تحسين، إصلاح، العمل على ارتقاء الذات. [52]

يحيوا الحياة التي حددتها الثيوصوفيا بشكل فعال. يجب عليهم دعوة الذات الإلهية لتوجيه كل من أفكارهم وأفعالهم، كل يوم وفي كل لحظة من حياتهم. يجب على الثيوصوفيين الحقيقيين "التصرف بشكل صحيح والسير بتواضع".

سؤال: ماذا تقصد بذلك؟

الثيوصوفي: ببساطة هذا: "ذات" الإنسان المفردة، يجب أن تنسى نفسها من أجل مصلحة "ذوات" البشر الآخرون. اسمح لي أن أرد عليك بكلمات فيلاليثي حقيقي، وهو عضو في (ج.ث)، الذي أعرب عن إعجابه الشديد بهذا الفكر في مجلة الثيوصوفي: "إن الحاجة الأكثر إلحاحاً للإنسان هي اكتشاف نفسه، ثم إجراء جرد عادل لممتلكاته الذاتية التجريدية: مهما كانت ميزانيته سيئة أو قريبة من الإفلاس، فإنه لا يُعدم من التكفير الممكن إذا انكب الفرد على عمل جاد وصادق". ولكن كم واحد يفعل ذلك؟

الجميع يريدون العمل على تنميتهم الشخصية والتقدم الشخصي، قلة قليلة هم على استعداد للعمل من أجل الآخرين. دعنا نقتبس مرة أُخرى من نفس المؤلف: (لقد انساق البشر كثيراً للضلال والوهم، يجب عليهم تحطيم أصنامهم وخلع أوهامهم الخادعة، للبدء في العمل من أجل أنفسهم - ولكن، في الحقيقة، هناك كلمة صغيرة زائدة، لأنه من يعمل لنفسه من الأفضل ألا يفعل ذلك على الإطلاق. فليعمل بدلاً من ذلك من أجل الآخرين، للجميع. مقابل كل زهرة من المحبة والإحسان التي سيزرعها في حديقة جاره، ستختفي من حديقته الحشائش الضارة. وبهذه الطريقة، ستزدهر حديقة الآلهة هذه -

الإنسانية - كأنها وردة. يُقال هذا بوضوح شديد في جميع الأناجيل وجميع الأديان. لكن البشر الفضوليين بدأوا يسيئون تفسيرها، وفي النهاية يشوهونها ويجسدونها بشكل حرفي ويحرمونها من المعنى الحقيقي. ليست هناك حاجة إلى وحيّ جديد. فليكن كل إنسان هو الوحيّ. أن روح الإنسان الخالدة تستحوذ على هيكل جسده، وتطرد التجار وكل الشوائب الموجودة هناك، ولسوف تفتديه إنسانيته الإلهية، لأنه عندما يكون في اتحاد مع ذاته، فإنه سيعرف "باني الهيكل").

سؤال: هذا هو الإيثار البحت، أقر بذلك.

الثيوصوفي: نعم. إذا وضع واحد فقط من بين كل عشرة أعضاء في المجلس التشريعي هذا الأمر موضع التنفيذ فسنكون مجموعة حقيقية من المختارين. ولكن هناك من بين أولئك الذين لا ينتمون إلى الجمعية، أناس يرفضون دائماً رؤية الفرق الأساسي بين الثيوصوفيا والجمعية الثيوصوفية، وبين الفكرة وأداتها غير الكاملة. هؤلاء الناس سيكونون مسؤولين عن كل آثام وعيوب مركبتها - الجسم البشري - الروح النقية التي تنشر عليها نورها الإلهي. هل هذا ينصف كلاهما؟

يلقون الحجارة على جمعية تحاول، رغم كل الصعاب، أن ترتفع إلى ذروة المثالية التي تنتشر في العالم. البعض يشوهون الجمعية الثيوصوفية لسبب وحيد هو تجرؤها على محاولة إدراك بما فشلت فيه الأنظمة الأُخرى - في المقام الأول الكنيسة والدولة المسيحية. الآخرين، لأنهم يرغبون في الحفاظ على الوضع الحالي للأشياء حيث يحتل الفريسيين والصدوقيين مقعد موسى، في حين أن العشارين والخطأة يرون أنفسهم في

أماكن المتعة العامة، كما هو الحال في وقت تدهور الإمبراطورية الرومانية.

على أي حال، يجب أن يتذكر الأشخاص العادلون أنه في هذا العالم الذي يتسم بالإمكانيات النسبية، الشخص الذي يفعل كل ما بوسعه يفعله بقدر ما يفعل أكثر من غيره. هذه حقيقة مبتذلة، بديهية، والتي، بالنسبة لأولئك الذين يؤمنون بالأناجيل، تؤكدها الأمثال الرمزية عن الوزنات التي قدمها معلمهم: إن الخادم الذي حصل على وزنتين وربح باثنتين آخرين، قد تمت مكافأته بنفس القدر الذي قد تلقى خمسة. لكل واحد يعطى "وفقاً لقدراته".

سؤال: لكن من الصعب للغاية تحديد الحد الفاصل بين المجرد والمعنوي في هذه الحالة، لأنه فقط وفقاً للأخير يمكننا أن نحكم.

الثيوصوفي: إذاً، لماذا تستثني ج.ث من ذلك؟ العدالة، مثل الصدقة، يجب أن تبدأ بنفسها. هل ستحتقر "الموعظة على الجبل" أو تسخر منها بحجة أن قوانينك الاجتماعية والسياسية وحتى الدينية قد فشلت حتى الآن في وضع مبادئها موضع التنفيذ، ليس فقط بالروح، بل حتى بحرفيتها الميتة؟ لذا، ألغِوا قسم اليمين في المحاكم، وفي الجيش، وفي البرلمان، وفي كل مكان، واعملوا مثل الكويكرز[53]، إذا كنتم تريدون حقاً أن تدعو أنفسكم مسيحيين. ألغوا المحاكم نفسها لأنه، إذا كنتم تريدون أن تتبعوا وصايا المسيح، فيجب أن تتخلوا عن معطفكم

---

[53] طائفة مسيحية تدعو لإلغاء الطقوس الدينية والكهنوت والعودة للمسيحية الأولية.

للشخص الذي يأخذ عباءتكم، وأن تقدموا خدكم الأيسر لذاك الذي يضربكم على الخد الأيمن. "لا تقاوموا الشر، واحبوا أعدائكم، وباركوا أولئك الذين يضطهدوكم، وافعلوا الخير لمن يكرهوكم"، لأن "الذي ينتهك إحدى هذه الوصايا الصغيرة ويعلم الناس القيام بذلك، يُعد الأصغر في الملكوت[54]" و "كل من قال لصاحبه: أحمق! استوجب نار جهنم". فلم تدينوا إذا أردتم ألا تُدانوا بدوركم؟ ثابروا على إصراركم أنه ليس ثمة من فرق بين الثيوصوفيا والجمعية الثيوصوفية فتعرِّضون على الفور نهج المسيحية وجوهرها نفسه للتُهَم نفسها، بل أيضاً على نحو أشد خطورة.

سؤال: لماذا على نحو أشد خطورة؟

الثيوصوفي: لأنه على الرغم من أن قادة الحركة الثيوصوفية، من خلال إدراكهم التام لمحدوديتهم، يبذلون قصارى جهدهم لفعل ما هو أفضل واستئصال الشر الموجود في الجمعية، وفي حين أن قواعدها وأنظمتها مستوحاة من روح الثيوصوفيا، فإن المشرعون وكنائس الأمم وما يُسمى بالبلاد المسيحية، يفعلون العكس. أعضائنا، حتى الأسوأ بينهم ليسوا أسوأ من المسيحي العادي. علاوة على ذلك، إذا كان لدى الثيوصوفيين الغربيين صعوبة كبيرة في قيادة الحياة الثيوصوفية الحقيقية، فذلك لأنهم جميعاً أطفال جيلهم. كان كل واحد منهم مسيحياً في البداية، ولد ونشأ في إطار سفسطة كنيسته، وكذلك ترعرع في العادات الاجتماعية والقوانين المتناقضة لبيئته. هذا ما كان عليه كل واحدٍ منهم قبل أن يصبح ثيوصوفياً، أو بالأحرى

---

[54] انجيل متى، 5، 40. (المترجم).

عضواً في الجمعية التي تُدعى بهذا الاسم. لأنه، لا يمكن للمرء أن يكرر أكثر من اللازم، بأن هناك فرق بين الأكثر أهمية بين المثالية المجردة ومركبتها أو هيكلها[55].

[55] أي الجمعية كمؤسسة ومنظمة.

المجرد والملموس

سؤال: من فضلك وضح توضيحاً أكثر عما يتمثل هذا الاختلاف.

الثيوصوفي: الجمعية عبارة عن رابطة واسعة من الرجال والنساء تتكون من أكثر العناصر غير المتجانسة. إن الثيوصوفيا، بمعناها التجريدي، هي الحكمة الإلهية، أو مجموع المعرفة والحكمة التي هي أساس الكون - تجانس الخير الأبدي. بالمعنى الملموس، إنها المجموعة الكاملة لعناصر هذه الثيوصوفيا المجردة التي حصل عليها الإنسان من الطبيعة على هذه الأرض، ولا شيء أكثر من ذلك. بعض الأعضاء جادون في إدراك الثيوصوفيا وجعلها، إذا جاز التعبير، موضوعية في حياتهم. بينما لا يريد الآخرون سوى الاستفسار عنها، دون الرغبة في وضعها موضع التنفيذ. هناك آخرون انضموا إلى الجمعية بدافع الفضول فقط، أو بسبب اهتمام عابر، أو لأن بعض أصدقائهم كانوا جزءاً منها. كيف يمكن للمرء إذن الحكم على المنهج الثيوصوفي من أولئك الذين ينتحلون لأنفسهم لقب ثيوصوفيين دون وجه حق؟ هل نحكم على الشعر، أو سوء استعماله، من أولئك الذين يُطلق عليهم اسم الشعراء الذين يصرعون آذاننا؟

بنفس الطريقة، لا يمكن اعتبار الجمعية بأنها تعبير حيّ عن الثيوصوفيا إلا في الدوافع المجردة التي تتبعها. لن تدعي أبداً أنها هيكلها الملموس ما دامت العيوب البشرية والضعف كلها ممثلة فيها، وإلا فإن الجمعية لن تفعل سوى تكرير الخطأ

الكبير وانتهاك المقدس المتسلسل من قبل ما يُسمى كنائس المسيح. إذا كان مسموحاً استخدام الاستعارات الشرقية، فإن الثيوصوفيا هي محيط ليس له شواطئ للحقيقة والحب والحكمة الكونية التي تعكس روعة الأرض، في حين أن الجمعية الثيوصوفية هي مجرد فقاعة ظاهرة على سطح هذا الانعكاس. الثيوصوفيا هي الطبيعة الإلهية، المنظورة وغير المنظورة، وجمعيتها هي الطبيعة الإنسانية، التي تسعى جاهدة للارتقاء إلى أصلها الإلهي. أخيراً، فإن الثيوصوفيا قابلة للمقارنة مع الشمس الأزلية والسرمدية، في حين أن جمعيتها هي المُذَنَب الهارب الذي يسعى إلى الاستقرار في مدار ليكون قادراً على التحول إلى كوكب، يدور إلى الأبد في مجال جاذبية شمس الحقيقة. تأسست الجمعية لمساعدة البشر على إثبات وجود شيء اسمه ثيوصوفيا، ومساعدتهم على الارتقاء نحوها من خلال دراسة واستيعاب حقائقها الأبدية.

سؤال: اعتقدت أنك قلت إنه ليس لديك مذاهب أو عقائد؟

الثيوصوفي: ليس لدينا أي منهما، في الواقع. الجمعية ليست لديها حكمة خاصة بها يجب أن تدافع عنها أو تعلمها.. إنها ببساطة مسؤولة عن وديعة كل الحقائق التي حددها العرافين الكبار، ومساررين وأنبياء العصور التاريخية وحتى عصور ما قبل التاريخ - على الأقل، لكل ما يمكن أن تجمعه. إنها ببساطة القناة التي تنتشر من خلالها في جميع أنحاء العالم جزءاً أكبر أو أقل من الحقيقة الموجودة في مجموع تعاليم كبار معلمي الإنسانية.

سؤال: ولكن هل نظير هذه الحقيقة متعذر الوصول إليها خارج الجمعية؟ ألا تدعي جميع الكنائس الشيء نفسه؟

الثيوصوفي: لا، على الإطلاق. إن الوجود الذي لا ريب فيه لمسارَرين كبار – "أبناء لله" الحقيقيين – يدل على أن حكمة كهذه كثيراً ما كان يتم بلوغها على يد أفراد معزولين، وإن لم يستغنوا في البداية عن إرشاد معلِّم. غير أن معظم أتباع أمثال هؤلاء المعلِّمين، عندما أصبحوا معلمين بدورهم، اختزلوا عالمية هذه التعاليم إلى الثلم الضيق لعقائدهم المذهبية. فكانت وصايا معلِّم مختار واحد هي التي يؤخذ بها وتُتَّبَع باستبعاد سواها – هذا إذا اتُّبِعت أصلاً، كما في حالة الموعظة على الجبل. وهكذا فإن كل دين هو جزء من الحقيقة الإلهية استُخدِمت لإسقاط مشهد واسع حاكته المخيِّلة البشرية، ادَّعى تمثيل الحقيقة والحلول محلها.

سؤال: لكنك تقول إن الفلسفة ليست دين؟

الثيوصوفي: بالتأكيد، ليست دين، في الواقع، لأنها جوهر كل دين وجوهر الحقيقة المطلقة، والتي قطرة واحدة منها فقط هي أساس كل معتقد. لكي استخدم مرة أُخرى إعارة مجازية، فإن الثيوصوفيا هنا، مثل الضوء الأبيض للطيف الشمسي، ولكل دين لون واحد فقط من الألوان السبعة للمنشور. كل شعاع من الألوان، يتجاهل كل الآخرين ويصرح بأنها ألوان كاذبة ويزدريها، لا يدعي فقط التفوق، بل يدعي أيضاً بأنه الضوء الأبيض نفسه، ويدين حتى ظلال تدرجاته اللونية الخاصة به من الفاتح إلى الغامق، بكونها بدع. ومع ذلك، مثلما تشرق شمس الحقيقة دائماً فوق أفق تصور الإنسان، ويتلاشى كل

شعاع من الألوان حتى يتم استيعابها بدوره بالكامل، كذلك سينتهي المطاف بالإنسانية التي تعاني من الاستقطاب الاصطناعي، لتجد نفسها مستحمة في نور الشمس النقية العديمة اللون للحقيقة الأزلية. وسيكون هذا الثيوصوفيا الحقيقية.

سؤال: أنت تدعي، إذن، أن جميع الأديان العظيمة مشتقة من الثيوصوفيا، وأنه من خلال استيعاب هذه الثيوصوفيا، سيتم في النهاية تحرير العالم من ويلات أوهامه وأخطاءه العظيمة؟

الثيوصوفي: بالضبط. ونضيف أن جمعيتنا الثيوصوفية هي البذرة المتواضعة التي، إذا سقيناها وتركناها تعيش، ستنتج في نهاية المطاف شجرة معرفة الخير والشر التي تم تطعيمها على شجرة الحياة الأبدية. لأنه فقط من خلال دراسة مختلف الديانات والفلسفات العظيمة للبشرية، ومقارنتها دون عاطفة ودون تحيز، يمكن للبشر أن يأملوا في الوصول إلى الحقيقة. ولا سيما من خلال اكتشاف وملاحظة مختلف النقاط فيما بينها يمكننا الوصول إلى هذه النتيجة. في الواقع، بمجرد أن نصل إلى إدراك أهميتها الباطنية - سواء من خلال الدراسة، أو من خلال تلقي تعاليم من شخص مستنير فإننا نجد في جميع الحالات تقريباً، أنها تعبر عن حقيقة كبرى للطبيعة.

سؤال: لقد سمعنا عن العصر الذهبي الذي كان موجوداً من قبل، وما تصفه أنت سيكون عصراً ذهبياً سيتحقق في يوم ما في المستقبل. متى سيحدث هذا؟

الثيوصوفي: ليس قبل أن تشعر الإنسانية ككلٍ بالحاجة إليه. هناك حكمة في كتاب جافيدان خراد الفارسي تقول: "الحقيقة

من نوعين: واحدة ظاهرة تُعرف بذاتها، والثانية تتطلب باستمرار استنباط جديد وأدلة". عندما يصبح هذا النوع الثاني من الحقيقة واضحاً للجميع في مثل باطنيته اليوم - الذي تعرض للتشويه بالسفسطة وبالمماحكة - وليس قبل أن يعود وجها الحق وجهاً واحداً، سيتمكن الناس من أن يروا رؤية متماثلة.

سؤال: لكن، بلا شك، فإن القلة التي تشعر بالحاجة إلى مثل هذه الحقائق يجب أن تقرر تبني اعتقاد معين؟ أخبرتني أنه بما أن الجمعية ليس لها عقيدة خاصة بها، فكل عضو حر في تصديق ما يريد وقبول ما يرغب به. وهذا يعطي انطباعاً بأن الجمعية الثيوصوفية تهدف إلى إحياء الالتباس بين اللغات والمعتقدات في برج بابل القديم. أليس لديكم معتقدات مشتركة؟

الثيوصوفي: عندما نؤكد أن الجمعية ليس لديها عقائد ولا مذاهب، فإننا نعني أنه لا توجد عقائد أو معتقدات خاصة مُلزمة لأعضائها. لكن، بالطبع، هذا ينطبق فقط على الجمعية ككل. هذا، كما قلت بالفعل، يضم قسمين، قسم ظاهري وقسم باطني. أولئك الذين ينتمون إلى هذا الأخير لديهم بطبيعة الحال فلسفة أو، إذا كنت تفضل ذلك، نظام ديني خاص بهم.

سؤال: هل يجوز معرفة ما هو؟

الثيوصوفي: نحن لا نجعل منه سراً. هذا النظام قد تم وصفه قبل بضع سنوات في الثيوصوفي[56] وفي البوذية الباطنية[57]

---

[56] مجلة الثيوصوفي.
[57] كتاب البوذية الباطنية.

وبشكل أكثر تفصيلاً، في العقيدة السرية[58]. وهو يستند إلى أقدم فلسفة في العالم، تُسمى الحكمة دين - الحكمة، أو العقيدة القديمة. إذا كنت ترغب في ذلك، يمكنك طرح الأسئلة وسنحاول الإجابة عليها.

---

[58] **H. P. Blavatsky, The Secret Doctrine, Londres : The Theosophical Publishing Company Limited, 1888.**

الباب الخامس

التعاليم الأساسية للثيوصوفيا

الله والصلاة

سؤال: هل تؤمنون بالله؟

الثيوصوفي: هذا يتوقف على ما تعنيه بهذا المصطلح.

سؤال: أقصد إله المسيحيين، أب يسوع والخالق، بكلمة واحدة، إله موسى والكتاب المقدس.

الثيوصوفي: نحن لا نؤمن بمثل هذا الإله. نحن نرفض فكرة وجود إله شخصي، أو مفارق للكون ومُجَسَم، والذي ليس سوى ظلاً هائلاً للإنسان، وأيضاً، هو ليس أفضل ما لدى الإنسان. إله اللاهوت، نقول - ويمكننا إثبات ذلك - هو كتلة من التناقضات، استحالة منطقية. لهذا السبب ليس لنا علاقة معه.

سؤال: ما هي أسبابكم؟

الثيوصوفي: إنها عديدة، ولا يمكننا عرضها كلها. ولكن هنا بعضٍ منها. هذا الله يُدعى اللانهائي والمطلق من قبل المؤمنين، أليس كذلك؟

سؤال: أعتقد ذلك.

الثيوصوفي: حسناً! إذا كان لا متناهي، يعني غير محدود وخاصة إذا كان مطلق، كيف يمكن أن يكون له شكل ويكون خالق أي شيء؟ الشكل ينطوي على وجود قيود، بداية ونهاية ولعملية الخلق، يتوجب وجود كائن يفكر ويضع مخطط. كيف يمكن للمرء أن يتخيل أن المطلق يفكر، وهذا يعني، يدخل في أي علاقة مع ما هو محدود ومنتهي ومشروط؟ إنها فكرة عبثية، من وجهة النظر الفلسفية والمنطقية. حتى الكابالا العبرية ترفض مثل هذه الفكرة، وبالتالي فهي تجعل من المبدأ الواحد، الإلهي والمطلق، وحدة لانهائية، تُدعى أين صوف[59]. لكي تتم عملية الخلق، يجب على الخالق أن يصبح فعالاً وحيث أن هذا مستحيل بالنسبة إلى المطلق في حد ذاته[60]، كان من الضروري تمثيل المبدأ اللانهائي باعتباره سبب تطور (وليس خلق) بشكل غير مباشر، وهذا يعني صدور فيض من السفيرات منه (عبثية أُخرى، والتي يجب أن تُعزى هذه المرة لمترجمي الكابالا[61]).

---

[59] أين صوف، אין סוף = τὸ πᾶν = τὸ ἄπειρον, الذي لا نهاية له، أو غير المحدود، في الطبيعة ومعها، المعدوم الذي هو الكائن، لكنه ليس من الكائنات.

[60] تستخدم بلافاتسكي هنا المصطلح المطلق - الإطلاقية (المترجم).

[61] كيف يمكن للمبدأ الأزلي عديم الفعل أن يفيض أو يبثَّ؟ إن بَـارابراهما الفيدنتي لا يفعل شيئاً من هذا القبيل، ولا أين صوف الكابالي الكلداني. إن قانوناً أزلياً دورياً هو الذي يجعل قوة فاعلة وخالقة (اللوغوس) تفيض

سؤال: لكن كيف تفسرون أن هناك كاباليين يمكنهم أن يؤمنوا بيهوه أو بالرباعي[62]؟

الثيوصوفي: يمكنهم الاعتقاد بما يرضيهم، إن اعتقادهم أو عدم اعتقادهم، لن يغير حقيقة بديهية. يخبرنا اليسوعيون أن اثنين واثنين لا يصنعان بالضرورة أربعة، وأن 2 × 2 = 5 إذا كانت هذه هي إرادة الله. فهل هذا مبرر لقبول سفسطائيتهم؟

سؤال: إذن أنتم ملحدين؟

الثيوصوفي: ليس على حد علمنا، إلا إذا كانت عبارة "ملحد" تنطبق على جميع أولئك الذين لا يؤمنون بالله المجسم والمؤنسن. نحن نؤمن بمبدأ كوني شامل وإلهي، أصل الكل يصدر منه كل شيء وإليه يرجع كل شيء في نهاية دورة الوجود العظيمة.

سؤال: لكن هذه هي الفكرة القديمة للحلولية. فإذا كنتم حلوليين، فلا يمكنكم أن تكونوا ألوهيين، وإذا لم تكونوا ألوهيين، فينبغي أن تُدعَوا ملحدين.

الثيوصوفي: ليس بالضرورة. لأن مصطلح "حلولية" هو أيضاً واحد من مصطلحات كثيرة يُساء استخدامها، وقد شوَّه معناها الحقيقي الأصلي بسبب التعصب الأعمى والرؤية الأحادية الجانب. فإذا قبلتم بالاشتقاق المسيحي لهذه الكلمة المركَّبة

من المبدأ المستتر أبداً وغير القابل للفهم عند بداية كل ماها مانفنتارا أو دورة جديدة من دورات الحياة.

[62] Tétragramme.

وشكَّلتموها من "كل[63]"، و "إله[64]"، ثم تصورتم وعلَّمتم أن هذا يعني أن كل حجر وكل شجرة في الطبيعة إله، الإله الواحد فأنتم عندئذٍ بالطبع على حق، وبذلك تجعلون من الحلوليين عبدة أصنام، بالإضافة إلى ما يعنيه اسمهم الشرعي. لكن سيصعب عليكم أن تنجحوا بمثل هذا النجاح إذا اشتققتم كلمة حلولية اشتقاقاً باطنياً كما نفعل نحن.

سؤال: ما هو التعريف الذي تقدمونه؟

الثيوصوفي: اسمح لي أن أطرح عليك بدوري سؤالاً. ماذا تقصد بكلمة بان، أو الطبيعة؟

سؤال: الطبيعة هي، كما أظن، هي كل الأشياء الموجودة حولنا، جميع الأسباب والنتائج في العالم المادي، الخلق أو الكون.

الثيوصوفي: وبالتالي، أليس هذا هو المجموع والنظام المشخصن للأسباب والنتائج المعروفة، مجمل جميع العوامل والقوى المحدودة، دون أي علاقة لها مع الخالق أو الخالقين الأذكياء، وربما، أن تكون حقيقة واقعة على أنها تشكل قوة مميزة واحدة "، وفقاً لتعريف موسوعاتكم؟

سؤال: في الواقع، أعتقد ذلك.

---

63 πάν.

64 θεος.

الثيوصوفي: حسناً، نحن لا نأخذ بالاعتبار هذه الطبيعة الموضوعية المادية التي ندعوها وهماً زائلاً، ولا نحن نعني بـ[65] الطبيعة، بمعنى اشتقاقها المقبول من اللاتينية *Natura* (الصيرورة *nasci*، من الولادة). عندما نتكلم عن الألوهة ونجعلها مماثلة، وبالتالي مزامِنة للطبيعة، فإن المقصود من ذلك هو الطبيعة الأبدية غير المخلوقة، وليس جملة ظلالكم الهاربة وأوهامكم الزائلة. إننا نترك لمؤلفي الأناشيد أن يسمُّوا السماء أو الفردوس المرئي عرش الله، وأرضنا الترابية موطئ قدميه. إلهنا غير موجود في فردوس، ولا هو في شجرة، أو بناء، أو جبل معيَّن: إنه في كل مكان، في كل ذرة من ذرات الكوسموس، المرئي وغير المرئي على حدٍّ سواء، في، فوق وحول كل ذرة غير مرئية وكل جزيء قابل للانقسام؛ ذلك أن "ذاك" هو قدرة الانفتاح والانغلاق السرِّية، والكمون المبدع المالئ الكل، القادر على كل شيء، وحتى العالم بكل شيء.

سؤال: توقف! العلم الكليّ هو من اختصاص شيء يفكر، وأنتم تنكرون على المطلق القدرة على التفكير.

الثيوصوفي: نحن نرفض ذلك للمطلق، لأن الفكر شيء محدود ومشروط. لكن من الواضح أنك تنسى أن اللاوعي المطلق في الفلسفة هو الوعي المطلق أيضاً، وإلا فلن يكون مطلق.

سؤال: المطلق الخاص بكم يفكر إذن؟

---

65 nâv.

الثيوصوفي: لا، إنه لا يفكر، لسبب بسيط وهو أنه الفكر المطلق نفسه. وهو غير موجود أيضاً، للسبب نفسه، لأنه الوجود المطلق، الكينونة[66]، وليس كائناً.
اقرأ قصيدة سليمان بن يهوذا جبريل الكبالية الرائعة في "كيثر ملكوت[67]" ولسوف تفهم: "أحدٌ أنت، أصل كل الأعداد، لكن ليس كعنصر عددي، إذ الوحدة لا تقبل التكثر أو التغيُّر أو الشكل. أحدٌ أنت، وفي سرِّ أحديتك يضيع أحكم الحكماء، لأنهم لا يعرفونها. أحدٌ أنت، وأحديتك لا نقصان فيها أبداً، ولا زيادة ولا تغيُّر. أحدٌ أنت، وما من فكرة من أفكاري يمكنها أن تحدَّك أو يعيِّنك. أنت هو الكائن، ولكن ليس ككائن موجود، لأن إدراك البشر ونظرهم لا قدرة لهم على الإحاطة بوجودك، ولا على تعيين أينك أو كيفك أو لما ذاك" إلخ، إلخ. باختصار فإن إلهنا هو باني الكون الأزلي، الذي لا يتوقف عن التطوَّر، وليس خالقه. ذلك الكون عينه المتفتِّح عن ماهيَّته، وليس المصنوع. إنه، في رمزيته، هو دائرة لا محيط لها، ليس لها إلا صفة واحدة فاعلة أبدية تحيط بكل الصفات الموجودة أو المعقولة الثانية – هو. إنه القانون الأوحد، الذي تنبثق عنه القوانين المتجلِّية، الأبدية، والثابتة، ضمن ذلك القانون غير المتجلِّي أبداً، لأنه القانون المطلق الذي يكون في فترات تجلِّيه الصيرورة الأبدية.

سؤال: لقد سمعت أن أحد أعضاؤكم ينوه أن الألوهة الكونية بكونها في كل مكان، هي موجودة أيضاً في كوب شريف كما هي موجودة كذلك في كوب من العار، وبالتالي هي موجودة

---

[66] En anglais, Be-ness.

[67] كيثر هي أحد الأقانيم الثلاثة (كيثر، شوكماه، بيناه). كيثر تعني القطر شوكماه يعني الحكمة، بيناه تعني البينة.

في كل ذرة من رماد السيكار الخاص بي! أليس هذا تجديفاً فادحاً؟

الثيوصوفي: في رأيي، لا، لأن ما هو المنطق البسيط لا يمكن أن يكون تجديفاً. إذا استثنينا مبدأ الوجود في كل مكان من نقطة رياضية واحدة من الكون، أو في جسيم من المادة التي تشغل أي مكان يمكن تصوره، كيف يمكننا أن نعتبره غير متناهي؟

هل الصلاة ضرورية؟

سؤال: هل تؤمنون بالصلاة وهل تصلون؟

الثيوصوفي: نحن لا نصلي. نحن نتصرف بدلاً من أن نتكلم؟

سؤال: ألا تصلون حتى للمبدأ المطلق؟

الثيوصوفي: لماذا نفعل ذلك؟ بما أنا مشغولون للغاية، فإننا لا نضيع الوقت في توجيه الصلوات اللفظية لمن هو تجريدي خالص. لا يمكن أن يكون للمجهول أي علاقات ثانية غير تلك الموجودة في أجزائه المختلفة، لكنه غير موجود فيما يتعلق بأي علاقة محدودة. يعتمد الكون المرئي، لوجوده وظواهره على أشكاله التي تعمل على بعضها البعض، وعلى قوانينها وليس على الصلاة، أو على صلوات.

سؤال: ألا تؤمنون بفعالية الصلاة على الإطلاق؟

الثيوصوفي: ليس بفاعلية تلك الصلاة التي يتم تعليمها لكم لتكرارها شفهياً، أو على الأقل، من خلال صلاة الالتماس التي يتم تقديمها إلى إله غير معروف بوصفه المُخاطب. كان اليهود هم الذين أقاموا هذا النوع من الصلاة، وروجها الفريسيون.

سؤال: هل هناك نوع آخر من الصلاة؟

الثيوصوفي: بكل تأكيد نحن نسميها صلاة الإرادة، وهي باطنية أكثر مما هي إلتماس وطلب.

سؤال: إذن، لمن تصلون في هذه الحالة؟

الثيوصوفي: نصلي ل "أبانا الذي في السماوات[68]" بالمعنى الباطني لهذه المصطلحات.

سؤال: هل يختلف هذا المعنى عن المعنى اللاهوتي؟

الثيوصوفي: إنه مختلف بالكامل. العالم بالغيبيات، أو الثيوصوفي يوجه صلاته إلى أبيه الموجود في السر (اقرأ وحاول فهم نص، متى، 6، 6) وليس إلى إله خارج عن الكون، وبالتالي منتهي[69]. هذا "الأب" هو في الإنسان نفسه.

سؤال: إذن، أنتم تجعلون الإنسان إلهاً؟

الثيوصوفي: قل "الله"، أرجوك، وليس إله. وفقاً لنا، فإن الإنسان الباطني هو الإله الوحيد الذي يمكننا معرفته. كيف يمكن أن يكون الأمر خلاف ذلك؟ إذا قبلنا فرضية أن الله هو مبدأ لا متناهي وحاضر بكل الكون: في هذه الظروف، كيف يكون الإنسان هو الوحيد الاستثناء، ولا يمكن أن يخترقه الإلهي وينبث فيه ويغمره بالكامل؟

نحن نطلق على "أبانا الذي في السماوات" تلك الماهية الألوهية التي نشعر أنها موجودة في داخلنا، في قلوبنا ووعينا الروحي، وهذا لا علاقة له بالهيئة المؤنسنة التي يمكن

---

[68] انجيل متى، 6، 9 (المترجم).
[69] له نهاية، محدود.

لدماغنا المادي ولتصوراته أن يشكلها. "ألا تعلمون أنكم هيكل الله، وأن روح الله – المطلق - يقيم فيكم؟"[70] [71].

ولكن لا يحاول أحد أن يؤنسن تلك الماهية فينا، ولا يحاول أي ثيوصوفي - إذا أراد أن يتعلق بالحقيقة الإلهية وليس بالحقيقة الإنسانية - أن يقول إن "هذا الله الذي في السر" يستمع إلى الإنسان المنتهي أو الجوهر اللانهائي، أو أنه متميز، لأن كل هذا هو واحد. وكما أشرنا للتو، لا يوجد ثيوصوفي يعتبر الصلاة على أنها عريضة إلتماس. إنها بالحري سر، عملية غيبية يتم من خلالها تحويل الأفكار والرغبات المحدودة والمشروطة، والتي لا يمكن استيعابها من خلال العقل المطلق غير المشروط، إلى إرادة روحانية، وإلى المشيئة، وتُسمى هذه العملية "التحول الروحي". إن شدة تطلعاتنا المضطرمة تحول الصلاة إلى "حجر الفلاسفة"، ذلك الحجر الذي يحول

---

[70] الرسالة الأولى إلى الكورينثيين، 3، 16. (المترجم).

[71] غالباً ما تحتوي الكتابات الثيوصوفية على ادعاءات متضاربة حول مبدأ كريستوس في الإنسان. البعض يسميه المبدأ السادس (البودهي)، والبعض الآخر {آتمان) السابع. إذا أراد الثيوصوفيين المسيحيون استخدام مثل هذه التعبيرات، فإنهم يجعلونها دقيقة فلسفياً باتباع تشابه الرموز القديمة للحكمة الدينية. نقول إن كريستوس ليس فقط أحد المبادئ الثلاثة العليا، بل الثلاثة كلها تُعتبر الثالوث. يمثل هذا الثالوث الروح القدس، الآب والابن، لأنه يتوافق مع العقل المجرّد والروح المتمايز والروح المتجسدة. كريشنا والمسيح هم فلسفياً نفس المبدأ تحت مظهره الثلاثي. في البهاغافاد - غيتا، نرى أن كريشنا يُسمى نفسه، على حد سواء، آتمان، الروح المجردة، كشيتراجنيا، الإيغو العليا، أو الإيغو المتجسدة، والذات الكونية، وكل هذه الأسماء، التي تنتقل من الكون للإنسان، تتوافق مع آتما و بودهي و ماناس. إن الآنوغيتا مشبع بنفس العقيدة.

الرصاص إلى ذهب نقي. الجوهر المتجانس الوحيد "صلاة الإرادة" يصبح القوة النشطة أو الخالقة التي تنتج تأثيرات وفقاً لرغبتنا.

سؤال: هل تعني أن الصلاة هي سيرورة غيبية تنتج نتائج مادية؟

الثيوصوفي: بالتأكيد. قوة الإرادة تصبح قوة حية. لكن، ويل لأولئك الغيبيين والثيوصوفيين الذين، بدلاً من إبادة رغبات الأنا الشخصية الدنيا (أو الإنسان المادي) من خلال مخاطبة الأنا العليا والروحية، المغمورة بنور آتما - بودهي، يقولون لها: "لتكن مشيئتك، لا مشيئتي" وما إلى ذلك، ثم يبثون موجات حيوية من الإرادة لأغراض أنانية وشريرة! لأن هذا هو السحر الأسود، رجس، والسحر الروحي. لسوء الحظ، هذا هو الانشغال المفضل لرجال الدولة المسيحيين والجنرالات خاصة عندما يطلقون الجيوش ضد بعضها البعض لقتل بعضهم البعض. وقبل اتخاذ أي إجراء، ينخرطون في ممارسة من هذا النوع من السحر، ويقدمون، كلٍ في معسكره، صلاة إلى نفس رب الجيوش، ويترجون مساعدته لجز رقاب العدو بأفضل الوسائل.

سؤال: ولكن داود قد توسل رب الجنود لمساعدته على هزيمة الفلسطينيين وقتل السوريين والمؤابيين، و "قام الرب بحماية داود أينما ذهب". نحن فقط نتبع ما نجده في الكتاب المقدس.

الثيوصوفي: طبعا. لكن بما أنك تحبون، حسب علمنا، أن تدعوا أنفسكم مسيحيين وليس اسرائيليين أو يهود، فلماذا لا تتبعون بالحري وصية المسيح؟ إنه يأمركم بوضوح ألا تتبعوا

"الأولون" أو الشريعة الموسوية، بل أن تفعلوا ما يقوله لكم ويحذر أولئك الآخذين بالسيف بأنهم سوف يموتون هم أيضاً بالسيف[72]. لقد أعطاكم المسيح صلاة واحدة، عملتم منها صلاة شفهية، وموضوع فخر، بينما لا أحد يفهم معناها باستثناء عالم الغيبيات. عندما تتلونها، بشكلها الحرفي الميت، فأنتم تقولون "أعفنا من خطايانا كما نحن نغفر لمن أساء إلينا[73]" لكنكم لا تفعلون ذلك أبداً. أخبركم يسوع أيضاً أن تحبوا أعدائكم وأن تفعلوا الخير لأولئك الذين يضطهدونكم. بالتأكيد ليس "نبي الناصرة الوديع" من علمكم أن تصلوا إلى "أبيكم" ليساعدكم على قتل أعدائكم ومنحكم النصر عليهم. لهذا السبب نرفض ما تسمونه "الصلوات".

سؤال: لكن كيف تفسرون هذه الحقيقة العالمية المتمثلة في أن جميع الأمم والشعوب قد صلت وعبدت إله أو آلهة؟ حتى أن البعض قد عبدوا الشياطين والأرواح الشريرة والتمسوا منها محاباتها، ولكن هذا لا يثبت إلا عالمية الإيمان في فعالية الصلاة.

الثيوصوفي: هذا ما يفسر حقيقة أن الصلاة لها معاني ثانية كثيرة إلى جانب المعنى الذي أعطاه لها المسيحيون. لا يعني ذلك فقط مجرد شفاعة أو عريضة استرحام، بل قد عَنت بالحري في العصور القديمة، الابتهال والتعزيم.

المانترا، الصلاة الهندوسية المُنشدة بإيقاع، هي بالضبط هذا المعنى، لأن البراهمان يعتبرون أنفسهم متفوقين على جموع

---

[72] انجيل متى، 26، 52 (المترجم).
[73] انجيل متى، 6، 12 (المترجم).

الديفا أو "الآلهة". يمكن للصلاة أن تكون دعوة أو تعويذة لاستنزال اللعنة، أو النقمة (كما في الحالة التي يصلي فيها جيشان في وقت واحد من أجل إبادة أحدهما للآخر وبالعكس) وكذلك نعمة.

بما أن غالبية البشر، أنانيون للغاية ولا يصلون إلا من أجل أنفسهم، فإنهم يطلبون "خبزهم اليومي" بدلاً من كسبه بعملهم، تماماً كما يفعلون بالالتماس من الله ألا "يدخلهم في التجارب" بل أن يخلصهم (الملتمسين هم وحدهم) من الشرير فإنه يترتب على ذلك أن الصلاة كما تُفهم الآن، هي ضارة على نحو مضاعف:

أ) إنها تدمر في الإنسان، الثقة بالنفس.

ب) تطور في حد ذاتها الأنانية والإيغوية بشراسة أكثر من تلك التي وهبتها الطبيعة بالفعل. أكرر أننا نؤمن "بالاتحاد" مع "أبينا الذي هو في السر" وبعمل متزامن في انسجام معه. ونعتقد أيضاً أنه من الممكن، خلال لحظات نادرة من غبطة النشوة، الوصول إلى الاتحاد الوثيق لروحنا العليا - المنجذبة كما هي في اتجاه أصلها ومركزها - بالجوهر أو الماهية الكونية.

وتسمى هذه الحالة، خلال الحياة، السامادهي، وبعد الموت النيرفانا. نحن نرفض توجيه الصلوات لكائنات محدودة ومخلوقة، أي للآلهة والقديسين والملائكة، إلخ، لأننا نعتبر هذا عبادة أصنام، ونحن لا يمكن أن نصلي إلا للمطلق وذلك للأسباب التي سبق وتم توضيحها. لذلك نحن نحاول استبدال هذه الصلاة عديمة الجدوى مع أفعال جليلة تعطي نتائج جيدة.

سؤال: المسيحيون يسمونه غروراً وتجديفاً. هل هم مخطئين؟

الثيوصوفي: بالتأكيد. هم بالعكس، الذين يظهرون الغرور الشيطاني بالاعتقاد بأن المطلق، أو اللانهائي - على افتراض أنه قد يكون هناك بعض العلاقة بين غير المشروط والمشروط - قادر على الإصغاء إلى جميع الصلوات الحمقاء التي تمليها الشواغل الشخصية.

إنهم هم بأنفسهم أيضاً الذين يجدفون، في الواقع، بتعليمهم أن الله الكلي العلم والحضور يحتاج منا أن نصلي ليعرف ماذا يجب يفعل!

هذا، المفهوم من وجهة نظر الباطنية، يدعمه بوذا وكذلك يسوع. الأول يقول: "لا تنتظر شيء من آلهة لا حول لها ولا قوة، لا تصلوا! بل بالحري اعملوا، لأن الظلمات لن تشرق أبداً. لا تطلبوا شيئاً من الصمت لأنه لا يستطيع الكلام أو السماع[74]". والثاني، يسوع، ينصح "كل ما تطلبونه باسمي (اسم كريستوس) أعمله[75]". بالطبع، هذا الاقتباس، إذا تم أخذه حرفياً يتناقض مع حجتنا.

لكن إذا قبلناه باطنياً، مع معرفة كاملة بمعنى مصطلح "كريستوس" الذي يمثل في نظرنا "آتما، بودهي، ماناس" أو "الذات" فإنه يتم تأويل هذا الاقتباس على النحو التالي:

ي. أرنولد، نور آسيا، الكتاب الثامن (المترجم). 74
انجيل يوحنا، 14، 13 (المترجم). 75

[الإله الأوحد الذي علينا أن نعترف به ونصلي إليه، أو بالحري نعمل بالانسجام معه، هو روح الله تلك التي يكون جسدنا هو الهيكل لها والتي تقيم فيه].

الصلاة تقتل الثقة بالنفس

سؤال: لكن ألم يصلي المسيح نفسه، وأوصى بالصلاة؟

الثيوصوفي: هذا هو التقليد المتوارث، لكن هذه "الصلوات" تنتمي بالتحديد إلى نوع الاتحاد الذي تكلمنا عنه للتو، أي القول بالتواصل مع "الآب في السر". خلاف ذلك، إذا ماثلنا يسوع بالألوهة الكونية، فإن النتيجة التي لا مفر منها والتي سنخلص لها ستكون سخيفة وغير منطقية، لأنه هو "الإله الحقيقي في ذاته"، كان يصلي لنفسه، وبذلك فإنه يميز بين إرادة هذا الله عن إرادته الخاصة!

سؤال: هناك حجة أُخرى - وهي من جهة ثانية حجة يستخدمها بعض المسيحيين كثيراً. يقولون "لا أشعر بالقدرة على التغلب على شهواتي ونقاط ضعفي بقوتي الخاصة. لكن عندما أصلي ليسوع المسيح، أشعر أنه يعطيني القوة، وبقوته أنا قادر على التغلب عليها".

الثيوصوفي: لا يوجد شيء يثير الدهشة في ذلك. إذا كان "يسوع المسيح" هو الله، وإذا كان مستقلاً ومنفصلاً عن ذاك الذي يصلي له، فكل شيء يكون، ويجب أن يكون ممكناً بشكل طبيعي لمثل هذا "الله العظيم". ولكن أين هي الجدارة والاستحقاق أو العدالة في مثل هذا النصر؟ لماذا يكافأ المدعى بالفائز على ما لم يكلفه شيء سوى صلاته؟ أنت، الذي ليس سوى بشر، هل تريد أن تدفع للعامل أجور اليوم بأكمله، إذا

كان عليك أن تقوم بمعظم العمل من أجله بينما هو يجلس طوال الوقت تحت شجرة تفاح، متسولاً إليك بأن تعمل بدلاً عنه؟ إن فكرة قضاء كل حياتك في كسل أخلاقي، عن طريق جعل شخص آخر - سواء كان إلهاً أو إنساناً - يعمل أصعب ما في عمله وواجبه، يبدو لنا وكأنه مغيظ وفي منتهى الإهانة لكرامة الإنسان.

سؤال: قد يكون الأمر على هذا النحو. ومع ذلك، فإن فكرة الاعتماد على المنقذ الشخصي الذي يساعدك ويعززك في معركة الحياة هي الفكرة الأساسية للمسيحية الحديثة. لا شك في أن هذا الاعتقاد فعال للغاية ذاتياً، بمعنى أن أولئك الذين يلتزمون به يشعرون حقاً بالمساعدة والتعزيز.

الثيوصوفي: ولكن ليس هناك شك في أن بعض المرضى الذين عولجوا من قبل العلماء الذهنيين والعلماء المسيحيين والمنكرين والنافين الكبار[76]، قد عولجوا أيضاً في بعض الأحيان، وأن التنويم المغناطيسي، والإيحاء، وعلم النفس وحتى الوساطة الأرواحية، من شأنها أن تنتج نتائج مماثلة في كثير من الأحيان، إن لم يكن أكثر. أنت لا تأخذ في الاعتبار إلا قصص النجاح، لتقديم حجتك. لكن ماذا تقول عن حالات الفشل، والتي هي أكثر بعشر مرات؟ بالتأكيد لن تتجرأ على

---

[76] طائفة جديدة من المعالجين الذين، عن طريق إنكار وجود أي شيء خارج الروح - التي لا تعرف الألم ولا المرض – يزعمون أنهم يشفون كل الأمراض، على أن يؤمن المريض بأن ما يُنكِر لا وجود له. إنه شكل جديد من التنويم المغناطيسي الذاتي.

القول، حتى مع كفاية الإيمان الأعمى، أن الفشل غير معروف بين المسيحيين المتزمتين؟

سؤال: ولكن كيف يمكنك شرح الحالات التي يكون فيها النجاح كاملاً؟ وأين يجد الثيوصوفي القدرة على التحكم في شهواته وأنانيته؟

الثيوصوفي: يلجأ إلى ذاته العليا، الروح الإلهية أو الإله الذي بداخله، وإلى كارماه. كم مرة سيكون من الضروري لنا أن نكرر أن الشجرة تُعرَف من ثمارها، وطبيعة سبب نتائجه؟ أنت تتحدث عن التحكم بالأهواء، وأن تصبح إنساناً صالحاً بمساعدة أو بتأثير من الله، أو المسيح. نسأل: أين نجد أكثر الناس فضيلة وبراءة من الذين يمتنعون عن الخطيئة والجريمة؟ هل في المسيحية أو في البوذية؟ في البلدان المسيحية أم الأراضي الوثنية؟ الإحصائيات موجودة للإجابة على هذا السؤال وتأكيد ما نقوله. وفقاً لآخر إحصاء في سيلان والهند، فإن جداول الجرائم المقارنة بين المسيحيين والمسلمين والهندوس والآسيويين والبوذيين وما إلى ذلك حسب عينة يبلغ عددها مليوني شخص مأخوذة عشوائياً وتمتد على مدى فترة من السنوات تبين لنا أن نسبة الجرائم التي يرتكبها السكان المسيحيون هي 15 إلى 4 بالنسبة للجرائم التي يرتكبها السكان البوذيون (انظر لوسيفر، أبريل 1888 147، مقال: "محاضرون مسيحيون عن البوذية")[77].

---

[77] "محاضرون مسيحيون يتحدثون عن البوذية"(المترجم).

ما من مستشرق أو مؤرخ بارز، ولا رحالة سافر إلى بلد بوذي من الأسقف بيجاندت والأب هوك، إلى السير ويليام هانتر وغيرهم من المسؤولين المنصفين، سوف يتردد في منح وسام الفضيلة للبوذيين قبل المسيحيين. ومع ذلك فإن الأوائل (ليسوا أتباع الملَّة البوذية السيامية الأصيلة، على كل حال) لا يؤمنون لا بالله ولا بثواب مقبل خارج هذه الأرض. إنهم لا يصلُّون، لا كهنتهم ولا العلمانيين بينهم. وإنهم ليهتفون مستغربين: "نصلِّي! لمن، وماذا نصلي؟".

سؤال: إذن هم ملحدون حقيقيون؟

الثيوصوفي: مما لا شك فيه. لكنهم أيضاً أناس يحبون الفضيلة فوق كل شيء آخر، ويمارسونها أكثر من أي شخص آخر في العالم. تُعَلم البوذية: احترم ديانات الآخرين وأبقى وفياً لديانتك لكن مسيحية الكنيسة، في ادانتها لجميع آلهة الأمم الأخرى بوصفها شياطين، تريد إدانة أي شخص غير مسيحي بالهلاك الأبدي.

سؤال: ولكن ألا يفعل الكهنة البوذيون نفس الشيء؟

الثيوصوفي: أبداً. إنهم حريصون على التمسك بالوصية الحكيمة الواردة في الدهامابادا بحيث أنهم لا يتصرفوا على هذا النحو، لأنهم يعرفون أنه "إذا كان أي إنسان، متعلم أو غير متعلم، يعتبر نفسه إنساناً عظيماً لدرجة أنه يحتقر البشر الآخرين، فهو أشبه بأعمى يحمل شمعة – لينير الآخرين ويبقى هو أعمى".

أصل النفس الإنسانية

سؤال: كيف تفسرون حقيقة أن الإنسان موهوب روحاً ونفساً؟ ومن أين أتوا؟

الثيوصوفي: من الروح الكونية، وهم بالتأكيد ليسوا هبة من إله شخصي. من أين يأتي العنصر الرطب في قنديل البحر؟ من المحيط الذي يحيط به ويعيش فيه، ويتنفس ويوجد، وسيعود إليه عندما يتحلل.

سؤال: إذن أنتم ترفضون التعاليم القائلة بأن الله هو الذي يهب الروح للإنسان، أو من ينفخها فيه؟

الثيوصوفي: نحن مضطرون لذلك. "النفس" المشار إليها في سفر التكوين (2: 7) هي، كما يُقال "الروح الحية" أو نفش (الروح الحيوية، الحيوانية) التي يهبها الله (أو لنقل "الطبيعة" والقانون السرمدي) للإنسان، وكذلك لكل حيوان. إنها ليست الروح المفكرة أو العقل على الإطلاق، ناهيك عن أن تكون الروح الخالدة.

سؤال: حسناً. لنطرح السؤال بطريقة أُخرى: هل الله هو الذي يهب الإنسان نفس إنسانية عاقلة وروح خالدة؟

الثيوصوفي: مرة أُخرى، إذا طرحت السؤال بهذه الطريقة فإننا سنضطر للاعتراض عليه. بما أننا لا نؤمن بإله الشخصي فكيف يمكننا أن نؤمن أنه يمنح الإنسان أي شيء؟ ولكن دعنا

نفترض، من أجل المناقشة، أن هناك إلهاً يأخذ على عاتقه خلق نفس جديدة لكل مولود جديد: كل ما يمكننا قوله هو أننا بالكاد نستطيع التفكير في أن مثل الإله يكون موهوب بالحكمة أو التبصر. بعض الصعوبات الثانية، مع استحالة التوفيق بين فعل الخلق المعين هذا مع الرحمة، والعدالة، والإنصاف والمعاناة التي تُعزى إلى هذا الإله، هي الكثير من المآزق القاتلة التي تتوقف عليها هذه العقيدة اللاهوتية في كل لحظة.

سؤال: ماذا تعني؟ ماهي الصعوبات التي تتحدث عنها؟

الثيوصوفي: أفكر في حجة لا يمكن دحضها وهي أن رجل دين سنهالياً بوذياً، واعظاً شهيراً، استخدم ذات مرة بحضوري للرد على مبشر مسيحي لم يكن جاهلاً حتماً للدخول بمناظرة علنية نظير تلك التي قُدمت خلالها الحجة. وقعت الحادثة بالقرب من كولومبو: لقد تحدى المبشر الكاهن البوذي ميغاتيفاتي أن يشرح بطريقة صحيحة لماذا لا يمكن "للوثنيين" قبول إله المسيحيين. طيب! كما يحدث عادة في مثل هذه الحالة، فقد كان المبشر المسيحي هو المهزوم في هذه المناقشة التي لا تُنسى.

سؤال: أود جداً أن أعرف كيف.

الثيوصوفي: استهل الكاهن البوذي بسؤال "بادري[78]" إن كان إلهه قد أعطى لموسى وصايا ليعمل بها البشر، بينما يحق لله وحده خرقها. فأنكر المبشِّر هذا الزعم وهو ساخط. فقال خصمه: "طيب، أنت تقول لنا بأن الله لا يستثني أحداً من هذه

كلمة إيطالية تعني "الأب" "الكاهن". [78]

القاعدة، وبأنه لا يمكن لنفس أن تولد بدون مشيئته. رغم أن الله يحرِّم الزنا، في جملة أشياء ثانية، فأنتم تقولون في نفس الوقت أنه هو الذي يخلق كل طفل يولد، وأنه هو الذي يهبه نفساً. أنفهم عندئذٍ من هذا أن ملايين الأطفال المولودين بالخطيئة والزنا هم من صنع الله؟ أن يحرِّم إلهكم خرق شرائعه ويعاقب عليه، ومع ذلك، يخلق كل يوم وكل ساعة نفوساً لمثل هؤلاء الأطفال؟ إلهكم، بحسب أبسط قواعد المنطق، متواطئ في الجرم، مادام لا يمكن لأبناء الزنا هؤلاء أن يولدوا بدون مساعدة وتدخل منه. أين العدل في الاقتصاص ليس من الآباء المذنبين وحسب، بل ومن الطفل البريء، على ما فعله ذلك الإله عينه، الذي تعفونه هو مع ذلك من أي ذنب؟". عندئذٍ نظر المبشِّر المسيحي إلى ساعته ووجد فجأة أن الوقت متأخراً جداً على متابعة هذه المناقشة.

سؤال: لقد نسيتم أن جميع الحالات التي لا يمكن تفسيرها، مثل هذه الحالة، هي أسرار، وأن ديننا يمنعنا من السعي للبحث أسرار الله.

الثيوصوفي: لا، نحن لا ننسى، لكننا ببساطة نرفض مثل هذه المستحيلات. نحن لا نطلب منك أن تصدق مثلنا. نحن فقط نجيب على الأسئلة التي تطرحها. ومع ذلك، فإننا نعطي اسماً آخر لما تسميه "السر".

التعاليم البوذية حول ما ورد أعلاه

سؤال: ماذا تعلم البوذية عن النفس؟

الثيوصوفي: يعتمد ذلك على ما إذا كنت تريد التحدث عن البوذية الشعبية الظاهرية أو تعاليمها الباطنية. إذا كنا نثق في الأولى، فإننا نجد التفسير التالي، الوارد في التعليم البوذي المقدس[79]: "النفس هي كلمة يستخدمها الجاهل للتعبير عن فكرة خاطئة. إذا كان كل شيء عرضة للتغيير، فإن الإنسان هو كذلك أيضاً، ويجب أن تتغير جميع عناصره المادية. ما هو قابل للتغيير ليس له صيرورة دائمة، لذلك لا يمكن أن يكون هناك وجود خالد لشيء عابر".

هذا يبدو بسيطاً وواضحاً. لكن إذا أخذنا في الاعتبار أن الشخصية الجديدة في كل ولادة جديدة متتالية هي مجموع من السكاندا - أو سمات - الشخصية القديمة، وإذا كنا نتساءل عما إذا كان هذا التجمع الجديد من السكاندا هو كائن جديد بالمثل والذي لا يبقى فيه شيء من السابق، هنا هو ما نقرأه: [بمعنى ما، هو كائن جديد، من ناحية أُخرى، ليس هكذا. خلال هذه الحياة، تتغير السكاندا باستمرار، وعلى الرغم من أن الانسان - فلان - البالغ من العمر 40 عاماً متطابق، كشخصية مع الشاب – فلان - الذي يبلغ من العمر 18 عاماً، إلا أنه يختلف عنه بفعل استخدام وإصلاح جسمه، وكذلك التغيرات المستمرة في ذكائه وشخصيته. ومع ذلك، في سن الشيخوخة يجني

---

[79] ه.س. أولكوت، التعليم الديني البوذي (المترجم).

الانسان إلى حد ما المكافأة أو العقوبة على أفكارهم وأفعالهم التي تعود إلى جميع المراحل السابقة من حياتهم. إذن الكائن الجديد الذي يظهر في هذه الولادة الجديدة].

[هو في الواقع نفس الفردية كما كان من قبل - ولكن ليس نفس الشخصية - يتم توفيرها فقط بنموذج معدّل، ومجموعة جديدة من السكاندا، وتجمع إلى حد ما عواقب تصرفات وأفكار وجودها السابق]. هذه هي الميتافيزياء العويصة، لكنها لا تعبر عن غياب الإيمان بالروح على الإطلاق.

سؤال: أليس هناك شيء مماثل في البوذية الباطنية؟

الثيوصوفي: بالتأكيد، لأن هذا التعليم ينتمي إلى كل من البوذية الباطنية، أو الحكمة السرية، والبوذية الظاهرية، أو الفلسفة الدينية لغوتاما بوذا.

سؤال: ولكن قيل لنا بوضوح أن معظم البوذيين لا يؤمنون بخلود النفس.

الثيوصوفي: نحن أيضاً لا نؤمن بذلك، إذا كنت تقصد بالنفس الأنا الشخصية، أو النفس الحيوية - نفش العبرية. لكن جميع البوذيين المتعلمين يؤمنون كما نؤمن نحن بالأنا الفردية أو الإلهية. أولئك الذين لا يعتقدون بذلك هم مخطئون، وهم مخطئون بنفس القدر في هذه النقطة مثلهم مثل المسيحيين الذين يقبلون تحريفات الكلمات اللاهوتية من قبل أولئك الذين أجروا المراجعات الأخيرة للأناجيل وكأنها أقوال يسوع، فيما يخص دينونة نار جهنم. لم يكتب بوذا ولا "المسيح" شيئاً أبداً، لقد تكلم كلاهما مجازاً واستخدموا "كلمات مبهمة" كما

فعل ذلك كل المساررين الحقيقيين، وكما سيفعلون لفترة طويلة. يتعامل الكتاب المقدس البوذي والمسيحي مع كل هذه الأسئلة الميتافيزيائية بحذرٍ شديدٍ، وكلاهما يخطئ بسبب الإفراط في الظاهرية، والتفسير حسب الحرف الميت البعيد جداً عن المعنى الحقيقي، في كلتا الحالتين.

سؤال: هل تقصد أنه حتى الآن لم يتم فهم تعاليم بوذا وتعاليم المسيح بشكل صحيح؟

الثيوصوفي: نعم، هذا هو بالضبط. الإنجيلان، أنجيل البوذيين والمسيحيين، تم التبشير بهما لنفس الغرض. كان الإصلاحيان مضطرمين ومحبين للإنسانية وإيثاريان، في الممارسة العملية، مما لا شك فيه أنهما قد بشرا بالاشتراكية من أعلى وأنبل نوع: التضحية بالنفس حتى النهاية. "دعوا ذنوب العالم كلها تقع عليّ". بكى بوذا "لكي أخفف من بؤس البشر ومعاناتهم! ...". وقال الأمير المتسول الذي كان يرتدي خرقاً بالية مهجورة في حقول الدفن: "لا أريد أن أترك صرخة ألم واحدة أستطيع أن أوفرها عن الآخرين". "تعالوا إليّ جميعكم أيها المتعبون والمثقلون، وأنا أريحكم[80]". هي الدعوة التي وجهها "رجل الآلام" إلى الفقراء والمحرومين، الذي لم يكن لديه موضع يريح عليه رأسه.

ركيزة تعاليم كليهما كانت المحبة التي لا حدَّ لها للإنسانية والإحسان، ومغفرة الإساءة، ونكران الذات، والرأفة بالجماهير المضلَّلة، كلاهما كان يبدي الازدراء نفسه للثروات، ولا يميز بين ما هو لي وما هو لك. وقد كانت رغبتهما، بدون أن يكشفا

---

[80] انجيل متى، 2. 28 (المترجم).

أسرار المسارَرة المقدسة للجميع، أن يقدما للجاهلين وللضالين - الذين كان عبئهم في الحياة أثقل من أن يحتملوه - ما يكفي من الرجاء وتلميحة كافية إلى الحقيقة تكفي لدعمهم في أحلك ساعاتهم. لكن غاية كلاّ المصلحين قد أحبطت من جراء فرط حماسة أتباعهم اللاحقين. لقد أسيء فهم وتأويل كلمات المعلمين ويمكنك الآن رؤية النتيجة لهذا الأمر!

سؤال: لكن لابد أن يكون بوذا قد رفض خلود النفس، إذا كان كل المستشرقين وحتى كهنته يقولون ذلك!

الثيوصوفي: لقد بدأ الأرهات[81] باتباع الخط الذي تبناه المعلم. معظم الكهنة الذين خلفوهم لم يكونوا مساررين، نظير كهنة المسيحية، وهكذا، شيئاً فشيئاً، ضاعت تقريباً الحقائق الباطنية العظيمة. والدليل الواضح على ذلك هو أنه من الطائفتين الموجودين الآن في سيلان، تعتقد أحداهما، السيامية، أن الموت هو الفناء المطلق للفردية وكذلك للشخصية، في حين أن الثانية تفسر النيرفانا بنفس الطريقة التي نفسرها نحن الثيوصوفيين.

سؤال: ولكن لماذا، في هذه الحالة، تمثل البوذية والمسيحية القطبين المتناقضين لهذا الاعتقاد؟

الثيوصوفي: لأنهم لم يبشروا في نفس السياقات. في الهند، قاد البراهمان، الغيورين على معرفتهم الفائقة والنابذين لكل الطوائف الأُخرى غير تلك الخاصة بهم، إلى سقوط الملايين

---

[81] تلاميذ ومعلمين روحيين كبار.

من الناس في عبادة الأصنام، إن لم يكن تقريباً في الوثنية. اضطر بوذا إلى توجيه ضربة مميتة إلى شطحات الخيال المعتلة والخرافات المتزمتة، التي أنتجها الجهل، وهو نادراً ما تم تجربته من قبلٍ أو بعد. الإلحاد الفلسفي هو أفضل من العبادة الجاهلة لهؤلاء

الذين يصرخون لآلهتهم

دون أن يسمعونهم

أو يلفتون انتباههم

والذين يعيشون ويموتون في محنة أخلاقية. كان على المبجل بوذا أن يبدأ بإيقاف تدفق كل هذا السيل الموحل من الخرافات واستئصال الأخطاء قبل الكشف عن الحقيقة. ولأنه لم يستطع الكشف عن كل شيء - لنفس السبب الذي ذكره يسوع لتلاميذه بأن أسرار ملكوت السماوات لم تكن للجماهير البطيئة الفهم بل للمختارين وحدهم، ولهذا السبب "تحدث إلى الناس بالأمثال" (إنجيل متي، ١٣، ٣، ١١) - فإن حذره قاده أكثر إلى إخفاء أكثر مما ينبغي. حتى أنه رفض أن يخبر الراهب فاكشاغوتا فيما إذا كانت هناك إيغو في الإنسان أم لا. وعندما ألح عليه للرد "فإن المبجل لزم الصمت[82]".

---

[82] يقدِّم بوذا لأناندا، التلميذ المسارَر الذي يسأل عن سبب هذا الصمت جواباً صريحاً لا لبس فيه في الحوار الذي ترجمه أولدنبرغ عن السميوتَّاكا نيكايا: "لو أني، أيا أننداا، عندما سألني الراهب المتجول فاكشاغوتَّا: "هل الإيغو موجودة؟"، أجبت: "الإيغو موجودة"، لكان ذاك يا أناندا، أكَّد صواب عقيدة السامانا والبراهمان الذين يعتقدون بالديمومة. ولو أني، يا أناندا، عندما سألني الراهب المتجول فاكشاغوتَّا: "هل الإيغو

سؤال: كل هذا يتعلق بغوتاما، لكن بماذا يتعلق بالأناجيل؟

الثيوصوفي: اقرأ التاريخ وتمعن به. في الوقت الذي زُعم فيه أن الأحداث التي تكلمت عنها الأناجيل قد حدثت، كان هناك تخمير مماثل للفكر قد حدث في العالم المتحضر بأسره، لكن نتائجه في الشرق والغرب كانت عكس ذلك. الآلهة القديمة كانت تموت. في حين أن الطبقات المتحضرة، في فلسطين، قد سمحت لنفسها بأن تتبع خطى الصدوقيون المنكرين، ووقعت في نفي الماديات وقبول الحرف الميت من القانون الموسوي وفي روما غرقت هذه الطبقات نفسها في الانهيار الأخلاقي وهرعت الناس من الطبقات الدنيا والأكثر فقراً، إلى السحر وعبادة الآلهة الغريبة، أو قد أصبحوا منافقين وفريسيين. مرة أُخرى، حان الوقت للإصلاح الروحي. إله اليهود القاسي المجسم والغيور، مع قوانينه الدموية التي تتطلب "العين بالعين، والسن بالسن"، مع سفك الدماء والأضحية الحيوانية كان من المقرر أن ينزل إلى المرتبة الثانية لإفساح الطريق

غير موجودة؟"، أجبت: "الإيغو غير موجودة"، لكان ذاك، يا أناندا، أكَّد صواب عقيدة الذين يعتقدون بالفناء. ولو أني، يا أناندا، عندما سألني الراهب المتجول فاكشاغوتًّا: "هل الإيغو موجودة؟"، أجبت: "الإيغو موجودة"، هل كان هذا سيخدم غايتي، أناندا، بإيجاد المعرفة فيه: كل الوجودات (دهامًا) هي لا- إيغو؟ ولكن لو كنت، يا أناندا، أجبت: "الإيغو غير موجودة"، لما كان لهذا أن يسبب، يا أناندا، غير إغراق الراهب المتجول فاكشاغوتًّا من حيرة إلى حيرة ثانية: "الايغو الخاصة بي، ألم توجد من قبل؟ لكنها الآن لم تعد موجودة!" هذا يبيِّن، خيراً من أي شيء، أن غوتاما بوذا ضنَّ على الجماهير بمثل هذه العقائد الميتافيزيائية العويصة من أجل ألا يزيدهم حيرة. ما قصده كان الفرق بين الإيغو الشخصية المؤقتة والذات العليا التي تضيء بنورها الإيغو التي لا تفنى "الذات" الروحية للإنسان.

أمام "الأب الرحيم في السر". كان لابد من إثبات أنه لم يكن إلهاً خارج الكون، بل كان مخلصاً إلهياً لإنسان الجسد، الذي كان يقيم في قلب ونفس الكل، الفقراء وكذلك الأغنياء. لم يكن بالإمكان الإفصاح عن أسرار المساررة في فلسطين أو في الهند، لأننا لو قمنا بإعطاء أشياء مقدسة للكلاب وألقينا باللآلئ للخنازير، كان من الممكن وطئ الكاشف وكشوفاته. سواء عاش يسوع خلال فترة التاريخ المنسوبة إليه أم لا، فقد امتنع، مثل بوذا، عن الكشف بوضوح عن أسرار الحياة والموت. لكن هذا الإحجام من جانبهم قد أدى في الحالة الأولى إلى النفي القاطع لبوذية الجنوب، وفي الحالة الثانية إلى الانقسامات العظيمة الثلاثة للكنيسة المسيحية، وإلى الطوائف والملل الـ 300 التي تمثل إنجلترا البروتستانتية وحدها.

الباب السادس

الطبيعة والإنسان بحسب التعاليم الثيوصوفية

وحدة الكل في الكل

سؤال: لقد قلت لي، من وجهة نظرك، ما ليس الله والروح والإنسان. هل يمكنك أن تخبرني ما هم إذاً، وفقاً لتعاليمكم؟

الثيوصوفي: الثلاثة، في أصلهم وفي أبديتهم، مثل الكون وكل ما يحتويه، يشكلون وحدة لا تنفصل عن الوحدة المطلقة، مع الجوهر القدسي غير المعروف الذي تحدثت عنه أعلاه. نحن لا نؤمن بأي خلق، لكننا نؤمن بالتجليات الدورية والمتتالية للكون، من المستوى التجريدي المعنوي إلى المستوي الموضوعي للوجود، على فترات منتظمة تغطي فترات زمنية هائلة.

سؤال: سؤال: هل يمكنك شرح هذا الموضوع بمزيد من التفاصيل؟

الثيوصوفي: لمساعدتك في تكوين تصور أكثر صواباً لذلك، قم بإجراء مقارنة من خلال أخذ، من ناحية، السنة الشمسية ومن

ناحية ثانية، نصفي هذا العام اللذين يتوافقان مع القطب الشمالي ليوم واحد وليلة واحدة وكلٍ منهما ستة أشهر. تخيل الآن، إذا كان يمكنك، بدلاً من سنة شمسية مدتها 365 يوماً الأبدية. افترض أن الشمس تمثل الكون وأن الأيام والليالي القطبية المؤلفة كلٍ منها من ستة أشهر، يدوم كلٍ منها 182 ترليون وكادرليون بدلاً من 182 يوم. وكما تشرق الشمس كل صباح فوق أفقنا الموضوعي، تاركة الفضاء المعنوي التجريدي، أو القطب المضاد، (بعلاقته بنا)، كذلك ينبثق الكون بالطريقة نفسها بشكل دوري على مستوى الموضوعية، منبثقاً من مستوى الذاتية، المضاد للمستوى للأول. هذه هي "دورة الحياة". ومثلما تختفي الشمس من أفقنا، فإن الكون يختفي في أوقات منتظمة، في كل مرة يعود فيها "الليل الكوني". يطلق الهندوس على هذه التعاقبات الدورية "نهارات وليالي براهما" أو فترات مانفانتارا وبرالايا (التحلل). يمكن للغربيين، إذا كانوا يفضلون، أن يطلقوا عليهم نهارات وليالي عالمية. خلال هذه الأخيرة (الليالي)، يكون الكل في الكل، يتم امتصاص كل ذرة في تجانس فريد من نوعه.

التطور والوهم

سؤال: لكن من الذي يخلق الكون، في كل مرة يُولد من جديد؟

الثيوصوفي: لا أحد يخلقه. يعطي العلم ما يبدو لك كخلق اسم التطور، دعاه فلاسفة ما قبل المسيحيين والشرقيين فيض، أما نحن، الغيبيين والثيوصوفيين، فلا نرى بذلك سوى السيرورة التي يعرض بها الحق الكوني والأبدي الوحيد انعكاساً دورياً لذاته على أعماق الفضاء اللانهائية، لفترة زمنية محدودة. هذا الانعكاس، الذي تعتبرونه الكون الموضوعي والمادي، نعتبره بمثابة وهم مؤقت وليس أكثر. فقط ما هو أبدي يكون حقيقي.

سؤال: في هذه الحالة، أنت وأنا أيضاً مجرد وهمان.

الثيوصوفي: كشخصيات سريعة الزوال - هذه اليوم، غداً تلك الشخصية - هذا ما نحن عليه. هل تسمي الومضات المفاجئة للشفق القطبي، الذي يضيء السماء الشمالية، "حقيقة" على الرغم من أنه حقيقي بقدر الإمكان أثناء مشاهدته؟ بالتأكيد لا لأن الواقع الوحيد هي العلة أو السبب الذي ينتج عنه، إذا كان دائماً وأزلياً، في حين أن النتيجة ليست سوى وهم سريع الزوال.

سؤال: كل هذا لا يفسر لي كيف يحدث هذا الوهم المُسمى بالكون، كيف يدعى الواعي ليظهر نفسه ويتجلى من اللاوعي؟

الثيوصوفي: إنه اللاوعي فقط لوعينا المحدود. في الحقيقة يمكننا إعادة صياغة كلمات القديس يوحنا (1، 5): [والنور "المطلق" - الذي هو الظلمات - يضيء في الظلام. وهذا يعني "النور المادي الوهم" والظلمات لم تدركه]. هذا النور المطلق هو أيضاً قانون مطلق وثابت.

سواء أكان بالإشعاع أم بالفيض - دعونا لا نتجادل حول المصطلحات - فإن الكون يخرج من حالته المعنوية التجريدية المتجانسة ليتكشف في أول مستوى التجليات، التي هي سبعة كما يتم تعليمنا. بالانتقال من مستوى إلى آخر، يصبح الكون أكثر كثافة ومادية، حتى يصل إلى هذا العالم (عالمنا) والذي هو العالم الوحيد المعروف والمفهوم تقريباً، بتكوينه المادي عن طريق العلم، هو نظامنا الكوكبي أو الشمسي، والذي يقال لنا إنه نسيج وحده[83].

سؤال: ماذا تعني بنسيج وحده؟

الثيوصوفي: أعني أنه، على الرغم من أن القانون الأساسي والنفاذ الكلِّي لقوانين الطبيعة ساريان على كلِّ شيء، يبقى أن نظامنا الشمسي (مثله كمثل كلِّ نظام آخر مماثل من بين ملايين الأنظمة الثانية في الكوسموس)، وحتى أرضنا، لديه برنامج التجلِّيات الخاص به المختلف عن البرامج الخاصة بكل الأنظمة الأُخرى. نحن نتكلم على سكان الكواكب الثانية ونتخيل أنهم إذا كانوا بشراً، أي كيانات مفكِّرة، فيجب بالتالي أن يكونوا مثلنا. إن مخيِّلة الشعراء والرسامين والنحاتين لا تقصِّر أبداً في التمثيل للملائكة حتى وكأنهم نسخة مُجمَّلة عن الإنسان – زائد

---

[83] Sui generis.

أجنحة! أما نحن فنقول بأن هذا كلَّه خطأ وضلال، ذلك أنه إذا كان المرء يجد على هذه الأرض وحدها تنوعاً كهذا في النبات والحيوان والجنس البشري – من أشنة البحر إلى أرزة لبنان ومن قنديل البحر إلى الفيل، ومن البوشمن والزنجي إلى أبولو بلفيديري – فيكفيه أن يبدِّل الشروط الكوسْمية والكوكبية لكي ينجم عن ذلك نبات وحيوان وبشر مختلفين. والقوانين عينها سوف تسوِّي جملة مختلفة تماماً من الأشياء والكائنات حتى على مرتبتنا نحن هذه، بما فيها كواكبنا جميعاً. فكم بالحري والحال هذه، يجب أن يكون اختلاف الطبيعة الخارجية في أنظمة شمسية ثانية، وأيُّ غباءٍ هو غباء الحكم على النجوم وعلى العوالم وعلى البشر الآخرين من خلال نجمنا وعالمنا وبشريَّتنا، على حدِّ ما يفعل العلم الفيزيائي!

سؤال: ولكن ما هي معطياتكم التي يقوم عليها هذا الادعاء الجازم؟

الثيوصوفي: إنها ما لا يقبله العلم عموماً بوصفه برهاناً – وأعني الشهادات المتراكمة لسلسلة من الرائين الذين شهدوا على صحَّتها. لقد تمَّ التحقق أولاً بأول من صحة رؤاهم الروحية – وهي كشوفات حقيقية، تمَّت بالحواس الفيزيقية والروحانية المتحررة من شهوات الجسد العمياء، ومن خلالها – وقورنت كذلك الواحدة منها بالثانية، وتم تمحيص طبيعتها. وكل ما لم يلقَ تأييد الخبرة المشتركة بالإجماع تم استبعاده في حين لم يسجَّل بوصفه حقيقة راسخة إلا ما وجِدَ، في عصور مختلفة، وفي أصقاع شتى، وعبر سلسلة لا حصر لها من الأرصاد لم تنقطع، متوافقاً وحائزاً دوماً على المزيد من التأييد. إن المناهج التي يعتمدها علماؤنا وطلابنا في العلوم

النفسانية – الروحانية لا تختلف عن مناهج طلاب العلوم الطبيعية والفيزيائية، كما بوسعك أن ترى. غير أن حقول بحثنا تشمل مستويان اثنان مختلفان، وأدواتنا ليست من صنع أيدٍ بشرية – ولعلَّها لهذا السبب فقط هي أكثر مصداقية. فمعوجَّات الكيميائي وعالم الطبيعيات وجمَّاماتهما ومجاهرهما قد تتعطل وتلسكوب عالم الفلك ومقياساته الزمنية قد تُفسد، أما أدواتنا القياسية فلا يطالها تأثير الطقس أو العناصر.

سؤال: ألهذا السبب تولونها إيمانكم المطلق؟

الثيوصوفي: الإيمان كلمة لا تجدها في القواميس الثيوصوفية. فنحن نقول بالمعرفة المؤسَّسة على الرصد والخبرة. بيد أن ثمة اختلاف: ففي حين يقود الرصد والخبرة العلماءَ في العلم الفيزيائي إلى عدد من الفرضيات "الأساسية" بعدد الأذهان المستعدة لتطويرها، لا تقبل معرفتنا أن تضيف إلى مخزونها غير تلك الحقائق التي باتت لا يداخِلُها شك والتي تم إقامة البرهان عليها برهاناً تاماً ومطلقاً. ليس لدينا معتقدان أو فرضيتان بخصوص الموضوع نفسه.

سؤال: هل على أساس معطيات كهذه، آليتم على أنفسكم القبول بالنظريات الغريبة التي نجدها في كتاب البوذية الباطنية؟

الثيوصوفي: بالضبط. فهذه النظريات قد تكون غير صحيحة بعض الشيء من حيث تفاصيلها الصغرى، بل وحتى ناقصة من حيث عرض الطلاب غير المسارَرين لها، لكنها، مع ذلك هي حقائق في الطبيعة، وهي أقرب إلى الحقيقة من أية فرضية علمية.

التقسيم السباعي لكوكبنا

سؤال: يبدو لي أنك تعلم أن أرضنا هي جزء من سلسلة من كواكب أرضية؟

الثيوصوفي: تماماً. لكن "الأراضي" الستة الأُخرى، أو الكرات ليست على نفس المستوى من الموضوعية مثل أرضنا، لهذا السبب لا يمكننا رؤيتها.

سؤال: هل ذلك هو بسبب بعدهم الكبير عن أرضنا؟

الثيوصوفي: أبداً على الإطلاق، نظراً لأننا نرى كواكب بعيدة بالعين المجردة، وحتى نجوم لها مسافات أكبر بما لا يُقاس. إذا لم نرَ هذه الكرات الستة، فذلك لأنهم بعيدون عن متناول وسائلنا المادية للإدراك، ولأنها خارج مستوى وجودنا. ليس فقط كثافة موادهم وكتلتهم ونسيجهم مختلفين تماماً عن كثافة أرضنا والكواكب المعروفة الأُخرى، بل أيضاً هذه الكرات الأرضية (بالنسبة لنا)، إذا جاز التعبير، تتواجد في طبقة مختلفة تماماً من الفضاء، طبقة لا يمكننا إدراكها أو الشعور بها عن طريق حواسنا الجسدية. وعلى الرغم من أنني أقول "طبقة"، فأرجوك ألا تدع خيالك يقترح طبقات متراكبة فوق بعضها البعض، مثل الطبقات، لأن ذلك سوف يقودك فقط إلى مفهوم خاطئ ومناف للعقل. ما أقصده بـ "الطبقة" هو عبارة عن مستوى فضائي ذو مساحة لا حصر له بطبيعته، من غير المحتمل أن يدخل مجال تصوراتنا العادية في حالة اليقظة

(سواء كانت ذهنية أو جسدية)، لكنه موجود في الطبيعة خارج المجال الطبيعي لذهننا أو لوعينا، وكذلك خارج الفضاء الثلاثي الأبعاد، وكذلك تقسيمنا للزمن كل من المستويات الأساسية (أو الطبقات) السبعة من الفضاء - مع الأخذ بعين الاعتبار بطبيعة الحال، الأخيرة ككل، كمساحة نقية ، وفقاً لتعريف لوك وليس كفضاء محدد لدينا - لها موضوعيتها الخاصة و الذاتية الخاصة بها ، الفضاء الخاص بها وزمنها، وتتميز بنوع من الوعي الخاص بها ، ومجموعة من الحواس الخاصة بها. ولكن سيكون من الصعب فهم كل هذا بالنسبة لأولئك الذين تشكلت عقولهم وفقاً لطرق التفكير الحديثة.

سؤال: ماذا تقصد بمجموعة مختلفة من الحواس؟ أليس هناك تمثيل مطابق عنه على مستوانا البشري يمكنك استخدامه لإعطاء فكرة أوضح عما تقصده بهذه المجموعة المتنوعة من الحواس والفضاءات والادراكات الخاصة بكلٍ منها؟

الثيوصوفي: لا يوجد شيء من ذلك، باستثناء ربما من شأنه أن يوفر بسهولة إلى حد ما فرصة للعلوم لتطوير حجة ضدنا. أليس لدينا، في حالة الحلم، مجموعة كاملة من الحواس المختلفة؟ نحن نشعر بشكل عام ونتحدث ونسمع ونرى ونتذوق ونعمل على متن مستوى مختلف. يثبت التغيير الذي يحدث في حالة وعينا من خلال حقيقة أن سلسلة من الأفعال والأحداث تمتد، على ما يبدو لنا، على مدى عدة سنوات، تعبر كصور في أذهاننا. طيب! هذه السرعة القصوى لعملياتنا العقلية أثناء أحلامنا، عندما تكون جميع وظائفنا الأُخرى في حالة طبيعية تماماً، تبين لنا أننا في مستوى مختلف تماماً. تُعلمنا فلسفتنا أنه مثلما توجد سبع قوى أساسية في الطبيعة

وسبع مستويات من الوجود، هناك أيضاً سبع حالات للوعي يمكن للإنسان أن يعيش فيها ويفكر من خلالها ويتذكرها ويوجد بها. من المستحيل تعدادهم هنا، ولكن للتعرف عليهم من الضروري أن يكرس المرء نفسه لدراسة الميتافيزياء الشرقية. لكن تحليل هاتين الحالتين - اليقظة والحلم - يعطي دليلاً كافياً لعامة الناس، من العلامة الفيلسوف إلى الهمجي المسكين الجاهل، بأن مثل هذه الحالات تختلف عن بعضها البعض.

سؤال: ألا تقبلون إذن التفسيرات المعروفة التي تقدمها البيولوجيا وعلم وظائف الأعضاء في تعليل حالة الحلم؟

الثيوصوفي: لا. نحن نرفض حتى فرضيات علماء النفس ونفضل تعاليم الحكمة الشرقية عليها. نحن نؤمن بوجود سبع مستويات للوجود الكوسمي، وكذلك نؤمن بوجود سبع حالات من الوعي، فيما يتعلق بالكون أو العالم الكبير، لكننا نتوقف عند المستوى الرابع، لأننا نعتقد أنه غير الممكن تجاوزه بأي درجة من اليقين. بالنسبة إلى الميكروكوسموس، أو العالم الصغير، الإنسان، فإننا نناقش بحرية الحالات السبعة ومبادئها.

سؤال: وكيف إذن تفسرونها؟

الثيوصوفي: نجد، أولاً وقبل كل شيء، كائنين متميزين في الإنسان - الكائن الروحي والكائن المادي. الإنسان المفكر والإنسان الذي يسجل كل ما يستطيع استيعابه من هذه الأفكار. لذلك نقسمها إلى طبيعتين متميزتين: الكائن الأعلى (أو الكائن الروحاني) والذي يتكون من ثلاثة "مبادئ"، أو جوانب

والكائن السفلي (أو المادي الرباعي)، الذي يتكون من أربعة مبادئ - والذي يعطينا بالنهاية ما مجموعه سبعة مبادئ.

طبيعة الإنسان السباعية

سؤال: هل هذا هو ما يُسمى الروح والنفس، من جهة، وإنسان الجسد، من ناحية أُخرى؟

الثيوصوفي: لا. هذا هو التقسيم الأفلاطوني القديم. لقد كان أفلاطون مسارَراً، وبالتالي لم يكن يحق له أن يدخل في تفاصيل محرمة، غير أن المطَّلع على العقيدة القديمة يجد المبادئ السبعة في تقسيمات أفلاطون المتنوعة للنفس والروح.

لقد كان يعتبر الإنسان مكوَّناً من قسمين: قسم أزلي مؤلف من ماهية المطلقيَّة عينها، والقسم الآخر فانٍ وقابل للفساد ويستمدُّ أقسامه المكونة من الآلهة الصغرى "المخلوقة".

فالإنسان مكون، كما يبيّن، من (1) جسدٍ فانٍ (2) مبدأ خالد، و (3) "نوع فانٍ منفصل من النفس". إنهم ما ندعوه، على الترتيب، بالإنسان الجسدي، والنفس الروحانية أو الروح والنفس الحيوانية. ذلك هو التقسيم الذي اعتمده بولس – هو الآخر مسارَر – الذي يأخذ بوجود جسد نفساني يُزرَع بفساد (النفس النجمية أو الجسد النجمي)، وجسم روحاني يقوم في جوهر بغير فساد.

وحتى يعقوب (3: 15) يؤيِّد الأمر عينه بقوله إن "حكمة" (نفسنا الدنيا) لا تنزل من الأعلى، وإنما هي حكمة دنيوية

("بشرية"، "شيطانية"، انظر النص اليوناني) بينما الحكمة الثانية (التي تنزل من الأعلى) هي حكمة سماوية. ومع أن أفلاطون، وحتى فيثاغوراس، لا يتكلمان إلا عن ثلاثة "مبادئ"، فمن الواضح أنهما ينسبان إليها سبع وظائف منفصلة، في تراكيبها المتنوعة، بحيث يكفينا أن نقابل بين تعاليمنا وتعاليمهما حتى ينجلي الأمر تماماً. دعنا الآن نلقي نظرة عاجلة على هذه التجليات أو الستة بواسطة الجدول التالية:

التقسيم الثيوصوفي

المصطلحات السنسكريتية	المعنى الظاهري	الشرح
أ- روبا أو ستهول شاريرا Rûpa. Sthûla sharîra	**أ- الجسد المادي**	**أ- هو مركبة لكل المبادئ أثناء الحياة**
ب- برانا Prâna	**ب- مبدأ الحياة أو المبدأ الحيوي**	**ب- ضروري فقط للمبادئ أ، ج، د. ووظائف ماناس السفلية التي تشتمل على جميع الوظائف المحصورة بالمخ (المادي)**
ج- لينغا شاريرا Linga sharîra	**ج- الجسد النجمي**	**ج- القرين، الجسد الشبحي**
د- كاما روبا Kâmarûpa	**د- مقر الرغبات والشهوات الحيوانية**	**د- هو مركز الإنسان الحيواني حيث يوجد الحدّ الفاصل بين الإنسان الفاني والكيان الخالد**

الرباعي السفلي الفاني

الشرح	المعنى الظاهري	المصطلحات السنسكريتية
ه- تتوقف حالة الإنسان ومصيره الكارمي على ماناس، هل تهبط أكثر نحو الأسفل باتجاه كاماروبا، مركز الشهوات أو تصعد للأعلى باتجاه بودهي، الإيغو الروحية، في الحالة الثانية، تمتص هذه الوعي الأعلى للتطلعات الروحية الفردية للعقل (ماناس) وقد تماثلت مع بودهي وتمَّ استيعابها من قبل هذا المبدأ وتشكل الإيغو التي تدخل للغبطة الديفاخانية	**ه- العقل، الذكاء العقل الإنساني الأعلى الذي يربط نوره أو إشعاعه، خلال الحياة، بين الموناد وبين الإنسان المادي**	**ه- ماناس، مبدأ ثنائي من حيث وظائفه Manas**
و- مركبة الروح النقية والكونية	**و- النفس الروحانية**	**و- بودهي Buddhi**
ز- واحد مع المطلق لكونها إشعاعاً منه	**ز- الروح**	**ز- آتما Âtma**

ملاحظة: في كتاب السيد سينيت البوذية الباطنية تدعى د، هـ، و، على التوالي، النفس الحيوانية والنفس البشرية والنفس الروحانية – الأمر الذي يفي بالغرض. وعلى الرغم من أن المبادئ في البوذية الباطنية مرقَّمة، فإن توخي الدقة لا يحيجنا إلى ذلك، إذ وحدها الموناد

الثنائية (آتما– بودهي) يمكن أن يُنظَر إليها باعتبارها أعلى رقمين (السادس والسابع). أما بخصوص المبادئ الثانية جميعها، بما أن ذلك "المبدأ" وحده السائد في الإنسان هو الذي ينبغي اعتباره الأول والأهم، ما من ترقيم ممكن كقاعدة عامة. عند بعض البشر، العقل الأعلى (ماناس أو المبدأ الخامس) هو الذي يهيمن على المبادئ المتبقية وعند البعض الآخر، النفس الحيوانية (كاماروبا) هي صاحبة اليد الطولى، إذ تبرِز أشد الغرائز حيوانية إلخ.

الآن، ماذا يُعَلِم أفلاطون؟ يتحدث عن الإنسان الباطني باعتباره مكوناً من جزأين - أحدهما غير قابل للتغيير ويبقى كما هو دائماً، يتكون من نفس جوهر الألوهة والآخر بشري وقابل للتلف[84]. يتوافق هذه "الجزأين" على التوالي مع ثالوثنا العلوي والرباعي السفلي (انظر الجدول). يشرح أن، "كل مرة تأخذ النفس[85] الروح[86] كحليف" - فإن الروح الإلهية أو الجوهر الإلهي[87] - (...) تعمل كل شيء بدقة وبشكل صحيح وسعادة، لكن إذا ارتبط الأمر بأنويا "الضلال أو الروح الحيوانية وغير المنطقية"، "فكل ما تخلقه من نتيجة يحدث بالعكس تماماً[88]". إذن لدينا هنا ماناس (أو النفس عموماً) تحت وجهين: من خلال ربط نفسها

---

[84] انظر تيماوس، 69 (المترجم).

[85] Psuchè.

[86] Noûs.

[87] يدعو بولس أفلاطون بـ "الروح" ولكن بما أن هذه الروح "جوهر" فإن بودّهي، بالطبع، هي المعنية وليس أتما، بما أن هذا الأخير لا يمكن أن يُدعى فلسفياً "جوهراً" ولا بأي حال من الأحوال. لقد أضفنا أتما إلى "المبادئ" البشرية لكيلا نتسبب في المزيد من البلبلة. بينما هي في الواقع ليست "بشرية"، إنما هي المبدأ الكلِّي المطلق الذي تُعتبَر بودّهي، النفس–الروح، الناقلة له.

[88] راجع: أفلاطون، القوانين879 أ-ب. (المترجم).

بأنويا[89] (لدينا هي كاماروبا، و"النفس الحيوانية" في البوذية الباطنية)، فهي تندفع نحو الفناء الكامل، من حيث الأنا الشخصية. على العكس من ذلك، من خلال التحالف مع "نوس[90]" (آتما - بودهي) فإنها تندمج في الأنا الخالدة وغير القابلة للتلف، ووعيها الروحي للشخصية التي كانت، يصبح حينها خالداً.

---

[89] Anoia.
[90] Nous.

التمييز بين النفس والروح

سؤال: هل تُعَلِمون حقاً، كما يتهمكم بعض الأرواحيين الفرنسيين والأنكلو ساكسون، بفناء كل شخصية؟

الثيوصوفي: لا على الإطلاق. لقد نشر أعداؤنا هذا الاتهام السخيف، لأن مسألة الثنائية هذه - فردية الأنا الإلهية والشخصية الحيوان البشري - تعني ضمناً إمكانية ظهور الأنا الحقيقية والخالدة في جلسات الوساطة الارواحية في شكل "روح مادية"- والتي ننكرها نحن، كما سبق أن أوضحنا.

سؤال: لقد قلت إن النفسانية[91] تندفع إلى فنائها الكامل عن طريق ربط نفسها بأنويا. ماذا يعني أفلاطون، وماذا تقصدون أنتم بذلك؟

الثيوصوفي: هذا، أعتقد أنه: الفناء الكامل للوعي الشخصي وهي حالة نادرة واستثنائية. القاعدة العامة والثابتة تقريباً هي اندماج الوعي الشخصي مع الوعي الفردي أو الخالد للأنا، أي التحول أو التجلي الإلهي، والفناء الكامل للرباعي السفلي فقط. هل تعتقد أن الإنسان الجسدي أو الشخصية المؤقتة، وظله "النجمي"، وغرائزه الحيوانية وحتى حياته الجسدية، يمكنهم أن يستمروا بالحياة مع "الأنا الروحية"، ويصبحون مؤبدين؟ بطبيعة الحال، كل هذا يتوقف عن الوجود في وقت وفاة الجسد، أو بعد فترة وجيزة، ومع مرور الوقت يتحلل كلياً ويختفي عن الأنظار، ويُفنى ككيان.

---

[91] Psuchè.

سؤال: إذن أنتم تنكرون أيضاً إمكانية قيامة الجسد؟

الثيوصوفي: تماماً! كيف يمكننا، نحن الذين نؤمن بالفلسفة الباطنية القديمة للأقدمين، أن نقبل التكهنات غير الفلسفية لعلم اللاهوت المسيحي اللاحق، المستعارة من العقائد الظاهرية المصرية واليونانية للغنوصيين؟

سؤال: المصريين يبجلون أرواح الطبيعة ويؤلهون حتى البصل، هندوسكم لا يزالون عبدة أصنام لغاية اليوم. كان الزرادشتيون يعبدون الشمس ولا يزالون يعبدونها، وكان أفضل الفلاسفة اليونانيين إما حالمين أو ماديين، أمثلة: أفلاطون وديموقريطس. كيف يمكنكم إذن مقارنتهم بالمسيحيين؟

الثيوصوفي: قد يكون الأمر كذلك في تعليمكم الديني المسيحي الحديث وحتى العلمي، لكنه ليس كذلك بنظر العقول المنصفة. فقد كان المصريون يبجِّلون "الواحد الأحد" بوصفه نوت[92] ومن هذه الكلمة بالذات نحت أنكساغوراس[93] تسميته نوس[94] أو كما يدعوه "العقل القوي بذاته[95]" أو "الروح القوي"، الـ المحرِّك الأول[96]، للكل[97]. لقد كان نوس بنظره هو الله

---

[92] Nout.

[93] Anaxagore.

[94] Noûs.

[95] Noΰς αύτοκρατής.

[96] 'άρχή της κινήσεως.

[97]Primum mobile.

واللوغوس[98] هو الإنسان، الفائض عنه. الـ نوس[99] هو الروح (سواء في الكوسموس أو في الإنسان)، والـ اللوغوس أكان كوناً أو جسماً نجمياً، هو فيض عن الأول، بينما أن الجسد المادي ليس سوى المظهر الحيواني.

إن قدراتنا الخارجية تدرك الظاهرات، ووحده الـ نوس فينا قادر على التعرُّف إلى جواهرها. وحده الـ اللوغوس أو الجوهر، باقٍ لأنه خالد من حيث طبيعته وماهيَّته نفسهما، والـ اللوغوس في الإنسان هو الإيغو الأبدية، تلك التي تعود إلى التقمص وتدوم إلى الأبد. ولكن هيهات للظل الزائل والخارجي للقميص المؤقت لذلك الفيض الإلهي العائد إلى منبعه الذي منه جاء، أن يكون ما سوف يقوم بغير فساد؟

سؤال: ومع ذلك، لا أرى كيف يمكنكم أن تدافعوا عن أنفسكم من تهمة اختراع تقسيم جديد للمكونات الروحية والنفسية للإنسان، لأنه لا يوجد فيلسوف يذكره، على الرغم من أنك تعتقد أن أفلاطون قد تحدث عنها.

الثيوصوفي: ولا أزال متمسك بما قلته. بصرف النظر عن أفلاطون، يمكننا أيضاً أن نذكر فيثاغورس الذي اتبع نفس

[98] Logos.
[99]Noûs.

التقسيم[100]. وصف الروح كوحدة (موناد[101]) ذاتية الحركة مؤلفة من ثلاثة عناصر: - نوس (الروح)، فرين[102] (العقل) وثوموس[103] (الحياة، النَفَس أو نَفَش[104] عند القباليين)[105]. تتوافق هذه العناصر الثلاثة على التوالي مع "آتما - بودهي[106]" (النفس - الروح العليا)، ومانـاس[107] (الإيغو) وكاماروبا[108] بالاشتراك مع الانعكاس السفلي لمانـاس. ما سماه الفلاسفة اليونانيون القدماء الروح، بشكل عام، نسميه الروح، أو النفس الروحانية، بودهي، المعتبر مركبة لآتما (أغاثون[109]، أو الإله السامي عند أفلاطون).

---

[100] يقول فلوطرخس، إن أفلاطون وفيثاغوراس يقسمان النفس إلى قسمين: النفس العاقلة وغير العاقلة. وذلك القسم من نفس الإنسان، ألا وهو العاقل، أبدي؛ فمع أنه ليس الله، إلا أنه مولود الإله" الأزلي. أما ذلك القسم من النفس المحرومة من العقل فإنه يموت. إن مصطلح "لاأدري" الحديث أصله (غنوصي) وهي كلمة من المصدر نفسه. وإننا لنتساءل: كيف آلى السيد هكسلي، مبتكر هذه الكلمة، على نفسه ربط عقله العظيم بـ "النفس المحرومة من العقل" التي تموت؟ أهو التواضع المغالى فيه للمادي الحديث؟

[101] Monade.

[102] Phrên.

[103] Thumos.

[104] Nephesh.

[105] Diogène Laërce, Vitae, VIII, 1, 30 (N.d.T.).

[106] Âtma-Buddhi.

[107] Manas.

[108] Kâmarûpa.

[109] Agathon.

حقيقة أن فيثاغورس، وغيره، يدعون أننا نشارك فرين[110] وثوموس[111] مع الحيوانات يثبت، في هذه الحالة، من ناحية بوجود انعكاس سفلي من ماناس (غريزة) و، من ناحية أُخرى، من كاماروبا (الشهوات الحيوانية الحية). وكما قبل سقراط وأفلاطون أيضاً معنى هذه المصطلحات وأخذا به، وإذا مع الأقسام الخمسة التالية: أغاثون (الألوهة أو آتما) بسوشي[112] (النفس مأخوذة بالمعنى الجمعي)، نوس (الروح أو العقل) فرين (العقل الجسدي) وثوموس (كاماروبا أو الشهوات) أضفنا ايدولون[113] الأسرار (الشكل - الظل، أو الإنسان المزدوج - القرين) والجسم المادي، فمن السهل بالنسبة لنا أن نظهر أن أفكار فيثاغورس وأفلاطون متطابقة مع أفكارنا. حتى المصريون تبنوا التقسيم السباعي.

فقد علَّموا أن النفس (الإيغو)، لدى مغادرتها الجسد، يجب أن تجتاز "غرفها السبعة" أو مبادئها، ما تُخلِّف منها وراءها وما تصطحب منها معها.

لفهم الاختلاف الذي يمكن أن يوجد مع تعاليمنا، يجب ألا نغفل حقيقة أن العقوبة المرتبطة بالكشف عن العقائد التي يتم تعليمها أثناء الأسرار، كانت هي الموت: لهذا السبب لا ذكر القدماء العقيدة إلا خطوطها العريضة، بينما نقوم نحن بتطويرها وشرحها بتفاصيلها. ومع ذلك، على الرغم من أننا نكشف بقدر ما يُسمح لنا القيام به، وحتى فيما نعلمه، فإنه يتم

---

[110] Psuchè.
[111] Thumos.
[112] Psuchè.
[113] Eidôlon.

حذف الكثير من التفاصيل المهمة، تفاصيل لا يحق لأحد الاطلاع عليها سوى لأولئك الذين يدرسون الفلسفة الباطنية وقد أدوا قسم اليمين بالتزام الصمت.

التعاليم الإغريقية

سؤال: لدينا علماء ضليعين في اليونانية واللاتينية والسنسكريتية والعبرية. كيف لا نجد شيئاً في ترجماتهم يعطينا إشارة إلى ما تقوله؟

الثيوصوفي: لأن مترجميكم، رغم معرفتهم الغزيرة، جعلوا الفلاسفة - وخاصة الفلاسفة اليونانيين - مؤلفين غامضين بدلاً من سرانيين[114]. خذ بلوتارك كمثال واقرأ ما يقوله عن "مبادئ" الإنسان. يؤخذ ما يقوله حرفياً ويُنسب إلى الخرافات والجهل الميتافيزيائي. اسمح لي أن أوضح ذلك من خلال اقتباس منه: "الإنسان"، يقول بلوتارك[115] "هو كائن مُرَكَب ولكن أولئك الذين يعتقدون أنه يتكون من جزأين فقط، هم على ضلال، لأنهم يتخيلون أن الفهم - الفكر المخي - هو جزء من النفس". الثالوث الأعلى "في هذا فهم ليسوا أقل ضلالاً من أولئك الذين يعتبرون أن النفس هي جزء من الجسد" - وهذا يعني، أولئك الذين يعتبرون الثالوث جزءاً من الرباعي الفاني والفاسد. "لأن الفهم (نوس) أعلى بكثير من النفس، مثلما أن النفس هي أفضل وأكثر إلهية من الجسد. الآن، تشكل تركيبة النفس[116] هذه مع الفهم[117] العقل، بينما مع الجسد (أو

---

[114] تتلاعب السيدة بلافاتسكي هنا بلفظتي النعت (سرَّاني) والصفة (مبهم، ضبابي، غامض). (المترجم).

[115] يُطلق عليه بالعربية اسم فلوطرخس

[116] Ψυχή.

[117] Nouς.

ثوموس، الروح الحيوانية) تشكل الشهوات. من هذين التركيبين، الثاني هو البداية أو مبدأ اللذة والألم، والأول الفضيلة والرذيلة. من هذه الأجزاء الثلاثة المضمومة والموحدة مع بعضها، وفرت الأرض الجسم والقمر والنفس والشمس والفهم في نشأة الإنسان[118]".

هذه الجملة الأخيرة هي مجازية بحتة، ولن يفهمها سوى أولئك الذين هم ضليعون بالعلم الباطني للمتماثلات والذين يعرفون أي كوكب مرتبط بكل مبدأ. يقسم بلوتارك المبادئ إلى ثلاث مجموعات. فهو يجعل الجسم مركباً من البنية المادية والظل النجمي والنَفَس: إنه الجزء السفلي، ثلاثي في طبيعته والذي "تم أخذه من التراب وإلى التراب سيعود". تشتمل المجموعة الثانية على المبدأ الوسيط والنفس الغريزية: فهي

---

118 سبق للسيدة بلافاتسكي أن استشهدت بهذا المقتبس الرائع في كتابها إيزيس مكشوفة النقاب (الجزء الثاني، ص 283 – 284) الذي يرد في النص الأصلي كما يلي"... الإنسان كائن مركَّب، ويخطئ من يظنه مركباً من قسمين وحسب. فإنهم يتخيلون أن الفهم (نوس) هو، على نحو ما، قسم من النفس (بسيشي)، لكنهم، في هذا، يضلون ضلالاً لا أقل من ضلال الذين يجعلون من النفس جزءاً من الجسم (سوما)؛ فإن النفس تتفوق على البدن بقدر ما يتفوق الفهمُ على النفس في ألوهيَّته. إن مزيج الجسد والنفس ينجم عنه المظهر غير العاقل (ألوغون) والانفعالي (باتيتيكون)، في حين أن لقاء (سونودوس) الفهم والنفس يولد العقل (اللوغوس) ومن هذين التشكيلين، الأول هو مصدر، أو مبدأ (آركي) اللذة والألم، والثاني مبدأ الفضيلة والرذيلة. وفي تكوين هذه المظاهر الثلاثة تقدِّم الأرضُ الجسد، والقمر النفسَ، والشمس الفهمَ (مثلما يقدِّم النور للقمر نفسَه) لدى تكوين ونشأة الإنسان....
De fade quae in orbe lunae apparet, 943 (N.d.T.).

تأتي من القمر، ويتم تطويرها منه وتخضع لتأثيراته بشكل دائم[119]. أخيراً، إنها فقط الجزء العلوي، أو النفس الروحية التي تحتوي في حد ذاتها على العناصر الأتمية والماناسية التي هي فيض مباشر من الشمس، والتي تمثل هنا أغاتون، الإله السامي. وقد ثبت ذلك بما يقوله بلوتارك في المقطع التالي:

(بالنسبة للموت الذي نمر به، فإن الانتقال الأول يجعل الإنسان ينتقل من ثلاثة عناصر إلى عنصرين، والثاني من عنصرين إلى عنصر واحد، الأول يحدث في المنطقة الأرضية الخاضعة لولاية ديميترا - هذا هو السبب في أن الكلمة التي تعني "الموت" تشبه الكلمة التي تعني "مسارر في أسرارها". إلى جانب ذلك، كان الأثينيون يطلقون سابقاً على الميت أسماء ديميترا. أما بالنسبة للموت الثاني، فهو يحدث في القمر منطقة بيرسيفوني[120]).

هاقد عرضنا عقيدتنا التي تُظهر الإنسان ككيان سباعي خلال الحياة، مركب من خمسة مبادئ مباشرة بعد الموت، في كاما لوكا، وإيغو ثلاثية، نفس - روح ووعي في ديفاخان. كان هذا الفصل، الذي يتم إنجازه أولاً في "مروج هاديس"، كما يطلق بلوتارك هذا الاسم على منطقة كاما لوكا، ثم في ديفاخان، كان جزءاً من احتفالات الأسرار المقدسة، التي كان يلعب خلالها المرشحون للمساررة، دراما الموت بأكملها، والقيامة كروح

---

119 القباليين الذين يعرفون العلاقة بين يهوه، الذي يعطي الحياة والأطفال، والقمر، وتأثيره القمر على الإنجاب، سوف يدركون الأمر مثلما سيفهمه بعض علماء النجوم أيضاً.

120 De facie, 943 a, b. (N.d.T.).

ممجدة - كلمة نسميها الوعي. وهكذا كان بلوتارك يفهمها عندما يقول:

[ترتبط الإلهة الأولى مع هيرميس الأرضي، والثانية مع هيرميس السماوية. الأول يفصل الروح عن الجسد بسرعة وبعنف، لكن بيرسيفوني يفصل فهم النفس[121] بلطف، وعلى مدى فترة طويلة من الزمن. لهذا السبب، تُدعى مونوجين[122] المولود الوحيد، أو بالأحرى ذات الطفل الوحيد لأن الجزء الأفضل من الإنسان يولد بمفرده، عندما فصلته الإلهة. وهكذا يحدث كل فصل من هذين الفصلين بشكل طبيعي على النحو التالي. يقرره القدر (فاتوم أو الكارما) بأن كل نفس عند تركها الجسم، سواء كانت مزودة بالفهم (العقل) أم لا، فإنهم تتجول لوقت معين، وهو أمر غير متساوٍ للجميع، في المنطقة بين الأرض والقمر (كاما لوكا)[123]. بالنسبة للأرواح التي كانت ظالمة ونجسة، فإنها تعاني من العقاب على جرائمها. لكن أولئك الذين كانوا صالحين وفاضلين يتم الاحتفاظ بهم إلى أن يتم تنقيتهم، كما تم تطهيرهم عن طريق النَفس، من جميع الأمراض المصابون بها بسبب تأثير العدوى في الجسم، كما لو

---

[121] برسفوني أو بروسربينا، تمثل هنا الكارما بعد الموت التي يُقال إنها تنظم انفصال "المبادئ" الدنيا عن العليا: إنه انفصال النفس - بوصفها نِفِشْ، نَفَس الحياة الحيوانية، التي تبقى لبعض الوقت في كامالوكا - عن الإيغو (المؤلفة من المبادئ الثلاثة العليا التي تمضي إلى حالة ديفاخان أو الغبطة).

[122] Monogénès.

[123] يستمر هذا الوضع حتى يتم فصل "المبدأ" الأعلى والروحي عن المبادئ الدنيا، التي تبقى في كاما لوكا ليتم تفككها هناك.

أنه من مصدر غير صحي، ويبقون في ألطف منطقة في الغلاف الجوي، تُسمى "مروج هاديس" لفترة محددة.

ثم، كما لو كانوا عائدين إلى وطنهم بعد الحج أو المنفى الطويل يتمتعوا بفرحة مماثلة لمساررري الأسرار المقدسة، فرح ممزوج بالرهبة والاعجاب ومليء بتوقع السعادة المأمولة[124]].

إنها غبطة نيرفانية، ولا يمكن لأي ثيوصوفي أن يصف بلغة أوضح (على الرغم من كونها باطنية) البهجة العقلية في ديفاخان، حيث يكون الجميع في الجنة التي خلقها وعيه الخاص. لكن يجب أن نكون حذرين من الخطأ العام الذي يقع فيه الكثير من ثيوصوفينا. يجب ألا نتخيل، بذريعة أن الإنسان هو - سباعي، ثم خماسي، وأخيراً ثالوث، وأنه مركب من سبعة أو من خمسة، أو حتى من ثلاث كينونات، أو كما شرح بشكل جيد مؤلف ثيوصوفي - أن لديه هذا العدد من الجلود بحيث يمكن للفرد فصلها مثل قشور البصل.

لأنه، كما قلنا من قبل، باستثناء الجسد والحياة والإيدولون النجمي، التي تتشتت جميعها عند الموت، فإن "المبادئ" هي ببساطة جوانب وحالات وعي. هناك إنسان حقيقي واحد دائم طوال دورة الحياة، وخالد في جوهره، إن لم يكن في شكله: وهذه ماناس، الإنسان - العقل، أو الوعي المدمج. الاعتراض الذي يثيره الماديون الذين ينكرون إمكانية عمل العقل والوعي دون أي وجود مادة، لا قيمة له بالنسبة لنا. نحن لا ننكر معقولية اعتراضهم، لكننا نسأل ببساطة خصومنا: [هل

---

124 Plutarque, Ibid. (N.d.T.).

تعرفون كل حالات المادة، أنتم الذين، حتى الآن، لم تتعرفوا إلا على ثلاثة؟ وكيف تعرفون أن ما نسميه الوعي المطلق، أو الإلهي غير المرئي وغير المعروف إلى الأبد، ليس هو "الروح المادة" الكوني، أو الروح المادة في لا نهائيته المطلقة - حتى لو استعصت هذه الحقيقة إلى الأبد على مفهومنا الإنساني المحدود]. إنه بالتالي أحد أدنى الجوانب في هذه المادة الروح، وحتى أنه جانب جزئي، إذا نظرنا إليه في تجلياته المانفانتارية - التي تشكل الإيغو الواعية التي تخلق جنته الخاصة، جنة المهلوس، ربما، ولكن مع ذلك هي حالة من الغبطة.

سؤال: ولكن ما هي ديفاخان؟

الثيوصوفي: حرفيا تعني "موطن الآلهة"، وضع أو حالة من الغبطة العقلية. من وجهة نظر فلسفية، إنها حالة ذهنية تشبه الأحلام، ولكنها حالة مفعمة أكثر بالحياة وأكثر واقعية من أكثر الأحلام إثارة. هذه هي حالة ما بعد الموت التي يعيشها معظم البشر.

الباب السابع

في مختلف حالات ما بعد الموت

الإنسان الجسدي والإنسان الروحاني

سؤال: يسعدني سماعك أنك تقول إنك تؤمن بخلود النفس.

الثيوصوفي: ليس في تلك "النفس"، بل بالروح الإلهية، أو بالحري بخلود الإيغو التي تتقمص.

سؤال: ما هو الفرق؟

الثيوصوفي: إنه كبيرة جداً وفقاً لفلسفتنا. لكنها مسألة معقدة للغاية وصعب علينا ألا نتطرق إليها بما فيه الكفاية. سيتعين علينا تحليل كل جانب على حدة، ثم معاً. لنبدأ بالروح، إذا أردت ذلك.

نحن نقول إن الروح ("الأب في السر"، حسب يسوع)، أو آتمان، ليست ملكاً فردياً لأي إنسان، بل هي جوهر إلهي ليس له جسد ولا شكل، وهو لا وزن له، غير مرئي وغير قابل

للتجزئة. يمكننا أن نقول عنها إنها غير موجودة، لكنها رغم ذلك كائنة، كما يقول البوذيون عند الحديث عن النيرفانا. يمتد تأثيرها على البشر الفانين، دون أن تكون محصورة أو مقيدة فيهم. فقط أشعة آتمان الكلية الحضور - أو نورها - المشعة من خلال بودهي، مركبتها وانبعاثها المباشر، تدخل بالإنسان وتنبث بجسده كله. كان هذا هو المعنى السري لآراء جميع الفلاسفة القدماء تقريباً عندما كانوا يقولون إن "الجزء العقلاني من النفس الإنسانية[125]" لا يدخل بكليته بالإنسان على الإطلاق، بل يبسط نفوذه عليه بطريقة أكثر أو أقل تميزاً من خلال النفس الروحية اللاعقلانية، أو بودهي[126].

سؤال: كنت اعتقد أن "النفس الحيوانية" فقط هي غير العقلانية، وليست الروح الإلهية.

الثيوصوفي: يجب أن تتعلم التمييز بين ما هو سلبي أوساكن "غير عقلاني"، لأنه في حالة غير متمايزة، وبين ما هو غير

[125] بالمعنى العام للكلمة، يشير المصطلح "عقلاني" إلى المصطلح المنبثق من الحكمة الخالدة. [[وفقاً لاقتباس من بلوتارك في الفصل السابق، ينتج العقل - اللوغوس - في الإنسان عن التفاعل بين النفس (بسوشي) ونوس، قوة الذكاء والفهم، وهو نفسه مُستمَد من الشمس رمز اللوغوس. في اليونانية، كلمة اللوغوس لها معانٍ متعددة، من الكلام - ومن هنا جاءت الكلمة - إلى العقل - العنصر العقلاني للنفس البشرية. المترجم]].

[126] غير عاقلة، بمعنى أن بودهي هي انبثاق نقي من العقل الكوني، وليس لديها عقل فردي خاص بها على مستوانا المادي، بل أنه كما يستمد القمر نوره من الشمس وحياته من الأرض، كذلك بودهي تستمد نورها من حكمة أتما، وصفاتها العقلانية من ماناس. في حد ذاتها باعتبارها جوهراً متجانساً، ليس لبودهي أي سمات أو صفات.

عقلاني لأنه نشط للغاية وإيجابي. الإنسان عبارة عن مجموعة معقدة من العناصر ذات علاقات مترابطة، تشمل القوى الروحية والقوى الكيميائية والفيزيائية، والتي تم إحضارها إلى العمل من خلال تأثير ما نسميه "المبادئ".

سؤال: لقد قرأت الكثير عن هذا الموضوع، ويبدو لي أن أفكار الفلاسفة القدماء تختلف اختلافاً كبيراً عن أفكار قباليين العصور الوسطى، رغم أنهم متفقون أحياناً فيما بينهم على تفاصيل معينة.

الثيوصوفي: إن الاختلاف الأكثر أهمية الذي يوجد بيننا وبين القباليين هو أننا نؤمن، كما تقدم به الأفلاطونيون الجدد والتعاليم الشرقية، بأن الروح (آتما) لا تنزل أبداً أقنومياً على الإنسان الحي، بل أنها تغدق نوعاً ما اشعاعها على الإنسان الداخلي (وهو مزيج نفسي وروحي يتكون من مبادئ نجمية). ولكن بالعكس، يزعم القباليين أن الروح الإنسانية، التي تنفصل عن محيط النور وعن الروح الكونية، تدخل بنَفَس الإنسان، وتبقى هناك طيلة الحياة، سجينة الكبسولة النجميّة. ولا يزال جميع القباليين المسيحيين يؤكدون ذلك، لأنهم لا يستطيعون التخلص تماماً من مذاهبهم التوراتية والمؤنسنة.

سؤال: وأنتم ماذا تقولون؟

الثيوصوفي: نحن لا نقبل إلا حضور إشعاع الروح (أو آتما) في الكبسولة النجمية، وهذا الإشعاع الروحي فقط. نقول إنه يجب على الإنسان والنفس أن يفوزا بخلودهم بالارتقاء إلى الوحدة التي، إذا نجحوا في الوصول إليها، فإنهم يجدون أنفسهم بنهاية المطاف مرتبطون بها، إذا جاز التعبير

للاستغراق فيها. بعد الموت، تفرد الإنسان يعتمد على الروح وليس على النفس والجسد. على الرغم من أن المصطلح "شخصية"، بالمعنى الذي عادة ما يتم فهمه، يُعد عبثي إذا استخدمناه حرفياً لتعيين جوهرنا الخالد، إلا أن الأخير هو، مع ذلك، من حيث إنه الأنا الفردية لدينا، هو كيان متميز، خالد وأبدي بحد ذاته. فقط في حالة السحرة السود أو المجرمين الذين لم يعد لديهم أي فرصة للخلاص - المجرمين الذين كانوا على هذا النحو لسلسلة طويلة من الحيويات - هو الخيط المضيء، الذي، منذ لحظة ولادة الطفل، يربط الروح مع النفس الشخصية، ينقطع بعنف، وتجد الكينونة غير المتجسدة نفسها منفصلة عن النفس الشخصية، ويتم فناء هذه الأخير دون ترك أدنى انطباع عن نفسها على الأولى. إذا لم يحدث هذا الاتحاد بين ماناس السفلية، أو الشخصية وبين الأنا الفردية الكينونة المتقمصة، خلال الحياة، فسيتم التخلي عن الأولى ويجب أن تقاسم مصير الحيوانات السفلية، تذوب تدريجياً في الأثير وتخضع لفناء شخصيتها. لكن حتى ذلك الحين تظل الإيغو كائناً منفصلاً. بعد هذه الحياة الخاصة التي، في هذه الحالة، غير مجدية في الواقع، لا تفقد (الإيغو الروحية) إلا حالة ديفاخانية واحدة فقط، والتي كانت ستتمتع بها تحت ملامح هذه الشخصية المثالية: ستتجسد على الفور تقريباً، بعد أن تتمتع بالحرية لفترة قصيرة كروح كوكبية.

سؤال: قيل في إيزيس مكشوفة النقاب أن نظير هذه الأرواح الكوكبية، أو نظير تلك الملائكة "آلهة الوثنيين، أو رؤساء الملائكة المسيحيين" لن تكون أبداً بشراً على كوكبنا.

الثيوصوفي: هذا صحيح تماماً. ولكن بدلاً من "نظير هذه الأرواح الكوكبية"، يجب أن يُقال إن هناك فئات معينة من الأرواح الكوكبية العليا. لن يكون هؤلاء الأخيرون أبداً بشراً على هذا الكوكب، لأنهم أرواح متحررة من عالم قديم كان موجوداً قبل عالمنا، وبالتالي، لا يمكن أن يصبحوا بشراً على أرضنا. ومع ذلك، سيعيشون جميعاً مرة أخرى في المانفنتارا القادمة (والتي ستكون أعلى بكثير من المانفنتارا[127] الحالية) بمجرد مرور "العصر العظيم" الحالي وكذلك مجيء "برالايا براهما" (فترة قصيرة تتكون من 16 رقماً) التي ستتبعها. بالطبع، يجب أن تكون قد سمعت أن الفلسفة الشرقية تعلمنا أن هذه "الأرواح" مسجونة في أجساد البشر التي تشكل إنسانيتنا. الفرق بين البشر والحيوانات على النحو التالي: لا يتم احياء الحيوانات بواسطة "المبادئ" إلا بطريقة كمونية وبالقوة، في حين أن المبادئ تتخلل البشر فعلياً. هل تفهم الفرق الآن؟

سؤال: نعم، لكن هذا التخصص ظلَّ حجر عثرة للميتافيزيائيين في كل العصور.

الثيوصوفي: لقد كان كذلك فعلاً. إن باطنية الفلسفة البوذية كلها قد تأسَّست على هذا التعليم السِّراني، الذي لا يدركه إلا الصفوة، ويسيء بالتالي تمثُّلَه تماماً العديدُ من أعظم الاختصاصيين الحديثين. وحتى الميتافيزيائيون ينزعون إلى الخلط بين النتيجة والسبب. إن إيغو فازت بحياتها الخالدة

---

[127] المانفنتارا هي فترة ظهور وتجلي الكون وتُقدر بفترة زمنية هائلة ويقابلها برالايا، أو احتجاب الكون.

كروح تبقى الذات الباطنية عينَها عبر ولاداتها الجديدة كلِّها على الأرض، لكن هذا لا يقتضي بالضرورة أنها إما أن تبقى السيد فلان أو السيد علان الذي كانت سابقاً على الأرض وإما أن تفقد فرديتها. لذلك فإن النفس النجمية والجسم الأرضي للإنسان قد يتلاشيان في الآخرة المظلمة، في المحيط الكوني للعناصر المتسامية، وتتوقف عن الشعور بالإيغو الشخصية الأخيرة (إذا لم تستحق أن تسمو أعلى من ذلك)، بينما أن الإيغو الإلهية تبقى مع ذلك الكيانَ غير المتغير بذاته، على الرغم من أن هذه الخبرة الأرضية لذلك الفيض [النفس النجمية] منها [أي من الإيغو الإلهية] تزول تماماً لحظة الانفصال عن المركبة غير المناسبة لها.

سؤال: إذا كان وجود "الروح"، أو القطعة الإلهية من النفس سابقاً بوصفها كائناً مميَّزاً منذ الأزل، كما عَلَم أوريجينس وسينيسيوس وفلاسفة آخرون نصف مسيحيين نصف أفلاطونيين، وإذا ظلت هي هي بذاتها، ولا شيء أكثر من النفس الموضوعية ميتافيزيائياً، كيف يمكن أن تكون غير أزلية؟ وماذا يهمها في حالة كهذه، سواء كان الإنسان يعيش حياة طاهرة أو حياة حيوانية، إذا لم يكن من الممكن، مهما فعل، أن يفقد فرديَّته؟

الثيوصوفي: هذه العقيدة، كما أوردتَها، لا تقل ضرراً من حيث عواقبُها عن عقيدة التكفير بالنيابة. فلو أن هذه العقيدة الأخيرة، إلى جانب الفكرة الخاطئة بأننا جميعاً خالدون، قد عُرِضت للعالم على الوجه الصحيح، لكان نشرها قد حسن من وضع البشرية ككل. اسمح لي أن أكرر لك مجدداً. لقد اشتقَّ فيثاغوراس وأفلاطون وطيماوس اللوكريسي ومدرسة

الإسكندرية القديمة نفس الإنسان (أو "مبادئه" وصفاته العليا) من النفس الكونية الكُلية، حيث إن هذه الأخيرة، بحسب تعاليمهم، هي الأيثير (باتِر زِفْس). من هنا، ما من واحد من هذه "المبادئ" يمكن أن يكون الجوهر النقي والعذري (للموناس) الفيثاغورية، أو أتما – بودهي بحسب تعاليمنا، لأن أنيما موندي (نَفَس العالم) ليست سوى النتيجة، الفيض أو بالحري الإشعاع الذاتي لهذا الجوهر. الروح الإنسانية (أو الفردية)، أي الإيغو الروحانية العائدة للتقمص، وبودهي، النفس الروحانية، هما سابقي الوجود. ولكن بينما توجد الأولى ككيان مفرَد، كتفرد، توجد النفس كنَفَسٍ سابقة الوجود، كجزء غير واعي من الكل العاقل. كلاهما تشكَّلا أصلاً من بحر النور الأزلي، ولكن، كما عبَّر عن ذلك فلاسفة النار – ثيوصوفيو القرون الوسطى، توجد في النار روح منظورة كما توجد روح غير منظورة. وقد فرَّقوا بين النفس الخام والنفس الإلهية. وكان أنباذوقليس يعتقد اعتقاداً راسخاً بأن لكل البشر والحيوانات نفسين، وبالعودة إلى أرسطو، نجد أنه كان يدعو إحداهما النفس العاقلة[128] ويدعو الثانية النفس الحيوانية[129]. وبحسب هؤلاء الفلاسفة، تصدر النفس العاقلة من باطن النفس الكلِّية، بينما تصدر الثانية من ظاهرها.

سؤال: النفس، أي النفس البشرية العاقلة المفكرة، أو ما تسميه الإيغو، هل يمكن تسميها مادة؟

---

[128] Νούς. Noûs.
[129] Ψυχή. Psuchè.

الثيوصوفي: لا يمكن تسميتها مادة، لكن تسميتها جوهر هو ممكن بكل تأكيد. كما أننا لا نتجنب استعمال كلمة "مادة" بشرط أن نُتبِعَها بصفة أزلية. تلك المادة الأزلية، كما نقول هي خالدة خلود الروح، وهي ليست مادتنا المرئية، الملموسة والقابلة للانقسام، إنما هي تساميها الأقصى. الروح النقي هو أدنى بدرجة واحدة فقط من اللا– روح، أو الكل المطلق. فما لم تقبل بأن الإنسان قد تطور عن هذه الروح–المادة الأزلية ويمثل سُلَّماً منتظماً وتنازلياً من "المبادئ"، مما بعد–الروح نزولاً حتى المادة الأكثف، كيف نستطيع أن نتوصل أصلاً إلى اعتبار الإنسان الباطن خالداً، وكياناً روحياً وبشراً فانياً في الوقت نفسه؟

سؤال: في هذه الحالة، لماذا لا تؤمنون بالله بوصفه مثل هذا الكيان؟

الثيوصوفي: ذلك لأن ما هو لانهائي وغير مقيَّد لا يمكن أن يكون ذا شكل، ولا يمكن أن يكون كائناً – هذا غير وارد في أية فلسفة شرقية جديرة بهذا الاسم على كل حال. "الكيان" خالد، لكنه ليس كذلك إلا من حيث ماهيَّتُه القصوى، وليس من حيث شكلُه الفردي. وعندما يبلغ آخر نقطة من دورته فإنه يستغرق في الطبيعة الأزلية، ويصير روحاً عندما يفقد اسمه وكيان خلوده بوصفه شكلاً محدودٌ فقط بدورة حياته أو الماهامنفنتارا الذي يصير بعده واحداً ومتطابقاً مع الروح الكلِّية، ولا يبقى بعدُ كياناً منفصلاً. أما بخصوص النفس الشخصية – التي نعني بها شرارة الوعي التي تحمي في الإيغو الروحانية فكرةَ "الإيغو" الشخصية للتقمص الأخير – فهذه لا تدوم، كذكرى مميزة منفصلة، إلا طوال الفترة

الديفاخانية، فتُضاف بعد انقضاء هذه الفترة إلى سلسلة تجسدات أخرى للإيغو لا عد لها، كما يحدث عندما نسترجع بذاكرتنا، عند نهاية عام، أو يوماً واحداً من سلسلة أيام. فهل تقيِّد اللانهائية التي تزعمون أن إلهكم يتصف بها بشروط منتهية؟ وحده خالد ما يتحد بآتما بحيث لا تُفصَم عراه (بودهي–ماناس). أما نفس الإنسان (أي الشخصية) بحدِّ ذاتها فليست خالدة، ولا أبدية، ولا إلهية. فكما جاء في سفر الزوهار[130]: "النفس، إذ تهبط إلى هذه الأرض، تتقمص ثوباً أرضياً، لتحفظ نفسها هنا، لذا تتلقى في العُلى ثوباً منيراً حتى تتمكن من النظر بدون أن يصيبها ضررٌ إلى المرآة التي ينبثق نورها من ربِّ الأنوار. بالإضافة إلى ذلك، يعلّمنا الزوهار أن النفس لا تستطيع إن تبلغ موطن الغبطة قبل أن تتلقى "القبلة المقدسة[131]"، أو اجتماع النفس مع الجوهر الذي فاضت عنه – الروح. النفوس جميعها مزدوجة، وفي حين أن النفس مبدأ مؤنث فإن الروح مبدأ مذكر. الإنسان، مسجوناً في الجسم، هو ثلاث، ما لم يتسبب فسادُه في طلاقه من الروح. ولقد جاء في مقطع من كتاب المفاتيح، وهو مصنَّف هرمسي: "ويلٌ للنفس التي تفضل على زوجها الإلهي (الروح) القرانَ الترابي مع بدنها الأرضي." الويل فعلاً، لأنه لن يبقى شيء من تلك الشخصية يدوَّن على ألواح ذاكرة الإيغو التي لا تزول.

[130] Zohar, I, 65c, 66a, (N.d.T.).

[131] Zohar, II, 97a, (N.d.T.).

سؤال: ولكن كيف يمكن لما هو، باعترافك أنت، هو من جوهر مماثل للجوهر الإلهي – وإن لم ينفخ فيه الله من روحه ليصنع منه بشراً – أن يُحرَم من الخلود؟

الثيوصوفي: كل ذرة وهباء مادة، وليس فقط جوهر، غير فانية من حيث الماهية، ولكن ليس من حيث وعيُها الفردي. ليس الخلود إلا الوعي غير المنقطع للمرء، بينما يكاد الوعي الشخصي لا يدوم أكثر من الشخصية نفسها، أليس كذلك؟ ومثل هذا الوعي، كما سبق أن أخبرتك، لا يبقى إلا طوال فترة البقاء في ديفاخان، فيعاد امتصاصه بعده، أولاً، في الوعي الفردي، وبعدها في الوعي الكلِّي. لعله يحسن بكم أن تسألوا لاهوتييكم كيف اتفق لهم أن يضغِّثوا كتب اليهود إلى هذا الحد المزري. اقرأوا الكتاب، إذا كنتم تطلبون برهاناً جيداً أن كُتَّاب الأسفار الخمسة، وبخاصة سفر التكوين، لم يعتبروا قط نِفِش [النفس]، ما ينفخه الله في آدم (التكوين، الإصحاح 2)، نفساً خالدة. وها هي بعض الأمثلة: "فخلق الله... وكل متحرك من كل ذي نفس حية" (تكوين 1: 21)، قاصداً الحيوان، وجاء كذلك (تكوين 2: 7): "... فصار الإنسان نفساً حية"، مما يبيِّن أن كلمة نِفِش كانت تُطلق دون تمييز على الإنسان الخالد وعلى البهيمة الفانية. "أما دماؤكم، أي نفوسكم، فأطلبها، من يد كل وحش أطلبها، ومن يد الإنسان" (تكوين 9: 5)"انجُ بنفسك" (انجُ بحياتك، كما تُترجَم أحياناً) – (تكوين 19: 17). وقد جاء في الترجمة الإنكليزية: "لا نقتله" (تكوين 37: 21)، بينما النص العبري هو: "لا نقتل نفساً". "نفس بدل نفس"، كما جاء في سفر اللاويين: "ومن قتل إنساناً يُقتَل قتلاً"، وحرفياً: "من قتل نفس إنسان" (لاويين 24: 17) ومن

الآية 18 وما بعدها نقرأ: "ومن قتل بهيمة (نفساً) فليعوِّض عنها، بهيمة بدل بهيمة"، بينما جاء في النص الأصلي: "نفساً بدل نفس". فكيف يمكن للإنسان أن يقتل ما هو خالد؟ وهذا يفسِّر أيضاً لماذا أنكر الصدُّوقيون خلود النفس، كما أنه يقدم دليلاً آخر أن اليهود الموسويين – غير المسارَرين منهم على كل حال – لم يؤمنوا، أغلب الظن، ببقاء النفس مطلقاً.

في الثواب والعقاب الأبديين وفي النيرفانا

سؤال: يكاد يكون غير ضروري، على ما أظن، سؤالُك عما إذا كنت تؤمن بعقائد المسيحيين في الفردوس والجحيم، أو بالثواب والعقاب الآتي، كما تعلِّمها الكنائس الأرثوذكسية المستقيمة؟

الثيوصوفي: إذا كنا نرفضها جملة وتفصيلاً كما هي واردة في كتب تعليمكم الديني، كيف نقبل أبديَّتها أصلاً؟ لكننا نعتقد اعتقاداً راسخاً بما ندعوه قانون الجزاء، وبالعدل والحكمة المطلقين اللذين يوجِّهان هذا القانون، أو الكارما. من هنا فإننا نرفض رفضاً قاطعاً قبول المعتقد القاسي وغير الفلسفي بالثواب الأبدي أو العقاب الأبدي. إننا نقول مع هوراس:

لتوضَع قواعد لاحتواء غضبنا

ولعقاب الأغلاط بألم مناسب

ولكن لا تجلدوا الذي لا يستحق

إلا ضرباً بالسَّوْط على ما ارتكب من غلط

هذه قاعدة تسري على البشر برمتهم، وهي قاعدة عادلة. هل نحن مضطرون أن نؤمن بأن الله، الذي تجعلونه تجسيداً للحكمة والمحبة والرحمة، أقل من الإنسان الفاني أحقِّية في هذه الصفات؟

سؤال: هل لديكم أسباب ثانية لردِّ هذه العقيدة؟

الثيوصوفي: سببنا الرئيسي لردِّه يكمن في واقع العَودة للتقمص. إننا، كما سبق أن قلت، نرفض فكرة نفس جديدة مخلوقة من أجل كل طفل مولود. إننا نعتقد بأن كل كائن إنساني هو حاملٌ، أو مركبة، لإيغو قديمة نظير لكل إيغو ثانية، لأن كل الإيغوات هي من ماهية واحدة وتنتسب إلى الفيض الأول عن الإيغو الكلِّية اللانهائية. وأفلاطون يدعو هذه الإيغو بالكلمة (أو الإله المتجلِّي الثاني) ونحن ندعوها المبدأ الإلهي المتجلِّي الواحد مع العقل الكلِّي أو النفس الكلِّية، وليس الإله المؤنسن خارج الكون، الشخصي الذي يؤمن به الكثير من القائلين بالألوهية. فالرجاء عدم الخلط بينهما.

سؤال: ولكن أين الصعوبة – ما دمتم تقبلون بمبدأ متجلي – في الاعتقاد بأن ذلك المبدأ يخلق نفسَ كلِّ بشرٍ فانٍ جديد كما خُلقت كل النفوس التي سبقتها؟

الثيوصوفي: يتعذر علينا القبول بهذا الاعتقاد لأن ما هو لاشخصي يكاد يعدم القدرة على الخلق والتدبير والتفكير على عواهنه. فهذا المبدأ، بما هو قانون كوني، سرمدي في تجلِّياته الدورية – تلك التي تشعُّ وتُظهِر ماهيَّته عند بدء كل دورة حياة جديدة – لا يُفترض فيه أن يخلق بشراً، لا لشيء إلا لكي يندم على خلقهم بعد بضع سنوات. إذا كان لا بدَّ لنا أن نؤمن بمبدأ إلهي أصلاً يحسن بنا أن يكون إيماننا بمبدأ هو تناغم ومنطق، وعدل مطلق، بمقدار ما هو محبة، وحكمة، وعدم تحيُّز مطلق، فإن إلهاً يخلق كلَّ نفس مدة عمر أرضي واحد بصرف النظر عن كونها ستحيي جسمَ رجل ثري، سعيد، أو جسمَ فقير بائس سقيم، قُدِّر عليه الشقاء من المهد إلى اللحد مع أنه لم يفعل ما يستحق عليه مصيراً بهذه القسوة – مثل

هذا الإله أقرب إلى شيطان فاقد الحس منه إلى إله. لهذا لم يأخذ حتى الفلاسفة اليهود، المؤمنون بالكتاب الموسوي (باطنياً طبعاً)، بمثل هذه الفكرة، لا بل إنهم، مثلنا، اعتقدوا بالعودة للتقمص.

سؤال: هل يمكنك أن تقدم لي بعض الأمثلة على هذا؟

الثيوصوفي: قطعاً يمكنني. يقول فيلون اليهودي: "الهواء ممتلئ بها – بالنفوس - الأقرب منها إلى الأرض، النازلة لتقترن بأبدان فانية تذهب إلى أجسادها، راغبة في العيش فيها[132]". وفي الزوهار نجد النفس تستجدي حريتها أمام الله: "يا ربَّ العالمين! أنا مسرورة في هذا العالم، ولا رغبة بي في الذهاب إلى عالم آخر، حيث سأكون جارية معرَّضة لكلِّ ألوان التدنيس[133]". وفي جواب الإله نجد الإصرار على عقيدة الضرورة الحتمية، على القانون الأبدي السرمدي: "رغماً عنك تصيرين مضغة، ورغماً عنك تولدين[134]". النور لا يُفهَم بدون الظلمة التي تجعله جلياً بالتبايُن، الخير لا يبقى الخير بدون الشر الذي يبيِّن الطبيعة التي لا تثمَّن للنعمة، وكذلك لا يحق للفضيلة الشخصية أن تنسب لنفسها أي فضل ما لم تكتوِ بنار أتون الغواية. لا شيء أبدي غير متحول سوى الإله المستتر. لا شيء منتهياً – سواء لأن له بداية أو يجب أن تكون له نهاية – يبقى ثابتاً على حاله، فإما أن يتقدم وإما أن يتقهقر. والنفس الظامئة إلى الاجتماع من جديد مع روحها، التي

---

[132] Παλινδρομούσι αύθις

[133] Zohar. Vol. II, 96. [(a) éd. Amsterdam, N.d.T.].

[134] « Mishna », [Pirke] « Aboth ». Vol. IV, p. 29.

وحدها تهبها الخلود، ينبغي أن تتطهَّر عبر ارتحالات دورية قُدُماً نحو موطن الغبطة والراحة الأبدية الوحيدة، المسماة في الزوهار "قصر العشق[135]" وفي ديانة الهندوس موكشا، وبين أهل الغنوص "ملئ النور الأبدي" وعند البوذيين النيرفانا. وكل هذه الحالات هي مؤقتة وليست أبدية.

سؤال: لكني لا أجد تنويهاً للعودة للتقمص في هذا كلِّه.

الثيوصوفي: إن نفساً تتوسل أن يُسمَح لها بالمكوث حيث هي لا بدَّ أن تكون سابقة الوجود، ولم تُخلَق للمناسبة فقط. لكن في الزوهار[136] هناك برهاناً أفضل أيضاً. ففي سياق الكلام على الإيغو العائدة للتقمص (أو النفوس العاقلة)، تلك التي يتعيَّن على شخصيتها الأخيرة أن تتلاشى بالكلِّية، جاء: "كل النفوس التي انسلخت في السماء عن القدوس – تقدَّس اسمه – ألقت بنفسها في هاوية عند وجودها نفسه، واستبَقتْ الوقت الذي يتحتَّم فيه عليها أن تنزل على الأرض مجدداً". "القدوس" هنا يعني، باطنياً، الآتمان أو أتما – بودهي.

سؤال: علاوة على ذلك، من المستغرب جداً أن يرد ذكر النيرفانا كشيء مرادف لملكوت السماء، أو الفردوس، طالما أن النيرفانا، بحسب أيِّ مستشرق ذي اعتبار، هي مرادفة للفناء!

الثيوصوفي: مأخوذاً على محمل الحرف، وبخصوص الشخصية والمادة المتمايزة، ليس إلا – هذا صحيح. فقد

---

[135] היכל אחכת .Zohar, II, 97a, (N.d.T.).
[136] Zohar, III, 61b, (N.d.T.).

اعتنق العديد من آباء الكنيسة الأوائل هذه الأفكار عن العودة للتقمص وتثليث الإنسان. غير أن الالتباس الذي تسبب فيه مترجمو العهد الجديد والمقالات الفلسفية القديمة بين النفس والروح هو الذي ولَّد سوء الفهم المتكرر. وهذا واحد من الأسباب العديدة التي يعود إليها اتهام البوذا وأفلوطين ومسارَرين آخرين كثر بالتشوق إلى فناء نفوسهم فناء تاماً. إذ إن "الاستغراق في الإله"، أو "الاجتماع مع النفس الكلِّية" يعني "الامِّحاق"[137] بحسب الأفكار الحديثة. على النفس الشخصية، بالطبع، أن تتحلل إلى جزيئاتها، قبل أن تتمكن من ربط ماهيَّتها الأنقى إلى الأبد مع الروح الخالدة. لكن مترجمي كلا أعمال الرسل والرسائل، الذين أرسوا قواعد ملكوت السماء، كما وشارحي سوترا تأسيس ملكوت البِر البوذي[138] قد شوَّشوا معنى رسول المسيحية ومُصلِح الهند العظيمين. الأولون مسخوا كلمة بسوشيكو[139] بحيث لا يتصور أي قارئ أن لها علاقة مع النفس، وبهذا الخلط بين النفس والروح معاً لا يحصل قراء الكتاب إلا على معنى محرَّف لكل ما يخص الموضوع. من ناحية أخرى، فشل شارحو بوذا في فهم معنى وموضوع درجات دهيانا الأربع في البوذية. اسأل الفيثاغوريين: "هل يمكن لذلك الروح الذي يهب الحياة والحركة ويشترك والنور في طبيعته أن يُختزَل إلى لا كيان؟" ويلحظ الغيبيون: "هل يمكن حتى لهذه الروح الحساسة في البهائم، التي تتصف بالذاكرة – واحدة من الملَكات العاقلة –

كلمة مستعارة من ترجمة ديمتري أفييرينوس. 137

138 **Dhamma-chakka-ppavatana Sutta (N.d.T.).**

139 **Ψυχικός.**

أن تموت وتضمحل؟". الفناء، في الفلسفة البوذية، يعني فقط تبدداً في المادة، في أي شكلٍ أو مظهرِ شكلٍ كان، إذ إن كلَّ ما يتخذ شكلاً وقتيٌّ، وهو بالتالي، وهمٌ حقاً. ففي الأبدية تكون أطول الفترات الزمنية أشبه ما تكون بطرفة العين. كذلك الأمر فيما يخص الشكل. فقبل أن يتسنى لنا الوقت لإدراك أننا أبصرناه يكون قد ذهب كومضة برق لحظية ومضى إلى غير رجعة. عندما ينطلق الكيان الروحي إلى الأبد من عُقالات كلِّ جزيء مادة، أو جوهر، أو شكل، ويصير من جديد نَفَساً روحياً، إذ ذاك فقط يلج النيرفانا الأبدية والسرمدية، فيدوم ما دامت دورة الحياة دائمة – أي الأبدية حقاً. وعند ذاك يكون ذاك النَّفَس، الموجود بالروح، لا شيء لأنه الكل، فهو كشكل كمظهر، كهيئة، قد انمحى تماماً، أما كروح مطلق فهو ما زال كائناً، إذ إنه قد صار الكينونة نفسها. وعبارة "مستغرق في الجوهر الكلِّي" المستعمَلة نفسها، لدى الكلام على "النفس" بوصفها "الروح"، تعني "الاتحاد مع". وهي لا يمكن أبداً أن تعني الفناء، من حيث إن هذا يعني الانفصال الأبدي.

سؤال: ولكن باستعمالكم هذه العبارات، ألا تعرِّضون أنفسكم لتهمة التبشير بالفناء؟ على سبيل المثال، لقد تكلمت لتوِّك عن نفس الإنسان الراجعة إلى عناصرها الأزلية.

الثيوصوفي: لكنك نسيتَ أني ميَّزت لك الفرق بين المعاني المختلفة لكلمة "نفس"، وبيَّنت الطريقة الرخوة التي تُرجِمَت بها حتى الساعة كلمةُ "روح". نحن نتكلَّم على نفس حيوانية ونفس بشرية، ونفس روحانية، ونميز فيما بينها. أفلاطون على سبيل المثال، يدعو "نفساً عاقلة" ما ندعوه نحن بودهي لكننا نضيف إليها نعتَ "روحانية"، لكن ما ندعوه نحن الإيغو

العائدة للتقمص، ماناس، يدعوها هو الروح، نوس، إلخ، بينما نطبق نحن مصطلح روح، عندما ترد وحدها بدون أية صفة على آتما وحدها. أما فيثاغوراس فهو علىٍ مذهبنا القديم عندما يصرِّح أن الإيغو (نوس) أبديةٌ أبديةَ الإله، أن النفس فقط تجتاز مراحل متنوعة لبلوغ الكمال الإلهي، بينما ثيموس [النفس الجاهلة] تعود إلى الأرض، وحتى فرِون (الفكر) ماناس السفلية، تُزال.

كذلك فإن أفلاطون يعرِّف النفس (بودهي) بكونها "الحركة القادرة على تحريك ذاتها". ويضيف: "النفس هي أقدم الأشياء قاطبة، وبداية الحركة[140]". مسمياً بذلك آتما– بودهي "نفساً" وماناس "روحاً"، الأمر الذي لا نفعله نحن.

أنشِئَت النفس قبل الجسد، والجسد لاحق لها وثانوي، إذ تسوسه، بحسب الطبيعة، النفسُ الحاكمة.

والنفس التي تدبِّر كل ما يتحرك بكل طريقة ممكنة (...) تدبِّر بالمثل السماوات.

النفس، إذن، تقود – بحركاتها – كل ما في السماء، وعلى الأرض، وفي البحر – تلك الحركات التي أسماؤها الإرادة والنظر، والعناية، والمشورة، والرأي – صائباً أو خاطئاً – والفرح، والحزن، والثقة، والخوف، والبغض، والحب، إلى جانب كل مثيلات هذه الحركات الأولية المرتبطة بهذه (...) وبما أنها هي نفسها إلهة فإنها تتخذ أبداً قريناً لها نوس (العقل) – الإله – وتفرح بضبطِ كل شيء على الوجه

---

[140] Voir note p. 80 (N.d.T.).

الصحيح، لكنها حين تقترن بـآنويا [الجهل] – وليس بـنوس – فإنها تفعل كل شيء على العكس من ذلك[141].

في هذه العبارات، كما في النصوص البوذية، فإن السلبي يعامَل بوصفه الوجود الماهي. والفناء ينضوي تحت تفسير مماثل. فالحالة الإيجابية كيانية ماهية، ولكن ما مِن تجلٍ هو كيانية ماهية بما هو كذلك. عندما تدخل الروح النيرفانا بالاصطلاح البوذي، تفقد وجودها الموضوعي، لكنها تستبقي كيانيَّتها الذاتية. وهذا، بنظر العقول الموضوعية، هو صيرورة إلى "عدم" مطلق، أما بنظر العقول الذاتية فهو لا– شيء، أي لا شيء قابل للإدراك بالحواس. بذلك فإن نيرفانا البوذيين تعني اليقين في الخلود الفردي في الروح، وليس في النفس التي على كونها "أقدم الأشياء"، ما برحت – إلى جانب الآلهة الأخرى – فيضاً منتهياً، من حيث الأشكال والفردية، إن لم نقل من حيث الجوهر.

سؤال: ما زلتُ غير قادر على الإحاطة بالفكرة، وأكون ممتناً لك لو تفضلتَ بشرحها لي ببعض الإيضاحات.

الثيوصوفي: لا شك أنها عصية على الفهم، وبخاصة لمَن نشأ على أفكار الكنيسة النظامية العقائدية. غير أنني يجب أن أضيف شيئاً هاماً: ما لم تدرس وظائف كلٍّ من "المبادئ" الإنسانية على حدة وحال كُلٍ منها بعد الموت دراسةً وافية، لن يتسنى لك أن تفهم من فلسفتنا الشرقية إلا النزر اليسير.

---

[141] **Les Lois, X, 896 c-d, 897 a-b, extraits (N.d.T.).**

في مختلف مبادئ الإنسان

سؤال: لقد سمعت الكثير عن هذا التقسيم "للإنسان الباطني" كما تسميه، لكنني لم أفهم "ذيله من رأسه"، حسب تعبير القباليين.

الثيوصوفي: طبعاً، لأنه صعب للغاية، وقد يبدو لك، كما تقول "مربكاً"، لفهم الجوانب المختلفة التي نسميها "مبادئ" للإيغو الحقيقية، وتمييزها بشكل صحيح عن بعضها البعض. هذا هو الأكثر أهمية لأن هناك اختلافاً ملحوظاً في ترقيم المبادئ وفقاً للمدارس الشرقية المختلفة، على الرغم من وجود أساس مشترك مماثل للتعليم.

سؤال: هل تشير إلى مؤلفي الفيدانتا، على سبيل المثال؟ ألا يخفضون من "مبادئك" السبعة إلى خمسة؟

الثيوصوفي: بالتأكيد، لكن على الرغم من أنني لم أجرؤ على مناقشة هذه النقطة مع أحد الفطاحل الفيدانتين، إلا أنني أستطيع القول إنه في رأيي الشخصي بأن لديهم سبباً وجيهاً للقيام بذلك. هم يعطون تسمية الإنسان فقط للتجمع الروحي الذي يتألف من جوانب عقلية مختلفة، لأن الجسد المادي، وفقاً لهم، الذي هو مجرد وهم، لا يستحق أن يؤخذ بعين الاعتبار. والفيدانتا ليست هي الفلسفة الوحيدة التي تحسب الأمر بهذه الطريقة. يذكر لاوتسو، في كتابه الطاو تي كينغ، خمسة مبادئ فقط، لأنه مثل الفيدانتيين، يستبعد اثنين، وهما: الروح (آتما) والجسم المادي، علاوة على وصف الأخير بـ "الجثة". ثم هناك مدرسة تاراكا راجا يوغا التي هي في الواقع تعترف فقط

بثلاثة "مبادئ". في الواقع، على أية حال، ستهول أوبادهي (أو الجسد المادي، في حالة اليقظة للوعي)، وسوكشم أوبادهي، (نفس الجسم في في سفابنا أو حالة الأحلام)، و كاران أوبادهي، أو "الجسد السببي" (هذا هو الذي ينتقل من تجسد إلى آخر)، جميعها لها جانب مزدوج، وبالتالي تشكل ستة مبادئ. أضف لهم آتما، أو المبدأ الإلهي غير الشخصي أو العنصر الخالد في الإنسان، والذي لا يختلف عن الروح الكونية، وسيكون لديك مبادئنا السبعة مرة أخرى[142]. تلاميذ هذه المدرسة أحرار في التمسك بتصنيفهم، ولكننا نحافظ على تصنيفنا.

سؤال: يبدو لي أنه متطابق تقريباً مع تقسيم المبادئ في المسيحية السرانية - الجسد والنفس والروح؟

الثيوصوفي: تماماً. يمكن للمرء أن يجعل الجسم بسهولة مركبة "مزدوجة حيوية"، ومن هذه، يجعلها مركبة الحياة، أو البرانا. ومن كاماروبا، أو النفس (الحيوانية)، مركبة للعقل الأعلى والعقل الأدنى: وهذا من شأنه أن يشكل ستة مبادئ والروح واحد وخالد، يتوج الكل. في العلوم الغيبية، أي تغيير نوعي في حالة وعينا يعطي الإنسان جانباً جديداً، وإذا استمر هكذا، فإنه يصبح جزءاً مكملاً من الإيغو الحية والفاعلة ويجب أن نطلق عليه اسماً خاصاً (ونعطيه بالفعل)، من أجل التمييز بين الإنسان الذي هو في هذه الحالة بالذات، وبين الإنسان الذي هو، عندما يضع نفسه في حالة ثانية.

---

142 انظر، للحصول على شرح أوضح: العقيدة السرية، المجلد. الأول، ص. 157.

سؤال: هذا هو بالضبط ما يصعب فهمه.

الثيوصوفي: يبدو لي، على العكس من ذلك، سهلاً للغاية بمجرد أن يستوعب المرء هذه الفكرة الأساسية: سواء كان ذلك على مستوى الوعي هذا أو ذاك، فإن الإنسان يتصرف وفقاً لحالته العقلية والروحية. ولكن المادية اليوم كبيرة جداً لدرجة أنه كلما شرحنا أكثر، كلما بدا أن للناس قدرة أقل على فهم ما نقوله. قسّم، إذا أردت، الكائن الأرضي التي يُطلق عليه اسم الإنسان، إلى ثلاثة جوانب رئيسية: ما لم تجعله حيواناً صرفاً وبسيطاً، فلا يمكنك فعل شيء أقل. تجد أولاً جسده الموضوعي، بعد ذلك، مبدأ التفكير فيه (وهو أعلى بالكاد من عنصر الغريزة في الحيوان) أو النفس الحيوية الواعية، وما يميزه بشكل لا يمكن تجاوزه بما يتجاوز الحيوان: نفسه المنطقية أو "الروح". طيب! إذا أخذنا هذه المجموعات الثلاث، أو الكيانات التمثيلية، وإذا قسمناها وفقاً للتعليم الغيبي فما الذي سنحصل عليه؟

بادئ ذي بدء، الروح (بمعنى الكل المطلق، وبالتالي غير قابل للتجزئة) أو آتما. في أي حال من الأحوال لا يمكننا أن نسميها مبدأ "إنساني"، لأنه لا يمكننا، من الناحية الفلسفية، تحديد موقعها أو تحديدها، لأنها ببساطة ما "هو موجود" في الأبدية والذي لا يمكن أن يكون غائباً عن أصغر نقطة هندسية أو رياضية في عالم المادة أو عالم الجوهر. إنها في أحسن الأحوال، ستكون ميتافيزيائياً، النقطة التي تشغلها في الفضاء طوال كل حياة، الموناد الإنسانية ومركبتها، الإنسان.

ولكن هذه النقطة هي خيالية مثل الإنسان نفسه، وهي في الواقع مجرد وهم، مايا. ومع ذلك، بالنسبة لأنفسنا كما هو الحال بالنسبة لجميع الإيغو الشخصية الأُخرى، نحن كائنات حقيقية خلال أزمة الهلوسة التي تُسمى الوجود، وعلينا أن نعتني بأنفسنا - على الأقل في خيالنا الخاص - إذا لم يفعل ذلك أي شخص آخر. لمساعدة الذكاء البشري بسهولة أكبر في تقريب هذه الأفكار لإدراكه عندما يبدأ بدراسة العلوم الغيبية ولحل لغز ألفباء سر الإنسان، فإن عالم الغيبيات يُسمى هذا المبدأ السابع تأليف السادس، ويعطيه كمركبة النفس الروحية بودهي. ومع ذلك، تخفي هذه الأخيرة سراً لم يتم الكشف عنه مطلقاً لأي شخص، باستثناء الشيلا (التلاميذ) الذين يرتبطون بأداء قسم يمين لا رجعة فيه أو، على الأقل، أولئك الذين يستحقون كل ثقة. من الواضح أنه سيكون هناك قدر أقل من الالتباس إذا استطعنا الكشف عن هذا السر، ولكن، لما كان هذا يتعلق مباشرة بقدرة المرء على خلع قرينه النجمي خلعاً واعياً وإرادياً، ولما كان من شأن هذه الموهبة، مثلها كمثل "خاتم جيجس، أن تكون شديدة الخطر على الإنسان بعامة، وعلى صاحب هذه الملَكة بخاصة، فهناك حرص شديد عليه. ولكن لنتابع "المبادئ". هذه النفس الإلهية، أو بودهي، هي إذن مركبة الروح. وهذان، مجتمِعان، كلٌّ واحد، لا شخصي، وعديم الصفات (على هذا المستوى بالطبع)، ويشكِّلان "مبدأين" روحيين. فإذا جئنا إلى النفس البشرية، ماناس أو منس[143]

[143] نلاحظ صلة القرابة بين الكلمة اللاتينية - منس (والتي تستمد منها كلمة العقل الفرنسية) والمصطلح السنسكريتية ماناس، والتي تأتي من جذر مان (الإنسان) - مما يعني التفكير (المترجم).

[باللاتينية]، يتفق الجميع على القول بـازدواجية عاقلة الإنسان، في أقل تقدير: صاحب العقل الرفيع يكاد يتعذر أن يصير صاحب عقل دنيء؛ إذ إن هوة سحيقة تفصل الإنسان صاحب الذهن العقلي والروحي عن الإنسان صاحب الذهن الغليظ، البليد، المادي، إن لم نقل الحيواني.

سؤال: ولكن لماذا لا يُمثل الإنسان على أنه لديه "مبدأن"، أو بالأحرى جانبان؟

الثيوصوفي: كلٌّ إنسان فيه هذان المبدآن، أحدهما أنشط من الآخر، وفي حالات نادرة، يكون أحدهما، إذا جاز القول مقموع النموّ أو مشلولاً من جراء قوة المظهر الآخر وهيمنته في أية جهة كان ذلك. هذان، إذن، هما ما ندعوه مبدأي أو مظهري ماناس الأعلى والأدنى: الأول، ماناس الأعلى، أو الإيغو المفكِّرة، الواعية، الساعية باتجاه النفس الروحانية (بودهي) والثانية، أو المبدأ الغريزي للأول، المنجذب إلى كاما، مقر الرغبات والأهواء الحيوانية في الإنسان. بذلك نكون قد برَّرنا وجود أربعة "مبادئ". أما الثلاثة الباقية فيه فهي: (1) الـ "قرين" الذي اتفقنا على تسميته النفس البروتيوسية أو الهيولانية مركبة. (2) مبدأ الحياة، و (3) الجسد. بالطبع ما مِن عالم فسيولوجي أو بيولوجي سوف يقبل هذه المبادئ، ولا حتى يفقه منها شيئاً. ولعل هذا، ربما، سبب عدم فهم أيٍّ منهم كلاً من وظائف الطحال، المركبة الجسمانية للقرين البروتيوسي، أو وظائف عضو معيَّن على الجنب الأيمن من الإنسان، بؤرة الرغبات المذكورة أعلاه، ولا هو بعدُ يعلم أيَّ شيء عن الغدة الصنوبرية، التي يصفها بكونها غدة قرنية يرسب فيها القليل من الرمل، والتي هي في الحقيقة مقرٌّ أسمى

وعي في الإنسان وأكثره ألوهية: عقله الكلِّي العلم، الروحي المحيط بكل شيء. وهذا يبيِّن لك بوضوح أكثر أننا لم نخترع هذه المبادئ السبعة، وأنها ليست بجديدة على عالم الفلسفة كما نستطيع أن نبرهن على ذلك بسهولة.

سؤال: ولكن ما الذي يتقمص من جديد باعتقادكم؟

الثيوصوفي: إنها الإيغو الروحية المفكِّرة، المبدأ الدائم في الإنسان، أو المبدأ الذي هو مقر ماناس. الإنسان الفردي، أو الإلهي، ليس آتما، أو حتى أتما–بودهي، بوصفهما الموناد المزدوجة، بل ماناس، إذ إن أتمن هو الكل المحيط، ولا يصير الذات العليا للإنسان إلا بالانضمام إلى بودهي، مركبته التي تربطه بالفردية (أو الإنسان الإلهي). ذلك أن بودهي – ماناس الذي يُدعى الجسم العِلِّي (المبدأين الخامس والسادس مجتمعين) – الذي هو الوعي – هو الذي يربطها [يربط الفردية] بكل شخصية تقيم على الأرض. لذلك، بما أن النفس هي مصطلح إجمالي، فإن هناك في البشر ثلاثة مظاهر للنفس: الأرضية أو الحيوانية، النفس الإنسانية، والنفس الروحانية وهذه، إذا توخينا الدقة، نفس واحدة في ثلاثة مظاهر. بيد أن لا شيء يبقى من المظهر الأول بعد الموت، ومن الثاني (نوس أو ماناس) وحدها ماهيَّتُه الإلهية، إذا ظلت طاهرة تنجو، بينما الثالث يصير، بالإضافة إلى كونه خالداً، إلهياً بصورة واعية، عبر استيعاء الماناس الأعلى. ولكن لتوضيح الأمر، علينا، قبل كل شيء، أن نقول بضع كلمات في العودة للتقمص.

سؤال: حسناً تفعل، حيث إن أعداءكم يشنون أشد الحروب ضراوة ضد هذا المذهب بالذات.

الثيوصوفي: هل تعني بذلك الأرواحيين[144]؟ أعلم ذلك. وعديدة هي الاعتراضات غير المعقولة التي يحيكونها بشقّ النفس على صفحات النور. وبعضها من الفظاظة والخبث بحيث يتضح أنهم لا يتورعون عن شيء. لقد وقع أحدهم مؤخراً على تناقض ناقشه برصانة في رسالة بعث بها إلى تلك الصحيفة، في تصريحين التقطهما من محاضرات السيد سينيت. لقد اكتشف ذلك التناقض الخطير في هاتين العبارتين: "قد تكون العودة السابقة لأوانها إلى حياة الأرض في الحالات التي تحدث فيها راجعةً إلى تعقيدٍ كارمي - نسبة إلى الكارما - ..." و"ليس ثمة حادث في الفعل الأسمى للعدل الإلهي الذي يقود التطور". إن مفكِّراً بهذا العمق لا بدَّ أن يرى تناقضاً في قانون الجاذبية إذا مدَّ رجل يده لمنع حجر ساقط من تهشيم رأس طفل!

---

[144] يشير المؤلف هنا إلى الأرواحيين الأنكلوساكسون الأمريكيين على الأخص. (المترجم).

الباب الثامن

في التقمص أو الولادة من جديد

ماهية الذاكرة وفقاً للتعليم الثيوصوفي

سؤال: الجزء الأصعب بالنسبة لك هو شرح هذا الاعتقاد وتوفير أساس معقول. لم ينجح أي ثيوصوفي حتى الآن في تقديم دليل صالح واحد قادر على ضعضعة شكوكي. بادئ ذي بدء، يمكننا أن نعارض نظرية التقمص هذه بحقيقة أننا لم نجد لغاية الآن إنسان واحد تذكر أنه قد عاش في السابق، وحتى بشكل أقل أن يتذكر ما كان عليه خلال حياته الماضية.

الثيوصوفي: اعتراضك يعتمد على حجة قديمة: فقدان، لكل منا، ذكرى تقمصنا السابق. هل تعتقد أن هذا يبطل عقيدتنا؟ أجيب أنه لا، وعلى أي حال، لا يمكن أن يكون هذا الاعتراض قاطعاً.

سؤال: أرغب بسماع حججكم.

الثيوصوفي: أنها وجيزة وتنوه لبضع نقاط. إذا أخذت بعين الاعتبار، من ناحية، العجز التام لأفضل علماء النفس الحديثين على أن يشرحوا للعالم طبيعة العقل، ومن ناحية أُخرى، جهلهم

الكامل بإمكانياته، فضلاً عن حالاته العليا فسيتعين عليك الاعتراف بأن الاعتراض الذي تتحدث عنه يستند على استنتاج مسبق مبني على أدلة سطحية وغير مباشرة أكثر من أي شيء آخر. ولكن، قل لي، كيف تتصور "الذاكرة"؟

سؤال: وفقاً للتعريف المقبول عموماً، فإن قدرة أذهاننا على تذكر الأفكار والأفعال والأحداث السابقة والاحتفاظ بها.

الثيوصوفي: يرجى إضافة أن هناك فرق كبير بين الأشكال الثلاثة للذاكرة. إلى جانب الذاكرة بشكل عام، هناك الذكرة والاستذكار والتذكر. هل فكرت يوماً فيما يميزهم؟ لا تنسى أن الذاكرة، هي مصطلح عام.

سؤال: لكن كل هذه المصطلحات مترادفة.

الثيوصوفي: إنها ليست مترادفات قطعاً – ليس في الفلسفة على كل حال. الذاكرة ببساطة هي قدرة فطرية في الكائنات العاقلة، وحتى في الحيوان، على استحضار انطباعات ماضية بتداعٍ للأفكار تحرِّضه بالدرجة الأولى أشياء موضوعية أو فعلٌ ما يقعٍ على أعضاء حواسنا الخارجية. الذاكرة ملَكة تتكل كلياً على الأداء، المعافى والسوي نوعاً ما، لدماغنا الجسدي والتذكرة والاستذكار هما خاصيتان لتلك الذاكرة وجاريتاها. أما التذكُّر فشأنه شأن آخر. يعرِّف عالِم النفس المحدث "التذكُّر" بكونه ظاهرة تتوسط بين التذكرة والاستذكار، أو "سيرورة واعية لاستدعاء حوادث ماضية، إنما بدون ذلك الرجوع التام والمتنوع إلى أمور معينة الذي ينفرد به الاستذكار".

ويقول لوك متحدثاً عن الاستذكار والتذكرة: "حينما تعاود فكرةٌ الرجوعَ بدون تدخل موضوع مماثل لها على الحواس الخارجية، فهي التذكرة، أما إذا اتفق للذهن أن يفتش عنها ولا يعثر عليها ويعاود استدعاءها للنظر إلا بالعناء والجهد، فهو الاستذكار".

ولكن حتى لوك يترك التذكر بلا أي تعريف واضح لأنه ليس ملكة أو خاصية تتصف بها ذاكرتنا الجسدية، إنما إدراك حدسي مستقل عن دماغنا الجسدي وخارج عنه، هو إدراك، إذ يغطي فعلاً (تحرِّضه على العمل معرفةُ الإيغو الروحية الحاضرة أبداً) جميعَ تلك الرؤى في الإنسان التي تُعتبَر شاذة – بدءاً من الصور التي توحي بها العبقرية حتى هذيانات الحمَّى بل والجنون – يصنِّفه العلم باعتباره غير موجود خارج بنات خيالنا.

أما الغيبيات والثيوصوفيا فتنظران إلى التذكر في ضوء مختلف كل الاختلاف. فعندنا أنه بينما الذاكرة جسدية ومؤقتة وتتكل على الشروط الفسيولوجية للدماغ – وهو رأي أساسي يأخذ به كل معلِّمي تقوية الذاكرة تؤيدهم أبحاث علماء النفس العلميين المحدثين – ندعو نحن التذكر ذاكرةَ النفس. إن هذه الذاكرة هي التي تمنح كل إنسان تقريباً اليقينَ، سواء فهمه أم لم يفهمه، بأنه سبق أن عاش وبأنه سوف يعيش من جديد. حقاً كما قال الشاعر ووردزوورث:

ما ولادتنا إلا هجعة وغفلة

فالنفس التي تشرق معنا، نجمة حياتنا

قد غربت في غير مكان

وهي قادمة من بعيد[145]

سؤال: إذا كنتم تبنون عقيدتكم على هذا النوع من الذاكرة – الشعر وبنات الخيال الشاذة، على حدِّ اعترافكم – أخشى أنكم لن تقنعوا بها إلا القليل من الناس.

الثيوصوفي: أنا لم "أعترف" بأنه من بنات الخيال، إنما قلت ببساطة إن علماء الفسيولوجيا والعلماء بعامة يعتبرون تَذْكِرات كهذه هلوسات وتهويماً – النتيجة الضليعة التي ننزل لهم عن شرف الأخذ بها. أما نحن فلا ننكر أن هذه الرؤى للماضي وهذه اللمحات التي تغوص بالفكر في غياهب الزمن شاذة إذا ما قوبلت بتجربة حياتنا اليومية العادية وذاكرتنا الجسدية. إننا نقول مع البروفيسور و. نايت بأن "غياب ذاكرة أي فعل جرى في حالة سابقة لا يمكن أن يكون برهاناً قاطعاً على أننا لم نعش هذا الفعل" وعلى كل صاحب عقل منصف بين خصومنا أن يوافق على ما يقوله بتلر في محاضرات في الفلسفة الأفلاطونية[146] من أن "الإحساس بالغلوِّ الذي يصفعنا به - وجود الروح قبل الجسم - يضرب بجذوره السرية في أحكامنا المتحاملة المادية أو نصف المادية." وعلاوة على ذلك، نقول بأن الذاكرة، كما دعاها أولمبيوذوروس، هي

---

[145] « Ode : Intimations of lmmortality from Recollections of Early Childhood » (N.d.T.).

[146] Conférences sur la philosophie platonicienne » (N.d.T.).

ببساطة الهوام، وهي أضعف ما يُركَن إليه فينا[147]. أما أمُّونيوس ساكَّاس فقد شدد على أن الذاكرة هي الملكة الوحيدة في الإنسان التي تتعارض مباشرة مع التكهُّن، أو النظر في المستقبل. ثم تذكَّرْ أن الذاكرة شيء وأن الذهن أو الفكر شيء آخر: فالأولى آلة تسجيل، سِجِلٌّ ما أسهل أن يتعطل، والثاني (الأفكار) أبدية ولا تفنى. فهل ترفض الاعتقاد بوجود أشياء أو بشر معينين لمجرَّد أن عينيك الجسمانيتين لم تقعا عليهم؟ ألا تكفي الشهادات الجماعية للأجيال الماضية التي رأت يوليوس قيصر ضمانةً بأنه قد عاش ذات مرة؟ فلم لا تؤخَذ بعين الاعتبار الشهادة نفسها للحواس النفسانية للجماهير؟

---

[147] يقول أولمبيوذوروس (في بلاتونيس فيد): الهوام هو حاجز أمام تصوراتنا العقلية، وبذلك، عندما نضطرب باللوامح الملهمة للألوهة، إذا تدخَّل الهوام، خمدت الطاقة الحماسية، فإن الحماس والوَجْد متعاكسان. ولو سئلنا فيما إذا كان في وسع النفس أن تتنشط بدون الهوام لأجبنا بأن إدراكها للكلِّيات يبرهن على أن في وسعها ذلك. فلها، إذن، إدراكات مستقلة عن الهوام، بيد أن الهوام، في الوقت ذاته، يلازم طاقاتها، كما تلاحق العاصفة من يبحر في البحر.
تتضمن كلمة** اليونانية معنى الظهور (ظهور أشياء غير مألوفة تبعث على الوهم بالطبع)، معنى صورة تتشكل في الذهن بقدرة الخيال. وهي تشير كذلك إلى الملكة العقلية المبدعة للصور – الخيال. (ويجدر بنا أن نتذكر بأن هذه الصور يمكن أن تكون تمثلاً لإدراك تمثلاً مباشراً أو لذكريات منشطة، إن لم نقل لظواهر وهمية) وتُشتَق كلمة*** من الجذر نفسه أيضاً. (المترجم).
*Platonis Phæd.
**φαντασία.
***φάντασμα.

سؤال: ولكن ألا تعتقد بأن هذه التمييزات هي من الشفافية بحيث لا تقبلها غالبية البشر؟

الثيوصوفي: بل قل غالبية الماديين. ولهؤلاء نقول دونكم: حتى في الفسحة القصيرة للعمر العادي، الذاكرة أضعف من أن تسجِّل كل أحداث عمر واحد. فكم من المرات ترقد أهم الأحداث هاجعة في ذاكرتنا حتى يوقظها تداعٍ ما للأفكار، أو تحثها على النشاط والأداء صلة ما أُخرى.

تلك هي حال المسنِّين على وجه الخصوص، الذين يتبيَّن دوماً أنهم يعانون من ضعف الاستذكار. لذا فإننا حين نتذكر ما نعرف عن المبادئ الجسدية والروحية في الإنسان، فليس فشل ذاكرتنا في تسجيل حياتنا وأعمارنا السابقة هو ما يجب أن يثير عجبنا، بل العكس، فيما لو حصل.

لماذا لا نتذكر حيوياتنا الماضية؟

سؤال: لقد قدمت لي لمحة عامة عن المبادئ السبعة. كيف تشرح أنه ليس لدينا أي ذكرى بأنه قد سبق لنا بأننا قد عشنا من قبل؟

الثيوصوفي: بطريقة بسيطة جداً. "المبادئ" التي نسميها مادية والتي لا ينكرها العلم، على الرغم من أنه يمنحها أسماء أُخرى[148]، تتحلل بعد الموت، مع العناصر التي تؤلفه، وتختفي الذاكرة في نفس الوقت مثل دماغه. لذلك لا يمكن أن تتذكر هذه الذاكرة التي اختفت، لشخصية اختفت أيضاً، أي شيء، ولا يمكنها أن تسجل أي شيء مهما كان في التقمص القادم للإيغو. التقص يعني أنه سيتم تزويد الإيغو بجسم جديد وعقل جديد وذاكرة جديدة. لذلك سيكون من العبث أن نتوقع من هذه الذاكرة الجديدة أن تتذكر ما لم تسجله أبداً نظير فحص قميص لم يرتديه القاتل، تحت المجهر، للبحث عن بقع من الدم التي كانت فقط على الملابس التي كانت له. ليس القميص النظيف الذي يجب تفتيشه، بل الملابس التي كان يرتديها عند ارتكاب الجريمة، ومع ذلك، إذا تم حرقها أو تدميرها، كيف يمكنك العثور عليها؟

---

[148] ألا وهي: الجسم، والحياة، والغرائز الشهوانية والحيوانية، والـ "الإيدولون - الوثن" النجمي لدى كل إنسان (سواء تم إدراكها بالفكر أو بعين العقل، أو موضوعياً بمعزل عن الجسد). إنها المبادئ التي ندعوها ستهولا– شاريرا، برانا، كاماروبا، ولِينغا– شاريرا (انظر أعلاه).

سؤال: نعم، ولكن كيف يمكنك التأكد من أن الجريمة قد ارتُكِبت أصلاً، أو أن "الرجل الذي يرتدي القميص النظيف" قد عاش من قبل؟

الثيوصوفي: بالتأكيد لن يكون ذلك بالوسائل المادية ولا بالاعتماد على شهادة لما لم يعد موجوداً. ولكن هناك ما يُسمى بالأدلة غير المباشرة، والتي لها قيمة لأن قوانيننا، الحكيمة تقبلها، وربما أكثر مما ينبغي. لكي نكون مقتنعين بحقيقة التجسد وحياة الماضي، لا يجب أن يكون الفرد ذا علاقة مع ذاكرته العابرة، بل مع الأنا الحقيقية والدائمة.

سؤال: ولكن كيف يمكن للناس تصديق ما لا يعرفونه ولم يروه قط، وما هو أكثر من ذلك، مع الذي لم يتواصلوا معه؟

الثيوصوفي: إذا كان البشر - والأكثر تعليماً - يؤمنون بالجاذبية والأثير والقوة وجميع التجريدات الثانية و "فرضيات العمل" في العلوم، دون أن يلمسوها أو يشعروا بها أو يروها أو يسمعونها، أو يذوقوها، فلماذا لم يستطع الآخرون أن يؤمنوا، وفقاً لنفس المبدأ، في الأنا الدائمة، وهي "فرضية عمل" أكثر منطقية وأهمية بكثير من أي شيء آخر؟

سؤال: ولكن، في نهاية المطاف، ما هو هذا المبدأ الأزلي الغامض؟ هل يمكنك شرح طبيعته، لجعله واضح للجميع؟

الثيوصوفي: إنها الإيغو التي تتقمص، "الأنا" الفردية والخالدة، وليست "الأنا" الشخصية. باختصار، إنها مركبة المينا الآتما - البودهي، التي تُكافأ في ديفاخان وتُعاقب على

الأرض. أخيراً، هذا هي ما ترتبط بها انعكاس السكاندا، أو صفات وسمات في كل تجسد[149].

سؤال: ماذا تعني بالسكاندا؟

الثيوصوفي: بالضبط ما قلته للتو: "سمات"، من بينها الذاكرة، والتي تهلك مثل زهرة، تاركة وراءها فقط رائحة باهتة. دعنا نذكر في هذا الصدد فقرة أُخرى من التعليم البوذي للسيد. ه.س. أولكوت[150] التي تتناول الموضوع مباشرة. هكذا ينظر إلى السؤال: [يتذكر الإنسان المسن حوادث شبابه، على الرغم من أنه قد تغير جسدياً وعقلياً. لماذا، في ظل هذه الظروف، لا نستعيد ذكريات حيوياتنا الماضية إلى ولادتنا الحالية؟ لأن الذاكرة يتم تضمينها في السكاندا، وبما أن هذه قد تغيرت خلال الوجود الجديد، وظهرت ذاكرة جديدة أخذت بالتطور، وتعمل على حفظ حقائق هذا التقمص. ومع ذلك، فإن تسجيل أو انعكاس جميع الحيويات السابقة يجب أن يبقى على قيد الحياة لأنه، عندما أصبح الأمير سيدهارثا بوذا، اكتشف كل استمرارية ولاداته السابقة ... ومن يمكن أن يصل إلى حالة

---

149 وفقا للتعليم البوذي، هناك خمس سكاندا أو سمات: "روبا (الشكل أو الجسم) والصفات المادية، فيدانا، الاحساس، سانا، الأفكار المجردة سمخارة، ميول ونزعات العقل، فينانا، القدرات العقلية. من هذه السكاندا نتشكل، ومن خلالها ندرك الوجود، ومن خلالهم نتواصل مع العالم من حولنا.

150 ه.س. أولكوت، رئيس ومؤسس الجمعية الثيوصوفية مع بلافاتسكي. يتم تأكيد دقة التعليم من قبل القس. ح. سومانجال، كبير كهنة سريبادا وجالي، ومدير كلية ويدويودا بريفينا في كولومبو، الذي تعرف عليه باعتباره مطابقاً لقانون كنيسة الجنوب البوذية.

جهانا[151] يمكن أن يرى ذلك بطريقة تراجعية متتابعات حيوياته]. هذا يثبت لك أنه إذا كانت صفات الشخصية غير القابلة للتلف مثل الحب، واللطف، والإحسان، وما إلى ذلك فإنها تعلق على الأنا الخالدة، من خلال التصوير عليها، إذا جاز التعبير، صورة دائمة للجانب الإلهي من الإنسان الراحل. سكانداه المادية (تلك التي تنتج الآثار الكارمية الأكثر وضوحاً) تكون عابرة مثل الومضة ولا يمكنها التأثير على الدماغ الجديد للشخصية الجديدة. ومع ذلك فإن حقيقة أنهم لا يطبعون أي أثر لا يقوض على الإطلاق هوية الأنا المتجسدة.

سؤال: هل يمكننا أن نستنتج من هذا، وفقاً لرأيك، أن من يستمر بالحياة هي فقط ذاكرة النفس، كما تسميها، من حيث أن النفس أو الأنا، هما واحد ونفس الشيء، في حين أنه لا يبقى شيء من الشخصية؟

الثيوصوفي: ليس هكذا بالضبط. ما لم يكن الأمر متعلق بإنسان مادي بشكل مطلق، من دون أصغر انفتاح في طبيعته يمكن من خلاله أن يدخل شعاع روحي، يجب أن يبقى شيء ما يستمر بالحياة من كل شخصية، لأنها تترك بصمة أبدية على الذات الدائمة أو الأنا الروحية التي تتجسد 8. (راجع قسم "الوعي بعد الموت وما بعد الولادة"). الشخصية، مع سكانداها، تتغير باستمرار مع كل ولادة جديدة. كما قلنا من قبل، إنها لا تمثل إلا الدور الذي لعبه الممثل (الأنا الحقيقية) خلال أمسية واحدة. هذا هو السبب في أننا لا نحتفظ، على المستوى المادي، بأي

[151] كلمة بلغة - بالي - وتعني الامتصاص. إنها تذكرنا بالكلمة السنسكريتية ديانا. (المترجم).

ذكرى لحياتنا الماضية، على الرغم من أن "الأنا" الحقيقية قد عاشتها بالكامل وتعرفها جميعاً.

سؤال: كيف لا يطبع إذن الإنسان الحقيقي أو الروحي هذه المعرفة في "أنا" الجديدة الشخصية؟

الثيوصوفي: كيف استطاعت خادمات في مزرعة فقيرة التحدث باللغة العبرية ولعب الكمان عندما كانوا في حالة نشوة وانجذاب روحي، أو في حالة من المشي أثناء النوم، في حين أنهم لم يتعلموا شيئاً كهذا في حالتهم الطبيعية؟ لأنه، كما قد يخبرك أي عالم نفسي حقيقي في المدرسة القديمة، لا في مدرستك الحديثة: لا يمكن للأنا الروحية أن تتصرف إلا عندما تكون الأنا الشخصية مشلولة. "أنا" الروحية للإنسان كلية العلم وتوجد كل المعرفة الفطرية فيها، في حين أن الذات الشخصية هي مخلوق بيئتها، وعبدة للذاكرة الجسدية. إذا استطاعت الأولى أن تعبر عن نفسها دون انقطاع ودون عوائق، فلن يكون هناك المزيد من البشر على الأرض: سنكون جميعاً آلهة.

سؤال: ومع ذلك ينبغي أن يكون هناك استثناءات وبعض الناس يجب أن تتذكر حيوياتها الماضية.

الثيوصوفي: الواقع هو أن البعض يتذكرها. لكن من يصدق ماذا يقولون؟ تعتبر المادية الحديثة نظير هؤلاء الحساسين مثل الكثير من الهستيريين المهلوسين أو المتحمسين المجانين أو المشعوذين. لكن من الأفضل أن يقرأ الناس الكتب التي كُتبت حول هذا الموضوع، وخاصةً "التقمص، قصة حقيقة

منسية[152]" التي كتبها إي. د. وولكير، عضو ج.ث. وسيكتشفون فيها كل الأدلة التي يضيفها هذا المؤلف المختص إلى ملف هذا السؤال المثير للجدل. إذا كنت تتحدث مع الناس عن النفس سوف يسألك البعض، "لكن ما هي النفس؟ هل سبق لك أن أثبت وجودها؟". بالطبع لا جدوى من الجدال مع الماديين، لكن حتى بالنسبة لهم، أود أن أطرح السؤال التالي: "هل يمكنكم أن تتذكروا ما كنتم وماذا كنتم تفعلون، عندما كنتم في عمر الطفل؟؟ هل كان لديكم أي ذكريات عن حياتكم أو أفكاركم أو أفعالكم أو أي شيء عشتوه خلال الثمانية عشر شهراً الأولى أو أول عامين من وجودكم؟ لماذا إذن لا تنكرون بإسم نفس المبدأ، أنكم لم تعيشوا أطفال؟

من ناحية أُخرى، إذا أضفنا إلى كل هذا أن الأنا التي تتقمص أو الفردية، لا تحافظ إلا خلال فترة ديفاخان، على جوهر تجربة حياتها السابقة على الأرض (أي تلك الخاصة بالشخصية) فإنه يتم تقليل التجربة البدنية بالكامل إلى حالة من الحقائق المحتملة[153]، أو أن تُترجم، إذا جاز التعبير، إلى صيغ روحية. وإذا، علاوة على ذلك، كنا لم ننس أن الوقت الذي يمتد بين ولادتين جدد يقابل (وفقاً لما يُقال) مدة تتراوح ما بين عشرة إلى خمسة عشر قرناً، يكون خلالها الوعي الجسدي خاملاً تماماً وبالمطلق، حيث ليس لديه أعضاء تعمل، وبالتالي ليس

---

[152] E.D. Walker, Reincarnation A Story of Forgotten Truth (« La Réincarnation, une histoire de Vérité oubliée »), Boston, New York, 1888. (N.d.T.).

[153] باللغة الإنجليزية: "حالة من الكمون"، حالة وجود بالقوة (المترجم).

له وجود، يصبح من الواضح تماماً أنه لا يمكن أن تتذكر وجوداً ينتقل إلى الذاكرة المادية البحتة.

سؤال: - لقد قلت للتو إن الأنا الروحية كلية العلم. ما الذي سيصبح بعد ذلك هذا العلم، الذي تنوه له في حالات كثيرة خلال ما تسميه الحياة في ديفاخان؟

جواب: خلال هذه الفترة الزمنية، يكون كامناً بالقوة. قبل كل شيء، لأن الأنا الروحية (مجموع بودهي ماناس) ليست هي الذات العليا التي، كونها واحدة مع النفس الكونية، أو العقل الكوني، هي الوحيدة كلية العلم. ثانياً، لأن ديفاخان هو امتداد مثالي للحياة الدنيوية التي انتهت لتوها، هي فترة من التكيف التعويضي ومكافأة على جميع الأذى ولكل المعاناة غير المستحقة التي عانتها في هذه الحياة بالذات.

الأنا الروحية هي كلي العلم فقط بحالة كمون في ديفاخان، إنها في النيرفانا حصرياً تصبح أمراً واقعاً، من خلال استغراقها في النفس - العقل الكوني. ومع ذلك، فإن الأنا تعود لتصبح شبه كلية العلم والمعرفة مرة أُخرى خلال ساعات الحياة الأرضية حيث تطلقها بعض الظروف غير الطبيعية وبعض التعديلات الفسيولوجية للجسم من أغلال المادة، كما هو الحال، على سبيل المثال، في حالة الروبصة هذه:

خادمة فقيرة تتحدث العبرية وثانية تعزف الكمان. هذا لا يعني أن التفسيرات التي يقدمها الطب لهاتين الحالتين لا تحتوي على أي شيء من الصحة. كانت إحدى الفتيات الصغيرات قد سمعت بالفعل قبل بضع سنوات، سيدها، قساً، يقرأ النصوص

العبرية بصوت عالٍ، والثانية سمعت فناناً يعزف على الكمان في المزرعة.

ولكن لا يمكن لأي منهما أن ينجزا ما فعلتاه تماماً، إن لم يكن قد تم تنشيطه من خلال هذا الشيء الذي هو كلي العلم، بحكم تماهي طبيعته مع العقل الكوني. في إحدى هاتين الحالتين تصرف المبدأ الأعلى على السكاندا ووضعهم في الحركة، وفي الجانب الآخر، بما أن الشخصية مشلولة، فإن الفردية نفسها قد تجلت. من فضلك لا تخلط بين الاثنتين.

حول الفردية والشخصية[154]

154 حتى في كتابه التعليم البوذي وجد الكولونيل أولكوت نفسه، تحت وطأة منطق الفلسفة الغيبية، مضطراً إلى تصويب أغلاط المستشرقين السابقين الذين لم يوضحوا مثل هذا التمييز، وبرر للقارئ ذلك بقوله: "التقمصات المتوالية على الأرض، أو ' الهبوط على عالم الأجيال'، للأجزاء المنسجمة والمتماسكة (السكاندا) لكائن معين بقوة "تانها"، إنما هي تتابع للشخصيات. وفي كل ولادة تختلف الشخصية عن شخصية ولادة سابقة أو لاحقة فيما بعد. إن كارما، الإله المحرِّك للآلة، يتنكر (أو لنقل، ينعكس) تارة في شخصية حكيم، وتارة أُخرى في شخصية حرفي، وهكذا دواليك من أول خيط الولادات إلى آخره. ولكن رغم أن الشخصيات تتغير دائماً، إلا أن خيط الحياة الواحد الذي تنتظم فيه حبات الخرز يتواصل بلا انقطاع. إنه دوماً ذلك الخط عينه لا سواه أبداً. لذا فهو فردي، هو موجة حيوية فردية بدأت في النيرفانا، أو الجانب الذاتي للطبيعة، كما بدأت موجة الضوء أو الحرارة التي تجتاز الأثير عند مصدرها الديناميكي وتنطلق هذه الموجة مجتازة الجانب الموضوعي للطبيعة بدافع الكارما وتوجيه تانها (الرغبة غير المشبعة في الوجود) المبدعة، وتمضي عبر تغيرات دورية عديدة عائدة إلى النيرفانا. ويدعو السيد ريس–ديفدز ما يمر من شخصية إلى أُخرى على طول السلسلة الفردية ' الطبع'، أو المؤثر'. وبما أن ' الطبع'ليس مجرد تجريد ميتافيزيائي، إنما محصلة للخصائص الذهنية وللخصال المعنوية، أفلا يعيننا اعتبار موجة الحياة كالفردية، واعتبار كلٍّ من حلقات سلسلة تجلياتها الولادية شخصية منفصلة، على تبديد ما يدعوه السيد ريس–ديفدز ' ذريعة لغز يائسة (البوذية، ص 101). إن الفرد الكامل، من وجهة النظر البوذية، هو بوذا، فيما أظن. فالبوذا إنْ هو إلا زهرة الإنسانية النادرة بدون أدنى إضافة غيبية. وبما أن أجيالاً لا عدَّ لها (أربع أسنكهيًّا ومئة ألف دورة) مطلوبة ليتفتح إنسان واحد عن بوذا ولما كانت إرادته الحديدية ليصبح بوذا تسري عبر الولادات المتوالية كلها، ماذا ندعو ما يريد ويثابر على هذا النحو؟ أندعوه الطبع؟ أم ندعوه الفردية:

سؤال: ولكن ما هو الفرق بين الاثنتين؟ أعترف أن كل هذا لم يتضح لي بعد. وعلى وجه التحديد هذا الاختلاف الذي لا تؤكدونه بما فيه الكفاية.

الثيوصوفي: هذا ما أسعى لعمله. ولكن هيهات! فإن توضيح هذا التمييز لبعضهم هو أصعب من جعلهم يُجِلُّون متعذرات صبيانية، لا لشيء إلا لأنها من قبيل الأرثوذكسية العقائدية ولأن الأرثوذكسية العقائدية تحظى بالاحترام. فمن أجل أن تفهم الفكرة جيداً عليك أن تدرس أولاً مجموعتي "المبادئ":
المبادئ الروحية، أو المبادئ التي تنتمي إلى الإيغو التي لا يدركها الفناء، والمبادئ المادية، أو المبادئ التي تشكل أجسام أو مركبات تلك الإيغو أو سلسلة شخصياتها المتغيرة على الدوام. دعنا نطلق عليها أسماء ثابتة ونقول إن:

1 - آتما، "الذات العليا"، ليست روحك ولا روحي، مثل أشعة الشمس، تضيء على كل شيء. إنها "المبدأ الإلهي" المنبث في كل شيء على مستوى الكوني وغير المنفصل عن مبدأه الروح المتعالية المطلقة، تماماً كما أنه لا يمكن فصل أشعة الشمس عن نور الشمس.

2 - بودهي (النفس الروحية)، ليست سوى مركبتها. وكلاهما - سواء تم تناولهما بشكل منفصل أو سوية - لا يفيدان جسم الإنسان أكثر فائدة نور الشمس وشعاعها لكتلة الجرانيت المدفونة في الأرض، ما لم يتم استيعاب الثنائية الإلهية بوعي ما وينعكس فيها. لا يمكن للكارما أن تؤثر على آتما أو

فردية لا تتجلَّى في كل ولادة منها إلا جزئياً، إنما مشيَّدة من لبنات تعود إلى كل الولادات؟" (التعليم البوذي، الملحق أ. 137).

بودهي، لأن الأولى هي أعلى جانب من جوانب الكارما - من وجهة نظر معينة، وكيلتها النشط بواسطة طبيعتها بذاتها - في حين أن الأخيرة تكون لا واعية على مستوانا الأرضي. هذا الوعي أو العقل هو

3 - ماناس[155]، مشتق أو منتج، في شكل منعكس، من آهامكارا "بمعنى أنا"، أو "الإيغو- ية". أيضاً، عندما ترتبط ماناس ارتباطاً لا ينفصل بالمبدأين الأولين، يُطلق عليها اسم "الإيغو الروحية" و "تايجاسا". هذه هي الفردية الحقيقية، أو الإنسان الإلهي. بتجسدها في الأصل في الشكل البشري، الذي كان خالياً من الذكاء ويتحرك من خلال وجود الموناد المضاعفة في داخله (دون أن يكون مدركاً لهذا الوجود، لأن هذا الشكل كان محروماً من الوعي)، هذه هي الإيغو بالضبط التي جعلت من هذا الشكل ذو المظهر الإنساني، إنسان حقيقي. إنها أيضاً هذه الإيغو، هذا "الجسم السببي"، الذي يحمل في دائرة نفوذه كل شخصية فيها تجبرها الكارما على التقمص وهي المسؤولة عن كل الذنوب التي أُرتكبت من خلال كل جسم جديد، كل شخصية - هذه الأقنعة العابرة التي تخفي الذات الحقيقية خلال سلسلة طويلة من الولادات الجديدة.

---

155 (أي ماهات، أو "العقل الكوني" هو مصدر ماناس. هذا هو ماهات العقل) في الإنسان. تُسمى ماناس أيضاً كشيتراجنا، "الروح المتجسدة" لأنه وفقاً لفلسفتنا، فإن ماناسابوترا، "أبناء العقل الكوني"، هم الذين يخلقون (أو بالحري ينتجون) الإنسان المفكر، "مانو"، من خلال تجسدهم في بشرية الجنس البشري الثالث. لذلك فإن ماناس هي الإيغو الروحية الحقيقية الدائمة التي تتقمص، الفردية، في حين أن شخصياتنا المتنوعة والتي لا حصر لها ليست سوى أقنعة خارجية لها.

سؤال: لكن هل هذا عادل؟ لماذا تتلقى الإيغو هذا العقاب نتيجة لأفعال نسيتها؟

الثيوصوفي: - لم تنساها، إنها تعرف أخطاءها وتتذكرها كما تتذكر أنت ما فعلته بالأمس. بحجة أن الذاكرة التي تنتمي إلى هذه الحزمة من العناصر المادية التي تُسمى "الجسم"، لا تتذكر أفعال سلفتها (الشخصية التي كانت في السابق)، هل تتخيل أن الأنا الحقيقية قد نسيتها؟ إن ذلك بمثابة القول إنه من الظلم أن يُعاقب حذاء جديد في أقدام طفل، جُلِدَ بسبب سرقة التفاح، على سرقة تافهة لا يعرف الحذاء شيئاً عنها.

سؤال: لكن ألا توجد وسائل للتواصل بين مستويات الوعي أو الذاكرة الروحية والبشرية؟

الثيوصوفي: يوجد بالطبع، لكن علماء النفس العلميين المعاصرين لم يعترفوا بهم أبداً. إلى ماذا إذن تنسب الحدس "صوت الضمير"، التوقع المسبق، الذكريات الغامضة وغير الدقيقة، وما إلى ذلك، إن لم يكن لمثل هذه الاتصالات؟

ليت لو أن غالبية البشر المتعلمين فقط يمكنهم أن يكون لديهم تصورات روحية صافية لكولريدج، الذي أظهر حدساً كبيراً في بعض تعليقاته! استمع، على سبيل المثال، إلى ما يقوله عن الحقيقة المحتملة المتمثلة في "أن جميع الأفكار بحد ذاتها لا تُخضع للفناء":

[إذا اضطررنا إلى إعطاء القدرة الذكية - التي نعني بها هذه "الصحوات" المفاجئة للذاكرة - فرصة أوسع، فسوف تحتاج فقط إلى تنظيم مختلف ومناسب - جسم سماوي بدلاً من جسم

أرضي - لكي تتكشف التجربة الجماعية أمام كل نفس إنسانية لكل وجودها الماضي - أو بالحري لكل وجوداتها في الماضية - وهذا الجسم السماوي هو الإيغو الماناسية[156]].

[156] من ماناس.

حول ثواب وعقاب الإيغو

سؤال: سمعتك تقول إن الأنا، مهما كانت حياة الشخصية على الأرض التي تجسدت فيها، لا تعاني مطلقاً العقاب بعد الموت.

الثيوصوفي: على الإطلاق، باستثناء الحالات الاستثنائية والنادرة جداً التي لن نتحدث عنها هنا، لأن طبيعة هذا "العقاب" لا تشبه بأي شكل من الأشكال مفاهيمك اللاهوتية عن الدينونة.

سؤال: ولكن إذا كانت الإيغو هي التي تُعاقب في هذه الحياة بسبب الأخطاء التي ارتكبت في حياة سابقة، فبالتالي، هي أيضاً من يجب مكافأتها، سواء هنا على الأرض، أو ما أن تصبح غير متجسدة[157].

الثيوصوفي: انه حقاً كذلك. إذا لم نقبل بالعقاب في أي مكان آخر غير على هذه الأرض، فذلك لأن الذات الروحية لا تعرف أي حالة أُخرى فيما وراء تلك الغبطة التي لا يشوبها شيء آخر.

سؤال: ماذا تعني؟

الثيوصوفي: بكل بساطة، ما أعنيه هو التالي: لا يمكن معاقبة الجرائم والخطايا المرتكبة على مستوى من الموضوعية وفي عالم مادي، في عالم ذاتي محض. نحن لا نؤمن بالجحيم، ولا بالجنة، التي تُعتبر محليات، ولا في النيران الحارقة ولا في

---

157 أي بعد الموت.

الديدان التي تنخر، كحقائق موضوعية تدوم إلى الأبد، ولا في أورشليم السماوية التي تعج شوارعها بالياقوت والألماس. لكننا نؤمن بحالة ما بعد الوفاة، أو الحالة العقلية بعد الموت على غرار ما نشهده عندما نكون في حلم شديد الكثافة. نحن نؤمن بقانون ثابت للحب والعدالة والرحمة. وبهذه القناعة نقول: مهما كانت الخطيئة وأيا كانت النتائج الرهيبة للإثم الكارمي الأصلي على الأنا المتجسدة حالياً[158]، لا يمكن اعتبار أي إنسان (إذا كنا نسمي ذلك الشكل الخارجي المادي والدوري للكيان الروحي بهذا الإسم) مسؤولاً عن عواقب ولادته. إنه لا يطلب أن يولد، ولا يمكنه اختيار الوالدين الذين سيهبونه الحياة. من جميع النواحي، هو ضحية لبيئته، طفل الظروف التي ليس لديه سلطة عليها. وإذا جرى استقصاء كلٍّ من ذنوبه بإنصاف لوُجِدَت تسع حالات من عشر كان فيها أنه هو الذي اقتُرِفَت الخطيئة في حقه، ولم يكن الخاطئ. الحياة في أحسن

---

158 على هذه المخالفة والعصيان بُنِيَت عقيدة سقوط الملائكة القاسية والمنافية للمنطق. وهي مشروحة في المجلد الثاني من العقيدة السرية. إن "أنيَّاتنا" جميعاً هي كيانات مُفَكِرة وعقلانية (ماناسا–بوترا) سبق لها وأن عاشت، سواء في هيئة بشر أو في هيئات ثانية، في دورة الحياة (مانفنتارا) السابقة، حتَّم عليها كرماها أن تتجسد في إنسان في هذه الدورة. ولقد كان يُعلَّم في الأسرار أنها، إذ تأخرت في الامتثال لهذا القانون (أو "رفضت أن تخلق"، كما تقول الهندوسية عن الكومارا والقصة المسيحية عن رئيس الملائكة ميخائيل)، أي أخفقت في التجسد في الوقت المعين، وتدنَّست الأجسام التي كانت مقدَّمة لها (انظر سورة 8 و9 من أفار دزين من العقيدة السرية، الجزء الثاني، صفحة 19 – 20). ومن هنا الخطيئة الأصلية للأشكال العديمة الشعور وعقاب الأنيات. فالمقصود بالملائكة العصاة الذين أُلقي بهم في جهنم يُفسَّر ببساطة بما أصاب هذه الأرواح أو الأنيات النقية من سجن في أجسام من مادة نجسة، أي في أجساد.

الأحوال هي تمثيلية لا رحمة فيها، بحر عاصف ينبغي اجتيازه وزر ثقيل وكثيراً ما ننوء تحته. عبثاً حاول كبار الفلاسفة سبرها واكتشاف علَّة وجودها، وأخفقوا جميعاً باستثناء أولئك الذين حصلوا على مفتاحها، ألا وهم حكماء الشرق. إن الحياة كما يصفها شكسبير:

... ما هي إلا ظل شارد – يشبه ممثل مسكين

منتفخ كبرياء ويستشيط على المسرح

ثم لا يُسمَع له صوت. إنها حكاية

يحكيها معتوه، ملؤها الصخب والعنف

إنما لا معنى لها... [159].

حقاً لا شيء هي الحياة في أجزائها المنفصلة، لكنْ الجانب الأعظم من الأهمية هو في كُليتها أو سلسلة حيواتها. كيفما كان الأمر فإن كل حياة فردية تقريباً، في تفتحها الكامل، هي شقاء. فهل لنا أن نصدق أن ذلك الرجل المسكين العاجز، بعد أن تتقاذفه أمواج الحياة الغاضبة كقطعة مسوّسة من الحطب، سيقدَّر له، بعد أن تبين أنه أضعف من أن يقاومها، أن يعاقَب باللعنة الأبدية، أو حتى بعقاب مؤقت؟ أبداً! سواء كان الأمر يتعلق بخاطئ عادي أو بخاطئ كبير، بامرئ طيب أو شرير، بمذنب أو بريء، فإن "مانو" (الإيغو المفكِّرة)

---

159 ماكبث، الفصل 5، المشهد 5، (المترجم).

الذي أضناه الإرهاق، حالما يتحرر من وزر الحياة الجسدية، يفوز بحقه في فترة من الراحة والغبطة المطلقين. إن القانون نفسه المعصوم في حكمته وعدله وليس بالحري في رحمته، الذي يُنزِل بالإيغو المتجسدة العقابَ الكارمي على كل خطيئة ارتُكِبَت أثناء الحياة المنصرمة على الأرض، يُعِدُّ للكيان الذي يفارق جسده فسحة طويلة من الراحة الذهنية أو العقلية، أي النسيان التام لكل حدث محزن، بل حتى لأصغر خاطر مؤلم، فلا يبقى في ذاكرة النفس إلا تذكُّر كل ما كان غبطة، أو ما أدَّى إلى السعادة. فأفلوطين الذي قال إن جسدنا هو نهر ليثي الحقيقي – لأن "النفوس التي تغطس فيه تنسى كل شيء" – كان يعني أكثر مما قال. لأنه كما أن ليثي جسمِنا الأرض مثل نهر ليثي، فكذلك يكون جسمنا السماوي في ديفاخان، بل وأكثر من ذلك بكثير.

سؤال: هل لي أن أفهم من ذلك أن القاتل أو منتهك القانون الإلهي والبشري، بكل صوره، يُسمَح له أن يتملَّص من العقاب؟

الثيوصوفي: من قال ذلك؟ إن لفلسفتنا عقيدة في العقاب لا تقل صرامة عن عقاب أشد الكالفينيين تشدداً لكنها أكثر فلسفية واتساقاً مع العدالة المطلقة بما لا يقاس. فما من فعل يبقى بمنجى من العقاب – ولا حتى فكرة آثمة واحدة، حتى أن الفكرة تُعاقَب عقاباً أقسى من الفعل، لأن الفكرة أشد سطوة بالقدرة والإمكانية من حيث توليد

نتائج شريرة من أي فعل[160]. نحن نؤمن بقانون جزائي معصوم من الخطأ يُسمى الكارما، يُفصح عن ذاته في تسلسل طبيعي متلازم من العلل والمعلولات الحتمية.

سؤال: لكن أين وكيف يعمل هذا القانون؟

الثيوصوفي: تقول الحكمة في الإنجيل، إن كل عامل مستحق أجوره. كل فعلٍ، سواء أكان جيداً أم سيئاً، هو أم مخصبة، كما تقول حكمة العصور. اجمع هاتين الحقيقتين معاً وستجد "الماذا". بعد أن منحت للنفس، تجنب آلام الحياة الشخصية، وتعويضات كافية - وحتى أكثر من مئة مرة أكثر من كافية - تقف الكارما، مع جيشها من السكاندا، على حراسة عتبة ديفاخان من حيث سوف تعاود الأنا الظهور من جديد، لتتولى تجسد جديد.

في هذه اللحظة بالذات، يتأرجح مصير الأنا المستقبلي التي أصبحت الآن مرتاحة، في ميزان الثواب والعقاب العادل، لأنها تقع الآن تحت تأثير القانون الكارمي في عمله. في هذه الولادة الجاهزة لها[161]- ولادة جديدة اختارها وأعدها هذا القانون الخفي الذي لا يتساهل ولكنه معصوم في نزاهة وحكمة مراسيمه – سيتم معاقبة خطايا الحياة السابقة للإيغو.

---

160 "من نظر إلى امرأة لكي يشتهيها فقد زنى بها في قلبه" السيد المسيح. (متى 5: 28).

161 بلافاتسكي تستخدم هنا الضمير المحايد الذي يشير إليه أن الأنا المعاد تقمصها ليست ذكراً أو أنثى. (المترجم).

ومع ذلك، لا يتم طرح الأنا في أي جهنم وهمي، مع النيران المسرحية والشياطين السخيفة التي تمتلك ذيل وزوجين من القرون، ولكن ببساطة شديدة تُعاقب على هذه الأرض، في مستوى وأماكن حيث ارتكبت خطاياها حيث سيكون عليها التكفير عن كل الأفكار والأفعال الشريرة. ما زرعته، سوف تجنيه. سيجمع التقمص حولها كل الأنيات الأُخرى التي سببت لها الشخصية الماضية الألم، بشكل مباشر أو غير مباشر، أو حتى من خلال تدخلها اللاواعي. إنها "نيميسيس" التي ستطلقهم على طريق الإنسان الجديد، الذي يخفي الإنسان القديم الإيغو الأبدية، و...

سؤال: لكن أين هو الإنصاف الذي تتحدث عنه، لأن هذه "الشخصيات" الجديدة لا تدرك أيضاً أنها قد أخطأت، أو أنها عانت بسبب خطايا الآخرين؟

الثيوصوفي: هل يمكن أن نقول عن معطف مسروق إنه يُعامل جيداً، عندما يمزقه مالكه بينما يحاول انتزاعه من اللص الذي يتعرف عليه؟ "الشخصية" الجديدة ليست سوى ثياب جديدة، مع خصائصها المحددة من حيث اللون والشكل والصفات، على الرغم من أن الإنسان الحقيقي الذي يرتديها هو الجاني منذ زمن طويل. إنها الفردية التي تعاني من خلال "شخصيتها". هذا هو الشيء الوحيد فقط الذي يمكن أن يفسر الظلم الرهيب الذي نلاحظه في توزيع المصير الذي يقع على البشر رغم أن هذا الظلم هو ظاهري فقط. عندما ينجح فلاسفتك المعاصرين في إظهار سبب وجيه لنا لشرح سبب ولادة الكثير من البشر الأبرياء الطيبين ظاهرياً فقط ولمعاناتهم

في حياتهم بأكملها، ولماذا يولد الكثير من الناس البؤساء في فقرٍ وينتهي بهم الأمر إلى الجوع في الأحياء المنفرة بالمدن الكبيرة، التي هجرها القدر والبشر أيضاً، لماذا يولد البعض في العالم في الأحياء الفقيرة، بينما يفتح الآخرون عيونهم على النور في القصور، ولماذا يبدو أن الولادة النبيلة والثروة العظيمة تعطى لأسوأ البشر ونادراً ما تكون لأولئك الذين يستحقونها، لماذا هناك متسولون تتساوى ذاتهم الداخلية مع تلك الموجودة في أعلى وأنبل جميع البشر، عندما يستطيع الفلاسفة وعلماء لاهوتكم شرح كل هذه الأشياء، والكثير غيرها، عندها فقط، ولكن ليس قبل ذلك، سيكون لديك الحق في رفض نظرية التقمص. كان لدى الشعراء الأعظم والأكثر إلهاماً، حدساً في حقيقة الحقائق هذه.

لقد آمن "شيللي" بها، ويجب أن يكون شكسبير قد فكر في ذلك أثناء كتابة آياته حول عبث الولادة. تذكر كلماته:

لماذا ينبغي لولادتي أن تَشُدَ إلى الأرض روحي العارجة؟

أليست المخلوقات قاطبة خاضعة للزمن؟

هناك جحافل من المتسوّلِين على الأرض الآن

يعودون بأنسابهم إلى الملوك

وملوك عديدون الآن، ما كان آباؤهم

إلا أنذال زمانهم...

استبدل بكلمة "آباء" كلمة "أنيَّات" تحصل على الحقيقة.

الباب التاسع

كاما لوكا وديفاخان

حول مصير المبادئ السفلية

سؤال: ما هي كاما لوكا التي ذكرتها للتو؟

الثيوصوفي: عندما يموت الإنسان، مبادئه الثلاثة الدنيا تنفصل عنه إلى الأبد، إنها الجسم والحياة ومركبة الأخير (أي الجسم النجمي أو قرين الإنسان الحي). لذلك، فإن مبادئه الأربعة ـ المبدأ المركزي أو الوسيط (النفس الحيوانية، أو كاما روبا) مع ما استوعبته وهضمته من ماناس السفلية، والثالث العلوي، يكونان في كاما لوكا. كاما لوكا هي منطقة نجميّة، وهي جهنم اللاهوت الكنسي والجحيم عند القدماء. وبالمعنى الدقيق للكلمة، فهي منطقة فقط بالمعنى النسبي. ليس لها نطاق أو حدود معينة، ولكنها موجودة داخل حدود الفضاء المعنوي التجريدي، أي ما وراء تصورات وإدراكات حواسنا.

غير أنها موجودة بالفعل، وهناك تنتظر الأيدولات الوثنية النجميّة لجميع الكائنات الحية، بما فيها الحيوانات موتها الثاني. بالنسبة للحيوانات، فإن هذا الموت يأتي مع تفكك جسيمات الجسد النجمي واختفاءها التام حتى آخر ذرة. بالنسبة إلى الأيدول[162] الوثني البشري، فإن الموت يبدأ عندما ينفصل الثالوث -آتما، بودهي، ماناس - كما يُقال عن مبادئه السفلية، أو عن انعكاس الشخصية القديمة ليغوص في الحالة الديفاخانية.

سؤال: وماذا يحدث بعد ذلك؟

الثيوصوفي: ثم ينهار الشبح الكاماروبي بحقيقة أنه، من ناحية، محروم من المبدأ المفكر الذي يحييه (الجزء العلوي من ماناس)، وهذا، من ناحية ثانية، فإن الجانب السفلي من هذا المبدأ، الذكاء الحيواني، لم يعد يتلقى النور من العقل الأعلى ولم يعد لديه عقل جسدي يعمل.

سؤال: ما يحدث له فعلياً؟

الثيوصوفي: إنه ينحط إلى حالة الضفدع الذي يقتطع المشرِّح أجزاء من دماغه. فهو لا يعود قادراً على التفكير، حتى على الصعيد الحيواني الأدنى .وهو، من عندئذٍ وصاعداً، لا يعود حتى *ماناس السفلية*، بما أن "الأدنى" ليس شيئاً بدون "الأعلى".

---

[162] **Eidôlon.**

سؤال: وهل *هذه اللاكينونة* هي التي نجدها تتمظهر أو تتجسَّم في غرف جلسات الوسطاء الأرواحيين؟

الثيوصوفي: إنها هي بذاتها. غير أنها لاكينونة فقط فيما يخص القدرات على التعقُّل والتفكير. ومع ذلك فهي *كيان* وإن يكن نجمياً وهيولياً، كما يتبيَّن في حالات معينة حينما ينجذب مغناطيسياً بصورة غير واعية نحو وسيط أرواحي، فينتعش مؤقتاً ويحيا فيه *بالوكالة*، إذا جاز التعبير. هذا "الطيف"، أو *الكاماروبا*، قد يقارَن *بقنديل البحر*، ذي المظهر الأثيري الهلامي مادام يسبح في عنصره الطبيعي، أو الماء (الهالة الخاصة بالوسيط) لكنه ما إن يُلقى خارجه حتى يتحلل في اليد أو على الرمال، ولا سيما على نور الشمس .ففي هالة الوسيط الأرواحي، يعيش نوعاً من الحياة بالنيابة أو بالوكالة ويعقل وينطق إما من خلال دماغ الوسيط الأرواحي وإما من خلال أدمغة الأشخاص الآخرين الحاضرين. لكن هذا قد يقودنا هذا بعيداً جداً، بحيث يجعلنا نطأ أرض الآخرين التي لا رغبة لي في التطاول عليها. فلنقتصر في حديثنا على موضوع التقمص.

سؤال: وما هو التقمص؟ وما هي المدة التي تبقى خلالها *الإيغو* المتجسِّدة في الحالة *الديفاخانية*؟

الثيوصوفي: هذه، كما تعلَّمنا، تتوقف على درجة روحانية التقمص الأخير وعلى مقدار استحقاقه أو عدم استحقاقه. مدة هذا الوقت تتراوح بين عشرة قرون وخمسة عشر قرناً، كما سبق أن قلت لك.

سؤال: ولكن لماذا ليس بإمكان هذه الإيغو أن تتجلَّى وتتواصل مع البشر الفانين كما يزعم الأرواحيون؟ ماذا الذي يحول دون أمٍّ والتواصل مع أبنائها الذين تركتْهم على الأرض، ويحول دون تواصل الزوج مع الزوجة وهكذا دواليك؟ لا بدَّ لي من الاعتراف بأنه معتقد يعطي العزاء للغاية، ولا يخيَّل إليَّ أن الآخذين به من الإحجام إلى حدِّ العزوف عنه.

الثيوصوفي: ولا هم بمجبرين على العزوف عنه، اللهم إلا إذا اتفق لهم أن يؤثروا الحقيقة على الخيال، مهما كان مبلغ "العزاء" فيه. قد تكون عقائدنا غير ملائمة للأرواحيين؛ ومع ذلك فليس من شيءٍ نعتقد به ونعلِّمه يساوي نصف ما يبشرون به من أنانيةٍ وقسوة.

سؤال: لا أفهمك. أين الأنانية في هذا؟

الثيوصوفي: إنها عقيدتهم في عودة الأرواح، تلك "الشخصيات" الحقيقية، كما يزعمون، ولسوف أخبرك لماذا .إذا كانت *ديفاخان* – ادعوه "الفردوس" إذا شئت هو "مكان نعيم وغبطة عليا"، إذا طاب لك ذلك – فإن مثلَ هذا المكان (أو لنقل الحالة) فإن المنطق يقول لنا بأن ما من حزنٍ أو حتى ظلٍّ من وجع يمكن أن يُختبَر هناك. "الله سوف يكفكف كل الدموع من عيون" أولئك المقيمين في الفردوس، كما نقرأ في الكتاب المقدس من وعود عديدة. فإذا كانت "أرواح الموتى" تستطيع العودة ورؤية كل ما يجري على الأرض، وبخاصة *في بيوتهم* فأيُّ نوع من الغبطة هي المُعدَّة لهم؟

لماذا لا يؤمن الثيوصوفيين بعودة "الأرواح"[163]

سؤال: ماذا تعني؟ لماذا يضر ذلك بغبطتهم؟

الثيوصوفي: الأمر بسيط جداً، لنأخذ مثالاً. أمّ تموت، تاركة وراءها أطفالها اليتامى الفقراء الذين تعشقهم، ربما تترك زوجاً عزيزاً. نقول إن "روحها" أو "الأنا"، (هذه الفردية التي أصبحت الآن مشبعة تماماً، طوال فترة الحالة الديفاخانية بمشاعر من الأكثر نبلاً التي صانتها في شخصيتها الأرضية الأخيرة - حب أطفالها، الشفقة بالنسبة لأولئك الذين يعانون - وما إلى ذلك) نقول إن الإيغو خاصتها الآن مفصولة كلياً عن "وادي الدموع" وأن غبطتها المستقبلية ترجع إلى هذا الجهل المبهج لكل الشرور التي تركتها وراءها.

على العكس من ذلك، يؤكد الأرواحيين أن "الروح" سيكون لديها تصور مفعم بالحيوية بل وأكثر حيوية حتى من ذي قبل لأن "الأرواح ترى أكثر من البشر المتجسدين". نقول إن غبطة الوجود في ديفاخان تتكون من قناعة تامة بأنها لم تترك الأرض قط، وأنه لا يوجد شيء يُدعى الموت.

نؤكد أن الوعي الروحي بعد وفاة الأم سوف يعطيها انطباعاً بأنها تعيش محاطة بأطفالها وجميع من تحبهم: لن تكون على علم بأي انقطاع، ولن يتم تفويت أي رابط للمساهمة في جعل الحالة غير المجسدة التي تجد فيها نفسها، حالة من السعادة

لماذا لا يؤمن الثيوصوفيين بعودة "الأرواح" الطاهرة. [163]

الكاملة والمطلقة. الأرواحيون ينكرون هذا تماماً. وفقاً لعقيدتهم، يبدو أن الإنسان البائس لا ينقذه حتى الموت من آلام الوجود: ليس هناك قطرة من كوب الحياة، مليئة بالحزن والمعاناة، لا يشربها. لذلك سوف يقوم بإفراغه، راضٍ أم مجبور، لغاية الثمالة المريرة، لأنه من الآن فصاعداً يُمنح له رؤية كل شيء. وهكذا، فإن الزوجة المحبة التي كانت مستعدة طوال حياتها لتجنيب زوجها كل الحزن، حتى على حساب دماء قلبها، تجد نفسها الآن محكوم عليها بالحضور، دون أن تكون قادرة على فعل أي شيء من أجل تخفيف يأس زوجها، وكذلك كل دمعة مشتعلة يذرفها لأنها لم تعد موجودة. والأسوأ من ذلك، أنها ربما ترى هذه الدموع تجف بسرعة كبيرة، وسيبتسم وجه محبوب آخر له، أب أطفالها، إذا جاءت امرأة ثانية لتحل محلها في عاطفته، وربما سيتعين عليها أن تسمع أيتامها يعطون الاسم المقدس "للأم" إلى امرأة ثانية غير مبالية وترى صغارها مهملين، هذا إن لم يتعرضوا لسوء المعاملة أيضاً. وفقاً لهذا المبدأ، يصبح "الدخول اللطيف إلى الحياة الخالدة" دون أي انتقال، هو الانضمام إلى حياة جديدة من المعاناة العقلية! ومع ذلك، تمتلئ صفحات أقدم صحيفة أرواحية أمريكية[164]، برسائل الموتى - هؤلاء "الأعزاء المفقودون" الذين يكتبون جميعاً ليخبرونا عن مدى سعادتهم! هل هذه الحالة من المعرفة متوافقة مع أي نعيم؟ ولكن بعد ذلك، في مثل هذه الحالة، لن يكون "النعيم" أكثر من مجرد لعنة أعظم يجب أن تكون الدينونة التي يتحدث بها الدين تعزية مقابل ذلك!

[164] **Banner of Light.**

سؤال: لكن كيف تتجنب نظريتك هذا؟ كيف يمكنك التوفيق بين نظرية كلية العلم للنفس مع العمى والجهل لكل شيء يحدث على الأرض؟

الثيوصوفي: لأن هذا هو قانون الحب والرحمة. خلال كل فترة ديفاخانية، فإن الإيغو، كلية العلم كما هي في حد ذاتها، تلبس إذا جاز التعبير، انعكاس "الشخصية" التي كانت بالماضي. لقد أخبرتك للتو أن الإزهار المثالي لجميع الصفات، أو الصفات المميزة للشخصية المجردة، وبالتالي الطبيعة الأبدية التي لا تنفصم، تعلق على الأنا بعد الموت، وبالتالي تتبعها في ديفاخان. هذه هي الصفات مثل الحب والرحمة وحب الخير والحقيقة والجمال، والتي كانت دائماً تتجلى في قلب "الشخصية" خلال حياتها. لذلك، طوال هذه الفترة، تصبح الأنا انعكاسا مثاليا للإنسان كما كانت المرة الأخيرة على الأرض ولكن هذا الانعكاس ليس كليّ العلم. إذا كان الأمر كذلك، فلن تكون أبداً في الحالة التي نسميها ديفاخان.

سؤال: لماذا ذلك؟

الثيوصوفي: إذا كنت تريد إجابة تتفق بدقة مع فلسفتنا فسأخبرك بأن كل شيء هو وهمّ (مايا) بصرف النظر عن الحقيقة الأبدية، التي ليس لها شكل أو لون أو قيود. أولئك الذين وضعوا أنفسهم وراء حجاب المايا - وهذا هو الحال بالنسبة لأعلى الحكماء والمساررين - لا يمكن أن يكون لديهم ديفاخان. أما بالنسبة للبشر العاديين، فإن النعيم في ديفاخان هو كلي. إنه النسيان المطلق لكل ما تسبب له من ألم أو حزن في التجسد الماضي، وحتى نسيان أنه يمكن أن يكون هناك أي

شيء مثل المعاناة أو الحزن. خلال الدورة المتوسطة بين تجسدين، يعيش الكائن في ديفاخان محاطاً بكل ما كان يطمح إليه عبثاً ويرافقه كل من أحبهم على الأرض. يتم تحقيق الرغبات الأكثر حماساً لروحه. وهكذا عاش لقرون طويلة وجود النعيم دون مزج، وهذا هو مكافأة للآلام التي تحملها خلال الحياة الأرضية. باختصار، هو يستحم في محيط النعيم المتواصل، ويزيد من حدته، على فترات، أحداث أكثر سعادة.

سؤال: لكنه أسوأ من مجرد وهمّ. انها حياة منسوجة بهلوسة مجنونة!

الثيوصوفي: في رأيك، ربما، ولكن ليس من وجهة نظر الفلسفة. إضافة إلى ذلك، أليست كل حياتنا الأرضية مليئة بهذه الأوهام؟ ألم تقابل أبداً رجالاً ونساء يعيشون لسنوات في جنة وهمية؟ إذا علمت عن طريق الصدفة أن الزوج غير مخلص لزوجته التي تعشقه وتعتقد أنه يبادلها الأمر، فهل تذهب وتكسر قلبه وتدمر حلمه الجميل من خلال الكشف عن الحقيقة بوحشية؟ لا أعتقد ذلك. لذلك أكرر أن مثل هذا النسيان وهذه الهلوسة، إذا سميتهم هكذا، ليستا سوى تأثير قانون الطبيعة الرحيم والعدالة الصارمة. في أي حال، هو احتمال أكثر جاذبية بكثير من القيثارة الذهبية وزوج من الأجنحة التي وعدنا بها الدين. التأكيد على أن "الروح التي لها حياة أبدية تصعد غالباً إلى أورشليم السماوية، تجوب الشوارع بشكل مألوف، وتلقي التحية مسلِّمةً على الرسل، وتتأمل جيش الشهداء" قد يبدو في نظر بعضهم أكثر ورعاً. ومع ذلك فإنها هلوسة من شأنها أن تضلِّل أكثر بكثير، بما أن الأمهات يحببن أبنائهن حباً لا يموت كما نعلم، بينما ما تزال طبيعة الشخوص المذكورة في

"أورشليم السماوية" مشكوكاً فيها نوعاً ما. لكني مع ذلك أوثر قبول "أورشليم الجديدة"، بشوارعها المرصوفة كواجهات محلِّ جواهري، على أن أجد التعزية في عقيدة الأرواحيين العديمة الشفقة. وحدها فكرة أن النفوس العاقلة الواعية للأب أو الأم، أو الابنة، أو الأخ، تجد نعيمها في "مصطاف" وهي فكرة أكثر طبيعية بقليل من "أورشليم الجديدة"، وإن تكن لا تقل عنها سخافة من حيث وصفُها – تكفي لجعل المرء يفقد كل احترام يكنُّه لـ "فقيديه". فالاعتقاد بأن روحاً طاهرة يمكنها أن تشعر بالغبطة وهي مقضي عليها أن تشهد على خطايا وأخطاء، وخيانة، وفوق كل ذلك، آلام أولئك الذين فرَّق الموت بينها وبينهم والذين تخصهم بحبها، بدون أن يكون بوسعها إسعافهم، لهو خاطر مجنون.

سؤال: إنها حجة بليغة حقاً. أعترف بأني لم أرَ الأمر في هذا المنظور.

الثيوصوفي: هي كذلك. والمرء الذي يتخيل شيئاً كهذا يوماً لهو أناني قطعاً حتى اللب وخالي من حسِّ العدالة المجزية. نحن مع أولئك الذين فقدناهم في الشكل المادي، ونحن أقرب بكثير إليهم الآن مما كنَّا عندما كانوا أحياء. وهذا ليس من بنات مخيِّلة المقيم في *الديفاخان*، كما قد يتخيل بعضهم، بل هو الواقع. ذلك أن المحبة الإلهية الخالصة ليست مجرد ثمرة القلب البشري، بل تضرب بجذورها في الأبدية. المحبة الروحية المقدسة لا تموت، والكارما تجمع، عاجلاً أم آجلاً شملَ جميع الذين أحبوا بعضهم بعضاً بمثل هذه المودة الروحية لكي يتجسدوا مجدداً في مجموعة أسرية واحدة. نقول مرة ثانية بأن للمحبة فيما يتعدى القبر، مع أنك قد تدعوها

وهماً، قدرة سحرية وإلهية تنعكس على الأحياء. إن إيغو أمٍّ ممتلئة محبة للأبناء المتخَيَّلين الذين تراهم بالقرب منها – هذه الإيغو تحيا حياة سعادة، لا تقل في نظرها عنها وهي على الأرض – وهذه المحبة يظل يشعر بها الأبناء في الجسد دائماً. ولسوف تتجلَّى في أحلامهم، ومراراً في أحداث متنوعة في حالات حماية ونجاة موفَّقة من الله، فالمحبة درع قوي، ولا يحدها المكان والزمان . وما يصح على "الأم" الديفاخانية يصح كذلك على بقية العلاقات والتعلقات الإنسانية، ما خلا الأناني والمادي الصرف منها. والمقايسة سوف توحي لك بالباقي.

سؤال: أنتم، إذن، لا تقبلون، ولا في أيَّة حالة، إمكانية تواصل الأحياء مع روح متجردة من الجسد؟

الثيوصوفي: بلى، هناك حالة، بل حتى استثناءان من القاعدة. الاستثناء الأول هو فترة الأيام القليلة التي تعقب مباشرة موت الشخص وقبل أن تعبر *الإيغو* إلى الحالة الديفاخانية. أما استفادة أيِّ بشر فانٍ فائدة جمة، اللهم إلا في حالات استثنائية معدودة – (عندما تقسرُ شدةُ الرغبة لدى الشخص المحتضر في العودة لقصد ما الوعيَ الأعلى على البقاء صاحياً، وبالتالي فإن الإيغو حقاً أو "الروح" هي التي تواصلت) – من عودة الروح إلى المرتبة *الموضوعية* فشأنها شأن آخر. فالروح تكون مذهولة بعد الموت وسرعان ما تهوي فيما ندعوه "اللاوعي ما قبل الديفاخاني". أما الاستثناء الثاني فنجده لدى النيرماناكايا.

سؤال: ماذا عنهم؟ وما هو مدلول الاسم عندكم؟

الثيوصوفي: إنه الاسم الذي يُطلَق على أولئك الذين، مع أنهم فازوا بالحق في النيرفانا والراحة الدورية – (هي ليست "ديفاخان"، باعتبار أن الأخيرة هي وهمٌ من أوهام وعينا، حلم سعيد، وباعتبار أن أولئك المؤهلين للنيرفانا يجب أن يكونوا قد فقدوا كلياً كل رغبة في أوهام العالم أو إمكانية من إمكانياتها) – قد زهدوا في الحالة النيرفانية رأفةً بالبشرية وبأولئك الذين تركوهم على الأرض. مثل هذا الحكيم، أو القديس، أياً كان الاسم الذي تطلقه عليه، إذ يرى نفسه في الراحة في الغبطة بينما البشرية تئن تحت وطأة البؤس الناجم عن الجهل، عمل أناني، فيزهد في النيرفانا ويعقد العزم على البقاء غير منظور *في* الروح على هذه الأرض. ليس لأولئك أجسام مادية، بما أنهم قد خلفوها وراءهم، لكنهم، فيما عدا ذلك، يبقون ممتلكين لمبادئهم الأخرى، حتى *في* الحياة النورانية في فلكنا نحن. وهؤلاء يمكنهم التواصل مع قلة من النخبة، إنما ليس مع وسطاء أرواحيين *عاديين* قطعاً.

سؤال: لقد طرحت عليك السؤال عن النيرماناكايا لأني قرأت في بعض مطالعاتي بالألمانية وغيرها أنه كان الاسم الذي أطلِقَ على الظهورات أو الأجسام الأرضية التي اتخذها البوذاوات في تعاليم بوذية الشمال.

الثيوصوفي: هي كذلك؛ إلا أن قد شوهوا هذا الجسم الأرضي بفهمهم إياه على أنه الجسم الموضوعي والمادي، وليس النوراني والذاتي المحض.

سؤال: وأي خير يمكنهم أن يفعل هؤلاء النيرماناكايا على الأرض؟

الثيوصوفي: ليس الكثير، فيما يخص الأفراد، بما أنه لا يحق لهم التدخل في الكارما، ولا يمكنهم إلا أن ينصحوا ويلهموا البشر الفانين في سبيل الخير العام. ومع ذلك فهم يقومون بأعمال مفيدة أكثر مما تتصور.

سؤال: هذا ما لن يعترف به العلم وحتى علم النفس الحديث. وفقاً لوجهة نظرهم، لا يمكن لأي جزء من الذكاء البقاء على قيد الحياة في المخ البدني. كيف ترد على ذلك؟

الثيوصوفي: لن أزعج نفسي بالإجابة. أود فقط أن أكرر الكلمات التي تلقاها "السيد أ. أوكسون": "الذكاء يدوم بعد وفاة الجسد. على الرغم من أنها ليست مسألة بسيطة عن الدماغ ... فوفقاً لما نعرفه، من المنطقي أن نتصور من حيث المبدأ عدم قابلية الروح البشرية للفناء". (هوية الروح، ص 69)[165].

سؤال: لكن هل "السيد أ. أوكسون" هو أرواحي؟

الثيوصوفي: تماماً، إنه الأرواحي الحقيقي الوحيد الذي أعرفه على الرغم من أننا لا نزال نختلف معه حول العديد من النقاط التفصيلية. بصرف النظر عن ذلك، لا يوجد أرواحي يضاهيه في الاقتراب من الحقائق الغيبية. يتحدث باستمرار، مثل كل واحد منا، عن "المخاطر الواضحة التي تقترب من الإنسان السيئ الإعداد والذي ينغمس في الغيبيات، ويتخطى العتبة دون

---

[165] **ويليام ستينتون موسى، هوية الروح، 1879، (المترجم).**

حساب أخطار أعماله[166]". إن نقطة الخلاف الوحيدة بيننا تتعلق بمسألة "هوية الروح". بالنسبة للبقية، بقدر ما أشعر بالقلق، أشاركه الرأي بالكامل تقريباً وأوافق على المقترحات الثلاثة المقدمة في خطابه في يوليو عام 1884. وفي النهاية سيكون هذا الأرواحي البارز هو الذي يختلف معنا، وليس العكس.

سؤال: ما هي هذه المقترحات؟

الثيوصوفي: هذه هي:

1 - هناك حياة تتزامن مع الحياة الجسدية للجسم ولكنها مستقلة عنها.

2 - كنتيجة طبيعية ضرورية، تمت إطالة هذه الحياة بعد حياة الجسم (نحن، الثيوصوفيين، نقول إنها تستمر حتى نهاية ديفاخان).

3 - هناك اتصال بين أولئك الذين هم في هذه الحالة من الوجود وأولئك الموجودين في العالم الذي نعيش فيه حالياً.

كل هذا يتوقف، كما ترى، على التفاصيل والجوانب الثانوية لهذه الافتراضات الأساسية: على ما نعنيه بالروح والنفس، أو الفردية والشخصية. يخلط الأرواحيين بين الاثنتان ويقولون إنهما واحدة، بينما أننا نحن نفصلهم ونقول إنه باستثناء

---

[166] Some things that I do know of Spiritualism and some that I do not.(Des choses que je sais du spiritisme et de celles que je ne sais pas).

الاستثناءات التي سبق ذكرها، لن تعود أي روح لزيارة الأرض، على الرغم من أن النفس الحيوانية يمكنها أن تفعل ذلك. ولكن دعونا نعود مرة أُخرى إلى الموضوع الذي يهمنا مباشرة، ألا وهو السكاندا.

سؤال: بدأت الآن أفهم فهماً أفضل الآن. إن روح هذه السكاندا، إذا جاز القول، التي هي الأكثر نبلاً، إذ تتعلق بالإيغو المتجسدة، تنجو، وتنضاف إلى مخزون خبراتها الملائكية. والصفات المتعلقة بالسكاندا المادية، ذات الدوافع الأنانية والشخصية، التي، إذ تختفي من مسرح الفعل بين تقمصين هي التي تعاود الظهور في التقمص اللاحق كعواقب كارمية ينبغي التعويض عنها، وبالتالي فإن الروح لن تغادر *ديفاخان* .أليس الأمر كذلك؟

الثيوصوفي: يكاد الأمر يكون كذلك. وإذا أضفتَ إلى هذا أن قانون الجزاء، أو الكارما، مثيباً ما هو الأسمى والأكثر روحانية في *ديفاخان*، لا يقصِّر في إثابتها من جديد بإتاحة المجال لها للمزيد من التطور على الأرض، ومزوداً الإيغو بجسم يناسبها، ستكون عندئذٍ على صواب تماماً.

بضع كلمات عن السكاندا

سؤال: ماذا يحدث، بعد موت الجسد، للسكاندا الباقية - الإسكاندا السفلية للشخصية؟ هل تم تدميرها بالكامل؟

الثيوصوفي: إنـها تبقى موجودة، ومع ذلك غير موجودة – وهذا سرٌّ ميتافيزيائي وغيبي جديد عليك. إنـها تُفنى بوصفها المخزون العملي المتاح للشخصية، وهي تبقى بوصفها عواقب كارمية، كبذور، تتدلَّى في مجال المستوى الأرضي، مستعدة للحياة، وكأنـها حشد من الشياطين الحاقدة، لتتعلق بالشخصية الجديدة للإيغو عندما تتقمص من جديد.

سؤال: هذا بالفعل يفوق فهمي، ويصعب فهمه.

الثيوصوفي: ليس كذلك طالما قد استوعبت كافة التفاصيل. عندها سوف ترى أن عقيدة التقمص هذه، من حيث المنطق والتماسك، والفلسفة العميقة، والرحمة والقسط الإلـهيين، لا يعدلـها شيء على الأرض. إنـها اعتقاد بتقدم دائم لكل إيغو متجسدة، أو نفس إلـهية، في تطور من الظاهر إلى الباطن، من المادي إلى الروحي، بالغةً في نـهاية كلِّ مرحلة الوحدة المطلقة مع المبدأ الإلـهي. من عزم إلى عزم، من جمال مرتبة وكمالـها إلى الجمال والكمال الأعظمين لمرتبة أخرى، مع تبوُّأ مجد جديد، ومعرفة وسلطان جديدين في كل دورة، هذا هو قدر كلِّ إيغو، تصير على هذا النحو مخلِّصةَ نفسِها في كلِّ عالم وفي كلِّ تجسد.

سؤال: لكن المسيحية تُعَلم نفس الشيء. هي أيضاً تبشر بعقيدة التقدم.

الثيوصوفي: بالفعل، لكنها تضيف أنه من المستحيل تحقيق الخلاص دون مساعدة من المنقذ المعجزة، وبالتالي تدين كل من لا يريد أن يقبل هذه العقيدة. وهنا يكمن الفرق بين اللاهوت المسيحي والثيوصوفيا. الأولى تُلزمنا أن نؤمن بانحدار الأنا الروحية إلى النفس السفلى، في حين تغرس الثانية حاجة كل إنسان إلى السعي للوصول لحالة كريستوس أو بودهي.

سؤال: ومع ذلك، ألا تعتقد أن تعليم فناء الوعي في حالة الفشل هو نفس تعليم فناء الذات، على الأقل بالنسبة لأولئك الذين ليسوا على دراية بالميتافيزياء؟

الثيوصوفي: بالطبع، إذا أخذنا وجهة نظر أولئك الذين يؤمنون حرفياً بقيامة الجسد والذين يصرون على أن كل عظمة، وكل شريان وكل ذرة من اللحم سوف تنعش جسدياً في يوم القيامة. إذا أصريت تماماً على أنه الشكل القابل للتلف والصفات المحدودة التي تشكل الإنسان الخالد، فسنواجه مشكلة في الوصول إلى هذا الحد. إذا كنت لا تفهم أنه من خلال قصر وجود كل الأنا على حياة واحدة على الأرض، فإنك تجعل اللاهوت نوعاً من إندرا في حالة سكر دائم، وفقاً للحرف الميت من بورانا، مولوخ القاسي، إله غير سعيد لتسبيب فوضى لا تنفصم على الأرض، لا يزال يطالب بأن نشكره، من الأفضل وقف النقاش هنا.

سؤال: والآن بعد أن قمنا بتسوية مسألة السكاندا، لنعود إلى موضوع استمرار الوعي بعد الموت. هذا هو الموضوع الذي يهم معظم الناس. هل نمتلك معرفة في ديفاخان أكثر مما كنا نملكه خلال حياتنا الأرضية؟

الثيوصوفي: بمعنى ما، يمكننا الحصول على مزيد من المعرفة هناك، بمعنى أنه يمكننا تطوير إلى درجة أعلى أي من القدرات التي أحببناها والتي سعينا للحصول عليها خلال حياتنا. ولكن بشرط أن تكون مرتبطة بأشياء مجردة ومثالية، مثل الموسيقى والرسم والشعر، على سبيل المثال. ديفاخان ليست سوى استمرار مثالية وذاتية للحياة الأرضية.

سؤال: لكن إذا تحررت الروح في ديفاخان من أغلال المادة فلماذا لا يكون لديها ملئ المعرفة؟

الثيوصوفي: لأن الإيغو، كما أخبرتك، تكون مرتبطة، إذا جاز التعبير، بذاكرة تجسدها الأخير. بذلك إذا تمعنت فيما قلتُ وربطت الوقائع جميعاً بعضها البعض، فسوف تدرك أن الحالة الديفاخانية ليست حالة علم كلِّي، بل استمرار متسامٍ للحياة الشخصية التي انتهت لتوِّها. إنها استراحة النفس من مصاعب الحياة.

سؤال: لكن الماديين العلميين يؤكِّدون أنه بعد موت المرء لا شيء يبقى منه، أن الجسم البشري يتفكك إلى عناصره المكونة وأن ما ندعوه النفس هو مجرد وعي ذاتي مؤقت ناتج كحصيلة ثانوية للفعل العضوي، ولا بدَّ أن يتبخَّر كالبخار. أليست حالتهم الذهنية حالة غريبة؟

الثيوصوفي: ليست غريبة على الإطلاق، على ما أرى. إذا كانوا يقولون بأن وعي الذات يتوقف بموت الجسم، عندئذٍ فإنهم، في حالتهم، ينطقون ببساطة بنبوءة بشكل غير واعي منهم، إذ إنهم حالما يقتنعون قناعة راسخة بما يؤكِّدون، فإن كل حياة واعية بعد الموت تصير مستحيلة عليهم فعلاً. إذ إن ثمة فعلاً استثناءات من كل قاعدة.

في الوعي ما بعد الموت وما قبل الولادة[167]

سؤال: ولكن لماذا هناك استثناءات، إذا كانت القاعدة هي أن وعي الذات البشري يستمر بعد الموت؟

الثيوصوفي: لا توجد استثناءات ممكنة للمبادئ الأساسية للعالم الروحي. ولكن هناك قواعد لأولئك الذين يرون وقواعد لأولئك الذين يفضلون البقاء عميان.

سؤال: أفهم جيداً. تقصد أن هذا هو انحراف مماثل لذاك الأعمى الذي ينكر وجود الشمس لأنه لا يراها. لكن، بعد الموت، ستجبره عيناه الروحيتان بالتأكيد على رؤيتها رغماً عنه. هل هذا ما تقصد؟

الثيوصوفي: لن يرغمه على ذلك شيء، كما أنه لن يرى شيئاً على الإطلاق. فهو، إذا استمر بالإصرار طيلة حياته في إنكار استمرار الوجود بعد الموت، فسوف يعجز عن رؤيتها، لأن مقدرته الروحية الضامرة في الحياة لن تنمو بعد الموت وسوف يبقى أعمى. إنك، بإصرارك على أنه لا بدَّ أن يراها تعني على ما يبدو شيئاً بينما أعني أنا شيئاً آخر. أنت تتكلم على روح الروح، أو على شعلة الشعلة أو *أتما*، باختصار فتلتبس عليك مع النفس الإنسانية، *ماناس* ...أنت لا تفهمني

---

[167] نُشِرَت بعض المقاطع من هذا الفصل ومن الفصل السابق في عدد كانون الثاني 1889 من *مجلة لوسيفر* على شكل "حوار في أسرار الآخرة". ولم يكن المقال آنذاك يحمل توقيعاً، وكأن المحرِّر هو الذي كتبه، لكنه كان بقلم كاتب المصنف الحالي.

فدعني أوضح لك الأمر. خلاصة سؤالك برمَّتها هي معرفة إذا ما كان الفقدان التام للوعي الذاتي ولإدراك الذات ممكناً بعد الموت في حالة الآخذ الصريح بالمذهب المادي أليست كذلك؟ وأجيبك بأنه ممكن. لأني، انطلاقاً من اعتقادي الراسخ بعقيدتنا الباطنية، التي تشير إلى فترة ما بعد الموت أو الزمن الفاصل بين عمرين أو بين موت والولادة التي تعقبه بوصفها حالة انتقالية، أقول إن حالة ما بعد الموت تلك، سواء كان ذلك الفاصل بين فصلين من فصول مسرحية الحياة الوهمية يدوم سنة أو مليون سنة، هي عينها حالة إنسان مستغرق في إغماءة موت، بدون أي خلل في القانون الأساسي.

سؤال: ولكن كيف يمكن أن يكون ذلك؟ ألم تقل للتو إن القوانين الأساسية لحالة بعد الوفاة لا تعترف بوجود استثناءات؟

الثيوصوفي: ولا أقول بأنها تجيز فعلاً أيَّ استثناء. لكن القانون الروحي للاستمرار لا ينطبق إلا على الأمور الواقعية حقاً. ففي نظر مَن قرأ أوبانيشاد مندوكيا والفيدانتا سارا وفهمهما يصبح هذا كله واضحاً للغاية. لا بل أضيف: يكفي المرء أن يفهم ما نعنيه ببودِّهي وثنائية ماناس ليكتسب إدراكاً واضحاً لماذا قد يخفق المادي في البقاء بقاءً واعياً لذاته بعد الموت. فلما كانت ماناس في مظهرها السفلي، هو مقر الذهن الأرضي، فإنه، بالتالي، لا يقدر أن يمنح غير ذلك الإدراك للكون الذي يتأسَّس على بيِّنة ذلك الذهن، إنه لا يستطيع أن يمنح الرؤية الروحية. ويُقال في المدرسة الشرقية إنه بين بودِّهي وماناس (الإيغو)

أو إيشفارا وبراجنا[168]، لا يوجد في الواقع فرق أكثر مما يوجد بين الغابة وأشجارها، بين بحيرة ومياهها، كما تعلِّم المندوكيا. إن شجرة واحدة أو مئات الأشجار الميتة من جراء نقص في الحيوية، أو من جراء اجتثاثها، لا تقدر أن تحول بين الغابة وبين أن تظل غابة.

سؤال: لكن بودهي، كما أفهمها، تمثل في هذا التشبيه الغابة وماناس - تايجيسي، يمثلان الأشجار. وإذا كانت البودهي خالداً كيف يمكن لما هو شبيه به، أي ماناس – تايجيسي، أن تفقد وعيها برمّته حتى يوم تجسدها الجديد؟ لا أقدر أن أفهم الأمر.

الثيوصوفي: لا تستطيع لأنك تخلط بين تمثيل مجرد للكل وبين تغيرات طارئة على الشكل. تذكَّر أنه إذا كان يصح قول ذلك في بودّهي – ماناس الخالدة بلا شروط، فإنه لا يصح قول الشيء نفسه في ماناس السفلية، وحتى أقل منه في تايجيسي، التي هي مجرد صفة. فما من واحد منهما، لا ماناس ولا تايجيسي يمكن أن يوجد بمعزل عن بودهي، النفس الإلهية، لأن الأولى ماناس (في مظهرها السفلي) هي صفة نعتية للشخصية الأرضية، والثانية تايجيسي هي مماثلة للأولى، لأنها ماناس نفسها، إنما قد انعكس عليها نور بودهي .وبدورها، تبقى بودهي روحاً لا شخصية وحسب بدون هذا العنصر الذي تستعيره من النفس الإنسانية، التي تقيّدها وتُظهِرها، في هذا الكون الوهمي، وكأنها شيء منفصل عن النفس الكلِّية خلال

[168] إيشفارا هو الوعي الجمعي للألوهة المتجلِّية، براهما، أي الوعي الجمعي لجحافل الديان شوهان (راجع: العقيدة السرية) وبراجنا هي حكمتها الفردية.

فترة دورة التقمص برمَّتها .ولنقل بالحري أن بودهي – *ماناس* لا يمكنها في الأبدية لا أن يموت ولا أن تفقد وعيها الذاتي المركَّب، ولا إمكانية تذكر تجسداتها السابقة التي ارتبطت فيها الاثنتان –أي النفس الروحية والنفس البشرية – ارتباطاً وثيقاً. لكن الأمر ليس كذلك في حالة شخص مادي، لا تتلقَّى نفسُه البشرية أيَّ شيء من النفس الإلهية، وليس هذا وحسب بل وترفض حتى الاعتراف بوجودها. يكاد يتعذر عليك أن تطبق هذه المسلَّمة على صفات النفس البشرية ومؤهِّلاتها، إذ إن هذا أشبه بقولك إن خلود نفسك الإلهية يجعل بالتالي نضرة خدك خالدة بالضرورة، بينما أن هذه النضرة، مثلها كمثل تايجيسي، هي مجرد ظاهرة عابرة.

سؤال: هل أفهم من قولك إننا يجب ألا نخلط في أذهاننا بين النومينون[169] الجوهر وبين الفينومينون[170]، بين العلَّة وبين معلولها؟

الثيوصوفي: أجل، أقول ذلك، وأكرِّر بأن إشعاع تايجيسي نفسها، إذ يتحد بماناس أو النفس البشرية وحدها، تصير مجرد مسألة وقت، لأن كلاً من الخلود ووعي ما بعد الموت يصيران، عند شخصية الإنسان الأرضية، مجرد صفتين مقيِّدتين، بما أنهما يعتمدان الاعتماد كلَّه على الشروط والمعتقدات التي أوجدتْها النفس البشرية نفسها خلال حياة الجسد. إن الكارما تعمل بلا توقف: نحن لا نحصد *في* آخرتنا إلا ثمرة ما زرعناه نحن في هذه الدنيا.

---

[169] الجوهر.
[170] المظهر أو الشكل.

سؤال: لكن إذا، بعد تدمير جسدي، سقطت الأنا في حالة من فقدان الوعي التام، أين يمكن معاقبة خطايا حياتي الماضية؟

الثيوصوفي: تعلمنا فلسفتنا أن العقوبة الكارمية تصل فقط إلى الأنا في تجسدها المقبل. بعد الموت، لا تتلقى سوى مكافأة المعاناة غير المستحقة التي تعرضت لها خلال تجسدها الأخير[171]. كل العقوبة بعد الموت، حتى بالنسبة للمادي، تتألف في غياب أي مكافأة وفقدان كامل لوعي الغبطة والراحة. الكارما هي طفل الأنا الأرضية، ثمرة تصرفات هذه الشجرة التي هي الشخصية الموضوعية المرئية للجميع، وكذلك ثمرة كل الأفكار وحتى جميع النيات لل "أنا" الروحية. لكن الكارما هي أيضاً الأم الرقيقة التي تشفي الجروح التي أصيبت بها خلال الحياة السابقة، قبل البدء في تعذيب هذه الأنا مرة أخرى عن طريق إلحاق آفات جديدة.

حتى لو كان من الممكن القول إنه لا توجد معاناة، عقلية أو جسدية، في حياة إنسان فاني ليست الثمرة المباشرة ونتيجة لبعض الخطايا التي ارتكبت في وجود سابق، فهذا لا يمنع الإنسان الذي لا يحتفظ، في حياته الحالية، بأدنى ذكريات

---

[171] لقد وجد بعض الثيوصوفيين خطأ في هذه الجملة، لكن الكلمات هي كلمات المعلم، والمعنى المرتبط بمصطلح "غير مستحق" هو المعطى أعلاه. في الكتيب رقم، ° 6، كانت جملة (انتقد في وقت لاحق في مجلة لوسيفر) التي تهدف إلى التعبير عن نفس الفكرة. لقد أخطأت من حيث الشكل، هذا صحيح، وقدمت نفسها للنقد الذي أثارته، لكن الفكرة الأساسية كانت أن البشر غالباً ما يعانون من آثار الأفعال التي يرتكبها الآخرون، وهي نتائج لا تنتمي تماماً إلى الكارما الخاصة بهم، ولهذه المعاناة يستحقون التعويض بطبيعة الحال. المترجم.

أخطائه السابقة، ولديه شعور بعدم استحقاق العقوبة التي يتعرض لها والتفكير، وبالتالي يعاني مما ليس مذنباً فيه. هذا وحده يكفي لمنح النفس البشرية الحق في أكبر قدر من العزاء والراحة والنعيم في الوجود بعد الوفاة. الموت يقدم نفسه دائماً لذاتنا الروحية كمحرر وصديق. بالنسبة إلى المادي الذي لم يكن إنساناً سيئاً، على الرغم من ماديته، فإن الفترة الفاصلة بين حياتين ستكون مثل النوم الهادئ دون انقطاع للطفل، أو يخلو تماماً من الأحلام، أو ربما محاطاً بصور لن يكون لديه أي تصور دقيق لها، بينما للإنسان العادي، فإن ذلك سيكون حلماً حقيقياً مثل الحياة نفسها، مليئة بالنعم والرؤى المفروضة عليه بالواقعية.

سؤال: لذلك سيكون من الضروري أن يستمر الإنسان الشخصي دائماً في معاناة العقوبات الكارمية التي جلبتها الأنا على نفسها؟

الثيوصوفي: انها ليست كذلك تماماً. في لحظة الموت الجليلة حتى في حالة الموت المفاجئ، يرى كل إنسان حياته الماضية كلها تتكشف أمامه في تفاصيل دقيقة للغاية. لفترة قصيرة تصبح الإيغو الشخصية واحدة مع الإيغو الفردية وكلية العلم. ولكن هذه اللحظة تكفي لإظهار كل سلسلة الأسباب التي عملت خلال حياته. إنه يرى نفسه ويتفهم نفسه كما هو، ويتم تجريده من جميع أقنعة الإغراء والتحرر من أوهامه الخاصة. إنه يفك شفرة حياته كمتفرج يفكر من فوق الساحة التي يغادرها، إنه يشعر ويدرك عدالة كل المعاناة التي عانى منها.

سؤال: وهل يحدث هذا للجميع؟

الثيوصوفي: للجميع، دون استثناء. كما تَعلمنا، لا يستطيع البشر الجيدين والمقدسين للغاية رؤية الحياة التي يتركونها فحسب، بل حتى رؤية العديد من الوجودات السابقة حيث تم إنتاج الأسباب التي جعلتهم مثلما كانوا عليه في الحياة التي كانت قد انتهت للتو. إنهم يقرون بقانون الكارما بكل جلالته وبكل عدالته.

سؤال: هل هناك شيء يناسب هذه الرؤية قبل الولادة الجديدة؟

الثيوصوفي: نعم. تماماً نفس الشيء كما في وقت الموت يستعرض الإنسان بأثر رجعي الحياة التي عاشها، لذلك في الوقت الذي يولد فيه من جديد على الأرض، فإن الإيغو التي تستيقظ من حالة ديفاخان يكون لديها رؤية شاملة للحياة التي تنتظرها وتدرك جميع الأسباب التي أدت بها إلى هناك. إنها تدرك ذلك وترى المستقبل، لأنه بين ديفاخان والعودة للتقمص أو الولادة، تستعيد الإيغو وعيها الماناسي[172] الكامل، وتصبح لفترة قصيرة من الزمن، الإله الذي كانت عليه قبل أن تنزل لأول مرة في المادة، وفقاً للقانون الكارمي، وتتجسد في الإنسان اللحمي الأول. "الخيط الذهبي" يرى كل "لآلئه" ولا يوجد واحدة منها مفقودة.

[172] من ماناس، العقل الفوقي.

المقصود حقاً بكلمة: الفناء

سؤال: لقد سمعت، في الواقع، بعض الثيوصوفيين يتحدثون عن خيط ذهبي ملفوف عليه حيوياتهم بطريقة ما. ماذا يقصدون بذلك؟

الثيوصوفي: في الكتب الهندوسية المقدسة، كُتِبَ إن ما يعاني التجسد بشكل دوري هو سوتراتما، التي تعني حرفياً "خيط النفس". إنه مرادف للأنا التي تتقمص - ماناس مقترنة مع بودهي - التي تمتص محتوى الذكريات الماناسية لكل تقمصاتنا السابقة. يُطلق عليها ذلك لأن السلسلة الطويلة من التقمصات البشرية تتجمع في مسبحة على هذا الخيط الوحيد، مثل الكثير من اللآلئ المعلقة على نفس الخيط. في أحد الأوبانيشاد تُقارن هذه الولادات الجديدة المتتالية بحياة الإنسان التي تتذبذب بشكل دوري بين النوم والاستيقاظ.

سؤال: هذا، أنا أعترف، أن ذلك لا يبدو واضحاً بالنسبة لي وللسبب التالي. بالنسبة للإنسان المستيقظ، يبدأ يوم جديد، لكن هذا الإنسان، كجسد ونفس، هو نفسه كما كان في اليوم السابق. من ناحية ثانية، مع كل تجسد، يحدث تغيير كامل ليس فقط فيما يتعلق بالغلاف الخارجي والجنس والشخصية، بل أيضاً بالقدرات العقلية والنفسية. المقارنة لا تبدو عادلة تماماً بالنسبة لي. الإنسان المستيقظ يتذكر بوضوح ما فعله بالأمس أول من أمس، وحتى قبل شهور وسنوات. لكن لا أحد منا لديه أدنى ذكرى من حياة سابقة أو أي واقعة أو حدث يتعلق بها ...

قد أنسى في الصباح ما حلمت به خلال الليل، لكنني أعلم جيداً أنني قد نمت وأنا متأكد من أنني عشت أثناء نومي. ولكن ما هي الذكرى التي يمكن أن أحصل عليها من تجسدي الماضي أثناء انتظار لحظة الموت؟ كيفية التوفيق بين كل هذا؟

الثيوصوفي: هناك أناس، في الواقع، خلال هذه الحياة يتذكرون تجسيدهم الماضي، لكن هؤلاء هم بوذا والمساررين في هذه الحالة، والتي يسميها اليوغيون "ساماسامبودهي[173]" يتم الحصول على معرفة السلسلة الكاملة من التجسدات الماضية.

سؤال: لكن نحن، بشر عاديون، لم نصل إلى ساماسامبودهي كيف يمكننا أن نفهم هذا التشبيه؟

الثيوصوفي: من خلال دراستها ومحاولة التوصل إلى فهم أكثر دقة لما يميز النوم، من خلال جوانبه الثلاثة. النوم هو قانون عام ولا يتغير بالنسبة للإنسان وكذلك للوحش، لكن هناك أنواعاً أو أنماطاً مختلفة من النوم وحتى أنواعاً مختلفة من الأحلام والرؤى.

سؤال: لكن هذا يقودنا إلى موضوع آخر. لنعود بالأحرى إلى الإنسان المادي، الذي رغم أنه لا ينكر الأحلام - وهو ما يصعب عليه فعله - إلا أنه ينكر الخلود عموماً واستمرارية فرديته الخاصة.

---

[173] كلمة ساماسامبودهي في لغة بالي (في السنسكريتية: ساميا كسامبودهي) تشير إلى حالة الاستنارة وكلية المعرفة التي حققها كائن مستنير بالكامل تماماً (تسمى في لغة بالي سامسامبودها). (المترجم).

الثيوصوفي: والمادي، دون معرفة ذلك، معه حق. لأنه بالنسبة إلى الشخص الذي ليس لديه إدراك داخلي لخلود نفسه، أو أي إيمان به، فإنه في هذا الإنسان، لا يمكن أن تصبح النفس أبداً "بودهي - تايجاسي" ولكن ستبقى ببساطة ماناس. لكن ليس هناك خلود ممكن لماناس وحدها. ولكي تعيش حياة واعية في العالم التالي، يجب أولاً أن تؤمن بهذه الحياة، أثناء الوجود الأرضي. من هاتين الحكمتين للعلوم السرية، تم بناء فلسفة الوعي بعد الموت وخلود النفس بأكملها. الأنا تتلقى دائماً حسب استحقاقها. بالنسبة لها، وبعد انحلال الجسم، تبدأ حسب الحالة، بفترة من الوعي اليقظ للغاية أو حالة من الأحلام الفوضوية المشوشة، أو حتى نومٍ خالٍ تماماً من الأحلام التي لا يمكن تمييزها عن الفناء. وهذا يتوافق بالضبط مع أوجه النوم الثلاثة. إذا رأى علماؤنا الفيزيولوجيين سبب الأحلام والرؤى في الإعداد اللاواعي حيث تشكلت فيه شبكتهم خلال ساعات الاستيقاظ، فلماذا لا نعترف بتطور مشابه لأحلام ما بعد الموت؟

أكرر: الموت هو النوم. بعد الموت، يبدأ، أمام العيون الروحية للنفس، مشهد تمثيل يتم وفقاً لبرنامج تعلمناه وكثيراً ما يتكون مننا من غير وعي: هناك تتكشف، في حقائق حية، تحقيق المعتقدات الصحيحة أو الأوهام التي أنشأناها نحن بأنفسنا بكل حذافيرها.

أي شخص كان من الميثوديين سيكون ميثودياً هناك، والمسلم مسلماً - على الأقل لفترة من الوقت - في جنة خيالية تماماً وكل واحد خلقها وصنعها لنفسه. هذه هي ثمار ما بعد الموت لشجرة الحياة. بالطبع، إذا كنا نؤمن بحقيقة الخلود الواعي أم

لا، فهذا لا يمكن أن يغير أي شيء في الواقع غير المشروط للحقيقة نفسها، طالما أنه موجود. ولكن عندما يتعلق الأمر بكينونات مستقلة أو منفصلة، سواء تؤمن أو لا تؤمن بهذا الخلود، فإن موقفها لا بدَّ أن يلون ذلك الواقع عند انطباقه على كلٍ من هذه الكينونات. هل بدأت تفهم الأمر الآن؟

سؤال: أعتقد ذلك. المادي، الذي يرفض تصديق أي شيء لم تثبته له حواسه الخمس، أو عن طريق التفكير العلمي المدعوم حصرياً بالمعطيات المُقَدَمة من هذه الحواس - على الرغم من النقص فيها - ويرفض أي تجلي روحي، لا يقبل كحياة واعية التي يعرضها الوجود. وبالتالي سيتم القيام به وفقاً لإيمانه. سوف يفقد أنيته الشخصية وينغمس في نوم بلا أحلام حتى يستيقظ من جديد. أليس كذلك؟

الثيوصوفي: تقريباً. تعمق بالعقيدة العالمية التي تقول بأن هناك نوعين من الوجود الواعي، أحدهما أرضي والآخر روحي. يجب اعتبار هذا الأخير حقيقياً من خلال حقيقة أن الموناد الأبدية الثابتة والخالدة تقيم فيه، في حين أنه بالنسبة للحياة الأرضية، يجب على الإيغو المتقمصة ارتداء ملابس جديدة تختلف تماماً عن تلك الثياب من تجسداته الماضية والتي في كل شيء، باستثناء نموذجها الروحي، محكوم عليها أن تخضع لتغيير جذري بحيث لا يبقى أي أثر.

سؤال: لكن كيف هذا؟ هل يمكن لل "أنا" الواعية الدنيوية أن تهلك، ليس فقط لوقت مثل وعي المادي، بل بطريقة كاملة بحيث لا يتبقى منها أي أثر؟

الثيوصوفي: وفقاً للتعاليم، يجب أن تهلك هكذا وبالكامل باستثناء المبدأ الذي أصبح، من خلال الاتحاد مع المونَاد نتيجةً لذلك، جوهراً روحياً خالصاً وغير قابل للتدمير، ليظل متحد بها في الأبدية. ولكن، في حالة المادي المتصلب، في "الأنا" الشخصية التي لم ينعكس فيها أي أثر لبودهي، كيف يمكن أن تأخذ معها هذه الأخيرة، إلى الأبدية قطعة واحدة من هذه الشخصية الأرضية؟ الإيغو الروحية خاصتك هي خالدة، لكن من "ذاتك" الحالية، لايمكن أن تحمل معها إلى الأبدية سوى الجزء الذي أصبح جديراً بالخلود - عبير الزهرة التي قطفها الموت.

سؤال: حسناً، ولكن ماذا عن الزهرة، "الأنا" الأرضية؟

الثيوصوفي: مثل كل الزهور السابقة واللاحقة التي أزهرت، أو ستزهر، في الفرع الأم، فإن سوتراتما - والتي هي بمثابة عدد كبير من البراعم من نفس الجذر، أو بودهي - سوف تعود هذه الزهرة إلى غبار. "الأنا" الحقيقية الخاصة بك، كما تعلم ليست الجسد الذي يجلس أمامي الآن، ولا هي ما أسميه ماناس - سوتراتما، بل سوتراتما – بودهي.

سؤال: ولكن هذا لا يفسر لي على الإطلاق لماذا تسمي الحياة بعد الموت بالخالدة، لانهائية وحقيقية، والحياة الأرضية مجرد شبح أو وهم محض، لأن هذه الحياة بعد الوفاة بحد ذاتها لها حدودها، على الرغم من أن هذه الحدود أوسع بكثير من حدود الحياة الأرضية.

الثيوصوفي: بدون شك. تتحرك الإيغو الروحية للإنسان في الأبدية مثل البندول الذي يتذبذب بين ساعات الولادة والموت.

ولكن إذا كانت هذه الساعات التي تحدد فترات الحياة الأرضية والروحية محدودة في مدتها، وإذا كانت سلسلة هذه المراحل عبر الأبدية، بين النوم والاستيقاظ، بين الوهم والواقع، لها بداية ونهاية، فإن الحاج الروحي ليس أقل من كونه أبدي. لذلك، من وجهة نظرنا، ما يشكل الواقع الوحيد خلال فترة هذا الحج المُسمى "دورة الولادات الجديدة"، هي ساعات حياة ما بعد الوفاة حيث يجد الميت نفسه وجهاً لوجه مع الحقيقة، ولم يعد مع سراب تقمصاته ووجوده الدنيوي والعابر. ومع ذلك على الرغم من محدوديتها، لا تمنع هذه الفواصل الأنا، التي تسعى للكمال دائماً، من اتباع، دون أن تنحرف - على الرغم من أن ذلك بشكل تدريجي وبطيء - الدرب، الذي سيصل بها إلى نقطة تحولها الأخير حيث تصل لهدفها، وتصبح كائن إلهي. تساعد هذه الفواصل والخطوات في تحقيق النتيجة النهائية بدلاً من إعاقة تحقيقها.

وبدون هذه الفواصل الزمنية المحدودة، لن تتمكن الأنا السماوية من الوصول إلى هدفها النهائي. لقد قدمت لك بالفعل مثالاً مألوفاً على هذا التقدم من خلال مقارنة الأنا الفردية لممثل، وتجسداتها العديدة والمتنوعة للأدوار التي يلعبها هذا الأخير. هل تسمي هذه الأدوار أو أزياءها فردية الممثل نفسه؟

على غرار الممثل، تُجبر الأنا، أثناء دورة الضرورة[174]، على لعب العديد من الأدوار، والتي قد يزعجها البعض منها، حتى تصل إلى عتبة البارانيرفانا.

---

[174] دورة التقمصات.

تماماً كما يجمع النحل عسله من كل زهرة يزورها ويترك الباقي كمرعى لديدان الأرض، كذلك الفردية الروحية - سواء كنا نسميها سوتراتما أو الإيغو - تجمع من كل شخصية أرضية، التي تجبرها الكارما على التجسد فيها، رحيق الصفات الروحية والوعي الذاتي، موحدة كل ما لديها من حصاد في كلاً واحداً، وتترك أخيراً شرنقتها لتصبح ديان شوهان ممجداً.

فليحدث ما يحدث للشخصيات الأرضية التي لم تستطع جمع أي شيء منها، وبالتأكيد لا يمكنها امتلاك استمرارية الوعي بعد انتهاء وجودها الأرضي.

سؤال: يبدو ذلك إذن، أنه بالنسبة للشخصية الأرضية، يكون الخلود دائماً مشروطاً. ومع ذلك، أليس الخلود نفسه غير مشروط؟

الثيوصوفي: على الإطلاق. لكن الخلود لا يمكن أن يمس ما هو غير موجود، لأن كل شيء موجود كـ "سات"، أو ينبثق من "سات"، كالخلود والأبدية، هو مطلق. المادة هي القطب المعاكس للروح، ومع ذلك فإن الاثنين هما واحد. وجوهر كل شيء - أعني جوهر الروح، القوة أو الطاقة والمادة، أو الثلاثة في واحد - هو بلا بداية أو نهاية. لكن الشكل الذي اكتسبته هذه الوحدة الثلاثية أثناء تجسدها، جانبها الخارجي، هو بالتأكيد مجرد وهمّ مفاهيمنا الشخصية. هذا هو السبب في أننا لا ندعو الواقع إلا النيرفانا والحياة الكونية، في حين أننا نحيل الحياة الأرضية، دون استبعاد شخصيتها الأرضية أو حتى وجودها في ديفاخان، إلى المجال الشبحي للوهم.

سؤال: لكن لماذا، في هذه الحالة، تسمون النوم حقيقة وحالة اليقظة وهمّ؟

الثيوصوفي: هذه مجرد مقارنة تهدف إلى تسهيل فهم الموضوع، ومن وجهة نظر مفاهيمنا الأرضية، فهي صحيحة تماماً.

سؤال: ما زلت مستمراً في عدم الفهم: إذا كانت الحياة التي تنتظرنا بعد الموت مبنية على العدالة والثواب المستحق لجميع معاناتنا هنا على الأرض، فلماذا، في حالة الماديين، وكثير منهم رجال صادقون حقاً وفاعلي خير، لن يبقى هناك شيء من شخصياتهم سوى بقايا زهرة ذابلة؟

الثيوصوفي: لا أحد قال ذلك. لا يمكن لأي مادي، مهما كان غير مؤمن، أن يموت إلى الأبد في ملء شخصيته الروحية. ما قلته هو أن وعي المادي يمكن أن يختفي كلياً أو جزئياً، بحيث لا تنجو من شخصيته أية بقايا واعية.

سؤال: ولكن بالتأكيد هذا هو الفناء؟

الثيوصوفي: لا على الإطلاق. خلال رحلة القطار الطويلة يمكن للمرء أن يغفو في نومٍ عميقٍ بحيث أنه يمر بالعديد من المحطات دون أدنى وعي أو أدنى ذكرة، ثم يستيقظ في محطة أُخرى، ويواصل رحلته بمروره بمحطات لا حصر لها حتى تنتهي الرحلة ونصل إلى وجهته. أخبرتك عن ثلاثة أنواع من النوم: النوم بلا أحلام، والنوم بأحلام فوضوية مشوشة والنوم حيث الأحلام حقيقية إلى درجة تجعلها تبدو وكأنها حقائق

مطلقة للنائم. إذا كنت تؤمن بهذا النوع الأخير من النوم، فلماذا لا تؤمن بالنوع الأول؟

سوف تتشكل الحياة التي تنتظر إنساناً في الحياة الآخرة حسب ما يعتقد أنها ستكون وما يتوقع أن يجدها هناك. كل من لا يتوقع أي حياة مستقبلية سيجد، في الفترة الفاصلة بين ولادة جديدة، فراغاً مطلقاً يصل إلى درجة الفناء. إنه بالتحديد تحقيق البرنامج الذي تحدثنا عنه، وهو البرنامج الذي خلقه الماديون أنفسهم.

لكن هناك، كما تقول، أنواعاً مختلفة من الماديين. فإن الأناني الشرير، الذي لا يفكر إلا في نفسه، والذي لم يذرف الدموع إلا على نفسه والذي أضاف إلى الكفر اللامبالاة الأكثر اكتمالاً تجاه العالم كله، سوف يفقد إلى الأبد شخصيته على تخوم الموت.

بما أن هذه الشخصية، ليس لها، إذا جاز التعبير، أي رابط تعاطفي مع العالم من حولها، وبالتالي، ليس لديها أي شيء للتشبث بسوتراتما، فإن كل اتصال بينها وبين سوتراتما سوف ينقطع بالضرورة في وقت تنفس الصعداء الأخير. بما أنه لن يكون هناك ديفاخان لمثل هذا المادي، فإن سوتراتما سوف تتجسد على الفور تقريباً. لكن المادي الذي كان خطأه الوحيد هو عدم الإيمان بحياة مستقبلية سينام بعمق ويترك محطة واحدة تمر.

سيأتي الوقت الذي يكون فيه هذا المادي السابق لديه إدراك عن نفسه في الأبدية وقد يتوب بعد ذلك لخسارته حتى لو يوماً واحداً، مرحلة واحدة من الحياة الأبدية.

سؤال: أليس من الأصح القول إن الموت هو مجرد ميلاد لحياة جديدة أم عودة جديدة إلى الأبدية؟

الثيوصوفي: إذا أردت ذلك. ولكن يجب أن نتذكر أن الولادات تختلف عن بعضها البعض، وأن هناك بشر "مولودة ميتة" هم إخفاقات في الطبيعة. علاوة على ذلك، فإن الأفكار الثابتة التي لديك في الغرب حول الحياة المادية هي أن مصطلحات "حيّ" و "كائن" غير قابلة للتطبيق نهائياً على الحالة التجريدية النقية البحتة للوجود فيما بعد الوفاة. وهذا لسبب وجيه وهو التالي: باستثناء بعض الفلاسفة الذين يقرأ لهم عدد قليل جداً من الناس، والذين من جهة ثانية، هم أنفسهم ليس لديهم مفهوم واضح بما فيه الكفاية لتقديم هذه الموضوعات بطريقة دقيقة جداَ، قد أصبحت المفاهيم الغربية للحياة والموت ضيقة للغاية لدرجة أنها، من ناحية، أدت إلى أخطر أنواع المادية ومن ناحية ثانية، أدت إلى تصور مفهوم أكثر مادية للحياة المستقبلية التي وجدت تعبيرها في "سمرلاند" الأرواحيين.

هناك، الأرواح البشرية تتناول الطعام تشرب، تتزوج وتعيش في جنة حسية، ولكنها أقل فلسفية، من جنة محمد.

المفاهيم الشائعة للمسيحي غير المتعلّم ليست أفضل، هم أيضاً أكثر مادية، إذا كان ذلك ممكناً. تشبه السماء المسيحية، مع ملائكتها المحرومين من الأجسام، والأبواق النحاسية والقيثارات الذهبية، وكذلك الجحيم مع لهيبه المادي، المشهد السحري للفن التمثيلي الإيمائي لعيد الميلاد.

بسبب هذه المفاهيم الضيقة أنك تجد صعوبة في الفهم. والسبب في ذلك هو أن حياة الروح المجسّمة تخلو تماماً من أي شكل

موضوعي فظ من أشكال الحياة الأرضية، دون أن تفقد أي شيء من الانطباع الحي عن الواقع الذي لدى الفرد في بعض الأحلام، وأن الفلاسفة الشرقيين قد قارنوه برؤى النوم.

مصطلحات محددة للدلالة على أشياء محددة

سؤال: ألا ترى أن سبب التشويش الحاصل في أذهاننا بخصوص الوظائف التي يختص بها كل "مبدأ" في الإنسان هو عدم وجود مصطلحات محددة وثابتة للإشارة إلى كلٍ من هذه "المبادئ"؟

الثيوصوفي: لقد فكرت في الأمر من جانبي. لقد نجم الغموض بأكمله مما يلي: لقد بدأنا في عرض "المبادئ"، وفتحنا نقاشات حولها، مستعملين تسمياتها السنسكريتية بدلاً من مباشرة سبك مرادفات لها بالإنكليزية يستعملها الثيوصوفيون. يجب علينا أن نحاول تدارك هذا الأمر الآن.

سؤال: حسناً تفعل، لأنه من شأن ذلك أنه يجنّبنا المزيد من الغموض والالتباس. إذ ما من كاتبين ثيوصوفيين، على ما يبدو لي، قد اتفقا حتى الآن على إطلاق الاسم نفسه على "المبدأ" نفسه.

الثيوصوفي: غير أن الخلط هو ظاهري أكثر منه حقيقي. لقد سمعت بعض ثيوصوفيينا يعبّرون عن دهشتهم من عدة مقالات تتكلم على هذه "المبادئ" وينتقدونها لكن لدى الفحص عنها لم نجد فيها خطأ أسوأ من خطأ استعمال كلمة "نفس" للدلالة على المبادئ الثلاثة بدون تحديد التمييزات فيما بينها. لقد كتب السيد أ. ب. سِنّيت – أول كتّابنا الثيوصوفيين وأوضحهم بلا

منازع – فقرات شاملة وبديعة الأسلوب عن "الذات العليا[175]". وقد أساء بعضهم تصور فكرته الحقيقية من جراء استعماله كلمة "نفس" بمعناها العام. ومع ذلك، هاهي هنا بضع مقتطفات ستظهر لك مبلغ شمول ووضوح كلِّ ما يكتب في الموضوع:

[... إن النفس الإنسانية، ما إن تنطلق كفردية بشرية[176] على دروب التطور، حتى تجتاز فترات متناوبة من الوجود الجسدي والوجود الروحي نسبياً. إنها تعبر من مرتبة، أو طبقة، أو ظرف، للطبيعة إلى ظرف آخر بإرشاد من قراباتها الكارمية فتحيا في تقمصاتها الحياة التي سبق للكارما أن قدَّرها عليها معدِّلة تقدمها ضمن حدود الظروف، وإذ تولِّد كارما جديدة بحسن تحيُّنها للفرص أو سوئه، تعود إلى الوجود الروحي (ديفاخان) بعد كل حياة جسدية – مروراً بمنطقة كامالوكا المتوسطة بينهما – من أجل الاستراحة واستجماع قواها ومن أجل الامتصاص والهضم التدريجي في ماهيَّتها، على غرار التطور الكوني، لخبرات الحياة المكتسبة "على الأرض" أو خلال العمر الأرضي. علاوة على ذلك، فإن هذه النظرة إلى المسألة سوف تطرح العديد من الاستدلالات الجانبية على كلِّ من يتفكر في الموضوع، منها، على سبيل المثال، أن انتقال الوعي من كامالوكا إلى المرحلة الديفاخانية من هذا التقدم لا

---

175 راجع محاضر "محفل لندن للجمعية الثيوصوفية"، رقم 7، تشرين الأول من عام 1885. "هي "الإيغو المتقمصة"، أو "النفس الإنسانية"، كما تُسمى "الجسم العلِّي أو السببي عند الهندوس.

176

بدَّ أن يكون متدرِّجاً[177] لأنه لا يوجد في الحقيقة خط قاطع يفصل بين تنويعات الشروط والظروف الروحية، حتى إن المرتبتين الروحية والجسمانية، على غير ما تلمِّح النظريات المادية، غير مفصولتين الواحدة عن الأخرى بجدار، كما تبيِّن الملَكات النفسية لدى أناس أحياء، أن حالات الطبيعة بأكملها موجودة من حولنا في الوقت نفسه، وتخاطب ملَكات إدراكية مختلفة وهكذا دواليك... فمن الواضح أنه خلال الوجود الجسدي يبقى الناس الذين يتمتعون بملَكات نفسية على اتصال بمراتب الوعي ما فوق الفيزيائي، ومع أن غالبية الناس لا يتمتعون بمثل هذه الملَكات فإننا جميعاً، كما تبيِّن ظواهر النوم وحتى ظواهر السرنمة[178] أو المسمرية بخاصة، قادرون على الدخول في حالات وعيّ لا تمت الحواس الجسدية الخمس إليها بصلة. نحن – أي النفوس فينا – لسنا مبحرين، إذا جاز التعبير، في بحر المادة على غير هدى مطلقاً. فنحن نحتفظ قطعاً باهتمام أو بحقوق ناجية على الشاطئ الذي أقلعنا منه ذات مرة. لذا فإن سيرورة التقمص ليست موصوفة وصفاً دقيقاً عندما نتكلم على وجود متناوب على المرتبتين الجسدية والروحية، فنتصور بذلك النفس ككيان تام ينزلق بكلِّيته من حالة وجود إلى حالة أُخرى. فلعل التعريفات الأصح لتلك السيرورة هي التي تمثِّل للتجسد بوصفه يجري على هذه المرتبة الجسمانية للطبيعة من جراء سيلان ينبعث من النفس.

---

[177] غير أن طول هذا "الانتقال" يتوقف على درجة الروحانية لدى الشخصية السابقة للإيغو المتجردة من جسدها. فكل من كانت حياته روحانية جداً يكون هذا الانتقال، على كونه متدرجاً، سريعاً جداً. أما فيما يخص ذوي الميول المادية فيكون هذا الزمن أطول.

[178] الروبصة أو السير أثناء النوم. المترجم.

وبذلك يكون العالم الروحي على الدوام هو المسكن المناسب للنفس، الذي لا تغادره كلياً أبداً، وتلك القطعة من النفس غير القابلة للتَمَيْدُد[179] التي تقيم بصفة دائمة على المرتبة الروحية قد تصح عليها، ربما تسمية الذات العليا].

هذه "الذات العليا" هي أتما، وهي بالطبع "غير قابلة للتَمَيْدُد"، كما يقول السيد سينيت. لا بل إنه لا يمكن أبداً أن يكون "موضوعياً" أياً كان الظرف، حتى بالنسبة إلى الإدراك الروحي الأسمى. إذ إن أتمان، أو "الذات العليا"، هي حقاً براهمان، المطلق، وهي لا تتميَّز عنه. ففي ساعات السمادهي يكون الوعي الروحي الأعلى للمسارَر مستغرقاً بكلِّيته في الماهية الواحدة، التي هي أتمان، وبالتالي، لا يمكن لأيِّ شيء أن يكون موضوعياً في نظره باعتباره واحداً مع الكل. غير أن بعض ثيوصوفيينا درجوا على استعمال كلمتي "ذات" و"إيغو" كمترادفتين، وعلى الإشارة بمصطلح "ذات" إلى "ذات" أو إيغو الإنسان الفردية العليا أو حتى الشخصية، في حين أن هذا المصطلح ينبغي ألا يُطبَّق أبداً إلا على الذات الكلِّية الواحدة. ومن هنا الالتباس والغموض. أما عند الكلام عن ماناس "الجسم العِلِّي"، فيجوز لنا أن نسميه – عندما نربطه إلى الإشعاع البودِّهيِّ – "الإيغو العليا"، وليس "الذات العليا" مطلقاً، إذ أنه حتى بودهي، "النفس الروحانية"، ليست هي الذات بل هي مركبة الذات وحسب. أما "الذوات" الأخرى جميعاً – من نحو الذات "الفردية" والذات "الشخصية" –

---

[179] تتحول إلى مادة. المترجم.

فينبغي عدم الكلام عليهما أو الكتابة عنهما أبداً بدون نعتهما بالخاصية والمميِّزة.

بذلك ففي هذه المقالة الممتازة للغاية في "الذات العليا"، يُطبَّق هذا المصطلح على المبدأ السادس أو بودِّهي (مقروناً، بالطبع مع ماناس، إذ إنه بدون هذا الاتحاد ليس ثمة مبدأ أو عنصر مفكِّر في النفس الروحانية) وبذلك فقد أتاح المجال لمثل سوء الفهم هذا. وتصريحه بأن "الطفل لا يحصل على مبدئه السادس – أو يصير كائناً مسؤولاً أخلاقياً قادراً على توليد كارما – حتى بلوغه سن السابعة" يبرهن على المقصود بالذات العليا فيما وردَ. لذا فإن المؤلف القدير على حق تماماً في شرحه بأنه بعد أن تعبر "الذات العليا" إلى الكائن الإنساني وتُشبِع بوعيها الشخصيةَ – وهذا لا يحصل إلا عند أصحاب البنية اللطيفة وحسب – فإن "الناس من أصحاب الملَكات النفسية قد يدركون هذه الذات العليا بالفعل من حين لآخر عبر حواسهم الألطف". لكن أولئك الذين يقصرون مصطلح "الذات العليا" على المبدأ الإلهي الكلِّي، هم أيضاً "على حق" حين يسيئون فهمه. إذ إننا حين نقرأ، بدون أن نستعد لهذه النقلة في المصطلحات الميتافيزيائية[180]، بأن "الذات العليا، إذ تتجلَّى كلياً على المرتبة الجسمانية، ... تبقى مع ذلك أنيَّة روحية واعية على مرتبة الطبيعة المقابلة" – نميل إلى أن نفهم من

[180] تنطبق "النقلة في المصطلحات الميتافيزيائية" هنا فقط على النقلة في مكافئاتها المترجَمة عن المصطلحات الشرقية، لأنه حتى يومنا هذا لم تَرِدْ في اللغة الإنكليزية أية مصطلحات كهذه، الأمر الذي اضطر كل ثيوصوفي إلى صقل المصطلحات الخاصة به من أجل ترجمة فكره. لقد آن الأوان، إذن، للاستقرار على جملة تسميات محددة.

"الذات العليا" الواردة في هذه الجملة "أتما"، ومن الأنيَّة الروحية "ماناس"، أو بالحري بودهي – ماناس، وبالتالي أن نرتاب في صحة الأمر برمَّته.

من أجل تجنب مثل سوء الفهم هذا من الآن فصاعداً أقترح ترجمة المصطلحات الغيبية الشرقية ترجمة حرفية إلى الإنكليزية وتقديم هذه الترجمة من أجل استعمالها اللاحق:

الذات العليا هي	**أتما، الشعاع غير المنفصل عن الذات الواحدة الكلِّية. إنه الإله فوقنا أكثر منه الإله فينا. طوبى للإنسان الذي ينجح في إشباع أنيَّته الباطنة به.**
الإيغو الروحية الإلهية هي	**النفس الروحية أو بودهي، المتحدة اتحاداً وثيقاً مع ماناس، المبدأ العقلي، الذي بدونه لا توجد إيغو أصلاً، وهي مركبة آتما فقط.**

الإيغو العليا أو الإيغو الباطنية هي	**ماناس، المبدأ "الخامس"، كما يُسمى مستقلاً عن بودهي. والمبدأ الذهني أو العقلي لا يكون الإيغو الروحية إلا عندما يندمج في بودهي مُشَكلاً وإياها مبدأ واحد – وما من امرئ مادي يُفترَض أن يحوي فيه مثل هذه الإيغو، مهما بلغ شأن قدراته العقلية. إنها الفردية الدائمة أو "الإيغو المتقمصة".**
الإيغو السفلية أو الشخصية هي	**الإنسان الجسدي مقترناً بذاته الدنيا، أي الغرائز الحيوانية، والأهواء، والشهوات إلخ. وهي تُدعى "الشخصية الزائفة" وهي عبارة عن ماناس السفلية مقترنة بكاما–روبا، وفاعلاً عبر الجسم المادي وشبحه أو "قرينه".**

أما "المبدأ" المتبقي برانا، أو "الحياة"، فهو، توخياً للدقة القوة أو الطاقة المشعة لآتما – بوصفه الحياة الكلِّية والذات الواحدة – مظهره الأدنى أو الأكثر جسدية (في آثاره) بالحري باعتباره متجلياً. برانا أو الحياة تتخلل كينونة الكون

الموضوعي برمَّته، وهي لا تُدعى **"مبدأ"** إلا لأنها العامل الذي لا غنى عنه والمبدأ المحرِّك للإنسان الحي.

سؤال: هذا التقسيم، باعتباره مبسَّطاً للغاية في تأليفاته مناسب أكثر، فيما أظن. أما الآخر فهو مسرف في الميتافيزيائية.

الثيوصوفي: إذا وافق عليه عامة الناس والثيوصوفيون جميعاً، فمن شأنه حتماً أن يجعل الأمور أقرب منالاً إلى الفهم بكثير.

الباب العاشر

في طبيعة مبدئنا المفكِّر

سر الإيغو

سؤال: لاحظت، في مقطع من التعليم البوذي الذي أشرت إليه سابقاً، تناقضاً أود منك أن تشرحه. قيل إن السكاندا - بما في ذلك الذاكرة - تتغير مع كل تجسد جديد. ومع ذلك، فمن المسلم به أن انعكاس عناصر الحياة الماضية (والتي، كما يُقال، تتكون بالكامل من السكاندا) "يجب أن تستمر بالحياة". ما الذي ينجو بالفعل؟ وسأكون ممتناً لو أمكنك شرح ذلك لي. هل هذا مجرد "الانعكاس"، أو هذه السكاندا، أم أنها دائماً نفس الإيغو ماناس التي تتحدث عنها؟

الثيوصوفي: لقد أوضحت للتو أن المبدأ المتجسد، أو ما نسميه الإنسان الإلهي، غير قابل للفناء طوال دورة الحياة بأكملها: لا يمكن تدميره ليس فقط ككيان مفكر، بل حتى كشكل أثيري. إن "الانعكاس" ليس سوى تذكير بالوضع الروحي (خلال الفترة الديفاخانية) لذكريات الشخصية السابقة، السيد أ، أو السيدة ب، التي تتماهى وتتماثل معها الأنا خلال هذه الفترة.

طالما أن هذا التذكير ليس، إذا جاز التعبير، سوى استمرار لذكريات الحياة الأرضية - حيث يستعيد جوهر اللحظات السعيدة لهذا الوجود الذي انتهى للتو، في سلسلة متواصلة من الصور الرائعة - فإنه ينبغي على الأنا أن تتماثل مع الوعي الشخصي لهذا الوجود، إذا كان يتوجب أن يبقى أي شيء منه.

سؤال: هل هذا يعني أن الأنا، على الرغم من طبيعتها الإلهية تمر بحالة من الإظلام العقلي أو الجنون المؤقت خلال كل فترة من الفترات التي تمر بين التجسدين؟

الثيوصوفي: يمكنك التفكير فيما تريد. نحن الذين نعتقد بأنه خارج الحقيقة الواحدة، فإن كل شيء هو مجرد وهم عابر، بما في ذلك الكون كله، ونحن لا نعتبر هذه الحالة جنوناً بل كنتيجة طبيعية للغاية، أو تطور للحياة الأرضية. ما هو الوجود الإنساني؟ حزمة معقدة من التجارب الأكثر تنوعاً، ومن العواطف والآراء المتغيرة باستمرار. في شبابنا، غالباً ما نكرس أنفسنا بحماس لمثال ما، لبعض الأبطال أو البطلات الذين نسعى جاهدين إلى اتباع خطاهم والذين نحاول إحياءهم في أنفسنا. بعد بضع سنوات، عندما تذبل مشاعر شبابنا وتهدأ حماستهم، فنحن أول من نضحك على أوهامنا. ومع ذلك، كان هناك وقت حددنا فيه في أذهاننا شخصيتنا إلى حد ما مع صورة المثل الأعلى الذي نعتز به، خاصة إذا كان كائناً حياً إلى حدِّ أن الأولى كانت مندمجة بكليتها في الثانية وضائعة فيها. هل يمكن أن نقول عن إنسان في الخمسين من عمره أنه هو نفسه كما كان في العشرينات؟ الإنسان الداخلي هو نفسه، أما الشخصية الحية الخارجية فقد تحولت وتغيرت بالكامل. هل

تصفون أيضاً هذه التغييرات التي تحدث في الحالة العقلية للإنسان كجنون؟

سؤال: لكن ما تسميها أنت؟ وفوق كل شيء، كيف تفسرون ديمومة الواحد والطبيعة المؤقتة للآخر؟

الثيوصوفي: هذا ما تفسره بسهولة عقائدنا ولا يمثل أي صعوبة بالنسبة لنا. يكمن المفتاح في الوعي المزدوج لعقلنا وكذلك في الطبيعة المزدوجة لـ "المبدأ" العقلي. من ناحية أولى، هناك وعي روحي - الذكاء الماناسي المستنير بنور بودهي - والذي يتصور التجريد بشكل ذاتي، ومن ناحية ثانية هناك الوعي المرتبط بالأحاسيس (النور الماناسي السفلي) الذي لا ينفصل عن دماغنا وحواسنا الجسدية. يتم الحفاظ على هذا الوعي تحت سيطرة الدماغ والحواس الجسدية، وبما أنه يعتمد، من ناحية ثانية عليهم ليعمل، فيجب عليه بالضرورة أن ينطفأ، وبنهاية الأمر، يختفي بالكامل مع اختفاء الدماغ والحواس المادية. فقط الوعي الروحي، الذي جذره في الأبدية يبقى ويدوم إلى الأبد، وبالتالي يمكن اعتباره خالداً. وكل شيء آخر لا ينتمي إلا لمجال الأوهام العابرة.

سؤال: لكن ماذا تقصد حقاً بالوهم في هذه الحالة؟

الثيوصوفي: سوف تجد وصفاً جيداً جداً حول هذا الموضوع في الدراسة التي أشرت إليها أعلاه عن "الذات العليا". هذا ما يقوله المؤلف:

[تتوافق النظرية التي نأخذها بالاعتبار - تبادل الأفكار بين الأنا العليا والذات السفلية - بشكل جيد مع طريقة اعتبار عالمنا

بكونه عالم وهمي وظاهري، بينما تشكل المستويات الروحية للطبيعة عالم النومين أو الواقع. إن منطقة الطبيعة هذه، إذا جاز التعبير، لها جذور دائمة، أكثر واقعية من تلك التي تزهر فيها أزهارها السريعة الزوال خلال فترة زمنية قصيرة، ثم تتلاشى وتختفي، بينما يستعيد النبات الطاقة لإنتاج زهور جديدة. إذا كنا نعيش في عالم تكون فيه الأزهار فقط مُدركة من الحواس العادية، وحيث توجد جذورها في حالة من الطبيعة غير الملموسة وغير المرئية بالنسبة لنا، فإن فلاسفة مثل هذا العالم الذين يشكون في وجود جذور في مستوى آخر من الوجود، سيكونون مدفوعين للقول عن الزهور أنها ليست النباتات الحقيقية، وأنها ليست ذات أهمية حقيقية - بل مجرد ظواهر وهمية بسيطة للحظة بعينها].

هذا ما أقصده. ليس العالم الذي تنمو فيه أزهار الحياة الشخصية العابرة والزائلة، هو العالم الحقيقي والدائم، بل العالم الذي يوجد فيه جذر الوعي، هذا الجذر الذي يتجاوز الوهم ويعيش في الأبدية.

سؤال: ماذا تقصد بالجذر الذي يستمر في الأبدية؟

الثيوصوفي: هذا الجذر هو الكيان المفكر، الأنا المتجسدة سواء اعتبرناه "ملاكاً" أو "روحاً" أو قوة. من بين كل ما ندركه عن طريق حواسنا، هو وحده الذي ينمو مباشرة من هذا الجذر المخفي في العالم الأعلى، أو المرتبط بهذا الجذر ويمكنه المشاركة في حياته الخالدة. ويترتب على ذلك أن جميع الخواطر والأفكار والتطلعات النبيلة للشخصية التي تحركها هذه الأنا، يجب أن تصبح دائمة طالما أنها تنبثق من هذا الجذر

وتتغذى عليه. أما بالنسبة للوعي الجسدي، من واقع أنه "مبدأ" حساس ولكنه "سفلي" (كاماروبا، أو الغريزة الحيوانية التي تنيرها الانعكاسات المناسية السفلية) والتي لا يزال من الممكن تسميته بالنفس البشرية، يجب أن يختفي. ما يتجلى كنشاط عندما يكون الجسم غافي أو مشلول، هو الوعي الأعلى، حتى لو كانت ذاكرتنا لا تسجل نظير هذه التجارب إلا بشكل ضعيف وغير كامل (بسبب تلقائيتها)، أو حتى في كثير من الأحيان هي غير قادرة على الحفاظ على أدنى انطباع عنها.

سؤال: لكن كيف تكون ماناس، على الرغم من أنك تُطلق عليها اسم "نوس[181]" إله، ضعيفة للغاية خلال تقمصاتها لدرجة أنه تُهزم حقاً من قبل الجسد وتكون خاضعة له؟

الثيوصوفي: يمكنني أن أعيد السؤال لك وأسألك "كيف يكون ذاك الذي تعتبره "إله الآلهة" والإله الوحيد الحي، ضعيفاً لدرجة أنه سمح للشر (أو للشيطان) أن يسود عليه وعلى كل مخلوقاته - وهذا أيضاً عندما يظل في الجنة كما يحدث عندما يتجسد على الأرض؟ من المؤكد أنك سترد علي: "إنه سر ويحظر السعي إلى اختراق أسرار الله". لكن فلسفتنا الدينية لا تجعلنا نستخدم مثل هذه الوسيلة للدفاع، أيضاً سوف أخبرك أنه ما لم ينحدر إله مثل أفاتار[182]، فلا يمكن لأي مبدأ إلهي أن يفعل شيء سوى أن يُعاق ويصاب بالشلل بسبب المادة الحيوانية الهوجاء. على مستوى الأوهام هذا، سيكون دائماً

---

[181]Noûs.

[182] تمظهر إلهي. المترجم.

لعدم التجانس الغلبة على التجانس، وكلما كان الجوهر أقرب إلى مبدأه الأساسي - التجانس الأولي - كلما كان من الصعب عليه تثبيت وتأكيد نفسه على الأرض. تغفو القوى الروحية والإلهية في كل إنسان، وكلما اتسعت رؤيته الروحية، كلما زادت قوة الله فيه. لكن بما أن قلة من البشر يمكنها أن تكون على دراية بهذا الإله، وأنه في معظم الحالات، يكون الإلهي مشلولاً ومحدوداً في تفكيرنا بمفاهيم خاطئة متجذرة فينا (كنتيجة للأفكار التي غُرست فينا من الطفولة) فليس من المستغرب أن تجد صعوبة بالغة في فهم فلسفتنا.

سؤال: هل هذه الأنا هي إلهنا؟

الثيوصوفي: أبداً على الإطلاق. "إله" ليس الألوهة الكونية ولكنه فقط شرارة من المحيط الوحيد للنار الإلهية. إلهنا بداخلنا، أو "أبانا الذي هو في السر"، هو ما نسميه "الذات العليا"، آتما. لقد كانت الأنا المتجسدة في الأصل إله، كما كانت جميع الفيوض الأولية للمبدأ الواحد والمجهول. ولكن، حيث إنه أُجبرت، منذ "سقوطها في المادة"، على التقمص طوال مدة الدورة، على فترات متتالية، من البداية إلى النهاية، فإنها لم تعَد إلهاً حراً وسعيداً، بل حاجاً مسكيناً يذهب في طريقه لاستعادة ما فقده. سيكون هذا التفسير أكثر اكتمالاً إذا كنت أذكر هنا ما قيل حول الإنسان الداخلي في كتاب إيزيس مكشوفة النقاب (النسخة الإنجليزية الأصلية المجلد الثاني، ص 593):

[منذ الأزمنة الموغلة في القِدَم، كان الجنس البشري، في مجمله، مقتنعاً دائماً بوجود كيان روحي وشخصي في الإنسان

المادي الشخصي. كان هذا الكيان الداخلي أكثر أو أقل ألوهية وفقاً لدرجة قربه من التاج. كلما كان هذا الاتحاد أكثر حميمية كلما كان مصير الإنسان أكثر تسامياً، وكانت الظروف الخارجية أقل خطورة. مثل هذا الاعتقاد لم يكن، لا تعصب ولا خرافات، بل شعور غريزي دائم الحضور بالتجاور مع عالم روحي وغير مرئي، والذي، رغم أنه شخصي بالنسبة لحواس الإنسان الخارجي، فهو موضوعي بالكامل بالنسبة للأنا الداخلية. بالإضافة إلى ذلك، يعتقد بشر العصور القديمة هؤلاء، أن هناك ظروفاً خارجية وظروفاً داخلية يمكن أن تؤثر على تصميم إرادتنا على أفعالنا. لقد رفضوا القدرية والجبرية لأن القدرية تفترض الفعل الأعمى لقدرة قوة عمياء. لكنهم آمنوا بالقدر أو الكارما، من الولادة وحتى الممات، وأن كل إنسان ينسج خيوطاً حول نفسه، مثلما ينسج العنكبوت خيوطه. وبالنسبة لهم، كان هذا القدر يوجهه هذا الوجود الذي يسميه البعض الملاك الحارس، أو على العكس من ذلك، كان يوجهه الإنسان الباطني النجمي الذي هو مألوف لنا أكثر، ولكنه ليس في كثير من الأحيان سوى الجني الشرير للإنسان الجسدي الشخصية. تهيمن هاتان الواقعتان على الإنسان، ولكن يجب أن تسود إحداها بالضرورة. ومنذ بداية الصراع غير المنظور فإن قانون التعويض والجزاء، الشديد والحتمي، يلعب دوره وينجز عمله باتباع تقلبات القتال. عندما يصبح الخيط الأخير منسوجاً، ويبدو الإنسان كما لو كان مغلفاً في الشبكة التي نسجها بنفسه، فإنه يخضع تماماً لتأثير هذا القدر الذي خلقه هو نفسه. ثم يقوم هذا الأخير بتثبيته مثل القشرة الخاملة على الصخرة التي لا تتغير، أو يحمله مثل الريشة، في زوبعة أثارتها أعماله الخاصة به].

هذا هو قدر الإنسان، الأنا الحقيقية - وليس الإنسان الآلي - الصَدَفة الفارغة التي نعتقدها أنها الإنسان. والأمر متروك له ليصبح الفائز في الأمر.

حول طبيعة ماناس المعقدة

سؤال: لكنك كنت تريد أن تخبرني بشيء عن الطبيعة الأساسية لماناس، والعلاقات القائمة بينها وبين سكاندا الإنسان الجسدي.

الثيوصوفي: هذه الطبيعة الغامضة والبروتينية والتي تتعالى عن كل إدراك وغير الواقعية تقريباً في علاقتها بالمبادئ الثانية، يصعب فهمها بل وحتى أن تفسيرها هو أكثر صعوبة. ماناس هي "مبدأ" ومع ذلك هي "كيان" وفردية أو إيغو. إنها "إله"، ومع ذلك فقد حُكم عليها بالمرور بدورة لا تنتهي من التقمصات: تتحمل المسؤولية لكلٍ منها، وتعاني من جراء كلٍ منها. كل هذا يبدو متناقضاً بمقدار ما هو محير، ومع ذلك هناك المئات من الناس، حتى في أوروبا، يدركون كل هذا بشكل مثالي، لأنهم يفهمون الأنا، ليس فقط في كليتها، بل أيضاً في جوانبها المتعددة. لكن إذا أردت أن يكون كلامي مفهوماً فيجب أن أبدأ من البداية وأن أعطيك باختصار علم الأنساب لهذه الإيغو.

سؤال: تفضل قل.

الثيوصوفي: حاول أن تتخيل "روحاً"، كائناً سماوياً - أيا كان الاسم الذي نسميه - إلهياً بطبيعته الأساسية، ولكن ليس نقياً بما يكفي ليكون واحداً مع "الكُل"، والذي يكون مجبراً لتحقيق ذلك، بتطهير طبيعته بما يكفي ليكون قادراً على تحقيق هذا الهدف النهائي. لا يمكنه القيام بذلك إلا عن طريق الذهاب بشكل فردي وشخصي - أي روحياً وجسدياً - من خلال كل

خبرة وكل إحساس موجود في الجوانب المتعددة للكون المتمايز. وبالتالي، بعد اكتساب هذه الخبرة في الممالك السفلية، وبعد الصعود أعلى وأعلى، بتسلقه كل درجات سلم الوجود، يجب أيضاً أن يجتاز كل خبرة على المستويات البشرية. حتى في جوهره، هو فكر، ويُطلق عليه، بالتالي، في مظهره الجماعي ماناسابوترا، وهذا يعني، "أبناء العقل الكوني". هذا هو "الفكر" الفردي الذي نسميه نحن الثيوصوفيين "الأنا الإنسانية الحقيقية"، الكائن المفكر المسجون في غلاف من اللحم والعظم. إنه بالتأكيد كيان روحي، وليس مادي على الإطلاق. مثل هذه الكيانات هي الأنيات التي يتم تجسدها من خلال تنشيط هذه المجموعة من المادة الحيوانية التي تسمى الجنس البشري، اسمهم هو ماناسا، أو "العقول". ولكن بمجرد أن يتم سجنهم أو تجسدهم فإن جوهرهم أو ماهيتهم تصبح مزدوجة، أي أنهم ككيان فردي، فإن اشعاعات العقل الإلهي والأزلي هذه، تتخذ لها سمة مزدوجة: (أ) خصائصها المتأصلة الأساسية، العقل الذي يصبو إلى السماء (ماناس العليا)، و (ب) قدرة التفكير البشري أو ملكة التعقل الحيواني، التي تعقلنت بفضل تفوق الدماغ البشري، ماناس السفلية التي تميل نحو كاما. تنجذب إحداها نحو بودهي، وتميل الثانية للأسفل، نحو مقر الأهواء والرغبات الحيوانية. هذه الأخيرة ليس لها مكان في ديفاخان ولا يمكنها الارتباط بالثالوث الإلهي الذي يرتقي كوحدة للدخول في الغبطة العقلية. ومع ذلك، فإن الأنا، الكيان الماناسي، هي المسؤولة عن كل خطايا الصفات الدنيا، تماماً كما يجب على الآباء تحمل مسؤولية الأخطاء التي يرتكبها طفلهم طالما أن هذا الأخير لا يزال غير مسؤول.

سؤال: وهذا "الطفل"، هل هو هذه الشخصية؟

الثيوصوفي: نعم. لكن عندما نقول إن "الشخصية" تموت مع الجسد، فإننا لم نقل كل شيء. الجسم، الذي كان يمثل فقط الرمز الموضوعي للسيد أ. أو السيدة ب.، يختفي مع كل "سكانداه" المادية، التي هي تعبيراته المرئية. لكن كل ما شَكّلَ، خلال الحياة، المجموعة المعقدة من الخبرات الروحية مثل الطموحات النبيلة، والعواطف التي لا تُفنى، وكذلك الطبيعة السمحاء للسيد أ. أو السيدة ب.، كل هذا يرتبط أثناء الفترة الديفاخانية بالإيغو التي تتماهى وتتوحد مع الجزء الروحي من هذا الكيان الأرضي، الذي مات الآن. الممثل قد تغلغل واندمج في الدور الذي لعبه للتو، لدرجة أنه يحلم به طوال الليل الديفاخاني، وتستمر هذه الرؤية حتى يحين الوقت ليعود إلى مشهد الحياة، للعب دور جديد.

سؤال: لكن كيف أن هذه العقيدة، التي تقول عنها أنها قديمة قدم الفكر الإنساني، لم تجد مكاناً في اللاهوت المسيحي، على سبيل المثال؟

الثيوصوفي: أنت مخطئ، لأنه هذا هو الحال، لكن اللاهوت شوهها لدرجة جعلها غير معروفة، مثل الكثير من العقائد الثانية. اللاهوت يدعو الأنا، الملاك الذي يعطينا إياه الله في وقت ولادتنا لرعاية روحنا. وخليقته المزعومة، هي التي يُكتَبُ عليها، عبر شعبذة ذهنية ولا أعجب، أن تتلظى في جحيم مادي

بدون أن تحترق أبداً[183]، في حين ينجو "الملاك" ويُعفى من الضرائب، بعد أن يطوي أجنحته البيضاء ويرطِّبها ببضع دمعات. أجل، تلك هي "أرواحنا المسعِفة"، "رسل الرحمة" الذين يُرسَلون لنا، كما يخبرنا الأسقف مانت:

... من أجل إيفاء الخير

لورثة الخلاص، من أجلنا ما فتئوا

يحزنون حين نخطئ، ويبتهجون حين نتوب...

ومع ذلك فمن الواضح تماماً أنه إذا طلبنا من جميع أساقفة العالم أن يحددوا مرة واحدة وإلى الأبد ما يفهمونه عن بمصطلح النفس ووظائفها، لعجزوا عن ذلك عجزهم عن إرشادنا إلى أية شبهة منطق في الإيمان القويم!

---

[183] **لأنها من "طبيعة أسبستوسية" (مادة مقاومة للاحتراق)، على حدِّ التعبير البليغ والملتهب لترتوليانوس إنكليزي حديث.**

وجود هذه العقيدة في إنجيل يوحنا

سؤال: يمكن لأولئك الذين يلتزمون بهذا الاعتقاد أن يجيبوا أنه حتى لو كانت العقيدة القويمة تهدد، من ناحية، الخاطئ غير التائب والمادي، بمعاناة كبيرة في جحيم حقيقي إلى حد ما فإنها تمنحهم، من ناحية ثانية، فرصة للتوبة، حتى في اللحظة الأخيرة. علاوة على ذلك، فهم لا يُعَلمون الفناء، أو ما يرقى إلى نفس الشيء، كفقدان الشخصية.

الثيوصوفي: إذا كانت الكنيسة لا تعلم مثل هذا الشيء، فإن الأمر مختلف مع يسوع، وهذا ليس أمر غير مهم، على الأقل بالنسبة لأولئك الذين يضعون المسيح في منزلة أعلى من المسيحية.

سؤال: لكن هل يُعَلم المسيح مثل هذه الأشياء؟

الثيوصوفي: نعم، يُعلِّم، كما سيخبرك أيٌّ عالِم غيبي ضليع في العلم أو حتى قبالي. يُعلِّم المسيح، أو الإنجيل الرابع على كلِّ حال، العَودة للتجسد، كما يعلِّم فناء الشخصية – بشرط أن تتناسى الحرف الميت وتتمسك بالروح الباطنية. تذكَّر الآيتين الأولى والثانية من الإصحاح الخامس عشر من إنجيل يوحنا. عن ماذا يتكلم المثل إن لم يكن يتكلم عن الثالوث الأعلى في الإنسان؟ آتما هو الكرَّام، والإيغو الروحية أو بودِّهي (كريستوس) هي الكرمة، في حين أن النفس الحيوانية والحيوية، أو الشخصية، فهي "الغصن": "أنا الكرمة الحق وأبي هو الكرَّام. كل غصن فيَّ لا يثمر يفصله... وكما أن

الغصن، إن لم يثبت في الكرمة، لا يستطيع أن يثمر من نفسه فكذلك أنتم لا تستطيعون أن تثمروا إن لم تثبتوا فيَّ. أنا الكرمة وأنتم الأغصان. من لا يثبت فيَّ يُلقَ كالغصن إلى الخارج فييبس، فيجمعون الأغصان ويلقونها في النار فتحترق[184].

دعنا الآن نفسِّر على هذا النحو: أما وأننا لا نؤمن بنيران جهنم التي يطيب للاهوت أن يراها مبطِّنةً للوعيد الموجَّه إلى الأغصان، نقول إن "الكرَّام" يعني آتما، رمز المبدأ اللانهائي اللاشخصي[185]، في حين تمثل الكرمة النفس الروحانية كريستوس، بينما يمثل كلُّ "غصن" تقمصاً جديداً.

سؤال: ولكن ما البراهين التي بحوزتكم لتأييد مثل هذا التأويل الاعتباطي؟

الثيوصوفي: إن في علم الرموز العالمي ضمانة على صحَّته وعلى كونه ليس اعتباطياً. يقول هرماس عن "الله" إنه "غرس الكرمة"[186]، أي خلق البشرية. وقد جاء في القبالة أن قديم القدماء أو "الوجه الطويل"، يغرس كَرْماً، حيث يرمز الكَرْم إلى البشرية، والكرمة تعني الحياة. لذا فقد جاء أن روح "المسيح الملك" تغسل ثيابها في الخمرة اللدنية، منذ خلق العالم[187]. والمسيح الملك هو الأنية المتطهرة بغسل ثيابها (أي

---

[184] إنجيل يوحنا 15: 1-6. (المترجم).

[185] أثناء تلقين الأسرار، كان كبير الكهنة الأقدسين، "الآب"، هو الذي يزرع الكرمة. ولكلِّ رمز سبعة مفاتيح للولوج إليه. أما الذي كان يُكاشَف بالملأ الأعلى فكان يدعى دوماً "أباً".

[186] Hermas, Le Pasteur, similitude V, 6 (N.d.T.).

[187] Zohar, comm. sur la Genèse (XL, 10).

شخصياتها في العَوْد للتجسد) في الخمرة اللدنية، أو بودِّهي. آدم، أو آ– دم هو "الدم". وحياة الجسد هي في الدم (نَفش النفس)، بحسب سفر اللاويين، الإصحاح 17[188]. وآدم كادمون هو الابن الوحيد. ونوح أيضاً يغرس كرمة[189] – التمهيد المجازي لبشرية المستقبل. وكنتيجة لتبنِّي المجاز نفسه نجده وارداً في المخطوطة النصرانية، حيث جاء ذكر سبع كَرْمات تُنسَلُ – هي ذرّياتنا السبع مع مخلِّصيها أو بوذاواتها السبعة – التي تنبت من إيوكَبَر–كسيفو، تسقيها فرهو (أو برشا) رابا[190]. وحين سيعرج المباركون بين مخلوقات النور سيبصرون إيافار– كسيفو، رب الحياة، والكرمة الأولى[191]. وهكذا فإن هذه الاستعارات القبالية تتكرر في الإنجيل بحسب القديس يوحنا (15: 1).

وليتنا لا ننسى أن الإيغو في المنظومة البشرية – وحتى وفقاً لأولئك الفلاسفة الذين يجهلون تقسيمنا السباعي – أو الإنسان المفكِّر، يُدعى الكلمة، أو ابن النفس والروح. فكما جاء في أحد المؤلفات الباطنية، "ماناس هي ابن الملك ...... والملكة.....

---

[188] الأصح هو: "لأن نفس الجسد هي في الدم ولذلك جعلته لكم على المذبح ليكفَّر به عن نفوسكم لأن الدم يكفِّر عن النفس." (الأحبار 17: 11) (منقول من ديمتري -المترجم).

[189] جاء في سفر التكوين 9: 20: "... رأيت كأن جفنة كرم بين يدي، وفي الجفنة ثلاثة قضبان، وكأني بها أفرعتْ وأقلعت ونضجت عناقيدها وصارت عنباً." نذكِّر أيضاً ببيت ابن الفارض الشهير: "شربنا على ذكر الحبيبِ مدامةً سَكِرْنا بها من قبل أن يُخلَقَ الكَرْمُ." (منقول من ديمتري المترجم).

[190] *Codex Nazaræus*, Vol. III., pp.60, 61.

[191] Ibid., Vol. II., p. 281.

بالتبنِّي" (المرادفان الباطنيان لآتما وبودهي). وإنه عند أفلاطون هو "الإله - الإنسان" الذي يصلب نفسه في الفضاء (أي دوام مدة دورة الحياة) من أجل افتداء المادة. وهو يقوم بذلك بالتجسد المرة تلو المرة، وبذلك يقود الإنسان قُدُماً نحو الكمال، فيخلي المجال للأشكال الدنيا لكي تتفتح على أشكال عليا. وهو لا يني في كلِّ حياة يطور نفسه ويساعد الطبيعة الجسدية على التقدم، وحتى حالة فقدانه العرضية والنادرة جداً لإحدى شخصياته، في حال كانت هذه الأخيرة خالية تماماً من شرارة واحدة حتى من الروحانية، تساعد في تقدمه الفردي.

سؤال: ولكن، إذا تم اعتبار الأنا مسؤولة عن أخطاء شخصياتها، فيجب أن تكون مسؤولة أيضاً عن خسارة، أو بالحري، الفناء الكامل لأحداهن.

الثيوصوفي: أبداً على الإطلاق، فقط إن لم تفعل شيئاً لتجنب هذا المصير المؤسف. ولكن، على الرغم من كل الجهود التي بذلتها، فإن صوتها، صوت ضميرنا، لا يستطيع اختراق جدار المادة، إذ ذاك فإن غلاظة هذه الأخيرة الناجمة عن الطبيعة الناقصة للمواد تصنَّف مع إخفاقات أخرى للطبيعة. يكفي الإيغو قصاصاً أنها تُحرَم من الديفاخان، ولاسيما اضطرارها إلى التجسد الذي يكاد يكون فورياً.

سؤال: إن هذه العقيدة القائلة بإمكان خسارة المرء نفسَه – أو شخصيته، كما تسمونها – هي ضد النظريتين المثاليتين لكلاً من المسيحيين والأرواحيين معاً، على الرغم من أن سويدنبرغ يتبناها إلى حدٍّ ما فيما يسميه بالموت الروحي. أما هم فلن يقبلوها أبداً.

الثيوصوفي: ليس لهذا أن يبدِّل واقعة في الطبيعة بأيِّ حال من الأحوال، إذا كانت واقعة فعلاً، أو يحول دون وقوعها من حين لآخر. فالكون، بكلِّ ما فيه، معنوياً كان أم ذهنياً، جسدياً، نفسانياً، أو روحياً، مبني على قانون مُحكَم التوازن والتناغم. وكما قيل أعلاه[192] ليس بإمكان القوة النازعة إلى المركز أن تتجلَّى في الدوران المتناغم للأجرام السماوية بدون القوة الطاردة من المركز، والأشكالُ جميعاً، كما وتدمها، هي نتاجٌ لهذه القوة المزدوجة في الطبيعة. أما الروح (أو بودهي) فهي القوة الروحية الطاردة من المركز، بينما النَّفْس (ماناس) هي الطاقة الروحية النازعة إلى المركز، وعليهما من أجل إحداث نتيجة واحدة، أن تكونا متحدتين ومتناغمتين اتحاداً وتناغماً كاملين. لنفترض أن حركة النفس الأرضية النازعة إلى المركز الذي يجذبها قد انقطعتْ أو تأذَّت، أو لنفترض أن عرقلةَ مادةٍ أثقل من أن تستطيع حملها، أو أثقل مما يليق بالحالة الديفاخانية، قد أوقفَتْ تقدُّمَها، عند ذلك، فإن تناغم الكل سوف يختل. إن الحياة الشخصية، أو ربما انعكاسها المثالي بالأصح لا يمكن أن تستمر إلا إذا أمدَّتْها القوةُ المزدوجة، أي الاتحاد الوثيق بين بودهي وماناسس في كلِّ عودة للتقمص أو في كلِّ حياة شخصية. إن أقل انحراف عن التناغم كفيل بالإخلال بها وحين تختلُّ بما لا رجعة فيه فإن القوتين تنفصمان لحظة الموت. ولا يطول الأمر بالصورة الشخصية (التي تُدعى كاما روبا أو مايافي روبا على حدٍّ سواء) – التي يلتحق برعمُها الشخصي بالإيغو في الحالة العادية، ويتبعها إلى ديفاخان

---

[192] Cf. édition originale anglaise, vol. I, pp. 318-9 (N.d.T.).

ويضفي على الفردية الدائمة لونَها الشخصي (مؤقتاً، إذا جاز التعبير) – أن تُسحَب لكي تمكث في كاما لوكا ولكي تفنى تدريجياً. فإن اللحظة المصيرية والحاسمة لا تأتي إلا بعد موت الفاسقين تماماً والمتجرّدين من كلِّ روحانية والأشرار الذين لم يعد بالإمكان افتداؤهم. فإذا أُحبِط المجهودُ الأخيرُ اليائسُ الذي تقوم به الذات الباطنية (ماناس) في أثناء الحياة لتشدَّ شيئاً من الشخصية إليها وإلى شعاع بودهِّي الإلهية الساطع، وإذا أجيز لهذا الشعاع أن يحتجب أكثر فأكثر عن قشرة الدماغ الجسدي التي تزداد كثافة، فإن الإيغو الروحانية أو ماناس، حالما تتحرر من الجسم، تبقى منقطعة تماماً عن جثمان الشخصية الأثيري وهذا الأخير، أو كاما روبا، إذ ينقاد لانجذاباته الأرضية، فإنه ينشدُّ إلى هادس[193] – الذي ندعوه الكاما لوكا – ويبقى فيه.

تلك هي "الأغصان اليابسة" التي ذكر يسوع أنها لم تثبت في الكرمة. غير أن الفناء ليس أبداً آنياً، وقد يستغرق إتمامُه أحياناً قروناً. على أن الشخصية تبقى هناك في صحبة بقايا أنيات شخصية أوفر حظاً، وتصير معها صَدَفَة وكينونة عنصرية.

وكما جاء في إيزيس مكشوفة النقاب، فإن هاتين الفئتين من "الأرواح" – الأصداف والكينونات العنصرانية – هي التي تؤدي دور "النجوم" الهادية على الخشبة الروحية لمسرح "التجسمات". وكن على ثقة من أنها ليست الأرواح الميتة هي التي تتقمص، لذا فإن قلة قليلة من هؤلاء "الراحلين الأعزاء" يعرفون شيئاً عن العودة للتقمص، وبذلك يضللون الأرواحيين.

---

[193] هادس عند القدماء ترمز لجهنم.

سؤال: لكن ألم تُتهم مؤلفة كتاب "إيزيس" بالتبشير ضد العودة للتقمص؟

الثيوصوفي: أجل، ولكن متهميها أناس أساؤوا فهم ما قيل. لدى وضع ذلك الكتاب لم يكن أحد من الأرواحيين يؤمن بالتقمص، لا الإنكليز منهم ولا الأمريكيين، وما جاء في الكتاب عن العودة للتقمص كان موجَّهاً ضد الأرواحيين الفرنسيين الذين لا تعادل نظريتُهم في لا فلسفيَّتها ولا معقوليَّتها إلا التعليم المشرقي في منطقيَّته وتماسك حقيقته. فالآخذون بالتقمص من مدرسة ألان كاردِك يؤمنون بالعودة للتقمص الاعتباطي والفوري. عندهم يمكن للأب الميت أن يتجسد في ابنته التي لم تولد بعد، وهلم جرا. ليس لديهم لا ديفاخان، ولا كارما، ولا أية فلسفة من شأنها أن تسوِّغ ضرورة الولادات الجديدة المتتالية أو تبرهن عليها. فكيف يمكن لمؤلِّفة إيزيس أن تحاجج ضد العودة الكارمية للتجسد، ذي الفواصل المديدة التي تتراوح بين 1000 و1500 سنة، وهذه العقيدة هي من معتقدات البوذيين والهندوس أساساً؟

الثيوصوفي: إذن فأنتم ترفضون نظريات الأرواحيين، فرنسيين وأنكلوساكسون، جملة وتفصيلاً؟

الثيوصوفي: ليس بمجملها، وإنما نرفض ما يتعلق بالمعتقدات الأساسية الخاصة بكلٍّ من الفئتين. كلتاهما تعوِّل على ما تقوله "أرواحهما"، وكلٌ منهما يعارض الثانية بمقدار ما نعارِض نحن الثيوصوفيين، كلتاهما. الحقيقة واحدة، وحين نسمع الأشباح الفرنسيين يبشِّرون بالعودة للتقمص، والأشباح الإنكليز ينفون هذه العقيدة ويندِّدون بها، نقول إن "الأرواح"

الفرنسية أو "الأرواح" الإنكليزية تهرف بما لا تعرف. أما نحن فنؤمن مع كلا الفريقين بوجود "أرواح"، أو كائنات غير مرئية تتمتع بكثير أو بقليل من الذكاء. ولكن، في حين أن أنواعها وأجناسها جوقة[194]، فإن خصومنا لا يقرُّون بوجود أرواح غير "الأرواح" البشرية المتجرَّدة من أجسادها التي تنتمي غالبيتها، على ما نعلم، إلى فئة الأصداف الكامالوكية.

سؤال: إنك تبدي الكثير من المرارة حيال الأرواح. فبما أنك بسطتَ لي وجهة نظركم والأسباب التي تحول دونكم والاعتقاد بتجسم الأرواح المتجرِّدة من أجسادها – أو "أرواح الموتى" – أو بإمكان الاتصال بها مباشرة في جلسات استحضار الموتى، هل لك أن تنيرني فيما يتعلق بواقعة ثانية أيضاً؟ لم لا يمل بعض الثيوصوفيين من الحديث عن مبلغ خطر التواصل مع الأرواح والوساطة الأرواحية؟ هل لديهم أسباب وجيهة تدعوهم لذلك؟

الثيوصوفي: نود أن نفترض ذلك. من جانبي عندي مثل هذه الأسباب. فنظراً لمعرفتي الجيدة، الممتدة على مدى نصف قرن، لهذه "المؤثرات" اللامرئية، إنما الملموسة بحيث لا سبيل إلى إنكارها، بدءاً من الكينونات العنصرانية الواعية والأصداف نصف الواعية، نزولاً حتى الأشباح عديمة الحس التي ليست لها صفة تُذكَر من كل الأنواع، أدَّعي بأن لوجهة نظري وزناً في هذا المجال.

---

194 استعارة من الإنجيل وردت فيه عند ذكر حادثة إخراج الشياطين من الممسوس (مرقس 4: 9)، وتعني: "كثيرة جداً". (المترجم).

سؤال: هل يمكنك أن تزودني بمثال أو بأمثلة تبيِّن لماذا يجب أن تُعتبَر هذه الممارسات خطرة؟

الثيوصوفي: يتطلب هذا من الوقت أطول مما في وسعي أن أخصِّص لك. على كلِّ سبب أن يُبَتَّ فيه بالنتائج التي تنجم عنه. فلتستعرِض تاريخ الأرواحية طوال الأعوام الخمسين الأخيرة، منذ عودتها إلى الظهور في هذا القرن في أمريكا واحكم بنفسك فيما إذا كانت قد جلبت على أتباعها خيراً أو ضرراً أكثر. أرجوك افهمني. أنا لا أهاجم الأرواحية الحقة، بل الحركة الحديثة التي تحمل ذلك الاسم، وتلك الفلسفة المزعومة التي اختُلِقَت لتعليل ظواهرهم.

سؤال: ألا تعتقد بوجود ظواهرهم على الإطلاق؟

الثيوصوفي: لأني أستند في اعتقادي بوجودها إلى أسباب أكثر من وجيهة، ولأني أعرف أنها – ما خلا بعض حالات الاحتيال المتعمدة– صحيحة صحة أننا نحيا أنت وأنا، ينفر كياني برمَّته منها. أكرِّر أنني لا أتكلم إلا على الظواهر الجسدية وحدها وليس على الظواهر الذهنية أو حتى النفسانية. الطيور على أشكالها تقع. أعرف شخصياً عدداً من الرجال والنساء المترفعين عن الدنيويات، الأنقياء، الأخيار، ممَّن صرفوا سنوات من حياتهم بإرشادٍ مباشر، وحتى حماية، من "أرواح" عليا، سواء متجردة من أجسادها أو كوكبية. لكن هذه العقول ليست من فئة جون كنغ وإرنست التي تظهر في غرف جلسات استحضار الأرواح. فهذه العقول العليا لا ترشد البشر وتقودهم إلا في حالات نادرة استثنائية، إذ تنجذب إليهم وتنشدُّ مغناطيسياً بفضل الماضي الكارمي للفرد. لا يكفي لجذبها

الجلوسُ "بانتظار ما سيجري!" فذلك لا يفتح الباب إلا لحشد من "الأشباح" – طيِّبها، شريرها، ولامباليها – التي يصبح الوسيط عبداً لها مدى الحياة. وإني لأرفع صوتي ضد مثل هذه الوساطة والخِلطة المشاعيتين مع القطارب[195] الخبيثة وليس ضد التصوف الروحي. فهذا شيء مشرِّف ومقدس، بينما الأوْليين من طبيعة الظواهر نفسها التي حُكِمَ من جرائها بالعذاب قبل قرنين على ذلك العدد الغفير من الساحرات والمشعوذين.

اقرأ غلانفل وغيره من المؤلفين ممَّن كتبوا في موضوع الشعوذة وستجد مدوَّنةً في كتاباتهم مثيلات غالبية – إن لم نقل كافة – الظواهر الجسدية لـ "أرواحي" القرن التاسع عشر.

سؤال: هل تشير إلى التلميح بأنها شعوذة ليس إلا؟

الثيوصوفي: ما أرمي إليه هو أن كل هذا التعامل مع الموتى واعياً كان أم غير واعٍ، هو استحضار للموتى، وهو ممارسة شديدة الخطورة. فقبلَ موسى بعصور كان مثل هذا الاستدعاء للأموات يُعتبَر لدى جميع الأمم الذكية أمراً شائناً وقاسياً بالنظر إلى أنه كان يقلق راحةَ النفوس ويعرقل تفتحها التطوري نحو حالات أرفع. ما انفكت الحكمة الجمعية للقرون الماضية قاطبة تندِّد بشدة بمثل هذه الممارسات. وأخيراً، سأقول لك ما لم أنِ أكرِّره شفاهاً وكتابةً طوال خمسة عشر عاماً: فعلى حين تهرف بعض "الأرواح" المزعومة بما لا تعرف، وتكرِّر – مثل الببغاوات – ما تجده في أدمغة الوسيط وغيره من الناس ليس

---

[195] فئة من "العفاريت" في التراث الشعبي الأوروبي. (مصطلح مستمد من ديمتري -المترجم).

غير، فإن بعضها الآخر شديد الخطورة، ولا يملك أن يوحي للمرء إلا الشر. هاتان واقعتان واضحتان. اذهب إلى حلقات ألان كاردِك الأرواحية تجدْ "أرواحاً" تصرُّ على صحة التقمص وتتكلم مثل كاثوليك رومان مطبوعين، ثم توجَّهْ إلى "الراحلين الأعزاء" في إنكلترا وأمريكا تسمعهم ينفون التقمص صراحة مندِّدين بمن يعلِّمونه، متمسِّكين بنظرات البروتستانتية. إن خيرة وسطائكم وأقدرهم عانوا جميعاً في صحة أجسامهم وأذهانهم. فكَّر في النهاية التعسة لتشارلز فوستر الذي قضى نحبه مجنوناً يهذي في مصحة للأمراض العقلية، فكَّر في سليد، المصروع؛ في إغْلِنتُن – خيرة الوسطاء في بريطانيا اليوم – الذي يكابد الداء عينه. تذكَّر حياة د. د. هوم، الرجل الذي كان ذهنُه ممتلئاً سخطاً ومرارة والذي لم يفُهْ قط بكلمة طيبة واحدة عن كلِّ من كان يشتبه في امتلاكه قدرات نفسانية وكان يسفِّه جميع الوسطاء الآخرين حتى مماته المرير. لقد عانى كالفن[196] الأرواحية هذا سنين طوال من داء شوكي رهيب، أصابه من جراء مخالطته للـ "أرواح"، ومات محطماً تماماً. فكَّر أيضاً في مصير المسكين واشنطن آيرفنغ بِشوب التعس. لقد عرفتُه في نيويورك، يوم كان في الرابعة عشر وكان وسيطاً، ما في ذلك ريب. صحيح أن الرجل المسكين احتال على "أرواحه"، فأطلق عليها تسمية "النشاط العضلي اللاواعي"، الأمر الذي هلَّلت له جميعُ هيئات المغفَّلين من

---

[196] إشارة إلى جان كالفن (1509-1564)، أحد أئمة المذهب البروتستانتي وناشر الكنيسة الإصلاحية في فرنسا وسويسرا، الذي عُرِفَ بتكفيره لأتباع المذاهب الأخرى كافة، والمقصود أن سلوك الوسيط المذكور في نطاق الأرواحية كان شبيهاً بسلوك كالفن في نطاق الدين. (المترجم).

متضلِّعين وعلماء والذي عبَّأ جيبه. ولكن اذكروا محاسن موتاكم[197] - كانت ميتتُه محزنة. لقد حرص جاهداً على إخفاء نوباته الصرعية – أول أعراض الوساطة الحقيقية وأشدها – ومن يدري إن كان ميتاً أو في غيبوبة حين عوين بعد "مماته". أقرباؤه يصرون أنه كان ما يزال حياً، إذا أخذنا برقيات وكالة رويترز على محمل التصديق. وأخيراً دونك الشقيقتين فوكس، المحنَّكتين بين الوسطاء، مؤسِّستي الأرواحية الحديثة ومحرِّكتيها الأوليين. فبعد أكثر من أربعين عاماً من التواصل مع "الملائكة"، جعلتهم هذه "الملائكة" مخبولتين لا أمل في شفائهما، تندِّدان الآن، في محاضرات علنية، بعمل وفلسفة حياتهما برمَّتها بوصفها خديعة. فهل لك أن تقول لي أيَّ ضرب من الأرواح كان ذاك الذي لقَّنهما؟

سؤال: أيكون استنتاجك هذا صائباً؟

الثيوصوفي: ماذا تستنتج من انهيار خيرة طلاب مدرسة معينة للغناء نتيجة إرهاق حناجرهم وتقرُّحها؟ لا بدَّ أنك سوف تستنتج أن النهج المتَّبع كان سيئاً. لذا أعتقد أن الاستنتاج منصف للأرواحية سواء بسواء حين نشاهد خيرة وسطائها واقعين فريسة مصير كهذا. ليس في وسعنا إلا أن نقول: فليبُتَّ المهتمون بالأمر في شجرة الأرواحية من ثمارها، وليتفكَّروا في العبرة. نحن الثيوصوفيين اعتبرنا الأرواحيين دوماً إخواناً لنا، لديهم ميولنا الصوفية عينها؛ أما هم فقد اعتبرونا دوماً أعداء. ولما كنا مؤتمَنين على فلسفة أعرق فقد حاولنا من جانبنا أن نساعدهم ونحذِّرهم؛ لكنهم جازونا بالشتم وبالطعن

---

[197] De mortuis nil nisi bonum.

فينا وفي دوافعنا بكل السباب الممكن. ومع ذلك فإن خيرة الأرواحيين الإنكليز تقول بما نقول به تماماً حيثما تناولوا معتقدهم تناولاً جدياً. اسمع م. أ. أوكسُن يعترف بهذه الحقيقة: "الأرواحيون مغالون في الميل إلى القول حصراً بتدخل أرواح خارجية في عالمنا هذا وإلى تجاهل قدرات الروح المتجسِّدة[198]". فلماذا يُطعَن فينا، إذن، ونسفَّه على قولنا بالشيء عينه بالضبط؟ من الآن فصاعداً لن يكون لنا دخل في الأرواحية، ولنعد الآن إلى التقمص.

[198] **Second Sight - Introduction.**

الباب الحادي عشر

أسرار التقمص

الولادات الدورية

سؤال: أنت تقول إذن، أننا جميعاً قد عشنا على الأرض من قبل، في العديد من التقمصات الماضية، وأننا سوف نواصل حياتنا على هذا النحو؟

الثيوصوفي: أجل. إن دورة الحياة، أو بالحري دورة الحياة الواعية، تبدأ بتمايز الحيوان البشري الفاني إلى جنسين وسوف تنتهي باختتام الجيل الأخير من البشر، في الدورة الكونية السابعة والجنس البشري السابع. وباعتبار أننا لسنا بعدُ إلا في الدورة الرابعة والجنس البشري الخامس، فإن تخيلها أسهل من التعبير عنها.

سؤال: ونحن نستمر في التقمص في شخصيات جديدة على الدوام؟

الثيوصوفي: بكل تأكيد نستمر، وذلك لأن دورة الحياة أو فترة التقمص هذه يمكن مقارنتُها بعمر الإنسان. فكما أن كلَّ عمر من هذه الأعمار مكون من نهارات من النشاط تفصل بينها ليالٍ

من النوم أو من التوقف عن النشاط، كذلك، في دورة التقمص تتبع العمرَ النشيطَ فترة راحة ديفاخانية.

سؤال: وهذا التوالي من الولادات هو الذي يُعرف به عموماً بوصفه التقمص؟

الثيوصوفي: نعم. لأن تقدم الملايين التي لا تُحصى من الأنيات نحو الكمال النهائي والراحة النهائية (لمدة تعادل مدة فترة النشاط) لا يتمُّ إلا عِبر هذه الولادات.

سؤال: وما الذي ينظم مدةَ هذه التقمصات أو خصائصها المتميزة؟

الثيوصوفي: إنها الكارما، قانون العدالة الجزائية الشامل.

سؤال: وهل هو قانون ذكي وعاقل؟

الثيوصوفي: المادي، الذي يعتبر قانون الدورية الذي ينظم تجميع الأجسام المختلفة، وسائر القوانين الأخرى في الطبيعة هي قوى عمياء وقوانين ميكانيكية، لا شك بأنه سيرى في الكارما قانون مصادفة، لا أكثر. أما في نظرنا، فلا يمكن لأيِّ نعت أو صفة وصف ذلك القانون اللاشخصي الذي هو ليس كياناً، بل قانون ساري المفعول وشامل. إذا سألتَني عن الذكاء السببي فيه، فلا بدَّ أنني سأجيبك بأني لا أعلم. لكنْ إذا سألتني أن أعرِّف آثاره وأن أخبرك بالمكانة اتي يشغلها في معتقداتنا فيمكن أن أقول إن خبرة آلاف العصور قد أظهرت لنا أنه العدل والحكمة والفطنة المطلقة السديدة. إذ إن الكارما، في آثارها هي المسدِّد المتواصل للظلم الإنساني ولكلِّ قصورات الطبيعة والمنظم والمعدِّل الصارم للأخطاء، القانون الجزائي الذي يثيب

ويعاقب بالقسط المتساوي. إنه، بالمعنى الأكثر تشدداً، "لا يحابي الأشخاص"، مع أنه، من جهة ثانية، لا يمكن استرضاؤه ولا تحييده بالصلاة. وهذا معتقد يشترك فيه الهندوس والبوذيون، الذين يعتقدون جميعاً بالكارما.

سؤال: العقائد المسيحية تناقض كلا الهندوس والبوذيين في هذا، وأشك في أن يقبل مسيحي واحد بهذا التعليم.

الثيوصوفي: أجل، وقد بيَّن "إنْمَن" السبب في ذلك منذ سنوات عديدة مضت. فعلى حدِّ قوله، بينما "يقبل المسيحيون بأي هراء، مادامت الكنيسة تعمِّمه بنداً من بنود الإيمان [...]، فإن البوذيين يذهبون إلى أن العقيدة الصحيحة لبوذا لا تقبل إلا ما يتوافق مع الحس السليم". إنهم لا يعتقدون بأية مغفرة لخطاياهم، إلا بعد عقاب ملائم وعادل على كلِّ فعل أو خاطرة شريرة في تقمص لاحق، وبعد تعويض مناسب للأطراف المتضرِّرة.

سؤال: وأين وردَ ذلك؟

الثيوصوفي: في غالبية كتبهم المقدسة. ففي عجلة الناموس (ص 57)[199] يمكنك أن تجد المبدأ الثيوصوفي التالي: "يعتقد البوذيون أن لكلِّ فعل أو كلمة أو خاطرة، عاقبة لا بد أن تظهر عاجلاً أو آجلاً، في الحالة الحاضرة أو في الحالة المقبلة. الأفعال الطالحة تُنتِج عواقب طالحة، والأفعال الصالحة تُنتِج

[199] H.A. Alabaster, Wheel of the Law (Roue de la Loi) Londres : Trübner & Co., 1871, p. 57 (N.d.T.).

نتائج صالحة: الازدهار في هذا العالم، أو الولادة في السماء (ديفاخان) [...] في الحالة المقبلة".

سؤال: ولكن المسيحيون يؤمنون بالشيء نفسه، أليسوا كذلك؟

الثيوصوفي: لا.. أبداً. إنهم يؤمنون بالغفران وبمغفرة الخطايا جميعاً. إنهم موعودون بأنهم إذا فقط آمنوا بدم المسيح (الضحية البريئة!)، بدمه المسفوح قرباناً وفداء منه عن خطايا البشرية جمعاء، فإنه سيتم التكفير عن كلِّ الخطايا المميتة. أما نحن فلا نعتقد بالتكفير بالنيابة أو بالوكالة، ولا بإمكانية أيِّ إله بمغفرة أصغر الخطايا، حتى لو كان إله "مطلق شخصي" أو "لانهائي"، إذا جاز لمثل هذا الشيء أن يوجد أصلاً. ما نعتقد به هو العدالة الصارمة المنصفة. وفكرتنا عن الألوهة الكلِّية المجهولة، متمثِّلةً في الكارما، هي قدرة معصومة عن الخطأ ولا يمكن، بالتالي، أن يشوبها غضب أو رحمة، إنما فقط الإقساط المطلق، الذي يترك كلَّ علَّة، عَظُمت أم صَغُرَت، تستنفد معلولاتها المحتومة. إن قول يسوع: "بالكيل الذي تكيلون به يُكال لكم" (متى 7: 2) لا يشير، لا تصريحاً ولا تلميحاً، إلى أيِّ أمل في رحمة أو خلاص مقبلين بالوكالة. لهذا فإننا، إذ نقرُّ في فلسفتنا بصحة هذه العبارة، لا يسعنا إلا أن نشدِّد بغير حدٍّ في التوصية على الرحمة والإحسان ومغفرة الإساءات المتبادلة. لا تقاوموا الشرَّ [يسوع] وكن بالخير للشرِّ قاهراً [بولس الرسول] هما وصيتان بوذيتان، وقد بُشِّر بهما أصلاً بالنظر إلى جبرية القانون الكارمي. إن تولِّي الإنسان للقانون، على كلِّ حال، لهو من قبيل الظنِّ التجديفي. فالقانون البشري يجوز له أن يتخذ تدابير مقيِّدة، لا قصاصية، إن أمرؤ، مع إيمانه بالكارما، يقتص

لنفسه ويرفض أن يغفر الإساءات، فيردُّ بذلك على الخير بالشر، هو مجرم ولا يؤذي إلا نفسه. فبما أن الكارما لا بدَّ لها أن تقتصَّ من المرء الذي أساء إليه، فإنه، بسعيه إلى إنزال عقوبة إضافية بعدوِّه، بدلاً من أن يترك ذلك العقاب للقانون الأعظم، مضيفاً إليه حصَّته الضئيلة، لا يولِّد من جراء ذلك إلا سبباً لثواب مقبل يناله عدوه وعقاباً مستقبلياً يطاله هو. إن هذا المعدِّل المعصوم يُحدِّد، في كل تقمص، نوعية التقمص التالي، الذي يتعيَّن بمجموع المزايا أو المثالب في التقمصات السابقة.

سؤال: هل لنا، إذن، أن نستنبط ماضي إنسان من حاضره؟

الثيوصوفي: أجل، لكنْ بمقدار ما نتأكَّد من أن حياته الحاضرة هي ما ينبغي عدلاً أن تكون عليه للتكفير عن خطايا الحياة الماضية. بالطبع – باستثناء الرائيين والحكماء الكبار – فإننا كبشر عاديين - لا نستطيع أن نعرف ماهية تلك الخطايا.

فكما أننا من قلة المعطيات التي في حوزتنا يتعذَّر علينا أن نعيِّن ما كان عليه شباب رجلٍ مسنٍ، كذلك لا نستطيع بالحري استخلاص نتائج ما كانت عليه الحياة الماضية لإنسان ما، من مجرَّد ما نراه من خلال حياته الحالية.

ماهي الكارما؟

سؤال: ولكن ما هي الكارما؟

الثيوصوفي: نحن، كما سبق أن قلت، نعتبره القانون الأسمى للكون، مصدر وأصل ومنبع كافة القوانين الثانية الموجودة في الطبيعة برمَّتها. الكارما هي القانون المعصوم الذي يوازن ما بين المعلول والعلَّة، على المستويات الجسدية والذهنية والروحية للكائن وللوجود. فبما أنه ما من سبب يبقي بدون نتيجة مترتبة عليه، من الأكبر إلى الأصغر، من خلل كوني نزولاً حتى حركة يدك، وبما أن العلل تولِّد معلولاتٍ من جنسها، فإن الكارما هي ذاك القانون الخفي المجهول الذي يوازن بحكمة وذكاء وإنصاف بين كلِّ نتيجة وسببها، مقتفياً أثر الأخير حتى صانعه. ومع أنه، بحدٍّ ذاته، غير قابل للمعرفة فإن فعله قابل للإدراك.

سؤال: ها هو إذن من جديد "المطلق"، "غير القابل للمعرفة" وهذا ليس بذي فائدة تُذكَر في تعليل مشكلات الحياة؟

الثيوصوفي: على العكس. فمع أننا لا نعرف ماهية الكارما بحد ذاتها، وفي جوهرها، فإننا نعرف حتماً كيفية عملها، ويمكننا أن نعرِّف طريقة عملها ونَصِفَها بدقة. غير أننا لا نعرف علَّتها القصوى، مثلما أن الفلسفة الحديثة تعترف عالمياً بأن العلَّة القصوى لأيِّ شيء "غير قابلة للمعرفة".

سؤال: وما الذي تقدمه لنا الثيوصوفيا لتلبية الحاجات الأكثر عملية للبشرية؟ ما هو التعليل الذي تقدِّمه أيضاً فيما يخص الشقاء الفظيع والعوز المدقع اللذين يسودان بين ما يُسمَّى بـ "الطبقات الدنيا"؟

الثيوصوفي: لنذهب للوقائع. وفقاً لتعاليمنا، فإن كافة هذه الشرور الاجتماعية الكبرى – التمييز الطبقي في المجتمع والتمييز بين الجنسين في شؤون الحياة، والتوزيع غير المتساوي لرأس المال والعمل – هذه كلُّها ناجمة عما نسميه اختصاراً ولكنْ صواباً، الكارما.

سؤال: ولكن حتماً أن هذه الشرور كُلها، التي تبدو وكأنها تنزل بالجماهير نوعاً ما كيفما اتفق وكأنها نتيجة الصدفة، لا تمثل بالمقدار نفسه الكارما الفعلية المستحَقة والفردية؟

الثيوصوفي: لا، لا يصح أن تُعرَّف هذه الشرور بهذه الصرامة في نتائجها، بحيث تبيِّن أن كلَّ بيئة فردية، وشروط الحياة الخاصة التي يجد كلُّ شخص نفسه فيها، ليست أكثر من الكارما الجزائية التي خلقها الإنسان في حياة سابقة. يجب أن نُبقي نُصْبَ أعيننا أن كلَّ ذرة خاضعة للقانون العام الذي يحكم الجسم برمَّته الذي تنتمي إليه تلك الذرة، وهنا نقع على السياق الأوسع للقانون الكارمي. ألا تدرك أن مجموع الكارما الفردية تصبح كارما الأمة التي ينتمي إليها أولئك الأفراد، وأكثر من ذلك، أن مجموع كارما الأمة هو كارما العالم؟ الشرور التي تتحدث عنها لا تخص الفرد وحده أو حتى الأمة، بل هي عالمية إلى حدٍّ ما. وضمن هذا المنظار الأوسع للتواكل البشري يجد قانونُ الكارما مخرجَه المشروع والممهَّد.

سؤال: هل يجب أن أفهم من ذلك، إذن، أن قانون الكارما ليس بالضرورة قانوناَ فردياً؟

الثيوصوفي: هذا ما أقصده بالضبط. لأنه يتعذر على الكارما أن تعيد تعديل توازن القوى في حياة العالم وتطوره إلى نصابه ما لم يكن يتصف بنهج عمل واسع وشامل. يعتبر الثيوصوفيين أن تواكل البشرية هو علَّة ما يسمَّى الكارما التوزيعية، وهو أمر صحيح. وهذا القانون هو الذي يقدِّم الحل لقضية الشقاء الجماعي الخطيرة والتخفيف عنه. وعلاوة على ذلك، فإن القانون الغيبي ينص على أن الإنسان الذي يتسامى على نقائصه الفردية لا يمكن إلا أن يرفع، ولو قليلاً، الجسد بأكمله الذي يُشَكل جزء لا يتجزأ منه. وعلى النحو نفسه، فإن الإنسان الذي يخطئ، أو يعاني نتائج الخطأ، لا يفعل ذلك وحده. ففي الواقع، لا وجود لشيء يدعى "الانفصالية"، وقوانين الحياة لا تجيز الاقتراب من تلك الحالة الأنانية إلا في حدود النيات أو الدافع.

سؤال: ألا توجد وسائل يمكن بها تركيز الكارما التوزيعية أو كارما الأمة أو تجميعها، إذا جاز التعبير، وسحبها إلى تحقيقها الطبيعي أو الشرعي بدون كلِّ هذا العذاب المتمادي؟

الثيوصوفي: كقاعدة عامة، وضمن حدود معينة يتصف بها العصر الذي ننتمي إليه، لا يمكن تسريع أو إبطاء تحقيق قانون الكارما. لكني متأكد من الأمر التالي: لم يتم أبداً بلوغ حدود الممكن في أيٍّ من هذين الاتجاهين. أستمع إلى السرد التالي لطور من أطوار العذاب القومي، ثم اسألْ نفسك، آخذاً بالحسبان القوة الفاعلة للكارما الفردية والنسبية والتوزيعية

عما إذا لم يكن بالإمكان تعديل هذه الشرور تعديلاً واسعاً والتخفيف عنها بشكل عام. ما أنا على وشك قراءته لك هو بقلم مخلِّصة وطنية، امرأة، إذ أنها انتصرت على الذات، وباتت حرة الاختيار، واختارت أن تخدم الإنسانية، حاملة على كاهليها على الأقل مقدار ما يستطيع كاهل امرأة أن يحمل من كارما الأمة. هذا ما تقول:

[أجل، إن الطبيعة تتكلَّم دوماً، ألا تعتقدون ذلك؟ – غير أننا أحياناً نثير من الضجيج ما يعلو على صوتها. لذا فمن المريح للغاية أن نخرج من المدينة ونستكنَّ برهة في أحضان الطبيعة - الأم. أتذكر أمسية في هامستِد هيث حيث تفرجنا فيها على الشمس وهي تغيب، ولكن! – على أيِّ عذاب وبؤس لم تغب عنه تلك الشمس! أحضرت لي سيدة بالأمس سلَّة كبيرة من الأزهار البرية. فكرت بأن بعض أفراد عائلتي في إيسْتْ إنْدْ كانوا أحق مني بها، وهكذا نزلت بها إلى مدرسة فقيرة جداً في وايتشابِل هذا الصباح. وليتك رأيت كيف أشرقتْ تلك الوجوه الصغيرة الشاحبة! ثم ذهبت لشراء طعام للعشاء لبعض الأطفال في مطعم صغير. كان موجوداً في شارع خلفي ضيق، مليئاً بأناس يتدافعون، وكانت تنبعث هناك رائحة نتنة لا توصف من سمك ولحم وأطعمة ثانية، وتعجُّ جميعاً في شمس وايتشابِل التي تقرِّح بدلاً من أن تطهِّر. كان المطعم خلاصة لكلِّ الروائح: فطائر باللحم بقرش واحد، كتل كريهة من "الطعام" ورفوف من الذباب – مذبح لبعلزبول[200] نفسه! وحوله أطفال يتقاتلون على الفتات، وكان أحدهم، ذو وجه كوجه ملاك، يجمع نوى الكرز بمثابة حمية خفيفة ومغذية. عدت غرباً، وكل عصبٍ فيَّ

[200] رئيس الشياطين في التراث اليهودي. (المترجم).

يرتعد مقشعراً، متسائلة عما إذا كان ثمة ما يمكن القيام به في بعض أحياء لندن غير ابتلاعها في زلزال وتجديد سكانها عن بكرة أبيهم، بعد تغطيسهم في نهر ليثي[201] ما، بحيث لا يبقى أثراً لذكرى! عندئذٍ فكرت في هامستِد هيث وبدأت في التفكير. لو استطاع المرء، بأعجوبة ما، أن يظفر بالقدرة على إنقاذ هؤلاء الناس، لما كان الثمن يستحق العدّ، لكن ألا ترون معي أن الناس هم الذين ينبغي أن يتغيّروا – فكيف يمكن تحقيق ذلك؟ في الظرف الذي يعيشون فيه الآن لن يستفيدوا من أية بيئة يمكن وضعهم فيها، غير أنهم، في محيطهم الحالي، لا بدَّ أن يستمروا في التفسخ. هذا البؤس الذي لا ينتهي، المقطوع الأمل منه، وهذا الانحطاط البهيمي، الذي هو ثمرته وجذره يحطم قلبي. إنه أشبه بشجرة البَنيان: كلٌّ غصن يتجذر ويطلق فروعاً جديدة. أي فرق بين هذه المشاعر والمشهد الهادئ في هامستد! ومع ذلك فنحن، أشقاء وشقيقات هذه المخلوقات المسكينة، ليس لدينا الحق في التمتع بأحياء مثل هامستِد هيث إلا لاكتساب القوة لإنقاذ أحياء من نحو وايتشابِل]. (بتوقيع اسم يتمتع بقدر من الاحترام والشهرة لا يجيز إعطاءه للساخرين).

سؤال: تلك رسالة حزينة لكنها جميلة، وأظنها تُقَدم تقديماً واضحاً للعيان كيفية العمل الرهيبة لما سمَّيتَه "الكارما النسبية والتوزيعية" ولكن، يا للأسف! لا يبدو أن ثمة أمل

---

[201] نهر "النسيان" في الأساطير اليونانية، مَن يسبح فيه يفقد ذاكرته. (المترجم).

قريب لأيٍّ تخفيف للمعاناة ما لم يحدث زلزال أو أي بلاء عام مماثل.

الثيوصوفي: بأي حق نفكِّر على هذا النحو، في حين أن بمقدور نصف البشرية أن تُحْدِثَ تخفيفاً فورياً للحرمان الذي يعاني منه رفاقهم؟ عندما يساهم كلُّ فردٍ في الخير العام بما في وسعه من مال، أو جهد، أو فكر نبيل، عندها، وعندها فقط سيعود ميزان الكارما القومي إلى نصابه – وحتى ذلك الوقت ليس لنا الحق ولا الصواب في القول إن هناك على الأرض حياة أكثر ممَّا في وسع الطبيعة أن تقوم بعمله. وإنه لمن نصيب النفوس البطولية، نصيب مخلِّصي قومنا وأمَّتنا، أن يجدوا علَّة هذا الضغط غير المتساوي للكارما الجزائية فينهضوا، بجهدٍ فائقٍ، لإعادة تعديل ميزان القوى وإنقاذ القوم من بلاء معنوي أشد كارثيةً وأكثر ديمومة وشراً بألف مرة من نظيرتها الكارثية المادية، والتي يبدو أنك ترى فيها المخرج الوحيد الممكن لهذا البؤس المتراكم.

سؤال: حسناً، قُلْ لي إذن، كيف تصفون قانون الكارما هذا على نحوٍ إجمالي؟

الثيوصوفي: نحن نصف الكارما بوصفها قانون إعادة التوازن الذي ينزع دائماً إلى إعادة التوازن المختل إلى نصابه في العالم الجسدي وإلى ترميم التناغم المقطوع والمختل في العالم المعنوي. نقول إن الكارما لا تعمل دائماً بهذه الطريقة أو تلك إنما بأنها تعمل فعلاً لكي ترمم التناغم وتحافظ على عدل التوازن، الذي بفضله يوجد الكون.

سؤال: أعطني مثالاً يوضح ذلك.

الثيوصوفي: سأقدم لك توضيحاً كاملاً لهذا في وقت لاحق. ولكن الآن تخيل بركة، وافترض أن الحجر الذي يسقط في الماء يثير أمواج تسبب اضطراب على سطحه. تتحرك هذه الموجات بعيداً عن نقطة تأثير السقوط، وتعود إليها، عن طريق التناوب المتعاقب، إلى أن تمتصها أخيراً وفقاً لما يسميه الفيزيائيون قانون تبدد الطاقة، وبعد ذلك يعود الماء إلى هدوئه المعتاد. وبالمثل، فإن أي عمل، على جميع المستويات، يسبب اضطراب في وئام الكون المتوازن.

إن الاهتزازات الناتجة - على افتراض أنها تحدث في حقل محدود - ستواصل حركتها ذهاباً وإياباً، حتى يتم استعادة التوازن. كل هذه الاضطرابات تبدأ من نقطة معينة، لذلك من الواضح أنه لا يمكن استعادة التوازن والانسجام إلا من خلال العودة إلى نفس النقطة لجميع القوى التي تم وضعها بالحركة وهذا دليل على أن جميع عواقب ما يمكن للإنسان أن يفعله نتيجة تصرفاته وأفكاره وما إلى ذلك، يجب أن تتفاعل على الإنسان نفسه بنفس القوة التي عملت على توليدها.

سؤال: لكني لا أرى شيئاً أخلاقياً في هذا القانون. بالنسبة لي تبدو الصيغة مطابقة لهذا القانون الفيزيائي البسيط الذي يضمن أن الفعل ورد الفعل متساويان ومتعاكسان.

الثيوصوفي: ما تقوله لا يفاجئني، لذا فإن الأوروبيين لديهم عادة راسخة في التفكير في العادل والظالم والخير والشر كمادة لمدونة أخلاقية تعسفية، أنشأها البشر، أو فُرِضت عليهم من قبل إله الشخصي. نحن الثيوصوفيين، مع ذلك، نقول إن مصطلحي "الخير" و "الوئام"، وكذلك "الشر" و "التنافر"

هي مرادفات، على التوالي. علاوة على ذلك، نؤكد أن الألم والمعاناة هما نتيجة عدم الانسجام، وأن السبب الرهيب الوحيد الذي يزعج الانسجام هو الأنانية بشكل ما. وهكذا، فإن الكارما تنزل على كل إنسان العواقب الحقيقية لأفعاله، بمعزل عن خاصيتها المعنوية والأخلاقية.

ولكن نظراً لأنه يتلقى ما هو يستحقه على كل شيء، فمن الواضح أن الكارما ستجعله يكفر عن كل المعاناة التي كان قد سببها بنفسه، تماماً كما سيحصد في فرح وسرور القلب، ثمار كل السعادة والتناغم الذي ساعد على تحقيقه. لم يكن بإمكاني القيام بعمل أفضل مما فعلت، لتنويرك بهذا الموضوع، بدلاً من اقتباس مقتطفات معينة مأخوذة من كتب ومقالات كتبها ثيوصوفيون - أولئك الذين لديهم على الأقل فكرة صحيحة عن الكارما.

سؤال: ليتك تفعل، بما أن أدبياتكم تبدو صامتة وضئيلة جداً بخصوص هذا الموضوع.

الثيوصوفي: ذلك لأنها من أصعب عقائدنا جميعها. منذ وقت قصير ظهر الاعتراض التالي بقلم أحد المسيحيين:

[لنفترض أن التعليم الثيوصوفي صحيح، وأن "على الإنسان أن يكون مُخَلص نفسه، وأنه يتوجب عليه أن يتغلَّب على النفس وينتصر على الشر الذي في طبيعته المزدوجة، من أجل أن ينال انعتاق نفسه"، ماذا يتعين على الإنسان أن يفعل بعد أن يصحو ويبتعد إلى حدٍّ ما عن الشرِّ والإثم؟ كيف له أن يحصل على الانعتاق، أو المغفرة، أو محو الشر أو الإثم الذي سبق أن ارتكبه؟].

يقدِّم السيد ج. هـ. كونلي جواباً صائباً، مفاده أنه ما لأحَدٍ أن يأمل في "جعل القاطرة الثيوصوفية تسير على السكة اللاهوتية" فعلى حدِّ قوله:

[إن إمكان التملُّص من المسؤولية الفردية ليس من مفاهيم الثيوصوفيا. ففي هذه العقيدة ليس ثمة شيء نظير المغفرة أو "محو الشرِّ أو الإثم اللذين سبق ارتكابهما"، اللهم إلا بالعقاب المناسب لمرتكب الخطيئة إياها وبترميم التناغم في الكون الذي تخلخل من جراء ذلك الفعل الآثم. لقد كان الشر شرَّه، وبينما يتعيَّن على آخرين أن يعانوا من عواقبه فإن التكفير لا يتم إلا على يده هو].

إن الحالة المنظور فيها (...) والتي يكون المرءُ فيها قد "صحا وابتعد إلى حدٍّ ما عن الشرِّ أو الإثم" هي الحالة الذي يكون المرء فيها قد أدرك أن أفعاله شريرة وتستحق العقاب. في ذلك الإدراك يسود حتماً الحس بالمسؤولية الشخصية، وحس المسؤولية المروِّعة تلك تتناسب تماماً مع مدى صحوته أو "تحوله عن الشر". وبينما يشتد عليه هذا الحس يُحَثُّ على قبول عقيدة التكفير بالنيابة.

ويقال له بأنه يجب أيضاً أن يتوب – وما من شيء أيسر من ذلك. ذلك أنه من خصائص ضعف الطبيعة البشرية أن نميل بالضبط إلى الندم على الشر الذي ارتكبناه عندما يُلفَت انتباهنا إليه، بعد أن نكون قد عانينا منه نحن أو تمتعنا بثماره. ولعل تحليل هذا الشعور عن كثب يبيِّن لنا أن ما نندم عليه هو بالحري الضرورة التي بدا أن الشر يتطلَّبها كوسيلة لبلوغ مآربنا الأنانية، لا الشر نفسه.

مهما بدا مغرياً منظورُ طرح وزر آثامنا "عند أسفل الصليب" هذا للذهن العادي فإنه لا يزكِّي نفسه في نظر الطالب الثيوصوفي. فهو لا يفهم لماذا يمكن للخاطئ، ببلوغه معرفةَ شره، أن يستحق أية مغفرة على إثمه الماضي أو أيَّ محوٍ لذلك الإثم، أو لماذا تؤهِّله التوبة أو السلوك المقبل القويم لتعليق قانون الارتباط بين السبب والنتيجة الكوني من أجله. فنتائج أفِعاله الشريرة ما تزال موجودة، والمعاناة التي تسببتْ فيها آثامُه للآخرين لم تُمح. الطالب الثيوصوفي يأخذ نتيجة الإثم في حقِ الأبرياء في حسبانه، إنه لا يعتبر الشخص المذنب وحسب، بل وضحاياه أيضاً.

الشر هو انتهاك لقوانين التناغم التي تحكم الكون، والعقاب الناجم عنه يجب أن ينزل بمنتهك ذلك القانون نفسه.

لقد حذر المسيح بالقول: "اذهب ولا تخطئ ثانية لئلا تصاب بأسوأ" وقال القديس بولس: "اعملوا من أجل خلاصكم. ما يزرعه المرء إياه يحصد".

وذلك، للمناسبة، هو صياغة مجازية بديعة لعبارة البورانا الأقدم بكثير من الإنجيل – ومفادها أن "كلَّ إنسان يحصد عواقب أفعاله".

هذا هو مبدأ قانون الكارما الذي تُعلِّمه الثيوصوفيا. والسيد سينِّتّ، في كتابه البوذية الباطنية، وَصَفَ قانون الكارما بكونه "قانون السببية الأخلاقية". و"قانون الجزاء"، كما تترجم السيدة بلافاتسكي معناه، أفضل. إنه القوة التي:

مع أنها غامضة، تقودنا قُدُماً بشكل حتمي

عبر دروب لا تخطر بالبال من الذنب إلى العقاب.

لكنه أكثر من ذلك. إنه يكافأ المزايا بمقدار الحتمية والسعة التي يعاقب عليها المثالب. إنه نتاج كلِّ فعل وخاطرة وكلمة وتصرف، به يقولب البشرُ أنفسَهم وحيواتِهم وخبراتِهم. إن الفلسفة الشرقية ترفض فكرة نفس جديدة مخلوقة من أجل كل مولود جديد. إنها تعتقد بوجود عدد محدد من الموناد، تتطور وتنمو باطرادٍ كمالاً عبر استيعابها للعديد من الشخصيات المتتالية. وهذه الشخصيات هي نتاج الكارما، وبفضل الكارما والتقمص تعود الموناد الإنسانية مع الزمن إلى مصدرها الأولي – الألوهة المطلقة.

وفي كتابه التقمص يقدِّم إ. د. ووكر التعليل التالي:

[[عقيدة الكارما، بإيجاز، تنص على أننا صنعنا أنفسنا على ما نحن عليه الآن بأفعالنا السابقة، وعلى أننا نبني أبديَّتنا المقبلة بأفعالنا الحالية. ما مِن قَدَرٍ غير الذي نعيّنِه نحن بأنفسنا. ما مِنْ خلاص أو دينونة إلا التي نقدِّرها نحن على أنفسنا (...). ولأنها لا تقدّمِ أية حماية للأفعال المذنبة وتتطلب رجولة خالصة، فإن ترحيب الطبائع الضعيفة بها أقل من ترحيبها بالمذاهب الدينية اليسيرة، من نحو التكفير بالنيابة، والشفاعة والمغفرة، والاهتداء على فراش الموت (...). ففي مجال العدالة الأبدية، يرتبط الأذى والعقاب ارتباطاً لا تنفصم عراه بوصفهما الحَدَثَ نفسه، لأنه ليس ثمة تمييز فعلي بين الفعل

ونتيجته (...). إن الكارما، أو أفعالنا القديمة، هو الذي يشدُّنا من جديد إلى الحياة الأرضية. ومقام الروح يتغير بحسب كرماها، وهذه الكارما تُحرِّم أية استمرارية مطوَّلة في حالة واحدة، لأنها تتغير فعلاً على الدوام. فمادام الفعل محكوماً بدوافع مادية وأنانية فإن نتيجة ذلك الفعل يجب أن تتجلَّى في العودة الجسدية إلى الولادة بالدوام نفسه. وحده الإنسان الخالص من الأنانية تماماً يستطيع أن يتملَّص من جذب الحياة المادية. لم يبلغ ذلك إلا الصفوة، لكنه غاية الإنسانية]].

ثم يقتطف الكاتب هذه الفقرة من كتاب العقيدة السرية:

[[الذين يعتقدون بالكارما ينبغي أن يعتقدوا بالقَدَر الذي يحوكه كلُّ إنسان حول نفسه، من الولادة حتى الممات، خيطاً خيطاً مثلما يحوك العنكبوت شباكه. وهذا القَدَر مقاد إما بالصوت السماوي للنموذج الأولي غير المرئي خارجنا، أو بإنساننا النجمي أو الباطني الألصق بنا، والذي غالباً ما يكون الجنِّي الشرير للكيان المتجسِّم الذي يُدعى إنسان. كلاهما يقود إلى الإنسان الظاهري، لكن أحدهما ينبغي أن يهيمن، ومنذ بداية هذه المعركة غير المرئية، يتدخل قانون التعويض الصارم والجبري ويتخذ مساره، متابعاً عن كثب تقلُّبات المعركة.
وعندما يحاك آخرُ الخيوط، ويبدو المرء وكأنه مغلَّف بالشبكة التي صنعها بنفسه، إذ ذاك يجد نفسه خاضعاً تمام الخضوع لسلطان هذا القَدَر الذي صنعه بنفسه (...). أما عالِم الغيبيَّات أو الفيلسوف فلن يتكلَّم عن طيبة العناية الإلهية أو قسوتها بل مطابقاً بينها وبين كارما– نميسيس[202]، وسوف يعلِّم بأنه، في

---

[202] نميسيس، إلهة الثأر عند قدماء الإغريق. (المترجم).

كلِّ حال، يصون الصالحين ويتكفل برعايته في هذه الحياة وفي الحيويات المقبلة، وأنه يعاقب الآثم – أجل، حتى ولادته الجديدة السابعة – مادام، بإيجاز، أثرُ تَسبُّبِه في خلخلة أصغر ذرة في عالم التناغم اللانهائي حتى يتم بالنهاية اعادة التوازَن. إذ إن حكمَ الكارما الأوحد – وهو حكم أبدي سرمدي– هو التناغم المطلق في عالم المادة، مثلما هو الأمر في عالم الروح. لذا فإنه ليس قانون الكارما الذي يثيب أو يعاقب، بل نحن الذين نثيب أنفسنا أو نعاقبها بحسب ما إذا كنَّا نعمل مع الطبيعة، من خلالها، ومعها، ممتثلين للقوانين التي يتوقف عليها ذلك التناغم، أو منتهكين إياها. وما كان لطرق الكارما أن تصبح عصية على الفهم لو أن البشر عملوا متحدين متناغمين، لا متفرقين متنافرين.

إذ إن جهلنا لتلك الطرق – التي يدعوها فريق من البشر طرق العناية المظلمة والمعقدة بينما يرى فريق آخر فيها فعلَ الجبرية العمياء، وفريق ثالث مصادفة محضة، بلا آلهة ولا شياطين يقودونها – سيختفي ببساطة إذ نَسبنا هذه كلَّها إلى علَّتها الصحيحة فقط (...). نحن نقف محتارين أمام لغز صنعتنا وأحاجي الحياة التي لا نطيق حلَّها، ثم نتهم أبو الهول[203] العظيم بافتراسنا. لكن الحقَّ أنه ليست ثمة حوادث في حياتنا ولا يوم مكروه، أو فأل سيئ، إلا ويمكن اقتفاء أثره

---

203 كائن جسمه جسم لبؤة ورأسه رأس امرأة. هو وحش طيبة في أسطورة أوديب الإغريقية الذي يطرح على المارة أحجية ويفترسهم إذا لم يتمكَّنوا من حلِّها: "ما هو الكائن الذي يدبُّ على أربعة في طفولته ويسير على اثنتين في منتصف عمره، ويسير على ثلاثة في شيخوخته؟" (المترجم).

حتى أفعالنا نحن في هذه الحياة أو في حياة ثانية (...). وقانون الكارما وشيج الحياكةِ مع قانون التقمص بما لا فكاك منه (...). وحدها هذه العقيدة يمكنها أن تُفَسر لنا مشكلة الخير والشر الغامضة، وتُصالح الإنسان مع ظلم الحياة الظاهري الرهيب. لا شيء غير يقين كهذا من شأنه أن يهدِّئ من روع احساسنا المتمرِّد بالعدالة.

إذ إنه حين ينظر إنسان غير مُطَّلع على هذه العقيدة النبيلة من حوله ويرصد التفاوت في الولادة والحظوظ، في العقل والإمكانيات، وعندما يرى الأمجاد تنهمر على الحمقى والفاسقين، الذين أمطر عليهم الحظ أفضاله بمجرد امتيازهم بالنسب العائلي، ويرى جارهم، بما يتمتع به من عقل راجح وفضائل نبيلة – الأكثر استحقاقاً من كلِّ وجه – يهلك من العوز ومن نقص العطف – عندما يرى المرء هذا كلَّه ويضطر إلى التولِّي، عاجزاً عن التخفيف والمواساة عن المعاناة غير المستحَقَّة، وأذناه تطنَّان وقلبه يدمى من صراخ الألم من حوله – فإن معرفة الكارما المباركة تلك وحدها تحول بينه وبين لعن الحياة والبشر، وكذلك خالقهم المفترَض (...). هذا القانون سواء كان واعياً أو غير واعٍ، لا يقدِّر شيئاً ولا أحد تقديراً مسبقاً. إنه موجود حقاً منذ الأَبدية وفيها، إذ أنه هو الأبدية نفسها، وهو، بهذه المثابة، بما أنه ليس ثمة فعل يتساوى مع الأبدية، لا يصح أن يُقال بأنه يفعل، بل هو الفعل نفسه.

إنه ليس الموجة التي تُغرِق الإنسان، بل الفعل الشخصي لذلك المسكين الذي يمضي عن قصدٍ ويضع نفسه تحت طائلة الفعل اللاشخصي للقوانين التي تحكم حركة المحيط. الكارما لا تخلق شيئاً والقانون الكارمي ينظم النتائج – باعتبار هذا التنظيم

ليس فعلاً، بل هو التناغم الكلّي، الذي ينزع دائماً إلى العودة إلى نصابه الأصلي، مثل غصن، إذ يُحنى قسراً، فيرتد بقوة مكافئة. فإذا اتفق له أن يخلع الذراع التي حاولت أن تثنيه عن وضعه الطبيعي، هل نقول إن الغصن هو الذي كسر ذراعنا، أم أن حماقتنا نحن هي التي تسببت في ضررنا؟ لم تسعَ الكارما قط لتدمير الحرية العقلية والفردية، مثل الإله الذي اخترعه أهل التوحيد. وهو لم يدبِّر أحكامه في الظلمة عن قصد لكي يحيِّر الإنسان، ولن يعاقب مَنْ يجرؤ على تقصّي أسراره. على العكس، إن من يكشف، عبر الدراسة والتأمل، دروبه الشائكة ويلقي ضوءاً على تلك الطرق المظلمة، التي يهلك في تعرجاتها كلُّ هذا العدد من البشر من جراء جهلهم لمتاهة الحياة، يعمل من أجل خير رفاقه البشر. الكارما هو قانون مطلق وأبدي في عالم التجلِّي، وبما أنه لا يمكن أن توجد إلا علَّة مطلقة واحدة، علَّة أبدية واحدة، حاضرة أبداً، فإن المعتقدين بالكارما لا يجوز اعتبارهم ملحدين أو ماديين، وأقل من ذلك جبريين وقدريين، إذ إن الكارما هو واحد مع غير القابل للعلم، الذي هو مظهر من مظاهره، في آثاره في عالم الظواهر والتجليات]].

وتقول كاتبة ثيوصوفية قديرة ثانية (غاية الثيوصوفيا، للسيدة ب. سينِّتّ):

[كلُّ فرد يصنع كارماه، إما صالحة وإما طالحة، في كلِّ فعل وخاطرة في حياته اليومية؛ وهو، في الوقت نفسه، يستنفد في هذه الحياة الكارما الناتجة من أفعال الحياة السابقة ورغباتها. عندما نرى أناساً يعانون من أمراض منذ ولادتهم، يحق لنا أن نفترض، بدون أي هامش من الغلط، بأن هذه الأمراض هي

النتائج الحتمية لأسباب خلقوها في ولادة سابقة. قد يناقشنا أحدهم بأن هذه المصائب، بما أنها وراثية، فإنها لا تمت بصلة إلى تقمصٍ ماضي، ولكن ينبغي علينا أن نتذكر أن الإيغو أو الإنسان الحق، أو الفردية، ليس لها أصل روحي في الوالدين اللذين تتجسد من خلالهما من جديد، بل تنشدُّ إلى التجانسات التي نسجتها أنماط حياتها السابقة من حولها في التيار الذي يحملها، عندما يحين وقت الولادة من جديد، إلى البيت الأكثر ملاءمة لتفتُّح تلك الميول (...). عقيدة الكارما هذه، عندما تُفهَم بشكل صحيح، تكون مصمَّمة جيداً لتقود أولئك الذين يدركون حقيقتها إلى نمط حياة أرقى وأفضل وتساعدهم، إذ إنه يجب ألا ننسى أن خواطرنا أيضاً، وليس أفعالنا فقط، تكون متبوعة بكل تأكيد بحشد من الظروف لا بد أن تؤثر، خيراً أو شراً، في مستقبلنا، والأهم من ذلك، مستقبل العديد من رفاقنا من المخلوقات. فلو كانت خطايا السهو والتفويض، على نحوٍ ما، تخصنا نحن وحدنا فقط، لكان أثرها على كارما الخاطئ سيكون طفيف العواقب. إن واقع أن كل خاطرة وفعل عبر الحياة يحمل في ثناياه، صلاحاً أو طلاحاً، تأثيراً من جنسه على أعضاء آخرين من الأسرة الإنسانية يجعل حساً صارماً من العدالة، والمناقب، وعدم الأنانية، ضروري من أجل السعادة أو التقدم المقبلين. إن ارتكاب جريمة، أو انطلاق خاطرة شريرة من الذهن، حالما يتم، لا رجعة فيه – ولا يمكن لأيِّ مقدار من التوبة أن يمحو نتائجه في المستقبل. التوبة، إذا كانت صادقة ستردع المرء عن تكرار الأغلاط، لكنها لا تستطيع أن تنجيه أو تنجي غيره من نتائج الأغلاط التي سبق أن ارتُكِبَت والتي ستلاحقه لا محالة إما في هذه الحياة أو في الولادة الجديدة التالية].

ويتابع السيد ج. هـ. كونلي:

[إن المعتقدين بدين قائم على عقيدة كهذه، هم على استعداد تام لمقارنتها بدينٍ آخر يكون فيه قَدَرُ الإنسان إلى الأبد محدداً بحوادث عمر أرضي وجيز واحد، يرافقه في أثنائه وَعْدُ "حيثما تسقط الشجرة، هناك سوف تلبث"، دين تكون فيه أبهى آماله، عندما يصحو على معرفة خطأه، عقيدةُ التكفير بالنيابة والوكالة، وفيه تكون حتى هذه العقيدة مقيَّدة، بحسب قانون إيمان الكنيسة البروتستانتية. بأمر من الله، من أجل ظهور مجده، بعضُ البشر والملائكة مقدَّر عليهم مسبقاً الحياة الأبدية، فيما بعضُهم الآخر مقضيٌّ عليهم مسبقًا بالموتُ الأبدي وهؤلاء الملائكة والبشر، المقدَّر والمقضي عليهم مسبقاً مكوَّنون بصفة خاصة لا تبديل لها، وعددهم مؤكد ومعيَّن بحيث إنه لا يمكن له لا أن يزداد ولا أن ينقص (...). وبما أن الله اصطفى المختارين لمجده (...) فما مِنْ أحَدٍ مفتدى بالمسيح، مدعو، مبرَّر، متبنًّى، متقدِّس، ومخلَّص فعلياً، غير المختارين فقط، أما بقية البشرية فقد حلا له، بحسب تدبير مشيئته التي لا يُسبَر لها غور، أن يهب الرحمة لها أو يمسكها كما يحلو له، لمجد سلطانه المطلق على خلقه، أن يجوز عنهم ويكتب عليهم الخزي والغضب على خطاياهم تسبيحاً لعدله الفائق].

هذا ما يقوله المبشر الضليع القدير. وأفضل ما نختتم به الموضوع، على مثاله، هو مقتطف من قصيدة رائعة. إذ يقول السيد ج. هـ. كونلي:

إن الجمال البديع لعرض إدوِنْ أرنولد للكارما في قصيدة بكتاب نور آسيا[204]، يحدوني إلى إيرادها هنا، لكنها أطول من أن نوردها بكليتها. فهاك مقتطفات منها:

الكارما– تلك النفس في كلِّيتِها

وهي الأشياء التي فَعَلَتْ، والخواطر التي انتابتها

"الذات" التي حاكتْها بلحمة الزمان غير المنظور

متقاطعة مع سداة الأفعال غير المرئية.

قبل البداية وبلا نهاية

كالفضاء أزليَّة، واثقةً كاليقين

تثبُتُ قدرةٌ إلهية تدفع إلى الخير

ووحدها قوانينُها تدوم.

لا أحد يزدريه

مَنْ يعصَه يخسر، ومن يخدمه يكسب

---

[204] قصيدة طويلة رائعة يروي فيها الشاعر سيرة حياة البوذا سيدهارتا غوتاما. (المترجم).

والخير الخفي يكافئه بالسلام والغبطة

والشر الخفي بالأوجاع.

يرى كلَّ شيء، ولا شيء يخفى عليه

-افعل الصواب - يكافئك! افعل غلطاً واحداً

يَنزِلْ بك قصاصُه العادل

حتى لو أخَّره دهارما طويلاً.

لا يعرف غضبًا ولا مغفرة، بما هو الحقيقة التامة

تدابيره معصومة، وميزانه المقسّط يزن

الزمن عنده ليس بشيء، في وسعه أن يحكم غداً

أو بعد أيام عديدة.

هو القانون الذي يقود إلى البِرّ

الذي ليس بمقدور أحدٍ أخيراً أن يحوِّل مجراه أو يوقِفَه

لبه هو المحبة، غايته

هي السلام والتحقيق الحلو. أطِعْه[205]

والآن أنصحك بمقارنة نظرتنا الثيوصوفية في الكارما، قانون الجزاء، والحكم فيما إذا لم تكن أكثر فلسفية وعدالة من هذه العقيدة الجامدة، القاسية والحمقاء، التي تختزل "الله" إلى عفريت أبله – من ذلك المذهب الذي ينص أن "المختارين وحدهم" سيُكتَب لهم الخلاص، بينما يُقضى على البقية بالهلاك الأبدي!

سؤال: نعم، أفهم ما ترمي إليه بشكل عام، ولكني أتمنى عليك أن تعطيني مثالاً عيانياً ما، على عمل الكارما.

الثيوصوفي: هذا ما لا أستطيع أن أفعله. الشيء الوحيد الذي في وسعنا أن نتيقن منه، كما سبق وأن قلت، هو أن حيوياتنا وظروفنا الحالية هي النتائج المباشرة لأفعالنا وخواطرنا في حيويات قد مضت. لكنْ نحن – باعتبارنا لسنا لا رائين ولا مُسارَرين – ليس في وسعنا أن نعرف شيئاً عن تفاصيل عمل قانون الكارما.

سؤال: هل يستطيع أحد، حتى لو كان حكيماً أو رائياً، أن يتتبع سيرورة إعادة التوازن الكارمية هذه بالتفصيل؟

---

[205] السير إدوين أرنولد، كتاب نور آسيا أو التجرد العظيم (ماهابهينيشكريمانا). لندن: تروبنير، 1879. مقتطفات من الكتابين السادس والثامن. (المترجم).

الثيوصوفي: حتماً يستطيع: "الذين يعرفون" يستطيعون ذلك بإعمال قدراتهم الكامنة حتى في البشر قاطبة.

من هم أولئك الذين يَعلَمون؟

سؤال: هل ينطبق ما قلته للتو بنفس الطريقة على الآخرين؟

الثيوصوفي: نعم بنفس الطريقة كما قلت للتو، لأن قوة الرؤية عند الجميع محدودة، باستثناء أولئك الذين وصلوا، في التجسد الحالي، إلى أعلى درجة من الرؤية الروحية والاستبصار. أما بالنسبة لنا، فيمكننا أن نعاين فقط، إذا كان ينبغي أن تكون الأمور مختلفة بالنسبة لنا، لكانت كذلك، وقد صنعنا أنفسنا كما نحن عليه الآن، وأنه ليس لدينا سوى ما اكتسبناه نحن بأنفسنا فقط.

سؤال: أخشى أن مثل هذا التصور لن يؤدي إلا إلى إيذائنا.

الثيوصوفي: وأعتقد أنه هو بالضبط العكس. إن الافتقار إلى الإيمان بقانون الجزاء العادل هو الذي يوقظ الإحساس بالتمرد في الإنسان. يشعر الطفل، مثله مثل الرجل، بقوة العقوبة، أو حتى بالتوبيخ، الذي يعتقد أنه غير مستحقه، أكثر من العقوبة القاسية التي يشعر بأنه يستحقها. إن الاعتقاد بالكارما يوفر للإنسان أسمى الأسباب لقبول قَدَرِه في هذه الحياة، والباعث الأقوى على امتلاك الشجاعة والدوافع من أجل تحسين تجسده التالي. فكلاً من القبول والدوافع، بالفعل، ينعدم إذا افترضنا أن قَدَرَنا هو نتيجة أيِّ شيء غير القانون الصارم، أو أن المصير بين أيدٍ ثانية غير يديه هو.

سؤال: لقد أكَّدت لتوِّك بأن نظام التقمص هذا، الخاضع للقانون الكارمي، معهود به إلى الصواب، والعدل، والحس الأخلاقي. ولكن، إذا صح هذا الأمر، ألا يتم هذا على حساب التضحية بصفتَي التعاطف والرأفة الألطف، ويتسبب، بالتالي، في تقسية الغرائز الأرقِّ للطبيعة الإنسانية؟

الثيوصوفي: ظاهرياً فقط وليس في الجوهر. لا يمكن لإنسان أن يحصل على أكثر من استحقاقه أو أقل منه بدون أن يوقع ظلماً بحق الآخرين أو جوراً عليهم يتناسب مع هذا الخلل. والقانون الذي يمكن حَرْفُه عِبْر الرحمة لا بدَّ أن يكون سبب لبؤس أشد من البؤس الذي يجنِّبه، سبب لنقمة ولعنات أكثر من الامتنان. تذكر أيضاً أننا، إذا كنَّا نوجِد الأسباب التي تحرِّض على توليد نتائج هذا القانون، فإننا لا نُجريه بهذه المثابة، فهو الذي يُجري نفسه. وكذلك أن أوْفَرَ زادٍ لتجلِّي الرحمة والعطف العادلين نجده في حالة الديفاخان.

سؤال: تتكلَّم عن الحكماء وكأنهم استثناء من قاعدة جهلنا المعمَّم. فهل يعلمون حقاً أكثر مما نعلم عن التقمص والحالات المقبلة؟

الثيوصوفي: أجل، يعلمون. بالتمرس في قدراتٍ نملكها جميعاً فقد نموها هم وحدهم حتى الكمال، ودخل هؤلاء بالروح هذه المستويات والحالات التي كنَّا نناقشها. فخلال عصور طويلة درستْ أجيال متوالية من الحكماء أسرارَ الوجود، والحياة والموت، والعودة للولادة، وعَلَّموا جميعهم بدورهم بعض الوقائع التي تعلَّموها على ذلك النحو.

سؤال: وهل غاية الثيوصوفيا هي إعداد الحكماء؟

الثيوصوفي: تُعتبر الثيوصوفيا البشرية فيضاً من الألوهة على درب عودتها إلى منبعها. وعند نقطة متقدمة على الدرب، يبلغ مرتبة الحكماء أولئك الذين كرَّسوا عدة تقمصات لتحقيقها. إذ تَذَكَر جيداً، ما من امرئ قط بلغ مرتبة الحكماء في العلوم السرية في تقمص واحد، إنما بالعديد من التقمصات الضرورية لذلك، بعد تكوين قصدٍ واعٍ ومباشرة التدريب المطلوب. قد يكون العديد من الرجال والنساء في وسط مجتمعنا نفسه قد باشروا هذا الدرب نحو الاستنارة منذ عدة تقمصات، ومازالوا من جراء الأوهام الشخصية للحياة الراهنة، إما جاهلين للأمر وإما في طريقهم إلى تضييع كلِّ فرصة في هذا العمر للمضيِّ قدماً. إنهم يشعرون بانجذاب لا يُقاوم نحو الغيبيات والحياة العليا، لكنهم، مع ذلك، وبسبب التمسُّك بشخصياتهم والتعصب لرأيهم، ومن الشغف بالمغريات المضلِّلة للحياة الدنيوية وبملذات العالم الزائلة، يتخلون عنها، وبذلك يفوِّتون على أنفسهم فرصتهم في ولادتهم الراهنة. أما بالنسبة للبشر العاديين، المشدودين إلى الواجبات العملية للحياة اليومية، فإن نتيجةً بمثل هذا النأي غير ملائمة لهم كهدف ولا هي بالدافع الفعَّال حتماً.

سؤال: فماذا، إذن، يمكن أن يكون هدفهم أو قصدهم الخاص عندما ينتسبون إلى الجمعية الثيوصوفية؟

الثيوصوفي: العديد منهم مهتم بعقائدنا ويشعرون بشكل غريزي بأنها أصدق من عقائد أيِّ دين عقائدي حرفي. وبعضهم الآخر آل على نفسه أن يبلغ أعلى مُثُل الواجب الإنساني.

الفرق بين الإيمان والمعرفة، أو بين الإيمان الأعمى والعاقل

سؤال: تقول إنهم يقبلون بعقائد الثيوصوفيا ويؤمنون بها. لكنْ، بما أنهم لا ينتمون إلى أولئك الحكماء الذين أتيت على ذِكرهم للتو، لا بدَّ، إذن، أن يقبلوا بتعاليمكم إيماناً أعمى. ففيمَ يختلف هذا الإيمان عن إيمان الأديان التقليدية؟

الثيوصوفي: مثلما تختلف الثيوصوفيا في معظم النقاط الثانية كذلك تختلف في هذه النقطة. ما تسميه أنت "الإيمان" – الذي هو، في الواقع، إيمان أعمى فيما يتعلق بدساتير إيمان الأديان المسيحية، يصبح عندنا "المعرفة"، أي التسلسُل المنطقي للأشياء التي نعرفها عن الوقائع في الطبيعة. عقائدكم تتأسَّس على التفسير، وبالتالي، على شهادات الرائيين التي وصلتكم قيلاً عن قال، أما عقائدنا فتتأسَّس مباشرة على شهادات الرائيين التي لا يطالها تحريف أو تبديل. فاللاهوت المسيحي العادي، على سبيل المثال، يقول بأن الإنسان من مخلوقات الله ومؤلَّف من ثلاثة أجزاء مكوِّنة – الجسم والنفس والروح – وكلها لا غنى عنها لسلامته، وكلها، سواء في الشكل الكثيف للوجود الأرضي الجسدي أو في الصورة الأثيرية لخبرة ما بعد القيامة، ضرورية لتكوينه هكذا إلى الأبد، بحيث يكون لكلِّ إنسان وجود دائم منفصل عن بقية البشر وعن الألوهة. أما الثيوصوفيا، من ناحية ثانية، فتقول بأن الإنسان، بما أنه فيض عن الماهية الإلهية المجهولة، ولكن الحاضرة دائماً

واللانهائية، فإن جسمه، ككل شيء آخر، غير دائم، وبالتالي هو وهمّ، وبأنْ وحدها الروح فيه هي الجوهر الدائم الأوحد وحتى هذه تفقد فرديتها المنفصلة حين تعود إلى الاتحاد التام من جديد *بالروح الكونية*.

سؤال: إذا كنَّا نفقد فرديتنا، إذن، فإن الأمر ليس إلا فناءاً محضاً.

الثيوصوفي: أؤكد أن هذا ليس هو الحال، لأنني تحدثت عن الفردية المنفصلة وليس الفردية الكونية. هذه الأخيرة تصبح مثل جزء متحولة في الكل. قطرة الندى لا تتبخر، لكنها تصبح المحيط. هل يُفنى الإنسان الجسدي عندما يصبح، من الجنين الذي كان عليه، عجوزاً؟ كم هو شيطاني غرورنا إذا حثنا على وضع وعينا وفرديتنا المتناهيين في الصِّغَر في مقام أعلى من الوعي الكلِّي واللانهائي!

سؤال: - وبالتالي نستنتج، أنه في الواقع، لا يوجد إنسان كإنسان، ولكن كل شيء هو روح؟

الثيوصوفي: أنت مخطئ. يُستنتج من ذلك أن اقتران الروح بالمادة ليس إلا مؤقتاً، أو، بعبارة أوضح، بما أن الروح والمادة هما واحد، باعتبارهما القطبين المتضادين للجوهر الكلِّي المتجلِّي – فإن الروح تفقد أحقيَّتها باسمها مادام أصغر جزيء وذرة من جوهرها المتجلِّي لايزال منتمي إلى شكل ما من جراء التمايز. الاعتقاد بغير ذلك هو الإيمان الأعمى.

سؤال: إذاً على المعرفة، وليس على الإيمان، يستند تأكيدك إلى أن المبدأ الدائم، الروح، لا ينتقل عبر المادة إلا بشكل عابر؟

الثيوصوفي: سأصيغ الأمور بطريقة ثانية، فأقول: نحن نؤكد أن ظهور، مبدأ واحد ودائم - الروح - بكونه مادة، هو أمر عابر، وبالتالي، ليس أكثر من وهمّ.

سؤال: جيد جداً، وأنت تقول إن هذا بمثابة معرفة، وليس إيمان؟

الثيوصوفي: بالضبط. لكن، كما أرى جيداً ما ترمي إليه، أود أن أرد عليك بأننا نعتبر الإيمان، كما تفهمه أنت على أنه مرض عقلي، في حين أن الإيمان الحقيقي - بيستيس[206] الإغريق - هو "الاعتقاد القائم على المعرفة"، سواء ما إذا كان يتم توفير لنا من خلال أدلة الحواس المادية، أو عن طريق الحواس الروحية.

سؤال: ماذا تقصد بذلك؟

الثيوصوفي: أقصد أنه إذا كان الفرق بين الاثنين هو ما تريد معرفته، عندها يمكنني أن أقول لك إن هناك فرقاً عظيماً بين إيمان يتأسَّس على مرجعية أو سلطة، وبين إيمان يتأسس على الكشف والحدس الروحي.

سؤال: ولكن ما هو هذا الفرق؟

الثيوصوفي: الأول هو تأكيد بشري وخرافات، والثاني اعتقاد الإنسان وحدسه[207]. فكما يقول البروفسور ألكساندر وايلدر في

---

[206] بيستيس صوفيا. الحكمة.
[207] حدس هنا تعني كشف ورؤية.

مقدِّمته لكتاب توماس تايلور[208] "الأسرار الإلفسينية": [إن الجهل هو الذي يؤدي إلى انتهاك المقدسات. فالبشر يستخفون بما لا يفهمونه جيداً (...). إن التيار الباطني لهذا العالم يتوجَّه نحو غاية واحدة، ونحو الاستيقان البشري (...) الذي ينطوي على قدرة تكاد تكون لانهائية، على إيمان مهول قادر على الإحاطة بأسمى حقائق الوجود بأكمله]. وأولئك الذين يضعون حدوداً لذلك "الاستيقان" بالدساتير الإيمانية القائمة على المرجعيات وحدها لن يسبروا أبداً تلك القدرة، ولن يستشفوها حتى، في طبيعتهم. إيمانهم متشبث بشدة بالمستوى الخارجي وغير قادر على تفعيل الماهية التي تحكمه، إذ إن القيام بذلك يحتِّم عليهم أن يطالبوا بحقِّهم في المحاكمة الفردية – وهذا ما لا يجرؤون أبداً على فعله.

سؤال: هل هذا "الحدس" هو الذي يجبرك على رفض الله كأب وحاكم وشخصي للكون؟

الثيوصوفي: بالضبط. نحن نؤمن بمبدأ لا يمكن معرفته أبداً لأنه، فقط نتيجة لغلط وانحراف أعمى، يمكن الادعاء على أن الكون، والإنسان المفكر، وكذلك جميع المدهشات التي يحتوي عليها العالم المادي، يمكن أن تولد من دون وجود قوى ذكية رتبت ونظمت لها جميع الأجزاء بطريقة حكيمة للغاية. يمكن للطبيعة أن تخطئ، وغالباً ما تفعل ذلك، في تفاصيلها وفي المظاهر الخارجية لعناصرها المادية، ولكن ليس في أسبابها

---

[208] Thomas Taylor, The Eleusinian and Bacchic Mysteries, a dissertation. New York : J.W. Bouton, 1875 (N.d.T.).

ونتائجها الداخلية. كان لدى الوثنيون القدامى آراء حول هذه المسألة أكثر فلسفية من آراء الفلاسفة المعاصرين، سواء أكانوا لا أدريين أو ماديين أو مسيحيين. ولم يقم أي مؤلف وثني بطرح فكرة أن القسوة والرحمة لم تكن مشاعر من نظام محدود، وبالتالي، لم يزعم أي شخص أنه يمكن جعلهما من سمات إله لانهائي. كانت الآلهة الوثنية في كل مكان. يعبر المؤلف السيامي من كتاب - عجلة القانون[209] - عن نفس الفكرة التي نعبر عنها بشأن إلهك الشخصي. يقول (ص 25 من النص الأصلي):

[يمكن أن يؤمن البوذي بوجود إله سامي، متعالي على كل شيء التعيينات وجميع الصفات الإنسانية، بإله كامل، متعالي على الحب، والكراهية، والغيرة، والذي سيبقى محايد، في هدوء لا يزعجه شيء. لن يتحدث أبداً عن مثل هذا الإله دون احترام، ليس بسبب الرغبة في إرضائه، أو خوفاً من الإساءة إليه، بل من شعور طبيعي بالتبجيل. لكنه لا يستطيع أن يفهم إلهاً بسمات وخصائص الإنسان الذي يحب ويكره ويغضب، ولا يزال الإله كما وصفه المبشرون المسيحيون أو المسلمون أو البراهمان أو اليهود، أدنى بكثير من فكرة أنه جعل نفسه إنساناً عادياً صالحاً].

سؤال: لكن بالمقارنة بين إيمانين، أليس إيمان المسيحي الذي يعتقد، في ضعفه وتواضعه البشريين، أن هناك آب رحيم في السماء يقيه الاغراء، ويعينُه على الحياة، ويغفر له أخطاؤه

---

[209] Op. Cit., p. 213 (N.d.T.).

أفضل من إيمان البوذيين والفيدانتيين والثيوصوفيين البارد والمتعجرف، الذي يتاخم الجَبْرية؟

الثيوصوفي: لكَ أن تواصل تسمية اعتقادنا "إيماناً" إذا كان ذلك يحلو لك. ولكن طالما أننا رجعنا من جديد إلى هذه المسألة التي لا تفتأ تتكرر، فأنا أسألك بدوري: إيمان مقابل إيمان، أليس الإيمان القائم على المنطق والصواب الصارم أفضل من الإيمان المرتكز على مجرد المرجعية البشرية أو على عبادة الأبطال؟ "إيماننا" يتمتع بكلِّ القوة المنطقية للبداهة الرياضية أن 2 + 2 = 4. إما إيمانكم فهو أشبه بمنطق بعض النساء العاطفيات اللواتي قال فيهن تورغينييف بأن 2 زائد 2 يساوي في نظرهن عموماً 5، وزيادة! علاوة على أن إيمانكم إيمان لا يتعارض وحسب مع كلِّ مفهوم قابل للتصور عن العدل والمنطق، بل ويقود، لدى تحليله، الإنسان إلى الهلاك المعنوي، ويعرقل تقدم النوع الإنساني، ويجعل القوة حقاً وبذلك يحوِّل كل أحد رجلين إلى قابيل قاتل لشقيقه هابيل.

سؤال: إلى ماذا تلمِّح؟

هل يحق لله أن يغفر؟

الثيوصوفي: ألمح إلى عقيدة التكفير عن الخطايا، ألمِّح إلى دستور الإيمان الخطير ذاك الذي تؤمنون به، والذي يعلِّم أنه مهما كان مبلغ ضخامة جرائمنا بحقِّ قوانين الله والإنسان فيكفي أن نؤمن بتضحية يسوع بنفسه من أجل خلاص البشرية، فيغسل دمُه كل بقعة دم. عشرون عاماً وأنا أحذِّر من هذه العقيدة، ولعلِّي بهذا الصدد ألفت نظرك إلى مقطع من كتاب إيزيس مكشوفة النقاب المكتوب في العام 1875. هذا ما تعلِّمه المسيحية وما نحاربه:

[رحمة الله لا حدود لها ولا يُسبَر غورها. فمن المستحيل تخيل خطيئة بشرية هي من استحقاق اللعنة بحيث لا يكفي الثمن المدفوع سلفاً لافتداء الخاطئ لإزالتها، وإنْ يكن أسوأ ألف مرة. وعلاوة على ذلك، لا يفوت الأوان أبداً للتوبة. فمع أن المسيء قد ينتظر حتى الدقيقة الأخيرة من الساعة الأخيرة من آخر أيام حياته الفانية قبل أن تنطق شفتاه الشاحبتان بشهادة إيمانه، فإنه قد يذهب إلى الجنة، فكما أن اللص المحتضر - على يمين يسوع - على الصليب فعلها كذلك يستطيع آخرون لا يقلون عنه سوءاً أن يفعلوها. هذه هي عقيدة الكنيسة ورجال الدين، يضرب به رؤوسَ مواطنيكم وُعَّاظُ إنكلترا المفضَّلون في قلب "نور القرن التاسع عشر"" – أكثر العصور امتلاءً بالمفارقات. ولكن إلام يقودنا ذلك كلُّه؟].

سؤال: ألا يجعل ذلك المسيحي أسعد من البوذي أو البراهماني؟

الثيوصوفي: لا، ليس الإنسان المتعلِّم، على كل حال، بما أن هؤلاء قد فقدوا عملياً منذ زمنٍ بعيدٍ كل اعتقاد بدستور الإيمان القاسي هذا. لكنه حتماً يقود أولئك الذين ما يزالون يؤمنون به على نحو أيسر إلى حافة كلِّ جريمة قابلة للتصور من أيِّ دستور آخر سمعتُ به. دعني أقتطف لك من إيزيس مكشوفة النقاب مرة ثانية (انظر المجلد 2، ص 542 و543):

[إذا خرجنا من دائرة المعتقَد الصغيرة ونظرنا إلى الكون ككلٍّ يتوازن بالانتظام الذكي للأجزاء، كيف يمكن لأيِّ منطق مُحكَم كيف يمكن لأيِّ بصيص ضئيل من حس العدالة، ألا يتمرد ضد التكفير بالوكالة والنيابة! إذا أخطأ المجرم إلى نفسه فقط ولم يُسيء إلى أحد سواه، إذا كان بالتوبة الصادقة يستطيع أن ينال إلغاء الأحداث الماضية، ليس من ذاكرة الإنسان فقط، بل أيضاً من ذلك السجلِّ الخالد، الذي ليس لأيِّ إله – ولا حتى أعلى الآلهة – أن يجعلها تزول، إذ ذاك فإن هذا الدستور قد لا يكون غير قابل للفهم إلى هذا الحد. لكن الذهاب إلى أن في وسع أحدهم أن يسيء إلى أخيه الإنسان، فيقتل، ويخل بتوازن المجتمع وبالنظام الطبيعي للأشياء، ثم – عِبْر الخوف أو الأمل أو القسر، لا يهم – يُغفَر له بإيمانه أن سَفْحَ دم ما يغسل الدم الآخر المسفوح – فهذا لا يُعقَل! هل يمكن لنتائج جريمة أن تُلغى، وإنْ قُيض للجريمة نفسها أن تُغفَر؟ نتائج سبب ما غير محدودة أبداً بحدود السبب، كما لا يمكن لنتائج الجريمة أن تقتصر على المسيء وضحيَّته. لكلِّ عمل صالح، نظير كل عمل طالح، نتائجه، التي لا تقل عياناً عن أثر الحجر المرمي في الماء الراكد. التشبيه نسبي، لكنه خير تشبيه يمكن تصوره فلنستعمله. عِظَمُ الدوائر المتمركزة وسرعتها يتناسبان طرداً

مع عِظَمِ الشيء المختل توازنه أو صِغَرِه، لكن أصغر حصاة لا بل أصغر ذرة غبار، تصنع تموجاتها على سطح الماء. وهذا الخلل ليس وحده مرئي على السطح. فتحته يكون غير مرئي في كل اتجاه – في الخارج والأسفل – تدفع كلُّ قطرة أختها حتى تتأثر الجوانب والقاعُ بالقوة. لا بل أكثر، يتخلخل الهواء فوق الماء، وهذا الخلل يَعبُر، كما يخبرنا ذلك الفيزيائيون، من طبقة إلى طبقة خارجاً إلى الفضاء إلى أبد الآبدين؛ لقد أُطلِقَ مؤثِّرٌ في المادة، وهذا لا يضيع أبداً، ولا يمكن استقدامُه من جديد أبداً! (...).

الأمر نفسه هو صحيح بموضوع الجريمة، كما يصحُّ على ضدِّها. فالفعل قد يكون وقتياً، لكن النتائج أبدية. فإذا كان بإمكاننا، بعد أن يُرمى الحجر في المستنقع، أن نستخرجه من جديد إلى اليد، ونطوي الدوائر، ونلغي القوة المنتشرة، ونعيد الموجات الأثيرية إلى سابقِ حالة عدمها، ونزيل كل أثر لفعلة إلقاء المقذوف، بحيث يتعذَّر على سجلِّ الزمن أن يبيِّن أن ذلك حَدَثَ قط، عندها، عندها فقط قد نستمع بصبر للمسيحيين وهم يجادلون في فعالية هذا التكفير بالوكالة. ونتوقف عن الاعتقاد بالقانون الكَارمي. أما أن الأمر على ما هو الآن فإننا ندعو العالم بأسره إلى أن يقرِّر أية عقيدة هي الأكثر اعترافاً بالعدالة الإلهية، وأية منهما هي الأقرب إلى العقل، حتى لو كان استناداً إلى وضوح البرهان والمنطق البشريين].

سؤال: ومع ذلك فإن الملايين يؤمنون بالمعتقد المسيحي ويرتضونه لأنفسهم.

الثيوصوفي: إنْ هو إلا محض إفراط في الرقة العاطفية يطغى على قدراتهم الفكرية، لن يقبل به أيُّ محب للإنسانية أو إيثاري حقيقي أبداً. إنه ليس حتى حلم بالأثرة، بل هو كابوس للعقل الإنساني. انظر إلى أين يقود، وأخبرني اسم ذلك البلد الوثني الذي تُرتَكَب فيه الجرائم في سهولة أكبر أو بعدد أكثر من البلاد المسيحية. انظر إلى السجلات السنوية الطويلة والشنيعة للجرائم المرتكَبة في الدول الأوروبية؛ ودونك أمريكا البروتستانتية التوراتية: ففي السجون هناك يجري من الاهتداءات أكثر مما يجري في أثناء الاجتماعات الرعوية العامة والمواعظ. "انظر الحال التي وصلتها حصيلة العدالة المسيحية (!): قتلة مضرَّجو الأيدي، بتحريض من أبالسة الشهوة، والثأر، والجشع، والتعصب، أو حتى التعطُّش البهيمي إلى الدم، يقتلون ضحاياهم، بدون أن يمنحوهم، في أغلب الحالات، فرصة للتوبة أو للالتجاء إلى يسوع. ولعل هؤلاء ماتوا خاطئين، وبالطبع – بمقتضى المنطق اللاهوتي – نالوا جزاء إساءاتهم الكبرى أو الصغرى. لكن القاتل، إذا اعتقلته العدالة البشرية، وأودعتْه السجن، رقَّ لحاله العاطفيون، وصلَّوا معه ومن أجله، فيتلفظ بكلمات الاهتداء السحرية، ويمضي إلى منصة الإعدام طفلاً مفتدًى من أطفال يسوع! فلولا جريمة القتل لما أمكن الصلاة معه، وافتداؤه، والمغفرة له. حقاً لقد أحسن هذا الإنسان صنعاً بجريمته، إذا إنه بذلك قد فاز بالسعادة الأبدية! وماذا عن الضحية، وعن أسرته أو أسرتها والأقارب، والعيال، وعلاقاته الاجتماعية – أليس لدى العدالة من مكافأة لهم؟ هل ينبغي عليهم أن يشْقَوْا في الدنيا وفي الآخرة، في حين أن مَن أساء إليهم جالس إلى جانب "لص الجلجلة الصالح"، مغبوطاً إلى الأبد؟ حول هذه المسألة يلزم

"رجال الدين صمتاً حَذِراً" (إيزيس مكشوفة). أصبحت الآن تعلم لماذا يرفض الثيوصوفيون – الذين يضعون معتقدهم ورجاؤهم الأساسيان على العدالة للجميع، كما في السماء كذلك على الأرض – هذا المعتقد.

سؤال: مصير الإنسان النهائي، إذن، ليس بسماء يقوم الله عليها، بل التحول التدريجي للمادة إلى عنصرها البدئي: الروح؟

الثيوصوفي: إنه تلك الغاية النهائية التي يتجه نحوها كل شيء في الطبيعة.

سؤال: ألا يعتبر بعضكم هذا الارتباط، أو "سقوط الروح في المادة"، شراً، ويعتبرون العودة للتقمص عذاباً؟

الثيوصوفي: بعضهم يرى هذا الرأي، ويجهد بالتالي، لاختصار فترة اختباره على الأرض. غير أنه ليس شراً بحتاً خالصاً، بما أنه يوفِّر الخبرة التي نبني عليها المعرفة والحكمة. وأعني تلك الخبرة التي تعلِّم أن حاجات طبيعتنا الروحية لا يمكن أبداً أن تلبيها غير السعادة الروحية. فما دمنا في الجسد، نحن خاضعون للألم، للشقاء، ولسائر الحوادث المخيِّبة التي تقع خلال الحياة. لذا، ومن تدارُكنا لهذا، نحصل تدريجياً على المعرفة التي وحدها يمكن أن تُمِدَّنا بالفرج والأمل بمستقبل أفضل.

الباب الثاني عشر

ماهي الثيوصوفيا العمليـة؟

الواجب

سؤال: لِمَ الحاجة، إذن، إلى التقمصات مادامت جميعها، على حدٍّ سواء، تُخفِق في تأمين سلام دائم؟

الثيوصوفي: لأن الغاية النهائية لا يمكن بلوغُها إلا عن طريق خبرات الحياة، ولأن معظم هذه الخبرات عبارة عن ألم وشقاء. وليس بوسعنا أن نتعلَّم إلا من خلالهما. أما الأفراح والملذات فلا تعلِّمنا شيئاً، لأنها سريعة الزوال، ولا يمكن لها، على المدى الطويل، أن تجلب غير التخمة. وعلاوة على ذلك، فإن إخفاقنا المستمر في العثور على أيِّ رضًى دائم في الحياة، يفي بحاجات طبيعتنا العليا، يرينا بوضوح أن تلك الحاجات لا يوفى بها إلا على صعيدها عينه، ألا وهو الصعيد الروحي.

سؤال: ها تكون النتيجة الطبيعية لهذا، هي الرغبةً في مغادرة الحياة بطريقة أو بثانية؟

الثيوصوفي: إذا كنت تقصد بمثل هذه الرغبة، الرغبةَ في "الانتحار"، عندها أقول لك قطعاً لا. مثل هذه النتيجة لا يمكن لها أبداً أن تكون نتيجة "طبيعية"، بل سببها دائماً يعود إلى اعتلال مخِّيٍّ سوداوي، أو إلى نظرات مادية راسخة وقوية.

إنها أسوأ الجرائم، ووخيمة في عواقبها. إما إذا كنت ببساطة تقصد بالرغبة، التوقَ إلى بلوغ الوجود الروحي، وليس رغبة وتوق إلى مغادرة الأرض، لدعوتُها حينئذٍ رغبة جداً طبيعية فعلاً. وإلا فإن الموت الطوعي يكون تخلياً عن موقعنا الحالي وعن الواجبات المنوطة بنا، كما يكون محاولةً للتملُّص من المسؤوليات الكارمية، وبالتالي، التورُّط في إيجاد كارما جديدة.

سؤال: ولكنْ إذا لم تكن الأفعال على المرتبة الجسمانية باعثة على الرضى، لماذا ينبغي على الواجبات – وهي أفعال من هذا الصنف – أن تكون حتمية؟

الثيوصوفي: لأن فلسفتنا تعلِّمنا، قبل كلِّ شيء، أن الغرض من القيام بواجباتنا حيال جميع البشر، وحيال أنفسنا في المقام الأخير، ليس بلوغ السعادة الشخصية، بل سعادة الآخرين إحقاق الحقِّ في سبيل الحق، وليس في سبيل ما قد نجنيه منه. السعادة – أو الرضى بالأصح – قد ينجم بالفعل عن أداء الواجب، لكنه ليس الدافع إليه ويجب ألا يكون كذلك.

سؤال: ماذا تعنون بالضبط بـ "الواجب" في الثيوصوفيا؟ هو ليس حتماً الواجبات المسيحية التي بشرَ بها يسوع وتلاميذه بما أنكم لا تعترفون لا بذاك ولا بهؤلاء.

الثيوصوفي: أنت مخطئ مرة ثانية. فما تسمِّيه "الواجبات المسيحية" لقَّنه كلُّ المصلحين الأخلاقيين والدينيين قبل العهد المسيحي بعصور طويلة. فكلُّ ما كان عظيماً وسخياً وبطولياً في الأيام الخوالي، لم يَجْرِ الكلامُ عليه والوعظ فيه من على المنابر، كما في زماننا، بل كانت تعمل بموجبه أممٌ بأسرها أحياناً. إن تاريخ الإصلاح البوذي غني بأنبل الأعمال وأكثرها

بطولة في إيثارها. عبارة "كونوا كلُّكم قلباً واحداً في الرأفة والإخاء والرحمة والتواضع، ولا تردُّوا الشر بالشر والشتيمة بالشتيمة، بل باركوا"[210] – كان أتباع بوذا يطبِّقونها عملياً قبل القديس بطرس بقرون عدة. أخلاق المسيحية جليلة، لا شك بذلك، لكن مما لا يمكن انكاره أيضاً، هو أنها ليست بالجديدة وتعود بأصولها إلى الواجبات "الوثنية".

سؤال: وكيف يمكنك أن تُعرِّف بهذه الواجبات، أو بما تدعوه "الواجب"، عموماً، كما تفهمون المصطلح؟

الثيوصوفي: الواجب هو ما يجب علينا حيال الإنسانية، حيال رفاقنا البشر، جيراننا، أسرتنا، وخصوصاً ما ندين به لجميع مَن هم أفقر وأضعف منَّا. فهذا دَيْن، ما لم يُسدَّد في أثناء الحياة، فإنه يجعلنا في عسرٍ[211] روحي ومفلسين اخلاقياً في تقمصنا التالي. الثيوصوفيا هي جوهر ولبّ الواجب.

سؤال: كذلك هي المسيحية حين تُفهَم حقَّ فهمها وتطبَّق حقَّ تطبيقها.

الثيوصوفي: إنها كذلك ولا شك، غير أنها، لو لم تكن دين شفهية في الممارسة، لما كان للثيوصوفيا دورٌ يُذكَر بين المسيحيين. لكنها، لسوء الحظ، ليست من هذا القبيل إلا أخلاق شفاه. فأولئك الذين يقومون بواجبهم نحو الكل، ومن أجل الواجب وحده، هم أقلية، وأقل منهم أولئك الذين يؤدون ذلك الواجب، ويبقون مكتفين برضى ضميرهم الخفي.

---

210 رسالة القديس بطرس الأولى 3: 8 -10. (المترجم).

211 عاجزين عن الإيفاء. (المترجم).

إن:

صوت الإطراء العلني ......

الذي يكرِّم الفضيلة ويكافئها.

هو الموضوع دائماً نصب أعين المحبين للإنسانية "الذائعي الصيت". جميل أن يقرأ الإنسان عن الأخلاق الحديثة أو أن يستمع إلى نقاش عنها، لكنْ ما قيمة الكلمات إذا لم تُترجَم إلى أفعال؟ وأخيراً: إذا سألتني عن كيفية فهمنا للواجب الثيوصوفي عملياً، وبالنظر إلى الكارما، لأجبتك بأن واجبنا هو أن نتجرع بدون تذمر، وحتى القطرة الأخيرة، كلَّ ما تحويه كأس الحياة في مخزونها لنا، ألاَّ نقطف ورود الحياة إلا من أجل العبير الذي تسفحه على الآخرين، وأن نكتفي نحن بالأشواك، إذا لم يكن بالوسع التمتع بذلك العبير بدون أن يُحرَم أحدُهم منه.

سؤال: هذا كله غامض جداً. بماذا إذن، تتفوقون على المسيحيين فيما تقومون به؟

الثيوصوفي: ليس الأمر ما نقوم به نحن أعضاء الجمعية الثيوصوفية – مع أن بعضنا يفعل ما بوسعه – بل في مقدار الشوط الأبعد من المسيحية الحديثة نحو الخير الذي تقود إليه الثيوصوفيا. أقول – الفعل، الفعل الملتزم، بدلاً من مجرَّد النية والكلام. قد يكون امروٌ على ما يحلو له، أشد البشر دنيوية وأثرة وقسوة قلب، بل قد يكون من الأوغاد المغرِقين في السوء، دون أن يمنعه ذلك من أن يسمِّي نفسه مسيحياً، أو يمنع الآخرين من اعتباره كذلك. لكنْ ما من ثيوصوفي يستحق هذا الاسم لم يتشبَّع تماماً بصحة بديهية السيد كارلايل: "غاية

الإنسان عمل، لا فكرة، وإن تكن أنبل الأفكار" – ولم يوقِّع حياته ويسوِّها على غرار هذه الحقيقة. إن المجاهرة بحقيقة ما ليست وضعَها موضع التطبيق بعد، وكلما كان لهذه الحقيقة جَرْسٌ أجمل وأجل، علا الكلامُ عن الفضيلة أو الواجب، بدلاً من العمل بهما، وتذكَّر المرء دوماً، غصباً عنه، بثمار البحر الميت. النفاق هو من الرذائل ومن أقذرها، وهو أبرز ملامح أعظم البلاد البروتستانتية في هذا القرن – إنكلترا.

سؤال: فما الذي تعتبرونه دَيْنًا نحو البشرية بعامة؟

الثيوصوفي: الاعتراف التام بالمساواة في الحقوق والامتيازات للجميع، وبدون تمييز بين عرق أو لون أو منزلة اجتماعية أو نَسَب.

سؤال: ومتى تعتبرون أن هذا الدَّيْن لم يتم الوفاء به بعد؟

الثيوصوفي: حيث يقع أدنى اعتداء على حقِّ الآخر – أكان ذلك الآخر إنساناً أو بلد، حينما يحدث أي تقصير في معاملته بالمقدار نفسه من العدل واللطف والمراعاة أو الرحمة التي نرغب فيها لأنفسنا. إن نظام السياسة الحالي بأكمله يقوم على إغفال مثل هذه الحقوق وعلى أشرس أنواع الإصرار على الأثرة القومية. يقول الفرنسيون: "العبد سرُّ سيِّده" وعليهم أن يضيفوا: "المُواطِن سرُّ السياسة الوطنية"[212].

سؤال: وهل تقومون بدور ما في السياسة؟

---

[212] هكذا مواطن، هكذا سياسة.

الثيوصوفي: كجمعية، نحن نحرص على تجنب السياسة للأسباب الموضَّحة أدناه: فالسعي إلى إنجاز إصلاحات سياسية قبل أن نكون قد أجرينا إصلاحاً على الطبيعة البشرية هو أشبه بجعل الخمرة الجديدة في زِقاق قديمة[213]. فلنجعل البشر يشعرون في أعماق قلوبهم بواجبهم الحقيقي الصحيح نحو البشر أجمعين ويقرُّون به، فتختفي من تلقاء نفسها كل مفاسد السلطة، كل القوانين الجائرة في السياسة القومية، وكل ما كان مقام ومؤسس على الأثرة البشرية أو الاجتماعية أو السياسية. أحمق هو البستاني الذي يسعى إلى اقتلاع الأعشاب الضارة من مشتله بقطعها عند سطح التربة، بدلاً من أن يجتثَّها من الجذور. فما من إصلاح سياسي مستديم يمكن أن يتحقَّق يوماً ما، مادام الناس الأنانيون أنفسهم باقين، كما في الماضي، على رأس الأمور الوطنية.

---

[213] أحد الأمثلة التي قالها السيد المسيح وترمز ضمنياً لرفضه دمج العهد القديم (التوراة) بالعهد الجديد.

علاقات "ج. ث"[214] بالإصلاحات السياسية

سؤال: الجمعية الثيوصوفية ليست، إذن، منظَّمة سياسية؟

الثيوصوفي: حتماً لا. إنها منظَّمة دولية بأرقى المعاني باعتبار أن في صفوف أعضائها رجالاً ونساء من كافة العروق والمذاهب وأشكال الفكر، يعملون سوية من أجل غاية واحدة ألا وهي النهوض بالإنسانية؛ لكنها، كجمعية، لا تشارك في أية سياسة، قومية كانت أم حزبية.

سؤال: ولِمَ ذلك؟

الثيوصوفي: لا لشيء إلا للأسباب التي ذكرتُها. وعلاوة على ذلك فإن العمل السياسي يجب أن يتنوع بالضرورة بتنوُّع ظروف الزمان وخصائص الأفراد. في حين أن أعضاء ج.ث من حيث طبيعة موقعهم كثيوصوفيين، متفقون على مبادئ الثيوصوفيا – وإلا لما انضموا إلى الجمعية أصلاً – لكن هذا لا يقضي بأن يكونوا على رأي واحد في كلِّ مسألة ثانية. إنهم كجمعية، لا يستطيعون أن يعملوا معاً إلا في القضايا التي يشتركون فيها جميعاً– أي في الثيوصوفيا نفسها. أما كأفراد فلكلِ منهم مطلق الحرية في اتِّباع الخطِّ المحدَّد للتفكير والعمل السياسي الخاص به أو بها، مادام لا يتنافى مع المبادئ الثيوصوفية أو يسيء إلى الجمعية الثيوصوفية.

---

[214] الجمعية الثيوصوفية.

سؤال: لكن ج.ث. بمجملها لا تتهرب حتماً من المسائل الاجتماعية التي تتعاظم أهميتُها اليوم بهذه السرعة؟

الثيوصوفي: إن مبادئ ج.ث. عينها هي برهان على أنها لا تتهرب – أو بالأصح على أن غالبية أعضائها لا يتهربون. فإذا لم يكن بوسع البشرية أن تتطور، ذهنياً وروحياً، بغير الالتزام قبل كلِّ شيء، بأشدِّ القوانين الفسيولوجية إحكاماً وعلمية فإنه يناط بجميع الذين يجاهدون في سبيل هذا التطور أن يقوموا بكلِّ ما بوسعهم من أجل تطبيق تلك القوانين إجمالاً. إن جميع الثيوصوفيين، يا للأسف، يعلمون علم اليقين بأن الوضع الاجتماعي للجماهير الغفيرة من الناس، في البلدان الغربية بالأخص، يجعل من المتعذر، على أجسادهم وأرواحهم على حدٍّ سواء، أن تنال نصيبها من التدريب اللائق، بما يوقف تطور كليهما. ولما كان هذا التدريب وهذا التطور والنمو واحداً من الأهداف الصريحة للثيوصوفيا فإن ج.ث. تتعاطف تماماً مع كافة الجهود الصادقة في هذا الاتجاه وتتناغم معها.

سؤال: ولكن ماذا تعني بـ "الجهود الصادقة"؟ إن لكلِّ مصلح اجتماعي دواءه العجائبي، وكلُّ مصلح يعتقد بأن دواءه هو الشيء الوحيد الأوحد الذي يقدر أن يحسِّن البشرية وينقذها؟

الثيوصوفي: هذا صحيح كلَّ الصحة – وهو السبب الحقيقي من وراء قلة العمل الاجتماعي المُرضي الذي يتم إنجازه. فغالبية هذه الوصفات العجائبية خلو من أيِّ مبدأ قائد بحق، وهي قطعاً تفتقر إلى مبدأ واحد يصل بعضها إلى بعض، وبذلك يُهدَر وقتٌ وطاقة ثمينين بلا طائل. فالبشر، بدلاً من أن يتكاتفوا، يصارع بعضهم بعضاً، وهذا كثيراً ما يجري – بكلِّ أسف – من أجل

الشهرة والمكاسب، بدلاً من أن يكون من أجل القضية التي يجهرون أنها في القلب منهم، والتي ينبغي أن تكون لها الصدارة في حياتهم.

سؤال: كيف تُطبَّق المبادئ الثيوصوفية، إذن، في سبيل تشجيع التعاون الاجتماعي والمثابرة على الجهود الصادقة من أجل الإصلاح الاجتماعي؟

الثيوصوفي: دعني أذكِّرك بهذه المبادئ بإيجاز: الوحدة والسببية الشاملتين، التضامن الإنساني، قانون الكارما والتقمُّص. تلك هي الحلقات الأربع للسلسلة الذهبية التي ينبغي أن تضمَّ الإنسانية في أسرة واحدة، وفي أخوية شاملة واحدة.

سؤال: وكيف ذلك؟

الثيوصوفي: في حالة المجتمع الراهنة، وخاصة في البلدان المتحضِّرة المزعومة، نحن نواجه مواجهة مستمرة حقيقةَ أن أعداداً كبيرة من الناس يعانون من البؤس والفقر والمرض. إن وضعهم الجسدي بائس وملَكاتهم الذهنية والروحية تكاد غالباً أن تكون غافية. وعلى غير ذلك، يعيش أشخاص كثيرون، عند الطرف الآخر من السلَّم الاجتماعي، حياةَ لامبالاة فوضوية استهتارية، ورفاهية مادية، وتفكك أناني. هذان الشكلان من أشكال المعيشة ليسا محض مصادفة – فكلاهما نتيجة للشروط المحيطة بأولئك الخاضعين لكلٍّ منهما، وإهمال الواجب الاجتماعي، من جانب، وثيق الصلة للغاية بالتفتح المكبوح والموقوف، من جانب آخر. إن قانون السببية الشاملة ليصحُّ على علم الاجتماع صحته على فروع العلم الحق كافة. غير أن هذه السببية الشاملة تقتضي بالضرورة، كنتيجة

منطقية لازمة عنها، ذلك التضامن الإنساني الذي تشدِّد عليه الثيوصوفيا كثيراً. فإذا كان فعل الواحد يعود نتيجته على حياة الكلِّ – وهذه هي الفكرة العلمية الصحيحة – فإن بلوغ التضامن الإنساني الحقيقي، الذي تنهض عليه السلالة البشرية، لن يتحقَّق أبداً إلا بأن يصبح كلُّ الرجال إخوةً وكلُّ النساء أخوات، وبأن يمارس الجميع في حياتهم سلوكاً أخوياً فعلياً. إن هذا الفعل والتفاعل، تلك الأخوية الحق التي يحيا فيها الواحد للكلِّ والكلُّ للواحد، هي واحدة من المبادئ الثيوصوفية الأساسية التي يجب على كلِّ ثيوصوفي أو ثيوصوفية أن يلتزم، ليس بتعليمها فقط، بل أيضاً بعملها في حياته أو حياتها الفردية.

سؤال: هذا كله جيد جداً كمبدأ عام، ولكن ما هو السبيل إلى تطبيقها تطبيقاً عملياً ملموساً؟

الثيوصوفي: أُنظر لحظة إلى ما تدعوه بالوقائع الملموسة للمجتمع البشري. لا تقابِل فحسب بين حياة جماهير الناس، بل بين حياة الكثيرين ممَّن يُدعَوْن بالطبقتين الوسطى والعليا، وما يمكن أن تكون عليه هذه الحياة تحت شروط أكثر صحَّة وأنبل يسود فيها العدل واللطف والمحبة، بدلاً من الأثرة واللامبالاة والوحشية التي يغلب عليها الهيمنة الآن. إن كلَّ ما في البشرية من خير ومن شرٍّ يضرب بجذوره في الطبع البشري وهذا الطبع مشروط – وقد أُشرِطَ – بالسلسلة التي لا تنتهي من الأسباب والنتائج. لكن هذا الإشراط ينطبق على المستقبل بقدر ما ينطبق على الحاضر والماضي.

إن الأثرة واللامبالاة والوحشية لا يمكن أن تكون دائماً الحالة السوية للسلالة البشرية – إذ إن في الأخذ بهذا الرأي يأساً من الإنسانية – وهذا ما لا يملك أيُّ ثيوصوفي أن يفعله. فبلوغ التقدم ممكن، لكنه لا يمكن له أن يتم إلا بتنمية أنبل الخصائل. إن التطور الحق يعلِّمنا أننا، بتعديل المحيط الذي تحيا فيه المتعضِّية، نستطيع تعديلها وتحسينها، وهذا يصحُّ بأدقِّ المعاني فيما يتعلق بالإنسان. لذا فإن كلَّ ثيوصوفي ملتزِمٌ بالقيام بكلِّ ما بوسعه، وبكلِّ ما أوتي من قوة، بمدِّ يد العون إلى كلِّ مجهود اجتماعي حكيم ومدروس يضع نصب عينه تحسين وضع الفقراء. بيد أن مثل هذه الجهود ينبغي أن تُصرَفَ بقصد أن ينالوا حريتهم الاجتماعية النهائية، أو لتنمية حسِّ الواجب لدى مَن يغلب عليهم إهمالُه في كلِّ ما يتصل بالحياة تقريباً.

سؤال: أوافقك الرأي. ولكن مَن الذي يقرر إذا كانت الجهود الاجتماعية حكيمة أو غير حكيمة؟

الثيوصوفي: ما من شخص أو مجتمع يستطيع أن يطرح قاعدة لا تقبل النقض في هذا الشأن، وعلى الكثير أن يُترَك للمحاكمة الفردية. غير أن بالإمكان تقديم اختبار عام: هل ينحو العمل المقترَح نحو تشجيع تلك الأخوية الحقيقية التي تهدف الثيوصوفيا إلى تحقيقها؟ لن يجد ثيوصوفي حق صعوبةً كبيرة في تطبيق مثل هذا الاختبار، فحالما يرضى عن النتيجة سيكون واجبه منوطاً باتجاه تشكيل الرأي العام. ولا يمكن أن يتمَّ بلوغ هذا بغير تلقين تلك التصورات الأعلى والأنبل عن الواجبات العامة والخاصة التي يقوم عليها كلُّ إصلاح روحي ومادي. وفي كل حالة قابلة للتصور عليه أن يجعل من نفسه مركزاً

للعمل الروحي، ومنه ومن حياته الفردية اليومية، ينبغي أن تشعَّ تلك القوى الروحية التي وحدها تستطيع أن تجدِّد رفاقه البشر.

سؤال: ولكنْ لِمَ عليه أن يقوم بهذا؟ أليس هو الآخر، مثله كمثل الجميع، مشروطاً بكارماه، كما تعلِّمون؟ وألا ينبغي على الكارما أن تُستنفَذ، بالضرورة، على نحوٍ ما؟

الثيوصوفي: إن قانون الكارما عينه هو الذي يؤيِّد كل ما قلت. فلا طاقة للفرد على الانفصال عن السلالة البشرية، ولا للسلالة على الانفصال عن الفرد. قانون الكارما ينطبق على الجميع على حدٍّ سواء، مع أن الجميع ليسوا من النمو والتطور سواء. فالثيوصوفي، في مساعدته للآخرين على التفتح، يعتقد أنه لا يساعدهم على تحقيق كارماهم فقط، بل يوفي كارماه هو أيضاً بالمعنى الأدق للكلمة. إن تفتح الإنسانية، التي يشكِّل وإياهم جزءاً لا يتجزأ منها، هو ما يضعه نصب عينيه، وهو يعلم أن أيَّ تقصير من جانبه في الاستجابة للأسمى في نفسه لا يؤخِّره هو فقط بل يؤخِّر الجميع أيضاً في مسيرتهم للأمام.

إنه بأفعاله، يستطيع أن يعسِّر أو ييسِّر على البشرية بلوغ مستوى الوجود الأعلى التالي.

سؤال: أية صِلَة بين هذا وبين المبدأ الرابع من المبادئ التي ذكرتَها، ألا وهو التقمص؟

الثيوصوفي: الارتباط وثيق للغاية. إذا كانت حياتنا الحالية تعتمد على تفتح مبادئ معينة عن البذور العائدة إلى عمر سابق فإن القانون يسري فيما يتعلق بالمستقبل. فمتى أحطنا

بفكرة أن السببية الشاملة ليست حاضراً فقط، بل هي ماضي وحاضر ومستقبل، فإن كل فعل على مستوانا الحالي سيشغل بصورة طبيعية وبسهولة مكانه الصحيح، وسيظهر لنا في صلته الحقيقية بنا وبالآخرين. كل فعل خسيس وأناني يُعيدُنا للوراء وليس إلى الأمام، في حين أن كل خاطر نبيل وكل تصرف جيد هما ارتقاء إلى مراتب وجودية أسمى وأمجد. فلو كانت هذه الحياة هي كل شيء لكانت، من أكثر من قبيل، فقيرة ومزرية حقاً، لكنها، بوصفها تهيئة لفلك الوجود التالي، يمكن لنا أن نجعل منها البوابة الذهبية التي نعبر منها – لا على نحو أناني وبمفردنا، بل في صحبة رفاقنا – إلى القصور القائمة وراءها.

حول نكران الذات

سؤال: أتكون العدالة للجميع على حدٍّ سواء، والمحبة لكلِّ مخلوق، أرفع مراتب الثيوصوفيا؟

الثيوصوفي: لا، فثمة أيضاً مرتبة أرفع منها بكثير

السائل: وما هي؟

الثيوصوفي: هي منح الآخرين أكثر من الذات – هي التضحية بالنفس. تلكم كانت المرتبة والمقياس السائد الذي اتَّسم به على الأخص، كبار حكماء الإنسانية ومعلِّميها – وأخص بالذكر غوتاما بوذا في التاريخ، ويسوع الناصري، كما وَرَدَ ذكره في الأناجيل. ولهذه الميزة وحدها أن تكفل لهما إجلالَ أجيال البشر التي أتت بعدهما وامتنانَها. غير أننا نقول إن التضحية بالنفس يجب أن تؤدَّى بتمييز، فمثل هذا التخلِّي عن الذات، إذا تمَّ بمنأى عن العدل، أو عشوائياً، بدون النظر للعواقب، قد لا يظهر بلا طائل فقط، بل يتبيَّن أنه مؤذٍ أيضاً. فمن القواعد الأساسية للثيوصوفيا إنصافُ النفس – باعتبار المرء نفسَه واحد من مجموع البشرية، وليس كإنصاف ذاتيٍّ شخصيٍّ، لا أكثر ولكنْ لا أقل منه نحو الآخرين – اللهم، بالفعل، إلا إذًا كنَّا بالتضحية بذات واحدة، يمكن لنا أن نفيد المجموع.

سؤال: هل لك أن توضِّح فكرتك بتقديم مثال؟

الثيوصوفي: ثمة في التاريخ أمثلة عديدة لإيضاحها. فالثيوصوفيا ترى أن التضحية بالنفس من أجل الخير العملي لنجدة الكثيرين، أو العديد من الناس، لهي أشرف بما لا يقاس

من إنكار الذات من أجل فكرة مذهبية، من نحو فكرة "إنقاذ الوثنيين من الدينونة"، على سبيل المثال. ففي رأينا أن الأب داميان، شاب بالثلاثين الذي قد وَهَبَ حياته كلَّها قرباناً في سبيل مساعدة المجذومين[215] في مولوكاي والتخفيف من عذابهم والذي مضى ليعيش ثمانية عشر عاماً وحده معهم حتى أصابه المرض المقزِّز بنهاية الأمر وصرعه، لم يمت سدى. لقد فرَّج عن ألوف الأشقياء البائسين ومَنَحَهم سعادة نسبية وواساهم ذهنياً وجسدياً. لقد ألقى ببصيص من النور في ليل حياة مظلم موحش، لا نظير للقنوط منها في قيود المعاناة البشرية. لقد كان ثيوصوفياً حقيقياً، وستبقى ذكراه حية في سجلاتنا أبد الدهر. إن هذا الكاهن البلجيكي المسكين لهو، في نظرنا، أعظم بما لا يقاس من جميع أولئك المبشِّرين، على سبيل المثال الحمقى الصادقين، لكنْ المأخوذين بالمجد الباطل ممَّن ضحوا بحياتهم في جزر بحر الجنوب أو في الصين. أي خير فيما فعلوا؟ ففي الحالة الأولى، توجَّهوا إلى أناس لم ينضجوا بعدُ لتقبُّل أية حقيقة، وفي الثانية، إلى أمَّة تُجاري مدارسُ فلسفتها الدينية في سموِّها أية مدارس ثانية، لو أن الشعب المؤتمَن عليها وفَّق بين حياته وبين وصايا كونفوشيوس وغيره من حكماء ذلك الشعب. لقد ماتوا ضحايا لأكلة لحوم البشر والهمج غير المسؤولين، ولتعصُّب عامة الشعب وكراهيتهم، في حين أنهم، لو توجَّهوا إلى زواريب وايتشابل أو أيِّ حيٍّ مماثل من تلك الأحياء تحت شمس مدنيَّتنا الساطعة، المكتظة بالهمج المسيحيين وبالجذام الذهني، لربما

---

[215] المصابين بالبرص.

صنعوا خيراً حقيقياً ووفَّروا حياتهم في سبيل قضية أجدى وأشرف.

سؤال: لكن المسيحيين لا يفكرون هكذا.

الثيوصوفي: بالطبع لا، لأنهم يعملون بمعتقد مغلوط فيه. إنهم يعتقدون أنهم، بتعميد جسم همجي غير مسؤول، ينقذون نفسه من الدينونة. تنسى إحدى الكنائس شهداءها، بينما ترسم كنيسة ثانية في عداد القدِّيسين أناساً من أمثال لابرو، الذي ضحَّى بجسمه مدة أربعين عاماً، لا لشيء إلا لينفع الهَوام التي ترعى فيه، وينصبون لهم التماثيل. فلو كانت لدينا الوسائل لنصب التماثيل لنصبنا واحداً للأب داميان، ذلك القديس العملي الحق، ولخلدنا ذكراه إلى الأبد، بوصفه قدوة حية للبطولة الثيوصوفية وللرحمة والتضحية بالنفس اللتين لا تليقان إلا بالبوذا وبالمسيح.

فأنتم، إذن، تعتبرون التضحية بالنفس واجباً؟

الثيوصوفي: أجل – ونفسِّر ذلك بإظهار أن الإيثار جزء لا يتجزأ من النمو الذاتي. غير أنه علينا أن نكون بصيرين. إذ لا يحق للمرء أن يتضور جوعاً حتى الموت حتى يحصل إنسان آخر على طعام، ما لم تكن حياة ذلك الإنسان، بما لا يدع مجالاً للشك، أنفع للمجموع من حياته هو. غير أن من واجبه أن يضحي براحته، وأن يعمل من أجل الآخرين، إذا كانوا غير قادرين على العمل بأنفسهم. إن من واجبه أن يَهَبَ كل ما يملك حصراً، ولا ينفع أحداً سواه، إذا كان يُمسِكه بأنانية عن الآخرين. الثيوصوفيا تُعلِّم نكران الذات، لكنها لا تعلِّم التضحيةً بالنفس بطريقة متهورة لا خير فيها، ولا هي تسوِّغ التعصب.

سؤال: ولكن كيف لنا أن نبلغ منزلة سامية كهذا؟

الثيوصوفي: بوضع وصايانا موضع التطبيق المستنير. بالاستعانة بعقلنا الأعلى، بحدسنا الروحي وحسِّنا الخُلقي وبالانصياع لما يمليه علينا ما ندعوه "الصوت الخافت الصغير" لضميرنا، ألا وهو صوت الإيغو الذي ينطق فينا "بأعلى من صوت زلازل يهوه ورعوده، حيث يغيب الرب".

سؤال: إذا كانت هذه هي واجباتنا نحو الإنسانية بعامة، فما هي واجباتنا نحو من يجاورنا مباشرة، كما تفهمونها؟

الثيوصوفي: هي عينها، زائدة تلك الواجبات التي تنشأ من فروض خاصة تتعلق بروابطنا الأسرية.

سؤال: إذن، ليس صحيحاً، كما يُشاع، أنه عندما ينضم أحدهم إلى الجمعية الثيوصوفية سرعان ما يشرع في الانفصال التدريجي عن زوجته وأولاده وفي الاستعفاء من واجباته الأسرية؟

الثيوصوفي: هي، وغيرها كثير، مجرد افتراء لا أساس له من الصحة. إن أول الواجبات الثيوصوفية هو قيام المرء بواجباته نحو كلِّ البشر، ولاسيما نحو الذين يدين لهم بمسؤولياته النوعية، إما لأنه اضطلع بها طوعاً، كروابط الزواج، أو لأن قَدَرَه حالفه معها – وأعني تلك المسؤوليات الواجبة نحو الوالدين أو أقرب الناس.

سؤال: وماذا عن واجب الثيوصوفي حيال نفسه؟

الثيوصوفي: أن يسيطر على الذات الدنيا ويقهرها عِبْر الذات العليا، أن يتطهَّر في سريرته وخُلُقه، ألا يخشى شيئاً أو أحداً غير محكمة ضميره، ألا يشرع في شيء ولا يُتِمَّه. أي أنه إذا استصوب القيام بشيء، فليقمْ به علانية وبجسارة، أما إذا لم يستصوبه فلا يقربه أصلاً. إن من واجب الثيوصوفي أن يخفِّف من ألمه بأن يفكِّر في الحديث المأثور عن إبكتيتوس الذي يقول: "لا تلهيك عن أداء واجبك أية غضاضة فارغة قد تأتيك من العالم السفيه، فإن استهجانه يتعدَّى حدود قدراتك وبالتالي يجب ألا يشغل أي مكان من اهتمامك".

سؤال: لنفترض، مع ذلك، أن واحداً من أعضاء جمعيتكم تحجج بعجزه غيره عن العمل بالإيثار، بحجة أن "الأقربين أولى بالمعروف"، مصراً على أنه أكثر انهماكاً، أو أشد فقراً من أن ينفع الإنسانية أو أيَّ فرد من أفرادها حتى – فما هي قواعدكم في حالة كهذه؟

الثيوصوفي: ما من امرئ يحق له القول إنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً من أجل الآخرين، أية كانت ذريعته. فكما قال أحد الكتَّاب الإنكليز: "قُمْ بواجبك المناسب في المكان المناسب فتجعل العالم كله مديناً لك". إن كأس ماء بارد يُعطى قبل فوات الأوان لعابر سبيل برَّح به العطش لَواجبٌ أنبل وأجدى من اثنتي عشرة وليمة تذهب هدراً في غير أوانها في أناس يستطيعون أن يتحمَّلوا تكاليفها. ما من امرئ ليس مستعداً بعدُ يقدر أن يصبح ثيوصوفياً – وإن يكن يستطيع أن يظل عضواً في جمعيتنا على كل حال. ليست لدينا قواعد نحمل بها أي إنسان على أن يصبح ثيوصوفياً عملياً إذا لم يكن يرغب في أن يصبح كذلك.

سؤال: لماذا ينتسب إلى الجمعية أصلاً؟

الثيوصوفي: هو الأعلم بما يفعل. فهاهنا أيضاً، ليس لنا الحق في التعجيل بالحكم على شخص ما، حتى وإن علا ضده صوت المجتمع بأسره – وبإمكاني أن أبرِّر لك لماذا. في يومنا هذا لم يعد "صوت الشعب" (فيما يخص صوت المتعلِّمين على الأقل) هو "صوت الإله"، بل بالحري صوت التحامُل، والدوافع الأنانية، وأحيانًا كثيرة، صوت اللاشعبية. من واجبنا أن نزرع البذور من أجل المستقبل، وأن نحرص على جودتها، لا أن نقف للتحري عن سبب قيامنا بذلك، وعن كيفية ودواعي اضطرارنا إلى هدر وقتنا، وذلك لأن أولئك الذين سوف يجنون الحصاد في الأيام المقبلة لن يكونوا نحن أبداً.

في المحبة وأعمال الخير

سؤال: وكيف تنظرون، أيها الثيوصوفيون، إلى واجب المحبة والبرّ المسيحي؟

الثيوصوفي: عن أيّ برٍّ تتكلَّم؟ برّ الذهن، أم البرّ العملي على الصعيد المادي؟

سؤال: أعني البرَّ العملي، باعتبار أن فكرتكم عن الأخوية العالمية تضم، بالطبع، البرَّ الذهني

الثيوصوفي: في ذهنك إذن، التطبيق العملي للوصايا التي نطق بها يسوع في عظته على الجبل سؤال: بالضبط

الثيوصوفي: فلِمَ تدعوها "مسيحية"، إذن؟ هل لأن آخر ما يفكِّر فيه مسيحيو اليوم هو تطبيق هذه الوصايا في حياتهم؟! على الرغم من أن مخلِّصكم نادى بها وطبَّقها عملياً.

سؤال: ومع ذلك فهناك العديدون ممَّن يقضون حياتهم في إجراء الصدقات.

الثيوصوفي: نعم، لكنْ من فضلة ثرواتهم الضخمة! لكن دلني على ذلك المسيحي، بين كبار المحبين للبشرية، الذي يتخلَّى عن معطفه للص الذي سرق قميصه والذي يرتعش برداً ويتضور جوعاً، وعن ردائه أيضاً أو يعرض خدَّه الأيمن لِمَنْ يلطمه على خدِّه الأيسر[216] ولا يفكِّر حتى في الاستياء من ذلك؟

---

[216] مثال رواه السيد المسيح.

سؤال: آه، ولكن لا تنسى أن هذه الوصايا يجب ألا تؤخَذ على محمل الحرف. لقد تغيَّرت الأزمنة والظروف منذ أيام المسيح. وعلاوة على ذلك، فقد كان يتكلَّم بالأمثال.

الثيوصوفي: إذن لِمَ لا تعلِّم كنائسكم بأن عقيدة الدينونة الأبدية ونار جهنم يجب أن تُفْهَم بوصفها من الأمثال هي الأُخرى؟ ولِمَ يصر عدد من أكثر وعَّاظكم شعبية، بينما هم يسمحون إجمالاً بفهم هذه "الأمثال" كما تفسِّرونها، على المعنى الحرفي لنيران جهنم وعلى التعذيب الجسدي لنفس "من طبيعة الأميانت"؟ إذا كانت الأولى هي "مثلاً" فإن الثانية هي كذلك. إذا كانت نار جهنم حقيقة حرفية فإن على وصايا المسيح في العظة على الجبل أن تُطاعَ حرفياً. وإني لأؤكد لكم أن العديدين ممَّن لا يعتقدون بألوهية المسيح – مثل الكونت ليف تولستوي وعدد من الثيوصوفيين – يطبِّقون بحرفيَّتها هذه الوصايا، النبيلة نظراً لطابعها العالمي. ولربما طبَّقها غيرهم كثير من الرجال الطيبين والنساء الطيبات، لو لم يكونوا أكثر من متيقنين من أن مسيرة كهذه في الحياة سوف تنتهي بهم، أغلب الظن، إلى مأوى المجانين – من فرط ما هي مسيحية قوانينُكم!

سؤال: ولكن الجميع حتماً يعلمون أن هناك الملايين التي تُصرَف سنوياً على المبرَّات الخاصة والعامة.

الثيوصوفي: أوه، نعم، ويبقى نصفها بالأيدي التي تتناقلها قبل أن تصل إلى المعوزين، في حين أن حصة كبيرة أو ما يتبقى منها يصل إلى أيدي المتسولين المحترفين – الذين هم أكسل من أن يعملوا – وبهذا لا ينتفع منه بشيء أهل البؤس والشقاء فعلاً. ألم تسمع بأن أولى نتائج فيض الإحسان على

حيِّ إيست إنْدْ في لندن كانت ارتفاع أسعار الإيجار في وايتشابل بحوالي عشرين في المئة؟

سؤال: فما العمل إذن؟

الثيوصوفي: العمل فردياً، وليس جماعياً، اتِّباع الوصايا البوذية الشمالية: "لا تضع أبداً طعاماً في فم جائع عن طريق شخص آخر غيرك"، "لا تدع أبداً ظل جارك (شخص ثالث) يتوسَّط بينك وبين محلِّ كرمك"، "لا تترك أبدا للشمس وقتاً تجفف فيه دمعةً قبل أن تكون قد كَفْكَفْتَها بنفسك" وأيضاً: "لا تعطِ أبداً مالاً للمحتاج ولا طعاماً للكاهن الذي يستجدي على بابك بواسطة خدامك، لئلا ينتقص مالك من الامتنان، أو ينقلب طعامك إلى مرارة".

سؤال: ولكن كيف لهذا أن يُطبَّق بشكل عملي؟

الأفكار الثيوصوفية عن البِرِّ تعني البذل الشخصي من أجل الآخرين، الرحمة واللطف الشخصيين، الاهتمام الشخصي برفاه المعذَّبين، والتعاطف والتبصُّر والعون الشخصي في همومهم أو احتياجاتهم. نحن الثيوصوفيين لا نعتقد بصحة تقديم المال (على افتراض أنه متوفِّر لدينا) بواسطة أيدي غيرنا من الناس ومنظِّماتهم. نحن نعتقد بإمكان إعطاء المال قدرةً وفعالية أعظم بألف مرة بصلتنا وتعاطفنا الشخصيين مع أولئك الذين يحتاجونه. نحن نؤمن بإشباع جوع النفس إيمانَنا يساوي ملء فراغ المعدة – إن لم يكن أكثر، لأن الامتنان يُحسِنُ إلى مَن يشعر به أكثر مما يُحسِنُ إلى مَن يُشعَر نحوه

به. أين الامتنان الذي كان على "ملايين جنيهاتك[217]" أن تستدرَّه؟ وأين المشاعر الطيبة التي كان عليها أن تحرضها؟ أهو ظاهر في كراهية فقراء إيست إنْدْ للأغنياء؟ في تنامي فريق الفوضوية وفساد النظام؟ أم في الآلاف من تلك الفتيات العاملات التعيسات، ضحايا "نظام سويتينغ"[218]،المدفوعات كلَّ يوم إلى تدبُّر أمر معيشتهنَّ بشقّ النفس باللجوء إلى الدعارة؟ فهل يشكركم المسنُّون العجزة من رجالكم ونسائكم على المآوي، أو فقراؤكم على المساكن الوبيئة والوخيمة التي يُسمَح لهم فيها بإنجاب أجيال جديدة من الأطفال المعتلِّين الكسيحين، لا لشيء إلا لضخّ المال في جيوب أمثال شايلوك[219] من مُلاك هذه البيوت؟ لهذا فإن كلَّ دينار ذهبي من تلك "الملايين" التي تبرَّع بها أناس طيبون، يطمعون في أن يصيروا من المحسنين، يحطُّ كلعنة محرقة على الفقراء الذين يُفترَض فيها أن تفرِّج بؤسهم– بدلاً من أن تكون بركة عليهم. نحن ندعو هذا توليد كارما قومية – ولسوف تكون نتائجها رهيبة يوم تصفية الحساب.

---

217 الجنيه الإسترليني، عملة إنكلترا.

218 نظام يستعمل ربُّ العمل فيه اليد العاملة بأزهد الأجور، مستغلاً اضطرارها إلى العمل. (المترجم).

219 شخصية يهودية مستغلة للآخرين في مسرحية شكسبير.

سؤال: وأنتم تعتقدون بأن الثيوصوفيا قد تستطيع، بتدخلها إزالة هذه الشرور، ضمن شروط حياتنا الحديثة العملية والعصيبة؟

الثيوصوفي: لو كان لدينا مال أكثر، ولو لم يكن على غالبية الثيوصوفيين أن تعمل من أجل كفاف يومها، أؤمن حتماً بأننا كنَّا نستطيع ذلك.

سؤال: كيف؟ هل تتوقعون من عقائدكم أن تجدوا تربة خصبة لها بين الجماهير غير المتعلِّمة، في حين أنها من الاستغلاق والصعوبة بحيث إنها تكاد أن تستعصي على المثقفين من الناس؟

الثيوصوفي: أنت تنسى شيئاً، ألا وهو أن تربيتكم الحديثة التي تفاخرون بها للغاية، هي بالضبط ما يجعل الثيوصوفيا مستعصية على فهمكم. إن ذهنكم من الممتلئ بالبهلوانيات الفكرية والتصورات المسبقة بحيث إن حدسكم وإدراككم الطبيعيين للحقيقة يتوقفان عن العمل. فلا الميتافيزياء ولا التعليم ضروريان لجعل امرئ يفهم حقيقتَيْ الكارما والتقمص في خطوطهما العريضة. أُنظرْ إلى ملايين البوذيين والهندوس الفقراء غير المتعلمين، الذين يرون في الكارما والتقمص حقيقتين ثابتتين، لا لشيء إلا لأن أذهانهم لم تمتلئ وتُمسَخ بإكراهها على السير في تشعبات مناوئة للطبيعة. إن شعورهم الإنساني الفطري بالعدالة لم يُشوههم ويدفعهم على الإيمان

بأن خطاياهم سوف تُغفَر لهم لمجرد أن أحدهم قد صُلِبَ من أجلهم. ولاحِظ جيداً أن البوذيين يعيشون وفقاً لمعتقداتهم بدون تأفف من الكارما أو ما يعتبرونه عقاباً عادلاً؛ على حين أن عامة المسيحيين لا يعيشون وفقاً لمثالهم الخُلُقي، كما ولا يقبلون بقسمتهم برضاء. ومن هنا كل هذه الشكوى والاستياء وشدة الصراع على الوجود في بلاد الغرب.

سؤال: ولكن ألا تعفي هذه القناعة، التي تثني عليها إلى هذا الحدِّ، من كل دافع إلى الجهد والعمل، فتعطِّل حركة التقدم؟

الثيوصوفي: ونحن الثيوصوفيين نقول إن تقدمكم ومدنيَّتكم اللتان تتبجحون بهما ليستا أفضل من سِرْب الحباحب، يرفرف فوق مستنقع ينفث أبخرة سامة وفتَّاكة. ذلك لأننا نشهد الأثرة والجريمة والفجور وكلَّ الشرور التي تخطر بالبال تنقض على البشرية البائسة من صندوق بندورا[220] الذي تدعونه عصر التقدم، وتتفاقم بتفاقم مدنيَّتكم المادية. فأمام ثمن كهذا، أجْمِل بعطالة البلاد البوذية وبخمولها، اللذين لم يبرزا إلا كعاقبتين من عواقب فترات مديدة من الرق السياسي.

سؤال: أتكون كل هذه الميتافيزياء والسِّرانية اللتين تنشغلون بهما إلى هذا الحدِّ لا أهمية لهما؟

الثيوصوفي: أما بنظر الجماهير، التي لا تحتاج إلا إلى الإرشاد والدعم العمليين، فلا وزن يُذكَر لهما، وأما بنظر المثقفين – القادة الطبيعيين للجماهير، أولئك الذين تتبنى تلك الجماهير

---

220 أسطورة تتعلق بصندوق سحري انبثق منه كل الشرور عند فتحه. وعند اغلاقه، لم يبق فيه سجيناً سوى.. الأمل. المترجم.

أنماط تفكيرهم وعملهم، عاجلاً أم آجلاً – فإنهما ذات أهمية كبرى. فبواسطة الفلسفة وحدها يستطيع الإنسان العاقل والمثقف أن يتجنب الانتحار الفكري الناجم عن الاعتقاد المبني على الإيمان الأعمى، ووحده استيعاب التواصل الدقيق والتماسُك المنطقي للعقائد المشرقية، إن لم نَقل الباطنية، يؤهِّله لإدراك حقيقتها. فاليقين يولِّد النخوة، و"النخوة هي عبقرية الإخلاص، ولا طاقة للحقيقة على إحراز أيِّ نصر بدونها"، كما يقول بَلْوِرْ ليتُّون، بينما ينوه إمِرسُن محقاً كلَّ الحق، إلى أن "كلَّ حركة عظيمة ومهيبة في سجلات العالم لهي تكرِّس انتصار النخوة". فهل من شيء حريٍّ بأن يبعث شعوراً كهذا أكثر من فلسفة بهذا السمو وبهذا الاتِّساق وبهذه المنطقية، وبهذه الإحاطة، كعقائدنا المشرقية؟

سؤال: ومع ذلك فإن أعداءها كثيرون جداً، والثيوصوفيا تواجه كلَّ يوم خصوم جدد؟

الثيوصوفي: وهذا بالضبط ما يبرهن على تفوقها وقيمتها الجوهرية. فالناس لا يكرهون إلا ما يخافون، وما من أحد يتحمل عناء الإطاحة بما لا يهدد الصَّغار أو يتفوق عليه.

سؤال: فهل تأملون في نشر هذه النخوة بين الجماهير ذات يوم؟

الثيوصوفي: ولِمَ لا؟ بما أن التاريخ يخبرنا أن الجماهير قد اعتنقت البوذية بحماس، في حين أن الأثر العملي لفلسفة الأخلاق هذه عليهم، كما نوهت، لا يزال يتجلَّى في ضآلة نسبة الجريمة بين الشعوب البوذية بالمقارنة مع كل ديانة ثانية. أهم ما في الأمر هو اجتثاث أخصب مصادر الجريمة والفجور – ألا

وهو اعتقاد البشر بإمكان نجاتهم من عواقب أعمالهم. قم بتعليمهم أعظم القوانين – الكارما والتقمص – ولن يشعروا تواً في أنفسهم بالكرامة الحق للطبيعة الإنسانية فقط، بل وسيتحوَّلون عن الشر ويتجنبونه كما يتجنبون الخطر المادي.

كيف يستطيع الأعضاء مساعدة الجمعية

سؤال: وكيف تتوقعون من أعضاء جمعيتكم أن يساعدوا في العمل؟

الثيوصوفي: أولاً، بدراسة العقائد الثيوصوفية واستيعابها بحيث يمكن لهم تعليم الآخرين، وخاصة الشباب. وثانياً بانتهاز كل فرصة للتحدث إلى الآخرين ولشرح ما هي الثيوصوفيا وما ليس هي، وبتصويب المفاهيم المغلوطة عنها ونشر الاهتمام بالموضوع. وثالثاً، بالمساعدة على تداول أدبياتنا، بشراء الكتب إذا توفرت لديهم الوسيلة لذلك، وبإعارتها وتقديمها لأصدقائهم، وحثِّ هؤلاء على القيام بذلك. ورابعاً، بالدفاع عن الجمعية ضدَّ الافتراءات المغرضة التي تنهال عليها، بكل الوسائل المشروعة التي يستطيعونها. وخامساً – وهذا هو الأهم في الأمر – بأن تكون حياتهم نفسها مثالاً يُحتذى.

سؤال: لكن هذه الأدبيات كلها، التي تعلِّقون على نشرها كل هذه الأهمية، تبدو لي غير ذات فائدة عملية في مساعدة البشرية. فهذا ليس بعمل برِّ عملي.

الثيوصوفي: أما نحن فنرى غير ما تراه أنت. نحن نرى بأن كتاباً جيداً، يوفر للناس غذاءاً طيباً للفكر، يقوي أذهانهم ويجلوها، ويمكِّنهم من استيعاب حقائق شعروا بها شعوراً مُبهماً دون أن يستطيعوا صياغتها، لَيقدم خدمة حقيقية وراسخة. أما فيما يتعلق بما تسمِّيه أعمال البرِّ العملية لإسعاف أجساد رفاقنا البشر، فإننا نقوم بالقليل الذي في وسعنا، غير أن غالبيتنا، كما سبق أن قلت لك، فقراء، على حين أن

الجمعية نفسها لا مال لديها حتى لدفع أجور طاقم من العاملين. إن جميع مَن يجاهدون بيننا في سبيلها، يقدِّمون تعبهم مجاناً ويقدِّمون المال أيضاً في معظم الأحيان. أما القلة التي تملك وسائل القيام بما يُدعى عادة بأعمال البِرّ فإنها تعمل بالوصايا البوذية وتؤدي عملها بنفسها، لا بالوكالة أو بالتبرُّع علناً لصناديق الإحسان. أما ما يجب على الثيوصوفي أن يقوم به قبل كلِّ شيء، فهو نسيان شخصيته.

ما لا ينبغي على ثيوصوفي أن يفعله

سؤال: هل لديكم في جمعيتكم أية قوانين أو بنود تحريمية على الثيوصوفيين أن يتقيدوا بها؟

الثيوصوفي: لدينا العديد منها، ولكن – يا للأسف! – ما من واحد منها اجباري. إنها تعبِّر عن المُثل العليا لجمعيتنا، غير أننا مرغمون على ترك التطبيق العملي لمثل هذه الأمور لاجتهاد الأعضاء أنفسهم. ومن سوء الحظِّ أن حالة أذهان البشر في القرن الحالي هي ما هي، بحيث إننا إذا لم نسمح لهذه البنود بالبقاء على الهامش، إذا جاز التعبير، فلن يجرؤ رجل أو امرأة على المجازفة بالانضمام إلى الجمعية الثيوصوفية أصلاً. وهذا على وجه التحديد، ما يحدوني إلى كل هذا الإصرار على الفرق بين الثيوصوفيا الحق والجمعية الثيوصوفية – وِعائِها الكادح والحَسَن النية، لكن غير اللائق بها.

سؤال: هل لك أن تخبرني عن هذه الصخور المُهلِكة في عرض بحر الثيوصوفيا؟

الثيوصوفي: أنت مصيب إذ تدعوها صخوراً، ذلك أن أكثر من عضو واحد في. ج.ث، على إخلاصه وطيب نواياه، اندفع بقاربه الثيوصوفي حتى تحطَّم عليها شظايا! ومع ذلك يبدو أنها تجنبُ أشياء معينة من أسهل الأشياء في العالم. هناك على سبيل المثال، سلسلة من أمثال هذه النواهي، التي تنطوي على واجبات ثيوصوفية إيجابية:

على الثيوصوفي ألا يصمت عما يسمع من الأقاويل والافتراءات الشريرة التي تُشاع عن الجمعية، أو عن أشخاص أبرياء، أكانوا من زملائه أم لم يكونوا.

سؤال: ولكن لنفترض أن ما يسمعه المرء هو الحقيقة، أو قد يكون صحيحاً بدون أن يكون هو على علم بذلك؟

الثيوصوفي: عليه حينئذٍ أن يطلب براهين دامغة على هذا الادعاء ويستمع إلى كلا الطرفين بلا تحيز، قبل أن يسمح للاتهام بالمرور دون تكذيب. لا يحق لك أن تصدِّق الشر قبل أن تحصل على برهان على صحة ادعاء لا يقبل الدحض.

سؤال: وأي موقف يكون موقفه عندئذٍ؟

الثيوصوفي: على الرأفة والحِلْم والبِرّ والصبر على المَكاره أن يكونوا دائماً حاضرين لحملنا على العفو عن إخواننا الخطأة وإصدار أرفق حكم ممكن على الضالين. على الثيوصوفي ألا ينسى أبداً أن يأخذ بالحسبان النقائصَ ومَواطِنَ الضعف في الطبيعة البشرية.

سؤال: هل ينبغي عليه أن يعفو بالكامل في حالات كهذه؟

الثيوصوفي: في كل الحالات، وخاصة إذا كانت الخطيئة قد ارتُكِبَت في حقِّه هو شخصياً.

سؤال: ولكن ماذا عليه أن يفعل إذا كان بالعفو يجازف بالإساءة، أو بالسماح بالإساءة، إلى الآخرين؟

الثيوصوفي: عليه أن يقوم بواجبه – بما يُمليه عليه ضميرُه وطبيعتُه العليا – ولكن ذلك بعد تمعن ناضج. فالعدل يقضي

بعدم إيذاء أيِّ كائن حي، غير أن العدل يأمرنا أيضاً بعدم السماح أبداً بإنزال الأذى بأشخاص أبرياء، أو حتى بشخص بريء واحد، وذلك بالسماح للمذنب بالإفلات، ولا يردعه رادع.

سؤال: وما البنود الناهية الباقية؟

الثيوصوفي: ما من ثيوصوفي ينبغي أن يقتنع بحياة خاملة أو عابثة، لا خير فيها لنفسه، وبالأولى، لسواه. عليه أن يعمل لمنفعة القلة التي تحتاج لمساعدته إذا لم تكن لها طاقة على الكفاح في سبيل الإنسانية، وبالتالي، على العمل من أجل ترقِّي القضية الثيوصوفية.

سؤال: إن هذا يتطلب طبيعة استثنائية، وقد يكون صعباً على بعض الناس.

الثيوصوفي: خير له، إذن، أن يبقى خارج ج.ث، بدلاً من أن يبحر في سفينة ليست سفينته. ليس مطلوباً من أحد أكثر مما في وسعه، سواء في التفاني أو الوقت أو العمل أو المال.

سؤال: وماذا بعد؟

الثيوصوفي: ما من عضو عامل له أن يعلق قيمةً على تقدمه أو تفوقه الشخصي في الدراسات الثيوصوفية أكبر مما ينبغي بل عليه بالحري أن يكون مستعداً للقيام بكل ما بوسعه من العمل الإيثاري. وعليه ألا يُلقي بكلِّ عبء الحركة الثيوصوفية ومسؤوليتها الثقيلين على أكتاف قلة من العاملين المتفانين. على كل عضو أن يشعر بأن من واجبه أن يأخذ الحصة التي يستطيع النهوض بها من العمل المشترك، وأن يسهم فيها بكل ما أوتي من وسائل.

سؤال: هذا هو الصواب بعينه. وماذا بعد؟

الثيوصوفي: ما من ثيوصوفي يحق له أن يضع كبرياءه أو مشاعره الشخصية فوق كبرياء جمعيته أو مشاعرها ككل. إن مَن يضحِّي بسمعة الجمعية، أو بسمعة سواه من الناس، على مذبح كبريائه الشخصية، أو منفعته الدنيوية، أو غروره ينبغي ألا يُسمَح له بالبقاء عضو بالجمعية. فعضو واحد مصاب بالسرطان كفيل بإصابة الجسد كله.

سائل: هل من واجب كلِّ عضو أن يعلِّم الآخرين وأن يبشِّر بالثيوصوفيا؟

الثيوصوفي: إنه هكذا فعلاً. ما من عضو يحق له أن يبقى خاملاً بحجَّة أن معارفه أقل من أنٍ يعلِّم. فليكن على ثقة من أنه سيجد دومًا مَن هم أقل منه معرفةً. والمرء لا يكتشف جهله ويحاول إماطته إلا عندما يشرع في محاولة تعليم الآخرين. لكن هذا بند ثانوي.

سؤال: فما هو، في نظرك، إذن، أهم هذه الواجبات الثيوصوفية الناهية؟

الثيوصوفي: أن يكون المرء على استعداد دائم للإقرار بأخطائه وبالاعتراف بها. أن لا يخطئ بالحري بالمبالغة في تمجيد نفسه وذلك بالإقلال من شأن جهود جاره. ألا يغتاب أبداً شخصاً آخر أو يفتري عليه، بل أن يقول له دائماً، بكل صراحة ووجهاً لوجه، كل مأخذ له عليه. ألا يجعل من نفسه أبدًا صدًى لأيِّ شيء يسمعه يسيء إلى غيره، ولا أن يضمر ضغينة ضد مَن يتفق لهم أن يسيئوا إليه.

سؤال: لكن كثيراً ما يكون من الخطورة أن تُقال الحقيقة للناس في وجوههم. ألا تظن ذلك؟ سمعت عن واحد من أعضائكم امتعض بمرارة، وغادر الجمعية، وصار من ألدِّ أعدائها، لا لشيء إلا لأن حقائق فظة قيلت له في وجهه، وأُنْحِيَ عليه باللائمة بخصوصها.

الثيوصوفي: لقد صادفنا العديد من أمثاله. فما من عضو، بارزاً كان أم عادياً، غادرنا أصلاً بدون أن يصبح عدونا اللدود.

سؤال: وكيف تعلِّل هذا؟

الثيوصوفي: الأمر ببساطة كما يلي: بعد أن يكون الشخص في معظم الحالات، شديد الإخلاص للجمعية في بادئ الأمر، وبعد أن يكيل لها أشد المدائح سمواً، فإن العذر الوحيد الممكن الذي يستطيع مرتد أن يتخذه ذريعة لسلوكه اللاحق وقصر نظره الماضي هو أن يلبس لباس الضحية البريئة والمخدوعة، وبهذا يرفع اللوم عن كاهله وينحو بها على كاهل الجمعية بعامة، وعلى قادتها على الأخص. إن أمثال هؤلاء الأشخاص يذكرون المرء بالحكاية القديمة عن الإنسان ذي الوجه الممسوخ الذي حطَّم مرآته على الأرض ظناً منه بأنه كانت تعكس سيماه على نحوٍ مشوه.

سؤال: ولكنْ ماذا يجعل هؤلاء القوم ينقلبون على الجمعية؟

الثيوصوفي: إنه الغرور المجروح، في صورة أو في ثانية وفي أغلب الأحيان – وبشكل عام، لأن إملاءاتهم ونصائحهم لا يؤخذ بها بوصفها قاطعة ومعتمَدة، ولأنهم ممَّن يفضِّلون أن يكون لهم المُلك في جهنم على أن يخدموا في الجنَّة –

باختصار، لأنهم لا يطيقون أن يكونوا في المنزلة الثانية بعد غيرهم في أيِّ شيء. هناك، على سبيل المثال، عضو – "سيد عرَّاف" حقيقي – انتقد وكاد أن يطعن في كلِّ عضو من أعضاء ج.ث.، ليس أمام الثيوصوفيين فقط، بل أمام الغرباء أيضاً، متذرعاً بأن سلوكهم جميعاً هو غير ثيوصوفي، متهماً إياهم تحديداً على ما كان يفعله هو نفسه طوال الوقت. وأخيراً ترك الجمعية، متذرِّعاً بأنه بات على يقين عميق بأننا جميعاً (المؤسسين على الأخص) محتالون! هناك عضو آخر بعد أن حاك الدسائس بكل وسيلة ممكنة لكي يوضَع على رأس شعبة واسعة من الجمعية، ووجد بأن الأعضاء لم يقبلوا به انقلب على مؤسسي ج.ث.، وصار ألدَّ أعدائهما، ولم يفوِّت فرصة للتشهير بأحدهما، لا لشيء إلا لأن هذا الأخير لم يستطع، ولم يقبل، أن يفرضه على الأعضاء. تلك كانت ببساطة حالة غرور مجروح إلى حدٍّ فظيع. وهناك عضو آخر كان يريد ممارسة السحر الأسود، وقد مارسه في واقع الأمر – أي مارس تأثيراً نفسانياً شخصياً في غير محلِّه على عدد من الأعضاء، في الوقت الذي كان يدَّعي فيه التفاني وسائر الفضائل الثيوصوفية. وحين تمَّ وضعُ حدٍّ لهذا كله، انسحب هذا العضو من الثيوصوفيا، وهو الآن ينشر الافتراءات والأكاذيب عن القائدين المنكودَي الحظ عينهما بأخبث الطُّرق، ساعياً إلى تحطيم الجمعية بتسويد سمعة اللذين لم يتمكَّن ذلك "العضو" الفاضل من خداعهما.

سؤال: ماذا تفعلون بمثل هؤلاء الأشخاص؟

الثيوصوفي: ندعهم لكارماهم. إذا كان أحدهم يرتكب الشر فهذا لا يبرِّر للآخرين ارتكابَها.

سؤال: ولكن، بالعودة إلى الافتراء، أين يقع الحد الفاصل بين الاغتياب وبين النقد المنصف؟ أليس من واجب المرء أن يحذِّر أصدقاءه وجيرانه ممَّن يعلم أنهم رفقاء خطيرون؟

الثيوصوفي: إذا كان السماح لهم بالمضيّ بلا وازع يعرِّض أشخاصاً آخرين للأذى من جراء ذلك، فمن واجبنا طبعاً أن نصرف الخطر عنهم بتحذيرهم سراً. غير أنه ما من اتِّهام ضدَّ شخص آخر، صحيحاً كان أم كاذباً، ينبغي أن يُشاع. فإذا كان صحيحاً – والغلط لا يؤذي إلا مرتكبَه – إذ ذاك دعوه وكارماه أما إذا كان كاذباً، فإنكم بذلك تتجنبون زيادة الضيم في العالم. لذلك، اصمتوا عن هذه الأمور مع كل مَن هو غير معنيٍّ بها مباشرة. لكنْ إذا كان في سكوتكم وصمتكم احتمال لتأذِّي الآخرين وتعريضهم للخطر، عندئذٍ أضيف التالي إلى ما قلته للتو: (قلِ الحقَّ ولا تبالِ) وقل مع أنِّسْلي: "استشر الواجب، لا الأحداث". فهناك حالات يُكرَه فيها المرء على الهتاف: "ألا بئس التكتُّم إذا كان يحول دون أداء الواجب".

سؤال: يخيَّل إليَّ أنكم، إذا عملتم بهذه الحِكَم، فسوف تجنون محصولاً مفرحاً من المشاكل.

الثيوصوفي: هذا ما نعاني منه في الواقع. لا بدَّ لنا من الإقرار بأننا الآن عرضة للتعيير عينه الذي تعرَّض له المسيحيون الأوائل. عبارة "انظروا كم يحب هؤلاء الثيوصوفيون بعضهم بعضاً!" قد تقال فينا الآن بدون أية شبهة ضيم أو تحيز.

سؤال: إذا كنتَ بنفسك تعترف بأن النميمة والافتراء والخصومة لا تقلُّ في ج.ث. عنها في الكنائس المسيحية – إن

لم تتفوق عليها – عداك عن الجمعيات العلمية، فأي نوع من الأخوة هم أخوتكم؟

الثيوصوفي: بالفعل هي نموذج مهين، على ما هي عليه الآن وإلى أن تُغربَل ويعاد تنظيمُها بعناية، فلن تكون أفضل حالاً من النماذج الأُخرى. إنما تذكَّر بأن الطبيعة البشرية هي نفسها داخل الجمعية الثيوصوفية وخارجها، وأعضاؤها ليسوا بقدِّيسين. إنهم، في أحسن الأحوال، خطأة يحاولون أن يتحسَّنوا، وعرضة للتقهقر من جراء مَواطِن ضعف شخصية فيهم. أضف إلى ذلك أن "أخوَّتنا" ليست هيئة "معترفًا بها" أو راسخة وهي تقف، إذا جاز القول، خارج حظيرة الشَّرْع. وهي، إلى ذلك، في وضع من الفوضى المطبقة، كما وأنها، ظُلمًا، تتفوق في عدم شعبيتها على أية هيئة ثانية. فلا عجب إذن، أن يلجأ أولئك الأعضاء الذين فشلوا في تحقيق مُثُل الجمعية السامية بعد أن غادروا الجمعية، إلى أعدائنا ابتغاء نيل حمايتهم المتعاطفة، فيصبُّون جام غضبهم ومرارتهم في آذان هؤلاء المستعدة للإصغاء للغاية! وإذ يعرفون بأنهم سيجدون الدعم والعطف، والأذن المصغية لكلِّ اتهام يحلو لهم أن يشنُّوه ضدَّ الجمعية الثيوصوفية، مهما كان سخيفاً، وسرعان ما يفعلون ذلك، ويفشُّون غيظَهم في المرآة البريئة التي عَكَسَتْ وجوههم بكلِّ صدق. المرء لا يغفر أبداً لِمَن يسيء إليهم! إن إحساسه باللطف الذي يُعامَل به، والذي يجازيه بالجحود، يدفعه إلى سَوْرةٍ هوجاء من تبرير النفس أمام العالم وأمام ضميره هو. أما العالم فهو أكثر من مستعد لتصديق كلِّ ما يقال ضد جمعية يكرهها. وأما ضميره... فيكفي ما قلت حتى الآن، خشية أن أكون قلت أكثر مما ينبغي!

سؤال: أنتم في وضع لا تُحسَدون عليه، على ما يبدو لي.

الثيوصوفي: فعلاً. ولكن ألا تعتقد بأنه ينبغي أن يوجد من وراء الجمعية وفلسفتها شيء هو من النبل، والسمو، والحقيقة بحيث إن قائدا الحركة ومؤسِّساها لا يزالان يواصِلان العمل من أجلها بكل ما أوتيا من قوة؟ إنهما يضحيان من أجلها بكل راحة، بكل صلاح دنيوي، وبكل نجاح، وحتى بطيب سمعتهما – لا بل حتى بشرفهما – لا لشيء إلا ليتلقوا في مقابل ذلك استنكاراً متواصلاً لا ينقطع، اضطهاداً لا رحمة وهوادة فيه بهتاناً لا يكل، جحوداً متواصلاً، سوءَ فهم لخيرة جهودهما ضربات ولكمات من كل حدب وصوب – في حين أنهما، بمجرَّد التخلي عن عملهما، سيجدان نفسيهما على الفور، وقد أُعتِقا من كل مسؤولية، في مأمَن من أيِّ هجوم آخر.

سؤال: أعترف بأن مثابرة كهذه تبدو لي مدهشة للغاية، وقد تساءلت عن سبب قيامكم بهذا كله.

الثيوصوفي: صدَّقني أننا لا نقوم به من أجل إرضاء أنفسنا إنما أملاً في تدريب بضعة أفراد يواصلون عملنا من أجل الإنسانية وفقاً لبرنامجه الأصلي، بعد موت المؤسسين ورحيلهم. ولقد عثرا فعلاً على قلة من هذه النفوس النبيلة والمتفانية لتحل مكانهما. وبفضل هذه القلة، ستجد الأجيال القادمة بأن الدرب المؤدي إلى السلام بأنه أقل شوكاً بقليل، والطريق أكثر انفراجًا بقليل، وبهذا يكون هذا العذاب كله قد أثمر عن نتائج طيبة ولن تضيع تضحيتُهما بنفسهما سدى. أما بهذه الساعة، فإن الهدف الرئيسي والأساسي للجمعية هو زرع بذور في قلوب البشر، قد تتفتح مع الوقت، فتؤدي، في ظروف أكثر مؤاتاة إلى إصلاح

صحيح، يقود إلى سعادة للجماهير أكبر من التي تمتَّعتْ بها حتى الآن.

الباب الثالث عشر

حول المفاهيم الخاطئة عن الجمعية الثيوصوفية

الثيوصوفيا والزهد

سؤال: سمعت الناس يقولون إن قواعدكم تفرض على جميع الأعضاء أن يكونوا نباتيين، متبتّلين، وزهاد أشداء، غير أنك لم تخبرني بشيء من هذا القبيل بعدُ. فهل لك أن تخبرني بالحقيقة القاطعة حول هذا الأمر؟

الثيوصوفي: الحقيقة هي أن قواعدنا لا تفرض شيئاً من هذا القبيل. فالجمعية الثيوصوفية لا تنتظر حتى من أيٍّ من أعضائها – فما بالك أن تفرض عليه! – أن يزهد من أيِّ وجه – اللهم إلا إذا أسميت زُهداً التزامَهم بمحاولة جلب النفع على غيرهم من الناس والاتصاف بالإيثار في حياتهم.

سؤال: ومع ذلك فإن العديد من أعضائكم نباتيون متشددون ويعترفون علناً بنيّتهم البقاء غير متزوجين. وهذه أيضاً هي

في أغلب الأحيان، حال أولئك الذين يقومون بدور بارز فيما يتعلق بعمل جمعيتكم.

الثيوصوفي: هذا طبيعي للغاية، لأن غالبية عمَّالنا المخلصين بالفعل هم أعضاء في القسم الباطني للجمعية التي سبق لي وأن أخبرتك عنها.

السائل: آه! فأنتم، إذن، تفرضون رياضات زهدية في ذلك القسم الباطني؟

الثيوصوفي: لا، نحن لا نفرض عليهم ولا نحضُّهم حتى هناك. لكن الأفضل لي، فيما أرى، أن أقدِّم لك تعليلاً لنظرتنا في موضوع التزهُّد بشكل عام، وعند ذلك سوف تفهم ما يتعلق بالحِمْية النباتية وهلم جرا.

سؤال: أرجوك تفضل.

الثيوصوفي: كما سبق لي أن أخبرتك، يتمنَّى غالبية الأفراد الذين يصبحون فعلاً طلبة مخلصين للثيوصوفيا وعمالاً ناشطين في جمعيتنا أن يفعلوا أكثر من مجرد دراسة الحقائق التي نُعلِّمها دراسة نظرية فقط. ويتمنون أن يعرفوا الحقيقة اختباراً شخصياً مباشراً، وأن يدرسوا الغيبيات بهدف تحصيل الحكمة والقدرة اللتين يشعرون أنهم في حاجة إليهما من أجل مساعدة الآخرين مساعدة ناجحة وذكية، لا عمياء وكيفما اتفق. لذا فإنهم، عاجلاً أم آجلاً، ينضمون إلى القسم الباطني.

سؤال: لكنك قلت إن "الرياضات" الزهدية ليست إجبارية، حتى في ذلك القسم الباطني؟

الثيوصوفي: هي ليست كذلك فعلاً. لكن أول أمر يتعلَّمه الأعضاء هناك هو تصورٌ صحيح عن علاقة الجسم – أو الغلاف الجسدي – بالإنسان الباطني، الإنسان الحق. فالعلاقة والتفاعل بين هذين المظهرين من مظاهر الطبيعة الإنسانية يُعلَّلان ويبيَّنان لهم، بحيث إنهم سرعان ما يتحققون من كون الإنسان الباطني يفوق أهميةً غلافه الخارجي أو الجسم. إنهم يتعلَّمون أن التزهُّد الأعمى هو ضرب من الجنون، أن سلوكاً من نحو سلوك القديس لابرو، الذي سبق لي أن أتيت على ذكره، أو سلوك فقراء الهند وزهَّاد الأدغال، الذين يشطبون أجسامهم ويحرقونها ويشوِّهونها بأقسى الطُّرُق وأشدها فظاعة، هو ببساطة تعذيبٌ للنفس لمقاصد أنانية – وأعني تنمية قوة الإرادة – لكنه عديم الفائدة تماماً لغاية مساعدة النموِّ الروحي الحقيقي أو الثيوصوفي.

سؤال: أراك تعتبر الزهد المعنوي وحده ضرورياً. إنه من قبيل الوسيلة إلى الغاية – بوصف هذه التوازن الكامل لطبيعة الإنسان الباطنية وبلوغ الهيمنة التامة على الجسم، بكلِّ أهوائه ورغباته.

الثيوصوفي: بالضبط. لكن هذه الوسائل يجب أن تُستعمَل استعمالاً ذكياً وحكيماً، لا أعمى وأحمق – شأن العدَّاء الذي يتدرَّب ويستعد لسباق كبير، وليس كالبخيل الذي يجوِّع نفسه حتى المرض حتى يُشبِع هواه إلى الذهب.

سؤال: بدأت الآن أفهم فكرتك العامة، ولكن دعنا نرى كيف تطبِّقونها عملياً. ماذا عن الحِمْية النباتية، على سبيل المثال؟

الثيوصوفي: لقد بيَّن واحد من العلماء الألمان الكبار أن جميع أنواع الأنسجة الحيوانية، كيفما اتَّفق لك أن تطبخها، تستبقي مع ذلك بعض الخصائص البارزة للحيوان الذي نُزعت منه – وهذه الخصائص يمكن التعرف إليها. وفضلاً عن ذلك، يعرف كلٌّ أحد نوعَ اللحم الذي يأكله من طعمه. ونحن نمضي خطوةً إضافية قُدماً، ونبرهن أن لحم الحيوان، حين يتمثَّله المرء بوصفه طعاماً، يضفي عليه، فسيولوجياً، بعض خصائص الحيوان الذي نُزع منه. عداك عن أن العلم الغيبي يُعلِّم هذا لطلابه ويبرهن عليه لهم بالبرهان العياني، مبيّناً كذلك أن هذا الأثر "المجلِّف" أو "المُحَيْوِن"[221] على الإنسان يكون أعظم من جرَّاء لحم الحيوانات الضخمة، وأقل منه في الطيور، وأقل فأقل منه للسمك وغيره من الحيوانات ذوات الدم البارد وأصغر كمية حين يكتفي بأكل الخضار.

سؤال: ربما يُحسن به ألا يأكل على الإطلاق؟

الثيوصوفي: بالطبع – لو كان يستطيع أن يعيش من غير أن يأكل. لكن، بما أن الأمور على ما هي عليه، فلا بدَّ له من أن يأكل ليعيش. لذا ننصح للطلاب المخلصين حقاً أن يأكلوا من الطعام ما من شأنه أن يثبِّط أدمغتهم وأجسامهم ويثقل عليها في الحدِّ الأدنى ويكون له أصغر الأثر على إعاقة نموِّ حَدْسهم وملَكاتهم وقدراتهم الباطنية وإبطائه.

سؤال: أنتم، إذن، لا تتبنون سائر الحُجَج التي من عادة النباتيين بعامة أن يستعملوها؟

---

221 اتسم بطبائع حيوانية.

الثيوصوفي: قطعاً لا. فبعض حُجَجِهم ضعيف جداً، وغالباً ما تكون مبنية على افتراضات مغلوطة تماماً. لكن الكثير من الأمور التي يقولونها، من جانب آخر، صحيحة كلَّ الصحة. فعلى سبيل المثال، نحن نعتقد أن الكثير من الأمراض وبخاصة الاستعداد الكبير للإصابة بالمرض الذي يصير من سمات زماننا البارزة، يعود في معظمه إلى أكل اللحم، ولاسيما اللحوم المعلَّبة. لكن من شأن تمحيص مسألة الحِمْية النباتية هذه بحيثيَّاتها تمحيصاً كاملاً أن يستغرق وقتاً طويلاً جداً، لذلك فلننتقل إلى أمر آخر.

سؤال: دعني أسألك سؤالاً آخر: ماذا يتوجب على أعضاء قسمكم الباطني أن يفعلوا فيما يخص طعامهم حين يمرضون؟

الثيوصوفي: بالطبع يتعيَّن عليهم أن يتبعوا أفضل نُصْح يمكن أن يُسدى إليهم. ألم تنتبه بعد إلى أننا لا نفرض أبداً أية التزامات صارمة في هذا الخصوص؟ تذكَّر للمرة الأخيرة أننا في مثل هذه المسائل جميعها نعتمد نظرة عقلانية إلى الأمور لا نظرة متعصِّبة. إذا كان امرؤ لا يستطيع أن يستغني عن اللحم بسبب المرض أو دوام العادة، فلا يُحرَمنَّ من أكله بأيِّ حال من الأحوال. ليس هذا بشكل الزامي – وإن كان سيؤخر تقدُّمه قليلاً فقط. مهما قيل أو فُعِلَ، فإن الأفعال والوظائف الجسدية الصرفة أقل أهمية بكثير مما يفكِّر فيه امرؤ ويشعر به، من الرغبات التي يفسح لها المجال في ذهنه ويسمح لها بالتجذُّر والنمو هناك.

سؤال: فما قولك فيما يتعلق بِشُرْب الخمر والمشروبات الروحية؟ أظنكم لا تنصحون الناس بشربها؟

الثيوصوفي: أثرُها أسوأ على نموّ الإنسان الخُلُقي والروحي من اللحم، إذ إن للكحول، بأشكالها كلها، تأثيراً مباشراً واضحاً، ومضراً جداً على حالة المرء النفسانية. غير أن معاقرة الخمر والمشروبات الكحولية أقل ضرراً على تنمية القدرات الباطنية من الإدمان على تعاطي الحشيش والأفيون والعقاقير المشابهة.

الثيوصوفيا والزواج

سؤال: فننتقل الآن إلى سؤال آخر: هل يجب على المرء أن يتزوج أو أن يبقى أعزب؟

الثيوصوفي: هذا يتوقف على نوعية المرء الذي تعنيه. إذا كنت تعني شخصاً ينوي أن يعيش في العالم، شخصاً على كونه ثيوصوفيًّاً طيباً مخلصاً وعاملاً شديد التحمُّس لقضيتنا، مازال مشدوداً إلى العالم بقيود وأمنيات، شخصاً، باختصار، لا يشعر أنه أنهى حساباته مع ما يسمِّيه البشر الحياة، لكنه يرغب في شيء واحد – وفي شيء واحد فقط وهو: معرفة الحقيقة والقدرة على مساعدة الآخرين، عندها أقول لمثل هذا المرء إنه لا مانع من أن يتزوج، إذا كان يود أن يجازف في أخطار هذا اليانصيب، حيث فُرَصُ الخسارة أكبر بكثير من فُرَصِ الربح. قطعاً لا يمكن لك أن تظنَّنا من السخف والتعصب بحيث نعظ بعدم الزواج إجمالاً؟ الزواج، على العكس – اللهم إلا في بضع حالات استثنائية تتعلَّق بالغيبيات العملية – هو الحصن الوحيد ضد الفسق.

سؤال: ولكن لماذا لا يستطيع الإنسان أن يحصل على هذه المعرفة والقدرة وهو يحيا حياة زوجية؟

الثيوصوفي: ليس هنا، سيدي العزيز، مكان الخوض معك في مسائل فسيولوجية، لكنني أستطيع أن أعطيك جواباً واضحاً وأعتقد أنه كافٍ، ومن شأنه أن يعلِّل لك الأسباب الأخلاقية التي نقدمها لذلك. هل يستطيع إنسان أن يخدم سيِّدين؟ لا! كذلك سيكون من المستحيل عليه، مشاركة اهتمامه بين الغيبيات

وبين زوج. فإذا حاول ذلك، سيخفق لا محالة في القيام بكلا الأمرين على الوجه الصحيح. ودعني أذكِّرك بأن الغيبيات العملية هي دراسة أخطر شأناً وأكثر جدِّية بكثير من أن يقوم بها إنسان، ما لم يكن يتشوق إخلاصاً واستعداداً للتضحية بكلِّ شيء، وبنفسه قبل كلِّ شيء، للفوز بغايته. لكن هذا لا ينطبق إلا على أعضاء قسمنا الباطني. أنا أتكلَّم فقط عن الذين عقدوا العزم على السير على درب المريدية، ذاك الذي يقود إلى الغاية الأسمى. أما أولئك الذين ينتسبون إلى قسمنا الخارجي فهم، في معظمهم، إن لم نقل في غالبيتهم، مجرَّد مبتدئين، يستعدون في هذه الحياة للسير على تلك الدرب فعلياً في تقمصات مقبلة.

الثيوصوفيا والتربية

سؤال: واحد من أقوى حُجَجك على عدم ملاءمة الأشكال الحالية للدين في الغرب، وكذلك إلى حدٍّ ما الفلسفة المادية التي باتت الآن تتمتع بكثير من الشعبية – مع أنه يبدو أنك تعتبرها رجس من الخراب – حجة وجود هذا القدر الكبير من البؤس وسوء الحال، بما لا يمكن إنكاره، ولاسيما في مدننا الكبرى. لكنك يجب أن تعترف حتماً بكلِّ ما تمَّ القيام به – وبما يتم القيام به – لتدارُك هذا الوضع بتعميم التعليم ونشر المعلومات.

الثيوصوفي: ستكاد الأجيال القادمة ألا تكون ممتنة لكم على مثل هذا "النشر للمعلومات" وحتى تعليمكم الحالي لن يكون ذا فائدة تُذكَر للجماهير الفقيرة الجائعة.

سؤال: آه، لكنك يجب أن تمنحنا الوقت لذلك. إذ لم ينقضِ غير بضعة سنوات على بدئنا بتعليم الناس.

الثيوصوفي: قل لي، من فضلك، ماذا فعلت ديانتك المسيحية منذ القرن الخامس عشر، ما دمت تعترف بأن تعليم الجماهير لم يُباشَر حتى الآن – العمل (إن كان يمكن له أن يكون موجوداً أصلاً!) الذي كان ينبغي على الكنيسة والشعب المسيحي، أي أتباع المسيح، أن يقوما به؟

سؤال: طيب، قد تكون على حق، ولكن الآن....

الثيوصوفي: دعنا وحسب ننظر في مسألة التعليم هذه من منظار أوسع، ولسوف أبرهن لك أنكم، بالعديد من تحسيناتكم

التي تباهون بها، تضرون ولا تنفعون. صحيح أن المدارس المخصَّصة للأطفال الفقراء، على كونها أقل فائدة مما ينبغي أن تكون عليه بكثير، هي جيدة بالمقارنة مع البيئة الكريهة التي يحتِّمها عليهم مجتمعُكم العصري، إنما نشر القليل من الثيوصوفيا العملية من شأنه أن يساعد الجماهيرَ المعدمة الشقية في الحياة أكثر بمئة مرة من نشر المعلومات (عديمة الفائدة) هذا كله.

سؤال: ولكن حقاً....

الثيوصوفي: دعني أكمل، من فضلك. لقد فتحت موضوعاً يحزُّ في نفوسنا بعمق، نحن الثيوصوفيين، وينبغي أن أقول فيه رأيي. أوافقك كل الموافقة أن هناك ميزة كبيرة لطفل صغير نشأ في الأحياء القذرة، وكان ملعبه مصارف المياه، وعاش وسط فحش مستمر، فعلاً وقولاً، أن يوضَع يومياً في صفٍّ مضاء نظيف، جدرانه مزينة باللوحات، وكثيراً ما تُبْهِج منظرَه الزهور. هناك يُلقَّن أن يصير نظيفاً، ولطيفاً، ومرتباً، ويتعلم الغناء واللعب، ويتمتع بألعاب توقظ ذكاءه وبديهيته ويتعلَّم كيف يستعمل أصابعه بلباقة، وكيف يتكلم بابتسامة بدلاً من العبوس في وجهه، ويوبِّخ أو يؤالف بلطفٍ بدلاً من أن يُلعن. هذا كلُّه يؤنسِن الأطفال، ينشِّط أدمغتهم، ويجعلهم قابلين لشتى المؤثرات العقلية والأخلاقية. المدارس ليست على كل ما يمكن لها وما ينبغي عليها أن تكونه، لكنها جنة بالمقارنة مع البيوت، وهي تنعكس انعكاساً بطيئاً على البيوت. ولئن صحَّ هذا على العديد من المدارس الداخلية، إلا أن نظامكم يستحق أسوأ ما يمكن أن يُقال فيه.

سؤال: فليكن. تابع.

الثيوصوفي: ما هو الهدف الحقيقي للتعليم الحديث؟ هل هو تنشئة الذهن وتنميته في الاتجاه السليم، تعليم المحرومين والضعفاء من الناس احتمالَ عبء الحياة (الذي يقدره لهم الكارما) برباطة جأش، وتقوية إرادتهم، وتلقينهم محبة القريب والشعور بالتكافل والإخاء – وبذلك ترويض الطبع وتأهيله للحياة العملية؟ أبداً! ومع ذلك، لا شك في أن هذه هي أهداف كل تربية سليمة. لا أحد ينكر ذلك، جميع مربِّيكم يقرون به ويطبلون فعلاً في الكلام على الموضوع. لكن ما هي نتيجة عملهم العملية؟ كلُّ فتى وصبي، لا بل كلُّ واحدٍ من معلِّمي المدارس الشباب سوف يجيب: "هدف التربية الحديثة هو اجتياز الامتحانات" – نظام غير مؤهَّل لتنمية المنافسة الشريفة، بل لزرع بذور الغيرة، والحسد، والكراهية تقريباً في نفوس الشباب بعضهم حيال بعض، وبالتالي، ترويضهم على حياة من الأثرة الشرسة والصراع على المناصب والامتيازات بدلاً من الشعور الودي.

سؤال: لا بدَّ من الاعتراف بأنك على حقٍّ في هذا.

الثيوصوفي: وما هي هذه الامتحانات – رعب الصبا والشباب المعاصرين؟ إنها ببساطة منهج للتصنيف تتمُّ به جَدْوَلَةُ تعليمكم المدرسي. إنها، بعبارة ثانية، تشكِّل التطبيق العملي للمنهجية العلمية الحديثة على الجنس البشري، منظوراً إليه من منظار العَقْلَنَة. بيد أن "العلم" يُعلِّم أن الفكر هو نتاج التفاعل الآلي لمادة المخ، وبالتالي، فمن المنطقي تماماً أن التربية الحديثة تكاد أن تكون برمَّتها آلية – نوعاً من الآلة

**الأوتوماتيكية لتصنيع الفكر بالأطنان! يكفينا القليل من الخبرة في الامتحانات لإظهار أن التربية الناجمة عنها ما هي إلا تدريب للذاكرة الجسدية – وعاجلاً أم آجلاً سوف تصل مدارسُكم جميعاً إلى هذه الحال المزرية. أما التنشئة الحقيقية المتينة، للتفكير وللعقل فهي ببساطة متعذرة لأن كلَّ شيء ينبغي أن يُحاكَم بالنتائج كما تقيسها الامتحانات التنافسية.
أجل، إن التأهيل المدرسي هو من الأهمية بمكان في تكوين الطبع، ولاسيما في معناه الأخلاقي. غير أن نظامكم الحديث من أوَّله إلى آخره، يقوم على الكشوف العلمية المزعومة: "الصراع على الوجود" و"بقاء الأصلح". كلُّ إنسان طوال السنوات الأولى من حياته، يُحقَن بها، سواء بالمثال والخبرة العمليين، أو بالتلقين المباشر، إلى أن يتعذَّر استئصالُ فكرة أن "الذات" – تلك الذات الدنيا، الشخصية، الحيوانية – هي الهدف الأقصى والجوهر النهائي للحياة من ذهنه. هنا مصدر المنشأ الرئيسي للعواقب التالية، بؤساً، وجريمةً، وأثرةً لا رحمة فيها، التي تقر بها مثلما أفعل. فالأثرة، كما قيل مراراً وتكراراً، هي لعنة البشرية، والوالدة الخصبة لشرور هذه الحياة وجرائمها – ومدارسُكم هي بؤر لمثل هذه الأثرة.**

سؤال: كل ذلك هو جيد من منظار العموميات، لكني أريد منك بضعة وقائع، وأود كذلك أن أعرف اقتراحاتكم للعلاج ولكيفية تدارك ذلك.

الثيوصوفي: حسناً جداً، سأحاول أن أرضيك. هناك ثلاث تقسيمات كبرى للمؤسَّسات المدرسية: المدارس الداخلية ومدارس الطبقة الوسطى، والمدارس الحكومية، تتدرَّج بين الأغلظ تجارياً وبين الكلاسيكي المثالي، يتخلَّلها الكثير من

التقليبات والتداخلات. المدارس العملية التجارية تنمِّي الجانب الحديث، والمدارس الكلاسكية التقليدية القديمة تسحب محترميَّتها الثقيلة على المؤسَّسات التعليمية الحكومية لإعداد المعلِّمين. وهنا نرى بوضوح الجانبَ التجاري، العلميَّ والمادي، يحل محلَّ الجانب التقليدي والكلاسيكي البالي. ومعرفة السبب كذلك ليست بالأمر الصعب. فموضوعات فرع التربية هذا هي، إذن، الجنيهات والشلنات والقروش، بما هي جماع الخير في القرن التاسع عشر. بذلك فإن الطاقات التي تولِّدها الجزيئات الدماغية للذاهبين لهذا المذهب متركزة جميعها على نقطة واحدة، وهي، بالتالي، إلى حدٍّ ما، جيش منظَّم من العقول المتعلِّمة والنظرية لأقلية من البشر، مُدربة على السيطرة على حشود الجماهير الجاهلة والساذجة المحكوم عليهم بتطفل إخوانهم المتفوقين فكرياً عليهم وباستغلالهم وسحقهم. مثل هذا التأهيل ليس غير ثيوصوفي فقط، بل هو غير مسيحي أيضاً. والنتيجة: العاقبة المباشرة لفرع التربية هذا هو إغراق السوق بآلات لكسب للمال، ببشر أنانيين قُساة – حيوانات – دُرِّبوا بكلِّ عناية تدريباً يعدُّهم لافتراس رفاقهم واستغلال جهل إخوانهم الأضعف منهم.

سؤال: حسناً، لكنك لا تستطيع أن تؤكد بأن ذلك يصح، على كلِّ حال، على مدارسنا الحكومية الكبرى؟

الثيوصوفي: ليس تماماً، أوافقك القول. ولكن مع أن الشكل مختلف، فإن الروح المحرِّكة هي هي: غير ثيوصوفية وغير مسيحية، سواء خرَّجتْ إيتون وهارُّو، علماء أو رجال دين وعلماء لاهوت.

سؤال: أنت حتماً لا تقصد أن تقول إن إيتون وهارُّو يمتلكون روح "تجارية"؟

الثيوصوفي: لا. النظام الكلاسيكي، بالطبع، هو، فوق كلِّ شيء، محترم، وهو في أيامنا هذه يثمر عن بعض الخير. وهو مازال الأفضل بين مدارسنا الحكومية الكبرى، حيث لا يتم تحصيل تعليم فكري فقط، بل تعليم اجتماعي أيضاً. لذا فإن من الأهمية بمكان أن يذهب أبناءُ الأسر الأرسطوقراطية الثرية البليدون إلى مثل تلك المدارس حتى يعاشروا بقية أقرانهم من شباب الطبقات "النبيلة" والميسورة. لكن، بكلِّ أسف، هناك منافسة شديدة على الدخول حتى، إذ إن الطبقات الميسورة في تزايد، والصبية الفقراء، لكن الأذكياء، يسعون إلى الحصول على منح من الأغنياء لدخول المدارس الحكومية، ومنها الانتساب إلى الجامعات.

سؤال: بحسب هذه النظرة، على "الأغبياء" الأغنى أن يكدوا أكثر من رفاقهم الأفقر حتى؟

الثيوصوفي: هو كذلك. لكن الغريب في الأمر أن أصحاب عقيدة "بقاء الأصلح" لا يعملون بعقيدتهم، إذ تذهب جهودهم برمَّتها إلى جعل غير المؤهَّلين طبيعياً يحلون محل المؤهلين. وبذلك فإنهم، عن طريق الرشاوى والمال الوفير، يُغرون خيرة الأساتذة بالتحول عن طلابهم الموهوبين لتلقين أبنائهم غير المؤهَّلين طبيعياً آليات مِهَنٍ تكتظ بهم من غير فائدة.

سؤال: وإلى ماذا تعزو هذا كله؟

الثيوصوفي: يعود هذا كله إلى خبث نظام ينتج البضائع عند الطلب، بصرف النظر عن ميول الشباب ومواهبهم الطبيعية. والمرشحون الفقراء الصغار لهذا الفردوس التعليمي المبرمج يكاد أن يأتي مباشرة من دار الحضانة إلى الرتابة المملة للمدرسة الإعدادية لأبناء السادة. وهنا ينقضُّ عليه على الفور عمال المصنع المادي–الفكري، ويحشون دماغه حشواً بقواعد صرف ونحو اللاتينية والفرنسية والإغريقية، بالتواريخ والجداول، بحيث، إذا كان موهوباً بقدر معين العبقرية، فإن هذه سرعان ما تُعتصَر منه بإمراره بين أسطوانات ما توفَّق كارلايل إلى تسميته بـ "المفردات الميتة".

سؤال: لكنه حتماً يُلقن شيئاً آخر غير "المفردات الميتة"، بل الكثير مما قد يقوده رأساً إلى الثيوصوفيا، وحتى إلى الجمعية الثيوصوفية؟

الثيوصوفي: ليس الكثير. فمن التاريخ سوف يحصِّل ما يكفي من المعرفة عن أمَّته هو فقط، ليتدرَّع بدرع فولاذي من التحامُل على الشعوب الثانية كافة، ولإغراقه في مجمع القاذورات الكريه للحقد القومي والتعطش إلى الدم المؤرَّخ – وأنت، طبعاً، لن تسمي ذلك ثيوصوفيا!

سؤال: ما هي اعتراضاتكم الأُخرى؟

الثيوصوفي: بالإضافة إلى هذا، هناك نبذة مختارة، على حدِّ زعمهم، من الوقائع الكتابية، التي يلغى من دراستها عمل العقل. إنه ببساطة درس في الحفظ غيبًاً، حيث تكتفي "لماذا" المدرِّس بتعليل الظروف، وليس الأسباب.

سؤال: أجل، ولكني سمعتك تهنِّئ نفسك بالعدد المتزايد من اللاأدريين والملاحدة في يومنا هذا، بحيث يبدو أنه حتى الناس المدرَّبون في النظام الذي تقلل من شأنه بكلِّ هذا الحماس يتعلمون فعلاً أن يفكروا ويعقلوا بمفردهم.

الثيوصوفي: نعم، ولكن من جرَّاء ردَّة فعل صحية على ذلك النظام، وليس بفضل منه. ونحن، في جمعيتنا، نفضل بما لا يقاس اللاأدريين، وحتى عتاة الملاحدة، على المتزمِّتين، من أيِّ دين كانوا. فذهن اللاأدري منفتح دائماً للحقيقة، بينما الحقيقة تُعمي بَصَر المتزمِّت كما تُعمي الشمس بَصَرَ البومة. إن خيرة أعضائنا – أي أكثرهم محبة للحقيقة، وأكثرهم إحساناً، وأصدقهم – كانوا، وهم الآن، لاأدريين وملحدين (غير مؤمنين بإله شخصي). ولكن ليس هناك شبان وشابات مفكرون أحرار من تلقاء نفوسهم، والتأهيل الباكر لا بدَّ عموماً من أن يترك سِمَتَه على هيئة ذهن سقيم ومشوَّه. لا بد لنظام تربوي سليم وصحيح أن يخلق الذهن الأكثر حيوية وتحرراً المدرَّب تدريباً صارماً على التفكير المنطقي الدقيق، وليس على الإيمان الأعمى. فكيف يمكن لك يوماً أن تتوقع نتائج طيبة، وأنت تُفسِد عقل أبنائك بحملهم على الإيمان بمعجزات الكتاب يوم الأحد، بينما تعلِّمهم طوال الأيام الستة الباقية أن أموراً كهذه مستحيلة علمياً؟

سؤال: ماذا كنتم لتفعلون إذن؟

الثيوصوفي: لو كان لدينا المال، لأسَّسنا مدارس يتخرَّج منها أناسٌ ليسوا مرشحين للجوع ملمون بالقراءة والكتابة. على الأطفال أن يتعلَّموا، قبل كلِّ شيء، الاتكال على النفس، ومحبة

البشر أجمعين، والغيرية، والإحسان المتبادل، وأكثر من أيِّ شيء آخر، كيف يفكرون ويعقلون بأنفسهم. ولسوف نختصر عمل الذاكرة الميكانيكي المحض إلى حدِّه الأدنى الضروري ونخصِّص الوقت لتنمية حواسهم وملَكاتهم الباطنة وقدراتهم الكامنة ولتدريبها. وسوف نكون حريصين على التعامل مع كلِّ طفل بوصفه وحدة مستقلة، وعلى تربيته بحيث يبلغ تفتحَ قدراته الأكثر تناغماً وتوازناً، من أجل أن تتفتح استعداداته الخاصة أقصى تفتحها الطبيعي. سوف نستهدف إيجاد رجال ونساء أحرار، أحرار فكرياً، أحرار معنوياً، غير متعصبين من كلِّ النواحي، وفوق كلِّ شيء، غير أنانيين. ونحن نعتقد أن جلَّ هذا – إن لم نقل كله – يمكن لتربية صحيحة وثيوصوفية حقاً أن تؤمنه.

لماذا، إذن، هناك كل هذا التحامل ضد على ج.ث؟

سؤال: إذا افترضنا أن الثيوصوفيا ليست إلا نصف ما تقول حتى، ما مسوِّغ هذا الاستياء كلِّه ضدها؟ فهنا مكمن المشكلة أكثر من أيِّ شيء آخر.

الثيوصوفي: هو كذلك. لكنْ يجب ألا يغيب عن ذهنك كم من الخصوم الألداء استعدينا منذ تأسيس جمعيتنا. كما قلت لتوِّي لو كانت الحركة الثيوصوفية واحدة من تلك الصرعات العصرية العديدة، المأمونة الجانب في النهاية بقدر ما هي سريعة الزوال، لكان الناس اكتفوا بالسخرية منها – كما يسخر منها الآن أولئك الذين لا يفقهون القصد الحقيقي منها – ولتعمَّدوا تجاهُلها. لا شيء من هذا. الثيوصوفيا، بحكم طبيعتها، هي أكثر حركات عصرنا جدية، وهي، علاوة على ذلك، حركة تهدِّد في حياتها نفسها غالبية أعرق ضروب التدليس والتعصب والشرور الاجتماعية الحالية – تلك الشرور التي تسمِّن عشرةً من أصحاب المنازل العليا ومن أتباعهم من المقلِّدين والمتزلِّفين لهم وتُسدهم، وبضع دزِّينات من أثرياء الطبقات الوسطى، في حين أنها يقيناً تسحق وجود ملايين الفقراء وتجوِّعهم. فكِّر في هذا، وسوف تفهم بسهولة سبب الاضطهاد هذا الذي لا هوادة فيه من جانب أولئك الذين – وهم الأدق ملاحظة والأثقب ذهناً – يرون فعلاً الطبيعة الحقيقية للثيوصوفيا، فيخافون منها.

سؤال: هل تقصد أن تقول لي إن هناك قلة قد فهمتْ مقاصد الثيوصوفيا، وأنها، لهذا السبب، تحاول أن تسحق الحركة؟ ولكن إذا كانت الثيوصوفيا لا تقود إلا إلى الخير، فإنه حتماً لا يحق لك أن تنطق بمثل هذا الاتهام الرهيب بالقسوة والغدر الخسيسين – حتى لتلك القلة؟

الثيوصوفي: على العكس، يحق لي ذلك. فأنا لا أنعت الأعداء الذين اضطررنا إلى مجابهتهم إبان التسع أو العشر سنين الأولى من عمر الجمعية لا بالقدرة ولا بـ "الخطر"، بل فقط أولئك الذين قاموا علينا في السنين الثلاث أو الأربع الأخيرة. وهؤلاء لا يتكلَّمون ولا يكتبون ولا يكرزون ضد الثيوصوفيا بل يعملون في الصمت ومن خلف ظهور الدمى الحمقاء المرئية التي يحركونها بخيوطهم الخفية. ولئن كانوا خارج أنظار غالبية أعضاء جمعيتنا، إلا أن "مؤسِّسي" جمعيتنا الحقيقيين وحماتها يعرفونهم تمام المعرفة. لكن أسماءهم يجب أن تبقى طيَّ الكتمان في الوقت الحاضر لأسباب تخصنا.

سؤال: هل يعرفهم الكثير منكم، أم أنك وحدك تعرفهم؟

الثيوصوفي: لم أقل أبداً أني أعرفهم. قد أعرفهم وقد لا أعرفهم – يكفي أن أعرف بوجودهم. وأنا أتحداهم أن يفعلوا أسوأ ما تطاله أيديهم. قد ينجحون في إلحاق أذى كبير بنا وفي بذر البلبلة بين صفوفنا، ولاسيما بين أصحاب القلوب الخائرة والذين لا يحكمون إلا بحسب المظاهر.

لكنهم لن يسحقوا الجمعية، مهما فعلوا. وماعدا أولئك الأعداء الخطرين حقاً – إنما "الخطرين" فقط على أولاء الثيوصوفيين

غير المستحقين لِلَقَبِهم، الذين مكانهم بالأحرى خارج ج.ث وليس داخلها – فإن عدد خصومنا أكثر من أن يستهان به.

سؤال: هل تستطيع تسمية هؤلاء، على الأقل، ما دمت لا تريد أن تتكلَّم على الآخرين؟

الثيوصوفي: بالطبع أستطيع. علينا أن نقاوم 1) كراهية الأرواحيين، أمريكيين وإنكليز وفرنسيين 2) المعارضة الدائمة من رجال الدين من المذاهب كافة 3) وبخاصة كراهية المبشِّرين في الهند واضطهادهم الذي لا يهدأ 4) وهذا قاد إلى حملة "جمعية البحوث النفسانية" الشهيرة والخسيسة على جمعيتنا الثيوصوفية – وهي حملة أثارتْها مؤامرةٌ حقيقية أعدَّ لها المبشِّرون في الهند. وأخيراً، يجب أن نذكر في عِدادهم أعضاء الجمعية البارزين (؟) الذين نقضوا ولاءهم لأسباب سبق لي أن شرحتُها – وجميعهم أسهم بكل ما في وسعه في زيادة التحامل على الجمعية.

سؤال: ألا يمكن لك أن تقدِّم لي تفاصيل أكثر عن هؤلاء، وذلك لكي أعرف بماذا أجيب حين أُسأل – موجزاً لتاريخ الجمعية الثيوصوفية، باختصار، ولماذا يصدِّق العالمُ هذا كله؟

الثيوصوفي: السبب بسيط. فغالبية الغرباء لم تكن تعرف شيئاً عن الجمعية نفسها مطلقاً، دوافعها، غاياتها، أو معتقداتها. فمنذ بداية الثيوصوفيا نفسها، لم يَرَ العالم فيها شيئاً غير ظواهر خارقة معينة، لا يصدقها الثلث، غير الأرواحيين. وهكذا سرعان ما بات يُنظَر إلى الجمعية بوصفها كهيئة تزعُم امتلاك قدرات "عجائبية". لم يدرك العالم قط أن الجمعية كانت تعلِّم الكفر المطلق بالمعجزة أو حتى بإمكان وجودها، وأنه في

الجمعية لم يكن ثمة غير بضعة أناس يمتلكون مثل هذه القدرات النفسانية، وحتى أنه لا يوجد إلا قلة أصغر من هؤلاء يهتمون بها.

كما لم يُفهم أن الظواهر لم تُمارَس علانية، بل بالخفاء لبعض الأصدقاء، وفقط كمجرد شيء ثانوي للإثبات بالبرهان المباشر أن مثل هذه الأمور يمكن لها أن تُمارَس بلا غرف مظلمة، ولا "أرواح"، ولا وسطاء، ولا أيِّ من المعدات المعتادة. ولسوء الحظ، تعزَّز هذا التصور المغلوط وبولغ فيه من جرَّاء الكتاب الأول في الموضوع الذي حرَّض الكثير من الانتباه في أوروبا – كتاب السيد سينِّيت "العالم الغيبي"[222]. فإن ساعد هذا المؤلَّف كثيراً في لفت الأنظار إلى الجمعية، إلا أنه جذب المزيد من الاستنكار والاستهزاء والتصورات المغلوطة على أبطاله المغلوبين على أمرهم وعلى بطلته المنكودة. وقد تلقَّى واضعُ الكتاب أكثر من تحذير في العالم الغيبي، لكنه لم يُعِرْ انتباهًا للنبوءة – إذ إنها كانت نبوءة، على كونها نصف محجوبة.

سؤال: لماذا يكرهكم الأرواحيين، ومنذ متى؟

الثيوصوفي: منذ اليوم الأول من عمر الجمعية. إذ لم يكد يُعلَمون أن الجمعية، كهيئة، تنعت بالكذب الاتصالات مع أرواح الموتى، بل تعتبر "الأرواح" المزعومة، في معظمها انعكاسات نجمية للشخصيات المفصولة عن أجسادها، وقواقع وأصداف إلخ، حتى أعرب الأرواحيين عن كره عنيف لنا وبخاصة للمؤسِّسين. وهذا الكره تمَّ التعبير عنه بشتى أنواع الافتراء

[222] A. P. Sinnett, The Occult World, Londres : Trübner and Co., 1881 (N.d.T.).

والانتقادات الشخصية الجائرة، والتصورات المغلوطة السخيفة عن التعاليم الثيوصوفية في الصحف الأرواحية الأمريكية كافة. وطوال سنوات، تم اضطهادنا وشُهروا بنا وقلل من شأننا. وقد بدأ هذا في العام 1875، ومازال مستمراً حتى يومنا هذا. في العام 1879، تمَّ نقل مقر ج.ث. من نيويورك إلى بومباي الهند، ثم إلى مدراس بصفة دائمة. وعندما تأسَّس الفرع الأول لجمعيتنا، ج.ث البريطانية، في لندن، حمل علينا الأرواحيون الإنكليز حملة شعواء، مثلما فعل رفاقهم الأمريكيون، ثم سار الأرواحيون الفرنسيون على خطاهم.

سؤال: لكن لماذا يعاديكم رجال الدين مادام الميل الرئيسي للعقائد الثيوصوفية، في النهاية، معادياً للمادية، العدوِّ اللدود لكل أشكال الدين في أيامنا كافة؟

الثيوصوفي: لقد استعدانا رجال الدين عملاً بالمبدأ العام الذي مفاده: "من لم يكن معي فهو ضدي." وبما أن الثيوصوفيا لا تتفق مع أيِّ طائفة أو مذهب، فلا بدَّ أن تُعتبَر عدوَّتَها جميعاً على حدٍّ سواء، لأنها تُعلِّم بأنها جميعها مخطئة، بدرجة تزيد أو تنقص.

أما المبشِّرون في الهند فقد كرهونا وحاولوا تحطيمنا لأنهم رأوا زهرة الشباب الهندي المثقف والبراهمانيين، الذين استعصوا عليهم، ينضمون إلى الجمعية بأعداد غفيرة. ومع ذلك، باستثناء هذا العداء الطبقي العام، هناك في عِداد صفوف الجمعية العديد من رجال الدين، وحتى مطران أو اثنان.

سؤال: ما الذي دفع بجمعية البحوث النفسانية إلى مناصبتكم العداء؟ كلاكما وضع نصب عينيه برنامج الدراسة نفسه، من

بعض الوجوه، وكان هناك عدد من الباحثين النفسانيين منتسبين إلى جمعيتكم.

الثيوصوفي: في بداية الأمر، كانت تربطنا صداقة طيبة جداً بقادة ج.ب.ن، ولكن عندما نُشِرَ التهجُّم على الظواهر في مجلة المعهد المسيحي[223]، تؤيِّدها معلومات مزعومة مصدرها أحد الخَدَم، وجدت ج.ب.ن. أنهم وضعوا أنفسهم موضع الريبة بنشرهم في "مَحَاضِرهم" العديد من الظواهر التي جَرَتْ ذات الصلة مع ج.ث. فطموحهم هو أن يتخذوا وضعية هيئة علمية حصراً ذات مرجعية، لذا كان عليهم أن يختاروا بين الاحتفاظ بتلك المنزلة بنبذ ج.ث.، وحتى بمحاولة تحطيمه، وبين رؤية أنفسهم مختلطين، في رأي صدوقيي المجتمع الراقي[224]، مع الثيوصوفيين والأرواحيين "السذَّج". لم يجدوا لأنفسهم مخرجاً من المأزق، لم يجدوا خيارين، فاختاروا أن يتخفَّفوا منَّا. كان الأمر في نظرهم ضرورة لا مناحة عنها. لكنهم من فرط اضطرارهم إلى إيجاد أيِّ دافع لدى المؤسِّسين، معقول من حيث الظاهر، إلى حياة عمادها الانقطاع المخلص والعمل الدؤوب، وإلى الغياب التامِّ لأيِّ مكسب مادي أو أيِّ امتياز آخر، عندها، لم يجد أعداؤنا بداً من اللجوء إلى "نظرية التجسس لحساب الروس" الشهيرة الآن، المثلَّثة التفاهة والفائقة السخف، لتفسير هذا الإخلاص. لكنهم لم يفعلوا سوى البرهان من جديد على صحة المثل القديم: "دم الشهداء بذار الكنيسة". فبعد تلقِّي الصدمة الأولى لهذا الهجوم، تضاعف عدد أعضاء ج.ث. مرتين وثلاث مرات، لكن الانطباع السيئ

---

[223] *The Christian College Magazine.*

[224] **En français dans le texte (N.d.T.).**

الناتج مازال باقياً. لقد أصاب كاتب فرنسي بقوله: *"افتروا افتروا دائماً مزيداً من الافتراء، فلا بدَّ أن يبقى دوماً شيء منه*[225]*"*. وتلك هي الحال: الإجحاف الظالم مازال جارياً، وكلُّ ما هو متعلق ب: ج.ث. – وبمؤسِّسَيْها خاصة – يشوَّه تشويهاً زائفاً لأنه يقوم على الأقاويل الخبيثة وحدها.

سؤال: ومع ذلك فإنه خلال الـ 14 عاماً من عمر الجمعية، لا بدَّ أنكم حظيتم بما يكفي من الوقت والفرص لإظهار أنفسكم وعملكم على ما هو بالفعل؟

الثيوصوفي: كيف، أو متى، أُعطِينا مثل هذه الفرصة؟ لقد كان أمْيَزُ أعضائنا ينفرون من أيِّ شيء يبدو وكأنه يبرِّرهم علانية. لقد كانت سياستُهم دوماً: "فلنصبر حتى تزول الغمَّة"، و "ما همُّنا ما تقول الصحف وما يظنُّه الناس؟" لقد كانت الجمعية أفقر من أن تكلِّف محاضرين بإلقاء محاضرات علنية، مما جعل عَرْضَ نظراتنا وعقائدنا تقتصر على بضع مؤلَّفات ثيوصوفية قوبلت بنجاح، لكن الناس غالباً ما أساؤوا فهمها أو لم يدروا بها إلا سماعاً. وقد قوطعت مجلاتُنا – وما تزال – وتجوهِلَت مؤلَّفاتُنا، وحتى يوم الناس هذا يبدو أنه ما من أحد على يقين تماماً مما إذا كان الثيوصوفيون نوعاً من عبَّادي الثعبان والشيطان، أو مجرَّد "بوذيين باطنيين" – أياً كان معنى هذا. لم نَرَ من جدوى في الاستمرار، يوماً بعد يوم وعاماً بعد عام في تكذيب كل أنواع الحكايات الملفَّقة التي لا تُصدَّق عننا، إذ ما أن كنا ننتهي من إحداها حتى كانت قصة ثانية أسخف وأخبث، تنبعث من جديد من رماد سابقتها. فتكوين الطبيعة

---

[225] En français dans le texte (N.d.T.).

البشرية هو ما هو بحيث إن أيَّ خير يُقال في شخص ما، فإنه سرعان ما يُنسى ولا يُذكَر أبداً بعده، إنما يكفي المرء أن يتفوَّه بإفتراء، أو يُشيع أكذوبة يلصقها بشخصية ما غير شعبية – مهما كانت سخيفة، كاذبة، أو غير قابلة للتصديق – حتى تنتشر وتُقبَل على الفور كحقيقة تاريخية. فمثلها مثل شخصية "كالومنيا" في مسرحية دون باسيليو[226]، تنطلق الإشاعة أولاً، كالنسيم الخفيف اللطيف الذي يكاد ألا يحرِّك العشب تحت قدميك، ولا يدري أحدٌ من أين تهب، ثم، في لمح البصر، تتحول إلى ريح عاتية، وتبدأ بإثارة زوبعة هوجاء، وسرعان ما تصير عاصفة مزمجرة! فمقام الافتراء بين الأخبار مقام الأخطبوط بين السمك: فهو يلتصق بذهن المرء، ويتشبَّث بذاكرتنا، التي تقتات به، تاركاً ندوب لا تُمحى، حتى بعد أن يزول مادياً. فالأكذوبة المفترية هي المفتاح الذي يستطيع أن يفتح كلَّ الأدمغة بلا استثناء. فهي تلقى الترحاب والضيافة حتماً في كلِّ الأذهان البشرية (على أن تكون هذه على شيء قليل من التحامُل)، من أرقاها إلى أدناها، أياً كان مبلغ وضاعة مصدرها ودوافعها.

سؤال: ألا تظن أن كلامك كله مُلقى على عواهنه؟ فالإنكليز ما كانوا يوماً قوماً مستعدين لتصديق كلِّ ما يقال، وأمَّتنا هي مضرب المثل في حبِّها للَّعب "حسب الأصول". فالكذبة ليس لها قدمان تقف عليهما طويلاً، و....

الثيوصوفي: الإنكليز لا يقلون استعداداً لتصديق الشرِّ عن نظرائهم من أية أمَّة ثانية – فتلك هي الطبيعة البشرية وليست

---

[226] إشارة إلى أوبرا روسيني: حلاق إشبيلية (المترجم).

سمة قومية. أما الأكاذيب، فإن لم تكن لها أقدام تقف عليها بحسب المثل، فإن لها أجنحة على غاية من السرعة، وتستطيع أن تطير – بل هي تطير فعلاً – إلى أبعد وأعلى من أيِّ نوع آخر من الأخبار، في إنكلترا مثلما في غيرها. تذكَّر أن الأكاذيب والافتراءات هي النوع الأدبي الوحيد الذي يمكن لنا دوماً الحصول عليه مجاناً، من دون دفع أيِّ اشتراك! في وسعنا أن نقوم بالاختبار، إذا شئت. هل لك – أنت المهتم بالمسائل الثيوصوفية، يا مَن سمعت عنَّا الكثير – هل لك أن تطرح عليَّ أسئلة حول كلِّ ما يخطر ببالك من الإشاعات و"الأقاويل"؟ ولسوف أجيبك بالحقيقة، ولا شيء غيرها، ولك أن تُخضِع إجاباتي لأكثر وسائل التحقق صرامة.

سؤال: قبل أن ننتقل إلى موضوع آخر، دعني أسمع منك الحقيقة كاملة عما يشيعه بعض الكتَّاب عنكم من كون تعاليمكم "إباحية وخبيثة"؛ كما أن هناك آخرين، متذرِّعين بأن العديد من "المرجعيات" المزعومة والمستشرقين لا يجدون في الديانات الهندية غير عبادة الجنس في كلِّ صورها، يتهمونكم بأنكم لا تُعلِّمون شيئاً أفضل من عبادة القضيب. فبما أن الثيوصوفيا الحديثة، على حدِّ ما يدعون، وثيقةُ الصلة بالفكر الشرقي – الهندي بخاصة – فلا بدَّ أنها موصومة بهذه الوصمة. حتى إنهم أحياناً يذهبون إلى حدِّ اتهام الثيوصوفيين الأوروبيين بإحياء الممارسات المرتبطة بهذه العبادة. فماذا عن هذه التهمة؟

الثيوصوفي: لقد سمعت بهذا وقرأت عنه من قبل، وأجيبك بأنه لم يسبق لافتراء على هذه الدرجة من الكذب وانعدام الأساس أن اختُرِع وأشيع. "السفهاء لا يرون إلا أحلاماً سفيهة"، كما

يقول مثلٌ روسي. إن سماع مثل هذه التهم الشنيعة المرمية جزافاً بلا أدنى أساس، وبدافع الظنون وحدها، ليجعل دَمَ المرء يغلي. اسألْ مئات الرجال والنساء الإنكليز الشرفاء من أعضاء الجمعية الثيوصوفية منذ سنين إذا اتفق لهم يوماً أن لُقِّنوا أية وصية إباحية أو أية عقيدة خبيثة. افتح كتاب العقيدة السرية وستجد، صفحة بعد صفحة، تنديداً باليهود وغيرهم من الأمم حصراً بسبب ممارستهم لطقوس قضيبية، من جرَّاء التفسير الحرفي الميت لرموز الطبيعة والتصورات المادية الفظة لثنويَّتها في مذاهب أهل الظاهر كافة. إن مثل هذا التأويل المتكرِّر والسيئ النية لتعاليمنا ومعتقداتنا لهو مُخْزٍ حقاً.

سؤال: لكنك لا تستطيع أن تنكر بأن العنصر القضيبي موجود فعلاً في ديانات الشرق؟

الثيوصوفي: لا، لا أنكر ذلك. غير أني أذهب إلى أن هذا لا يبرهن على وجوده في ديانات الشرق بأكثر مما يبرهن على وجوده في المسيحية، ديانة الغرب. اقرأ كتاب جماعة وردة الصليب لهَرْغريف جينِّنغ[227]، إذا أحببت أن تتأكد بنفسك من الأمر. لعل الرمزية القضيبية أكثر فجاجة في الشرق لأنها أخْلَص للطبيعة، أو بالأصح، أكثر سذاجة وصدقاً منها في الغرب. لكنها ليست أكثر إباحية، ولا هي توحي للذهن الشرقي بالأفكار الغليظة والفظَّة نفسها التي توحي بها للذهن الغربي –

---

[227] H. Jennings, The Rosicrucians, their Rites and Mysteries. (« Les Rosicruciens, leurs Rites et leurs Mystères ») Londres : 1870 (N.d.T.).

ما عدا، ربما، استثناء واحد أو اثنين، من نحو الطائفة المشينة المعروفة باسم "مهاراجا"، أو طائفة فلابهاشاريا.

سؤال: لكن أحد الكتَّاب في الجريدة اللاأدرية – وهو واحد من متَّهميكم – لمَّح لتوِّه أن أتباع هذه الطائفة المشينة هم ثيوصوفيون وأنهم "يدَّعون حيازة البصيرة الثيوصوفية الصحيحة".

الثيوصوفي: لقد افترى علينا – هذا كلُّ ما في الأمر. ليس بين أعضاء جمعيتنا فلابهاشاريا واحد، لا في الماضي ولا في الحاضر. أما عن حيازتهم، أو ادِّعائهم حيازة البصيرة الثيوصوفية، فهذه تلفيقة أخرى، قائمة على جهل مطبق بالطوائف الهندية. إن زعيم هذه الطائفة – "المهاراجا" – يدَّعي فقط الحقَّ في مال أتباعه المغفَّلين ونسائهم وبناتهم ليس إلا. وهذه الطائفة يحتقرها الهندوس الآخرون كافة.

سؤال: على كلِّ حال، ستجد مناقشة مسهبة لهذه القضية في كتاب العقيدة السرية، الذي أحيلك إليه مرة ثانية من أجل تعليلات مفصَّلة. في الختام، فإن روح الثيوصوفيا نفسها مناوئة تماماً لعبادة القضيب، في قسمها الغيبي أو الباطني أكثر منها حتى في التعاليم الظاهرية. لم أقع يوماً على تصريح أكْذَب من التصريح أعلاه. الآن اسألني بعض الأسئلة الثانية.

هل الجمعية الثيوصوفية تنظيم هدفه ربح المال؟

سؤال: مفهوم. حسناً، ولكن هل سبق لأيٍّ من المؤسِّسَيْن – الكولونيل هـ.س. أولكوت وهـ.ب. بلافاتسكي – أن كسبا مالاً أو فائدة أو استفاد منفعة دنيوية من ج.ث، كما تقول بعض الصحف؟

الثيوصوفي: ولا قرشاً واحداً. الصحف تكذب. فعلى العكس قدَّم كلاهما كل ما كان يملك، لا بل لقد أفلسا. أما عن "المنافع الدنيوية"، ففكِّر في الافتراءات والمطاعن التي تعرضا لها، ثم أعِدْ طرح السؤال!

سؤال: ومع ذلك فقد قرأت في عدد من صحف المبشِّرين بأن رسوم الانتساب والاشتراكات تغطي النفقات كلَّها وتفيض عنها بكثير، حتى إنه إحداها قالت إن المؤسِّسَيْن يكسبان عشرين ألف جنيه في السنة.

الثيوصوفي: هذه معلومة ملفَّقة أيضاً مثل غيرها الكثير. في موازنة كانون الثاني 1889 المنشورة، ستجد تصريحاً دقيقاً ومفصلاً بكلِّ المبالغ الواردة من المصادر كلها منذ العام 1879. ومجموع الواردات من المصادر كلها أيضاً (رسوم

الانتساب، التبرعات، إلخ، إلخ) طوال هذه السنين العشر يقل عن ستة آلاف جنيه، وجزء كبير من هذا المبلغ أسهم به المؤسِّسان إياهما من مردود مواردهما الخاصة وكتاباتهما. وهذا كله تمَّ إقرارُه علانية بإقرار رسمي، حتى إن أعداءنا في جمعية البحوث النفسانية أقروه. وكلا المؤسِّسَيْن لم يعد يملك الآن شيئاً: الأولى مسنة وأكثر اعتلالاً من أن تعمل كما كانت تعمل في السابق، عاجزة عن تخصيص وقت للكتابة الأدبية حتى تساعد الجمعية بالمال، ولا يسعها أن تكتب إلا من أجل القضية الثيوصوفية، والثاني يواصل الكدَّ من أجل هذه القضية كما كان دأبُه في السابق، ولا يقابَل بامتنان على ذلك أكثر من ذي قبل!

سؤال: لكنهما بالطبع يحتاجان إلى المال للعيش؟

الثيوصوفي: أبداً. إذ مادام يتوفر لهما المأكل والمسكن – حتى إذا كانا يدينان بهما لإخلاص قلة من الأصدقاء – فهما لا يحتاجان إلا إلى القليل أكثر.

سؤال: ولكن، ألا تستطيع السيدة بلافاتسكي، بخاصة، أن تكسب ما يفيض عن حاجتها بكتاباتها فقط؟

الثيوصوفي: حين كانت في الهند كانت تكسب بمعدَّل حوالي ألف روبية في السنة مقابل مقالات كانت تُنشَر في صحف روسية وغيرها، لكنها تبرعت بذلك المال كله للجمعية.

سؤال: مقالات سياسية؟

الثيوصوفي: أبداً. كلُّ ما كتبت طوال إقامتها في الهند التي دامت سبع سنين موجود هناك مطبوعاً. وهو يتناول فقط أديان

الهند وأعراقها البشرية وتقاليدها، ويتناول الثيوصوفيا – ولا يتطرق نهائياً إلى السياسة، التي لا تفقه فيها شيئاً وتهتم بها أقل. كذلك فقد رفضت منذ عامين عدة عقود يبلغ مجموعها حوالي 1200 روبلاً ذهبياً شهرياً، إذ إنها ما كانت لتستطيع أن تقبلها من دون التخلِّي عن عملها من أجل الجمعية، التي كانت تحتاج إلى وقتها وقوَّتها بالكامل. ولديها الوثائق لإثبات ما تقول.

سؤال: ألم يكن في باستطاعتها واستطاعة الكولونيل أولكوت أن يفعلا كما يفعل آخرون – كالعديد من الثيوصوفيين على الخصوص: حيث يواصل كلٍ منهم امتهان مهنته ويكرِّس الفائض من وقته لعمل الجمعية؟

الثيوصوفي: لا، لا يمكن ذلك، لأنه بخدمة سيدين، فلا بدَّ لأحد العملين – المهني أو الخيري– من أن يتأثر سلباً.

كل ثيوصوفي مُلزَمٌ أخلاقياً بأن يضحِّي بالشخصي في سبيل اللاشخصي، بخيره الآني في سبيل المنفعة الآتية لأناس آخرين. فإذا لم يكن المؤسِّسان قدوةً فمن سيكون؟

سؤال: وهل هناك كثيرون يقتدون بهما؟

الثيوصوفي: أنا ملزم بأن أجيبك بالحقيقة. في أوروبا يوجد من هؤلاء حوالي الستة، من جملة من الفروع تتخطَّى هذا العدد

سؤال: أليس صحيحاً، إذن، أن الجمعية تملك رأسمال أو مصادر دخل خاصَّين بها؟

الثيوصوفي: هذا غير صحيح، لأنها لا تملك شيئاً من ذلك مطلقاً. أما وأن رسم الانتساب البالغ جنيهًا استرليني واحد والاشتراك السنوي الضئيل، فقد تمَّ إلغاؤهم، وليس من المستبعد أن يصل الأمر بطاقم العمل في مقرِّ الهند إلى الموت جوعاً!

سؤال: فلم لا تجمعون الاشتراكات؟

الثيوصوفي: نحن لسنا "جيش الخلاص"، إذ لا يجوز لنا أن نتسول، ولم نفعل ذلك قط. كما أننا لم نحذُ حذو الكنائس والطوائف و"نجمع التبرعات". فما يُرسَل من حين لآخر دعماً للجمعية – المبالغ الصغيرة التي يتبرَّع بها بعض الأعضاء المخلصين – فهو كله عبارة عن تبرعات طوعية.

سؤال: ولكنني سمعت بأن مبالغ كبيرة من المال قد أُعطِيَت للسيدة بلافاتسكي. قيل إنه منذ أربع سنوات إنها حصلت على 5000 جنيه من عضو شاب ميسور، ذهب إلى الهند للانضمام إلى الحركة، و10000 جنيه من وجيه آخر أمريكي غني، هو واحد من أعضائكم، توفي في أوروبا منذ أربع سنوات.

الثيوصوفي: قُلْ لأولئك الذين أخبروك بهذا إنهم إما ينطقون بأنفسهم أكذوبة فظة، وإما أنهم يردِّدونها. لم يحدث أبداً أن طلبت "السيدة بلافاتسكي" أو استلمت قرشاً واحداً من الوجيهين المذكورين أعلاه، ولا أيَّ شيء من هذا القبيل من أيِّ أحد آخر، منذ تأسيس الجمعية الثيوصوفية. فليحاول أيُّ حيٍّ أن يثبت صحة هذا الإفتراء ليجد أنه أيسر له أن يبرهن على إفلاس بنك إنكلترا منه على أن "المؤسِّسة" المذكورة جَنَتْ أيَّ مال يوماً على حساب الثيوصوفيا. هاتان الفريتان

أطلقتْهما سيدتان كريمتا المحتد من الأرسطوقراطية اللندنية وتمَّ آنذاك تقصِّيهما على الفور وإثبات بطلانهما.

إنهما جثتان – بل جيفتان – تلفيقتين، بعد أن دُفِنَتا في غياهب النسيان عادتا لتطفوا من جديد على صفحة مياه الزيف الراكدة.

سؤال: تمَّ اخباري بوجود عدة تَرِكات ضخمة ورثتْها ج.ث.: واحدة – وتبلغ حوالي 8000 جنيه – ورثتْها عن إنكليزي غريب الأطوار، لم يكن ينتمي حتى إلى الجمعية، والثانية – 3000 أو 4000 جنيه – أوصى بها عضو في. ج.ث أسترالي. فهل هذا صحيح؟

الثيوصوفي: سمعت بالأولى، وأنا أعلم أيضاً أن ج.ث. لم تستفد أبداً من هذه الورثة، سواء تُرِكَتْ شرعاً أو لا، ولم يُبلَّغ المؤسِّسان بها رسمياً أبداً. فبما أن جمعيتنا لم تكن آنئذٍ هيئة مرخَّصة، وبالتالي لم يكن لها وجود شرعي، لم يُعِرْ قاضي محكمة البتِّ في صحة الوصيات اهتماماً بمثل هذا التوريث على ما قيل لنا، وأحال المبلغ إلى الورثة. هذا عن التركة الأولى. أما فيما يخص الثانية، فمعلوماتك صحيحة تماماً. كان الموصي واحداً من أعضائنا المخلصين، وقد أوصى بكل ما كان يملك للـ ج.ث. ولكن عندما جاء رئيس الجمعية، الكولونيل أولكوت، للنظر في المسألة، وجد أن للموصي أولاداً كان قد حرمهم من الميراث لأسباب عائلية. لذا فقد دعا لجنةً إلى الانعقاد، وتقرَّر بأن الميراث يجب أن يُرفَض، وبأن تُحول الأموال إلى الورثة الشرعيين. فالجمعية الثيوصوفية لن تكون حقيقة باسمها إذا اتفق لها أن تستفيد من مال يعود بحكم

الواقع إلى آخرين، استناداً إلى المبادئ الثيوصوفية على كلِّ حال، وليس على الشَّرع.

سؤال: كذلك – وهذا أقوله استناداً إلى مجلتكم أنتم وهي مجلة الثيوصوفي – هناك راجا هندي تبرَّع للجمعية بمبلغ 25000 روبية. ألم تشكروه على هذا الجود العظيم في عدد كانون الثاني 1888 من الثيوصوفي؟

الثيوصوفي: بلى، شكرناه بالفعل بهذه الكلمات: "يتوجَّه المؤتمر بالشكر إلى سموِّ المهاراجا ...... على وعده بهبة سخية قدرها 25000 روبية إلى صندوق الجمعية". لقد تبلَّغ المعني امتناننا، لكن المال ما يزال "وعداً"، ولم يصل إلى المقر أبداً.

سؤال: ولكن حتماً، إذا كان المهاراجا وَعَدَ وتلقَّى علانية شكراً مطبوعاً على تبرعه، فلا بدَّ أنه سيفي بوعده؟

الثيوصوفي: قد يفعل، مع أن عمر "الوعد" 18 شهراً! أنا أتكلَّم على الحاضر، وليس عن المستقبل.

سؤال: ماذا تنوون إذن أن تفعلوا لكي تستمروا؟

الثيوصوفي: مادام في ج.ث، قلة من الأعضاء الأوفياء المستعدين للعمل من أجلها من دون مكافأة ولا عرفان بالجميل، ومادامت قلة من الثيوصوفيين الطيبين يدعمونها بتبرعاتهم من حين لآخر، فسوف تستمر، ولا يوجد قدرة لشيء على تحطيمها.

سؤال: سمعت العديد من الثيوصوفيين يتكلَّمون عن وجود "سلطان خلف الجمعية" وعن "مهاتمات" مزعومين مذكورين أيضاً في مؤلَّفات السيد سينِّيت، ويقال إنهم هم الذين أسَّسوا الجمعية ويسهرون عليها ويحمونها.

الثيوصوفي: قد تستهزئ من هذا، لكنه صحيح.

طاقم عمل ج.ث

سؤال: هؤلاء الرجال، على ما سمعت، هم حكماء كبار خيميائيون، وكل ما تريد. فإذا كان بمقدورهم، والحال كذلك أن يحوّلوا الرصاص إلى ذهب وأن يحصلوا على ما يشاؤون من مال، إلى جانب اجتراح كلِّ أنواع المعجزات إرادياً، كما جاء في كتاب السيد سينِّيت "العالم الغيبي" فلماذا لا يوفرون لكم المال ويقومون بتأمين حاجات المؤسِّسَيْن والجمعية؟

الثيوصوفي: لأنهم لم يؤسِّسوا "نادياً للمعجزات". إن القصد من الجمعية هو مساعدة البشر على تنمية القدرات الكامنة فيهم من خلال جهودهم واستحقاقهم. لأنهم، أياً كانت الظواهر التي يجترحونها أو لا يفعلونها، فهم ليسوا مزيِّفي نقود، ولا هم يستحسنون عرقلة درب الأعضاء والمرشَّحين بإغراء إضافي قوي جداً: الثيوصوفيا لا تُشترى. طوال الـ 14 سنة الماضية، وحتى هذه الساعة، لم يحصل قط أن قبض عضو عامل واحد أجرةً أو راتباً، لا من الحكماء ولا من الجمعية.

سؤال: ألا يتم اعطاء راتب لأي من عمالكم على الإطلاق إذن؟

الثيوصوفي: لا أحد منهم حتى الآن. ولكن بما أن كلَّ أحد مضطر إلى المأكل والمشرب والملبس فإن جميع الذين لا يملكون أية موارد خاصة بهم للعيش، ويكرِّسون وقتهم برمَّته لعمل الجمعية – تخصَّص لهؤلاء في المقر في مدراس، الهند ضروريات الحياة – مع أن هذه "الضروريات" متواضعة للغاية في الحقيقة! (انظر "القواعد" في آخر الكتاب.) أما وأن

عمل الجمعية قد تزايد إلى هذا الحدِّ الكبير وما يزال يتزايد (ملاحظة: بفضل الافتراءات) في أوروبا، فقد بتنا في حاجة إلى المزيد من الأيدي العاملة. ونحن نأمل أن تكون لنا قلة من الأعضاء "المأجورين" من الآن فصاعداً – إذا جاز لهذه الكلمة أن تُستَعمَل في الحالات التي نحن بصددها، إذ إن كلاً من هؤلاء الأعضاء، المستعدين لبذل وقتهم كلِّه للجمعية يتخلَّى عن مناصب رسمية جيدة، ذات مستقبل واعد، لكي يعملوا من أجلنا مقابل أقل من نصف راتبه السابق.

سؤال: ومَن سوف يؤمِّن المال لهذا الغرض؟

الثيوصوفي: بعضٌ من أعضائنا الميسورين أكثر قليلاً من الآخرين. فالمرء الذي يضارب ويثري على حساب الثيوصوفيا لا يستحق أن يبقى بين صفوفنا.

سؤال: لكنكم حتماً تجنون مالاً من كتبكم ومجلاتكم ومنشوراتكم الثانية؟

الثيوصوفي: وحدها مجلة الثيوصوفي الصادرة في مدراس بين المجلات، تعود علينا بشيء من الربح، وهذا الربح يحوَّل دائماً إلى صندوق الجمعية، عاماً بعد عام، كما تبيِّن الحسابات المنشورة. مجلة لوسيفر، من جانبها تبتلع المال ببطء، لكن بانتظام، من غير أن تفلح حتى الآن في تغطية نفقاتها – بفضل مقاطعة باعة الكتب وأصحاب أكشاك محطات القطار المتديِّنين لها. أما مجلة اللوتس في فرنسا – التي انطلقت بفضل الموارد الخاصة والمتواضعة لأحد الثيوصوفيين، الذي كرَّس لها وقته وجهده كله – فقد كفَّتْ عن الصدور، من جراء الأسباب عينها بكلِّ أسف! كما أن مجلة الدرب النيويوركية لا تغطِّي هي

الأُخرى نفقاتها، بينما لم يمضِ على انطلاق المجلة الثيوصوفية الباريسية غير وقت قصير، كذلك بدعم من الموارد الخاصة لسيدة عضو. فضلاً عن ذلك، كلما حققت الكتب الصادرة عن دار النشر الثيوصوفية في لندن ربحاً ما فإن المحصول يخصَّص لخدمة الجمعية.

سؤال: ربما تخبرني الآن بكل ما تستطيع عن المهاتمات. إذ ما أكثر السخافات والأشياء المتناقضة التي تقال عنهم، حتى إن المرء لا يعرف ماذا يصدِّق، وشتى أنواع الروايات الموجبة للسخرية تصير شائعة.

الثيوصوفي: معك كل الحق في أن تدعوها "مدعية للسخرية".

الباب الرابع عشر

المهاتما الثيوصوفيين

هل هم أرواح من نور أم "شياطين ملعونة"؟

سؤال: بنهاية الأمر، من هم، أولئك الذين تدعونهم "معلميكم"؟ بعضُهم يقول إنهم "أرواح"، أو جنس آخر من أجناس الكائنات الخارقة للطبيعة، في حين يدعوهم بعضُهم الآخر "أساطير".

الثيوصوفي: المعلمين ليسوا هذا ولا ذاك. سمعتُ ذات مرة واحداً من عامة الناس يقول لواحد آخر إنهم جنس من حوريات ذكر، أياً كان مثل هذا المخلوق! غير أنك إذا استمعت إلى ما يقوله الناس فلن تكوِّن أبداً مفهوماً صحيحاً عنهم. إنهم، في المقام الأول، بشر أحياء، يولدون كما نولد، ومكتوب عليهم أن يموتوا ككلِّ البشر.

سؤال: أجل، ولكن يُقال إن بعضهم قد بلغ من العمر الألف من السنين. هل هذا صحيح؟

الثيوصوفي: إنه صحيح صحة النموِّ العجائبي للشعر على رأس شغبات مرديث: حقاً، كما جرى مع "المثيل"، لم تتمكن

أية موس حِلاقة ثيوصوفية من جزّه إلى الآن. كلما أنكرناه وكلما حاولنا أن نُفَهم الناس، تصبح الاختلافات أسخف. سمعت عن بلوغ متوشالح عمر الـ 969 عام لكنني، إذ لم أكن مجبوراً على تصديق ذلك، فقد سخرتُ من هذه المعلومة، الأمر الذي جعل الكثيرين ينظرون إليَّ نظرتهم إلى زنديق مجدِّف!

سؤال: هل يتخطون حقاً العمر العادي للبشر، إذا أخذنا الأمر على محمل الجد؟

الثيوصوفي: ما هو العمر "العادي" في نظرك؟ أذكر أنني قرأت في "اللانسيت" عن رجل مكسيكي ناهز عمرُه على الـ 190 عاماً، غير أنني لم أسمع أبداً عن بشر فانٍ، من العامة كان أم من الحكماء، استطاع أن يعيش حتى نصف السنين التي امتاز بها متوشالح. غير أنه يوجد بين الحكماء مَن يتخطَّى بمقدار كبير ما قد يكون العمر العادي في نظرك، ومع ذلك فليس في الأمر شيء عجائبي، وقلة قليلة بينهم تهتم بالعيش طويلاً.

سؤال: ما معنى كلمة "مهاتما" بالواقع؟

الثيوصوفي: إنها ببساطة تعني "نفس كبيرة" ــ كبيرة بفضل السموِّ الأخلاقي والبُعد الفكري. فإذا كان لقب "كبير" يُطلَق على جندي سكِّير عربيد كالإسكندر، لِمَ لا ندعو "كباراً" أولئك الذين أنجزوا فتوحات أعظم بكثير في أسرار الطبيعة من الفتوحات التي قام بها الإسكندر في ميدان الحرب؟ ثم إن المصطلح هو مصطلح هندي قديم جداً.

سؤال: ولِمَ تدعونهم "معلمين"؟

الثيوصوفي: ندعوهم "معلمين" لأنهم معلِّمونا، ولأننا منهم قد أخذنا الحقائق الثيوصوفية كلها، مهما كان قصورُ بعضنا في التعبير عنها وبعضنا الآخر في فهمها. إنهم رجال – ندعوهم بالمُسارَرين – ذوو علم كبير، وذوو قداسة حياة أكبر. وهم ليسوا نساكاً بالمعنى العادي للكلمة، مع أنهم بطبيعة الحال يبقون في معزل عن هدير عالمكم الغربي ونزاعاته.

سؤال: أوليس من الأنانية[228] أن يعزلوا أنفسهم على هذا النحو؟

الثيوصوفي: أين الأنانية في ذلك؟ ألا يبرهن مصير الجمعية الثيوصوفية برهاناً كافياً على أن العالم لايزال غير مستعد للاعتراف بهم ولا للاستفادة من علمهم؟ أي نفع يُرتَجى من تعليم البروفيسور كليرك مكسويل جدولَ الضرب لصف من الصبية الصغار؟ ثم إنهم لا يعزلون أنفسهم إلا عن الغرب. أما في بلادهم فهم يهتمون لشؤونهم علناً، مثلهم كمثل غيرهم من الناس.

سؤال: ألا تعزون إليهم قدراتٍ خارقة للطبيعة؟

الثيوصوفي: نحن، كما نوهت سابقاً، لا نؤمن بأيِّ شيء خارق للطبيعة. فلو عاش إديسون واخترع الفونوغراف قبل مائتي عام، فأغلب الظن أنه كان سيُحرَق معه، ولنُسِبَ الأمر بأكمله إلى الشيطان. إن القدرات التي يستعملونها ما هي إلا تنمية لطاقات تغفو كامنة في كلِّ رجل وامرأة، طاقات بدأ حتى العلم الرسمي يعترف بوجودها.

---

[228] الأثرة.

سؤال: هل صحيح أن هؤلاء الرجال يلهمون بعض كتَّابكم، وأن العديد من مؤلفاتكم الثيوصوفية، إن لم نقلْ كلها، قد كُتِبَت بإملاء منهم؟

الثيوصوفي: هذا صحيح وينطبق على بعض هذه المؤلَّفات. هناك مقاطع من إملائهم كلمة كلمة، لكنهم، في أغلب الحالات يكتفون بإلهام الأفكار ويتركون الشكل الأدبي للكاتب.

سؤال: لكن هذا، في حدِّ ذاته، إعجاز! إنه، في الواقع، معجزة فكيف يمكن لهم القيام به؟

الثيوصوفي: سيدي الكريم، أنت واقع في غلط فاحش، والعلم نفسه هو الذي سيدحض حججَك في يوم ليس ببعيد. لماذاَ يكون الأمرُ "معجزة"، كما تسمِّيه؟ يُفترَض في المعجزة أن تعني عملية ما خارقة للطبيعة، بينما لا يوجد في الواقع شيء فوق الطبيعة أو قوانينها أو ما يتعالى عنها. بين الأشكال العديدة للـ "معجزات" التي حظيت مؤخراً باعتراف العلم الحديث هناك التنويم المغناطيسي، وواحد من أوجُه قدرته يُعرَف بـ "الإيحاء" – وهو شكل من أشكال توارد الأفكار استُعمِل استعمالاً ناجحاً في مكافحة أدواء جسدية معينة، إلخ. ولن يطول الأمر بعالَم العلم كثيراً حتى يُجبَر على الاعتراف بوجود تفاعل بين عقل وآخر، مهما كانت المسافة بينهما بمقدار ما يوجد من التفاعل بين جسمين بينهما أوثق الصلة. فحين يتصل عقلان اتصالاً متعاطفاً، وتُوالَف الأجهزةُ التي يشتغلان من خلالها بحيث يتجاوب واحدُهما مع الآخر مغناطيسياً وكهربائياً، لماذا هناك مانع ما يحول دون بثِّ الخواطر – إرادياً – من أحدهما إلى الآخر؟ وبما أن العقل ليس

من طبيعة ملموسة بحيث تستطيع المسافة أن تفصله عن موضوع مشاهدته، ينجم عن ذلك أن الفرق الوحيد الممكن بين عقلين هو فرق في الحالة. فإذا تمَّ التغلب على هذا العائق فأين هي "المعجزة" في التخاطر، مهما تكن المسافة؟

سؤال: لكن لا بدَّ أن تعترف بأن التنويم المغناطيسي لا يقوم بشيء يوازي مثل هذا الإعجاز أو العَجَب؟

الثيوصوفي: على العكس. فمن الوقائع المُثبَتة أن في وسع المنوم المغناطيسي أن يؤثِّر في دماغ المُنوَّم إلى حدٍّ أن يُحدِث عبر جهاز هذا الأخير، تعبيراً عن أفكاره هو، وحتى عن كلماته. ومع أن الظواهر الملحقة بهذه الطريقة من التخاطر الفعلي مازالت إلى الآن قليلة العدد، فلا أحد، فيما أظن، سيضطلع بتحديد المدى الذي سيقطعه مفعولها في المستقبل إذ تُقر القوانين التي تحكم إحداثها تقريراً أكثر علمية. وبالتالي إذا كان من الممكن إحداثُ مثل هذه النتائج بمعرفة أوَّليات التنويم المغناطيسي فقط، فما الذي يمنع الحكيم الذي يمتلك القدرات النفسانية والروحانية، إعطاء نتائج تميلون، من جراء معرفتكم الحالية المحدودة بقوانينها، إلى تسميتها "معجزات"؟

سؤال: فلِمَ لا يختبر أطباؤنا لكي يحاولوا معرفة إن كان بالإمكان الإتيان بمثلها؟

الثيوصوفي: لأنهم، قبل كلِّ شيء، ليسوا حكماء ذوي معرفة وفهم تام لأسرار العالَمين النفساني والروحاني، بل هم ماديون، يخافون أن يخطوا خطوة واحدة خارج خندق المادة الضيق، ولأنهم، ثانياً، يجب أن يفشلوا في الوقت الحاضر

ويظلوا على فشلهم، حتى يضطروا إلى الإقرار بأن بلوغ مثل هذه القدرات هو أمرٌ ممكن.

سؤال: هل من الممكن تعليمهم؟

الثيوصوفي: غير ممكن، ما لم يكونوا قبل كلِّ شيء مستعدين بقشع الغشاء والتلوث المادي المتراكم في أدمغتهم كلها، حتى آخر ذرة.

سؤال: إن هذا مثير للاهتمام حقاً. قل لي: هل ألهم الحكماء الثيوصوفيين العديد منكم أو أملوا عليهم على هذا النحو؟

الثيوصوفي: لا، بل هم، على العكس، قد ألهموا قلة قليلة فقط. فمثل هذه العمليات تتطلب شروطاً خاصة. إن حكيم من الأخوية السوداء ("إخوة الظل"، والدوغْبا، كما نسمِّيهم) لا يتورع عن شيء، لكنه ماهر، يعاني في شُغله مشقاتٍ أقل بكثير. إن "مشعوذًا" دوغْبا كهذا، إذ لا يتقيد بأية قوانين من طبيعة روحية من شأنها عرقلة أفعاله، يملك أن يسيطر على أيِّ عقل ولا يراعي في ذلك حرمةً، ويخضعه إخضاعاً تاماً لقدراته الشريرة. أما معلمينا فلا يفعلون أبداً شيئاً من هذا القبيل. لأنه لا يحق لهم، تحت طائلة الوقوع في السحر الأسود، امتلاكُ الهيمنة التامة على أنية أحدهم الخالدة، ولا يمكن لهم بالتالي أن يتصرفوا إلا في طبيعة الشخص الجسدية والنفسانية تاركين بذلك إرادته الحرة لا يقلقها شيء على الإطلاق. من هنا، ما لم يكن الشخص قد ارتبط بالمعلمين بعلاقة نفسانية، وتلقَّى العون بفضل إيمانه بمعلِّميه وإخلاصه التام لهم، فإنهم، كلما بثوا خواطرهم لمَن لم يكن هذا الشرطان متحقِّقين فيه، يكابدون مشقاتٍ عظيمة في اختراق الشواش المزعج لنطاق ذلك

الشخص. لكن هذا المكان ليس مكان لمعالجة مسألة من هذه الطبيعة. يكفينا أن نقول إنه إن وُجِدَتْ القدرة، فهناك عندئذٍ عقول (متجسِّمة أو متجردة من أجسادها) توجِّه هذه القدرة وأدواتٍ حية وواعية تُبَثُّ من خلالها وتلتقطها. يكفينا أن نأخذ حذرنا من السحر الأسود.

سؤال: ولكن ماذا تعني حقاً بـ "السحر الأسود"؟

الثيوصوفي: أعني به ببساطة إساءة استعمال القدرات النفسانية أو أيِّ سرٍّ من الأسرار الطبيعية، واقع استخدام قدرات الغيبيات لمآرب أنانية أثيمة. إن منوماً مغناطيسياً مستفيداً من قدراته "الإيحائية"، يرغم منوَّمًا على السرقة أو القتل، ندعوه نحن ساحر أسود. إن "منهج تجديد الشباب" الشهير الذي ابتدعه الدكتور براون – سيغار، من باريس، عن طريق حقنة حيوانية مقزِّزة في الدم البشري – وهو اكتشاف تناقشه جميعُ الصحف الطبية الأوروبية الآن – هو، إن صحَّ سحر أسود غير واعٍ.

سؤال: لكن هذا الاعتقاد بالشعوذة والسحر هو من القرون الوسطى! حتى القانون نفسه كفَّ عن الاعتقاد بمثل هذه الأمور.

الثيوصوفي: ليرحل القانون، إذ إنه اقتيد، عبر مثل هذا النقص في التبصر، إلى ارتكاب أكثر من غلطة وجريمة قضائيتين. إن المصطلح هو الذي يرعبكم بنغمته "المتطيِّرة". ألا يعاقِب القانون على سوء استعمال القدرات التنويمية، كما ذكرت لتوِّي؟ بل إنه قد سَبق له وأن عاقب عليه في فرنسا وألمانيا ومع ذلك فإنه ينفي في دستوره إيقاع العقاب في جريمة من

السحر الصريح؟ لا يحق لك أن تعتقد بنجاحة قدرات الإيحاء وحقيقة وجودها لدى الأطباء والمِسْمِريين (أو المنوِّمين المغناطيسيين)، ثم ترفض الاعتقاد بالقدرات عينها حين تُستخدَم لمآرب شريرة. إما إذا صدَّقتَها، فإنك حينئذٍ تصدِّق السحر لا محالة. لا يحق لك أن تؤمن بالخير وتكفر بالشر، أن تقبل بوجود المال الصحيح ثم ترفض التصديق بشيء من نحو العملة المزيفة. لا شيء موجود من دون وجود نقيضه: فما كان للنهار، ولا للنور، ولا للخير أن يكون لها أيٌّ تمثيل بما هي كذلك في وعيك لو لم يكن هناك ليل أو ظلمة أو شر لمقاربتها ومعارضتها.

سؤال: لقد عرفت، بالفعل، أناساً كانوا، على اعتقادهم التام بما تدعونه القدرات النفسانية أو السحرية العظيمة، يسخرون من مجرد ذكر الشعوذة والسحر.

الثيوصوفي: على ماذا يبرهن ذلك؟ على أن المنطق ببساطة يعوزهم. أحزن عليهم أيضاً! أما نحن، طالما أننا نعرف ما نعرف عن وجود حكماء أخيار وقديسين، فنؤمن، بالمقدار نفسه، بوجود حكماء أشرار وفُجَّار، أو دوغْبا.

سؤال: إن كان المعلمين موجودين فعلاً، فلماذا لا يظهرون على الملأ ويدحضون دفعة واحدة كلَّ التهم العديدة الموجَّهة ضد السيدة بلافاتسكي والجمعية؟

الثيوصوفي: أية تُهم؟

سؤال: التهم بأنه لا وجود لهم، وأنهم من ابتداع مخيِّلتها. أنهم رجال من قش، "مهاتمات من الشاش وأكياس الهواء". ألا يسيء هذا كلُّه إلى سمعتها؟

الثيوصوفي: وكيف لمثل هذا الاتهام أن يسيء إليها في الواقع؟ هل كسبتْ مالاً من جرَّاء وجودهم المزعوم، أم جَنَتْ من ذلك فائدةً أو شهرة؟ أجيبك بأنها لم تكسب إلا الشتائم والاهانات والافتراءات، وبأن هذه ربما كانت ثقيلة الوطء عليها لو لم تكن قد تعلَّمتْ منذ أمد بعيد كيف لا تكترث مطلقاً لمثل هذه التهم الباطلة. فما حصيلتها في النهاية؟ حصيلتها – ويا للعجب! – ثناء مبطَّن، لو أن الحمقى – متهمِّيها – لم يذعنوا لحقدهم الأعمى، لفكَّروا مرتين قبل أن يتفوَّهوا بها. فالقول بأن المعلمين من ابتداعها يكافئ القول بأنها ابتدعت بنفسها لا محالة كلَّ جزء من أجزاء الفلسفة التي كُشِفَ عنها في الأدبيات الثيوصوفية، وبأنها صاحبة الرسائل التي تم وضع كتابُ "البوذية الباطنية" على أساسها، وبأنها بمفردها قد ابتدعت كل العقائد الواردة في كتاب العقيدة السرية، التي، لو كان العالم منصفاً، لأعترف بأنها تشتمل على العديد من حلقات العلم المفقودة، كما سيكتشف العلم بعد مئة عام من الآن. وهم إذ يقولون ما يقولون، فإنهم أيضاً يقرون لها بأنها أذكى من مئات الرجال (وبينهم الكثيرون من شديدي الذكاء وغير قليل من رجال العلم) يصدِّقون ما تقول – بما أنها خدعتْهم جميعاً لا محالة! وإذا كان ما يقولون صحيحاً، فلا بد أنها جملة من عدة مهاتمات متداخلين بعضهم في بعض على غرار جملة من العُلَب الصينية! – بما أن بين ما يُسمَّى "رسائل المهاتما"

رسائل عديدة مكتوبة بأساليب مختلفة ومميزة، يعلن متَّهموها بأنها هي التي أقدمت على كتابتها جميعاً.

سؤال: هذا ما يقولون بالضبط. ولكن، ألا يؤلمها كثيراً أن يُندَّد بها علانية باعتبارها "أحذق محتال في هذا العصر، ويستحق أن تتناقل الأجيال القادمة اسمها"، كما وَرَدَ في تقرير "جمعية البحوث النفسانية"[229]؟

الثيوصوفي: كان ذلك ليؤلمها لو أنه صحيح، أو لو كان مصدرَه أناسٌ أقل اهتياجاً في تعصبهم لماديتهم وتحامُلهم. إن المسألة برمَّتها، بما هي عليه، لا تقابلها شخصياً إلا بالازدراء بينما المهاتمات يكتفون بالسخرية منها. أقول مجدداً إن هذه الأقاويل، في الحقيقة، أعظم ثناء يُرفَع إليها!

سؤال: لكن أعداءها يدَّعون أنهم أقاموا الدليل على قضيَّتهم.

الثيوصوفي: أجل، فمن السهولة بمكان أن تدَّعي مثل هذا الادِّعاء حين تنصب نفسك، في آنٍ واحدٍ، قاضياً وهيئة محلَّفين ومستشار ادعاء، كما فعلوا. ولكن مَن يصدِّقها؟ – باستثناء أتباعهم المقرِّبين وأعدائنا.

سؤال: ألم يبعثوا إلى الهند بمندوبهم للتحقيق في الأمر؟

الثيوصوفي: لقد فعلوا، لكن حكمهم النهائي المبرم يستند برمَّته إلى التصريحات غير المدقَّقة والمزاعم المجانية لهذا الشاب. لقد أخبر محامٍ اطَّلع على تقريره أحدَ أصدقائي بأنه خلال خبرته كلِّها لم يقع البتة على "وثيقة سخيفة تدين

---

[229] **Society for Psychical Research.**

صاحبها إلى هذا الحد". لقد وجدها تعج بالافتراضات و"الفرضيات المهلهلة" التي يفنِّد كلٌّ منها الثانية. فهل هذه تهمة خطيرة؟

سؤال: لكنها، مع ذلك، قد أساءت كثيراً إلى الجمعية. فلماذا إذن، لم تلجأ السيدة بلافاتسكي إلى القضاء – لتدافع عن سمعتها على الأقل؟

الثيوصوفي: أولاً، لأن واجبها كثيوصوفية يحتِّم عليها أن تتغاضى عن الإهانات الشخصية كلِّها. ثانياً، لأنه لم يكن لدى الجمعية، ولا لدى السيدة بلافاتسكي، أي مال تنفقه على مثل هذه الدعوى القضائية. وأخيراً، لأن من السخف بنظر كليهما أن يخونا مبادئهما بسبب هجوم شنَّه عليهما قطيع من الكباش الإنكليزية المُسِنَّة التي حَمَلَها على الهجوم عليهما حَمَلٌ أسترالي[230].

سؤال: يا له من مديح! ولكن ألا تعتقد بأنها لو دحضت تدحيضاً شديداً الأمر بأكمله دفعة واحدة لأفادت القضيةُ الثيوصوفية فعلاً من ذلك؟

الثيوصوفي: ربما. ولكن هل تظن أن أيَّ قاضي إنكليزي أو هيئة محلَّفين كانوا سيقبلون يوماً بصحة الظواهر النفسانية؟ – حتى وإنْ كانوا غير منحازين في الأصل. ولعلك إذا تذكَّرت بأنهم باتوا متحاملين علينا أصلاً من جراء قصة "الجاسوسة

---

[230] إشارة إلى الشاب الأسترالي ريتشارد هوغدجسن، الذي وكلته جمعية البحوث النفسانية بإجراء التحقيق في صحة "رسائل المهاتمات" وكتابة التقرير الآنف الذكر الذي نشرتْه. (المترجم).

الروسية"[231] المفزعة، وتهمة الإلحاد والكفر، وسائر الافتراءات الأخرى التي أُشيعَتْ عننا، فإنك لا محالة مدرِكٌ بأن مسعًى كهذا لنيل العدل من القضاء كان سيبوء بما هو أسوأ من الفشل! وهذا كلُّه كان البحَّاثة النفسانيون على علم جيد به وقد استغلوا موقفهم في خِسَّة ودناءة كفرصةً سانحة ليترقوا على رؤوسنا ولينجوا بأنفسهم على حسابنا.

سؤال: إن ج.ب.ن[232]. تنكر الآن لوجود المهاتمات بالاطلاق. يقولون بأنهم كانوا، من البداية إلى النهاية، محض خرافة ابتدعتها مخيلةُ السيدة بلافاتسكي.

الثيوصوفي: حسناً! كان في مقدورها أن تقوم بأشياء عديدة أقل عبقرية من هذا. مهما يكن من أمر، ليس لدينا أدنى اعتراض على هذه النظرية. فهي (بلافاتسكي) تكاد أن تفضل ألا يؤمن الناس بالمعلِّمين، كما باتت الآن تقول على الدوام. وهي تعلن علناً أنها تؤثر أن يظن الناس جادِّين أن "موطن المهاتمات" الوحيد هو المادة السنجابية في دماغها، وأنها في اختصار، قد استخرجتْهم من أعماق وعيها الباطني، على أن تُنْتَهَك حرمةُ أسمائهم ومثالُهم السامي هذا الانتهاك الفظيع الذي يجري الآن. لقد كانت في البداية تحتج ساخطة على أية شكوك بخصوص وجودهم. أما الآن فهي لا تكترث لإثبات ذلك ولا لنفيه. لتفعل وتفكر الناس كما يحلو لها.

---

[231] بما أن بلافاتسكي من أصل روسي، فقد استغل أعداءها هذا الأمر لاتهامها بأن الحكومة الروسية قد أرسلتها إلى الهند للتجسس على القوات البريطانية.

[232] جمعية البحوث النفسانية.

سؤال: ولكن هل هؤلاء المعلمين موجودون فعلاً؟

الثيوصوفي: نحن نؤكد بأنهم موجودون. غير أن هذا لا يقدِّم في الأمر أو يؤخر كثيراً. فالعديد من الناس – وحتى بعض الثيوصوفيين والثيوصوفيين السابقين – يقولون إنهم لم يحصلوا قط على أيِّ دليل على وجودهم. حسناً جداً. عندها فإن السيدة بلافاتسكي تجيب بهذا البديل: إذا كانت بلافاتسكي قد اخترعتهم، فهي بالتالي قد اخترعت أيضاً فلسفتهم والمعرفة العملية التي حازت عليها قلة صغيرة، فإذا كان الأمر على هذا النحو، فما أهمية وجودهم أو عدمه، مادامت هي بنفسها هنا، ووجودُها هي، على كلِّ حال، أمرٌ يكاد أن يتعذر إنكارُه؟! وإذا كانت المعرفة التي يُعتقد بأنهم قد أفْضَوا بها معرفة صالحة في صميمها ويقبلها بما هي كذلك أشخاصٌ عديدون ذوو ذكاء يفوق حدَّ الوسط، فما مبرِّر مثل هذا الضجيج حول تلك المسألة؟ إن كونها محتالة لم يبرهَن عليه قط، وسيبقى دائماً قيد النظر، في حين أنه من الثابت الذي لا سبيل إلى إنكاره هو أن الفلسفة التي ينادي بها "المعلِّمون"، أيًّا كان مخترعها هي فلسفةٌ من أسمى الفلسفات وأشرفها حين تُفهَم حقَّ فهمها. بهذا يشيد المفترون، إذ تتلاعب بهم أدنى الأحاسيس وأدناها – أحاسيس الكراهية والثأر والكيد والكبرياء الجريح أو الطموح الخائب – من حيث لا يدرون على الإطلاق، أعظم الإشادة بقدراتها الفكرية. فليكن الأمر كذلك مادام يحلو للحمقى المساكين. فليس للسيدة بلافاتسكي، في الحقيقة، أدنى اعتراض على إظهار أعدائها لها بمظهر حكيم مثلث و"مهاتما" علاوة على ذلك. إن إباءها وحده أن تتظاهر أمام

نفسها بمظهر القاق يتبختر في ريش طاووس هو الذي يحملها حتى اليوم على الإصرار على الحقيقة.

سؤال: إذا كان لديكم رجال بهذه الحكمة وهذه القداسة لتوجيه الجمعية، كيف اتفق أن يُرتكب هذا العدد من الأخطاء؟

الثيوصوفي: المعلمين لا يوجهون الجمعية، ولا المؤسِّسين حتى، وما من أحد ادعى ذلك: إنهم يتعهَّدونها برعايتهم ويحمونها فقط. والبرهان الساطع على ذلك هو أنه لا الأخطاء تمكنَّتْ حتى الآن من تحطيمها وزعزعتها، ولا الفضائح من الداخل ولا أشد الهجمات من الخارج ضراوة استطاعت أن تطيح بها. فالمعلمين ينظرون إلى المستقبل، لا إلى الحاضر وكل خطأ إنْ هو، بالمقدار نفسه، إلا حكمة مختزَنة للأيام الآتية. وذلك "المعلم" الآخر الذي أرسل أحد عبيده بالخمس وزنات لم يقلْ له كيف يضاعفها، ولا منع العبد الأحمق من دفن وزنته الواحدة في الأرض[233]. وعلى كل إنسان أن يحصِّل الحكمة بتجربته الخاصة وفضائله. أما الكنائس المسيحية التي تدَّعي أن لها "معلماً" أرفع بما لا يُقاس – الروح القدس نفسه – فقد كانت ولا تزال مذنبة، لا بارتكابها "أخطاء" وحسب، بل بارتكابها سلسلة من الجرائم الدموية عبر العصور. ومع ذلك فلا أظن مسيحياً ينكر، من جراء ذلك، إيمانه بذاك "المعلم" على الرغم من أن وجوده أكثر ظنية من وجود المهاتمات على اعتبار أنه ما من أحد شاهد الروح القدس، وأن تاريخ

---

[233] إشارة إلى مثل الوزنات الذي رواه السيد المسيح.

الكنيسة، فوق ذلك، يكذِّب توجيهَه لها تكذيباً صريحاً. كل ابن آدم خطَّاء[234]. فلنعد الآن إلى موضوعنا.

[234] **Errare humanum est.**

تدنيس الأسماء والمصطلحات المقدسة

سؤال: ما قد سمعته، إذن، من أن العديد من كتَّابكم الثيوصوفيين يزعمون بأن هؤلاء المعلمين قد ألهموهم وبأنهم رأوهم وتكلموا معهم، ليس صحيحاً؟

الثيوصوفي: قد يكون صحيحاً وقد لا يكون. من أين لي أن اؤكد؟ إن عبء إثبات ذلك يقع على عاتقهم. من الواضح أن بعضهم، بل عدد قليل – قلة صغيرة بالفعل – إما كانوا يكذبون وإما أنهم قد عانوا من الهلوسة حين تبجحوا بحدوث مثل هذا الإلهام، غير أن غيرهم قد ألهمهم بالفعل حكماء كبار.

من ثمارها تُعرَف الشجرة، وكما أن الحكم على جميع الثيوصوفيين يجب أن يكون على أفعالهم، لا على ما يكتبون أو يقولون، كذلك على جميع الكتب الثيوصوفية أن يتم قبولها بحسب مزاياها، وليس وفقاً لأيِّ ادِّعاء بالمرجعية تطرحه.

سؤال: هل تقبل السيدة بلافاتسكي أن ينطبق هذا المقياس على مؤلَّفاتها؟ – على العقيدة السرية، على سبيل المثال؟

الثيوصوفي: بالتأكيد. فهي تقول في صريح العبارة في مقدمة الكتاب، إنها تطرح العقائد التي لقنَّها إياها المهاتما، لكنها لا تدَّعي أبداً أن إلهاماً قد تدخَّل فيما كتبتْ مؤخراً. أما فيما يتعلَّق بخيرة الثيوصوفيين بيننا، فهم أيضاً يفضِّلون في هذه الحالة بكثير لو أن أسماء المعلمين لم تُمزج أبداً بكُتُبنا بأية شكل من الأشكال. وعلى الرغم من وجود بضعة استثناءات، فإن غالبية هذه المؤلَّفات المماثلة ليست ناقصة وحسب، بل خاطئة حتماً

ومضلِّلة. فعظيمة هي الانتهاكات التي لحقتْ بحرمة اسماء اثنين من المعلمين،إذ يكاد ألا يوجد وسيط أرواحي لم يزعم أنه شاهدهما، وما من جمعية "باطنية" مزيفة، هدفها الاحتيال لأغراض تجارية، إلا وبدأت تزعم الآن أنها تمتثل لإرشاد وتوجيه "معلمين"، وغالباً ما يُفترَض فيهم أن يكونوا أعلى مقامًا من معلمينا! عديدة وباهظة هي خطايا أولئك الذين تقدَّموا بمثل هذه المزاعم، دافعُهم إلى ذلك إما الرغبة في الشهرة، وإما الغرور، وإما الوساطة غير المسؤولة. كم من الأشخاص نهبتْ أموالَهم جمعياتٌ كهذه، تطرح للبيع أسرار النفوذ والمعرفة والحقائق الروحية مقابل ذهب رخيص. وأسوأ ما في الأمر هو أن الأسماء المقدسة للغيبيات وللأوصياء القدوسين عليها قد جُرَّتْ إلى هذا الوحل القذر، ودُنِّسَتْ باقترانها بالدوافع المنحطة والممارسات المُنكَرة، في حين أن آلاف البشر قد حيل بينهم وبين درب الحقيقة والنور بسبب الخزي وسوء السمعة اللذين جَلَبَهما مثل هذا التدليس والغش والاحتيال على الموضوع بأكمله. أقول ثانية إن كل ثيوصوفي جادٍّ يتأسف اليوم، من صميم قلبه، على أن هذه الأسماء والأمور المقدسة قد ذُكِرَت علانية أمام عامة الناس، ويرجو مخلصاً لو أنها أُبْقِيَتْ سرية ضمن حلقة صغيرة من الأصدقاء المخلصين الموثوق بهم.

سؤال: بطبيعة الحال، هذه الأسماء غالباً ما تَرِدُ في أيامنا هذه ولكنني لا أذكر أبداً أنني سمعت بأشخاص كـ "المعلمين" حتى عهد قريب.

الثيوصوفي: هو كذلك. ولو أننا عملنا بمبدأ الصمت الحكيم بدلاً من الإسراع إلى البوح علناً بكل ما عَلِمْنا وإلى نشره، لما كان

لمثل هذا الانتهاك أن يحدث. لاحظْ أنه منذ أربعة عشر عاماً فقط، قبل أن تتأسَّس الجمعية الثيوصوفية، كان الحديث كله يجري عن "الأرواح": لقد كانوا في كل مكان، ويجري ذكرُهم على ألسنة الجميع، ما كان لأحدهم أبداً أن يحلم حتى بالحديث عن "حكماء" أو "مهاتمات" أو "معلمين" أحياء. وكان المرء يكاد ألا يسمع حتى باسم جمعية وردة الصليب، في حين أن وجود شيء كـ "الغيبيات" لم يكن ليخطر إلا على بال قلة قليلة فقط. أما الآن فقد تبدَّلت الحال. لقد كنَّا، نحن الثيوصوفيين لسوء الحظ، أول مَن تكلَّم عن هذه الأمور وعرَّفوا بوجود "حكماء" و"معلمين" وبوجود معرفة غيبية في الشرق، لكن الاسم صار الآن منتشراً بين الجميع. وعلينا نحن تقع الآن الكارما – عواقب الانتهاك الناجم عما سَبَقَ لحرمة الأسماء والأشياء المقدسة. وكل ما تجده الآن حول مسائل كهذه في المؤلَّفات السارية – وهي ليست بالقليلة – لفي الوسع اقتفاءُ أثره رجوعاً إلى الدافع الذي أعطتْه الجمعية الثيوصوفية ومؤسِّسوها في هذا الاتجاه. إن أعداءنا يستغلون غلطتنا حتى اليوم. وهكذا فإن أحدث الكتب الموجَّهة ضد تعاليمنا تزعَم أن حكيماً صاحب خبرة عشرين سنة في العراقة قد كَتَبَه. لكن الأمر هنا لا يعدو كونه كذبة ملموسة. فنحن نعرف الناسخ وملهميه (ذلك أنه أجهل من أن يستطيع كتابةً شيء من هذا القبيل). وهؤلاء "الملهِمون" أشخاص أحياء يميلون للثأر، وبمقدار ما يتمتعون به من قدرات فكرية لا يتورعون عن شيء. وهؤلاء الحكماء المزيفون ليسوا واحداً بل عدة حكماء. وحلقة "الحكماء" التي استُخدِمَتْ كوسيلة لتكسير الرؤوس الثيوصوفية قد بدأت منذ اثنتي عشرة سنة مع ظهور "لويس"

السيدة إمَّا هاردنغ برتِّن الوارد ذكرُه في سحر الفن[235] وأرض الأشباح[236]، وهي تنتهي الآن مع "حكيم" و"مؤلِّف" نور مصر[237]، وهو كتاب وضعه أرواحيون ليحاربوا به الثيوصوفيا وتعاليمها. لكن من غير المجدي البكاء على ما تمَّ، وليس لنا إلا أن نتألم، على رجاء أن يكون عدم تكتمنا قد هوَّن قليلاً على الآخرين شقَّ طريقهم إلى هؤلاء المعلمين الذين يُلهج الآن بأسمائهم عبثاً في كلِّ مكان ويُقترَف تحت جناحهم الكثيرُ الكثير من الرذائل.

سؤال: أترفضون على "لويس" أن يكون حكيماً؟

الثيوصوفي: نحن لا نعمل على التشهير بأحد، تاركين الاضطلاع بهذه المهمة النبيلة لأعدائنا. قد تكون مؤلِّفة سحر الفن الأرواحية، إلخ، قد تعرفت إلى حكيم كهذا وقد لا تكون – وبقولي هذا أقول أقل بكثير مما قالتْه تلك السيدة وكتبتْه عنا وعن الثيوصوفيا خلال السنين الأخيرة – فهذا شأنها وحدها. غير أنه حين يشاهد "حكيم"، في غريندج، إنكلترا، على حدِّ

---

[235] E.H. Britten, Art Magic : or, Mundane, Sub-Mundane and Super-Mundane Spiritism. (« La Magie de l'Art »). New York : 1876 (N.d.T.).

[236] E.H. Britten, Ghost-Land : or Researches into the Mysteries of Occultism, (« Le Pays des Esprits »). Boston : 1876 (N.d.T.).

[237] The Light of Egypt or the Science of the Soul and the Stars, (« La Lumière de l'Égypte »), publication anonyme, Chicago : Religio-Philosophical Publ. House, 1889. (N.d.T.).

زعمه، وفي مشهد رؤيا صوفية مهيبة، "أرواح" عبر تلسكوب اللورد روس الذي نُصِبَ في بارسونزتاون، إيرلندا[238] ولم يتحرك من هناك أبداً،[17] فليُسمَح لي بالتعجب من جهل ذلك "الحكيم" في أمور العلم! فهذا يفوق جميع الأغلاط والهفوات التي ارتكبها أحياناً مريدون لمعلِّمينا! وهذا "الحكيم" هو الذي يُستخدَم الآن لتحطيم تعاليم معلمينا!

سؤال: أتفهم تماماً شعوركم حيال هذه المسألة، ولا أظنه إلا طبيعياً. أما الآن، وبالنظر إلى ما قلته لي وشرحته، فهناك موضوع أخير بودي أن أسألك حوله بضعة أسئلة.

الثيوصوفي: إذا كان باستطاعتي أن أجيب عنها، فسأفعل. فما هي؟

[238] Voir Ghost-Land, 1ère partie, pp. 133 et seq.

الخلاصة

مستقبل الجمعية الثيوصوفية

سؤال: قُلْ لي، ما هي توقعاتك للثيوصوفيا في المستقبل؟

الثيوصوفي: إذا كنت تتكلَّم على الثيوصوفيا، فأنا أجيبك بأنها كما وُجِدَتْ منذ الأزل، عبر أدوار غير منتهية تلو أدوار في الماضي، كذلك سوف تتواجد دائماً عبر لانهاية الزمن في المستقبل – ذلك لأن الثيوصوفيا مرادفة في المعنى للحقيقة الأبدية.

سؤال: استميحك المعذرة! كنت أقصد أن أسألك بالحري عن حظوظ الجمعية الثيوصوفية.

الثيوصوفي: مستقبلها سوف يتوقف كلياً تقريباً على درجة الإيثار والجد والإخلاص، وأخيراً وليس آخراً، على مقدار المعرفة والحكمة التي سيتحلَّى بها أولئك الأعضاء الذين سوف تقع على كاهلهم مواصلةُ العمل وتوجيه الجمعية بعد موت المؤسِّسين.

سؤال: أفهم تماماً أهمية كونهم غير أنانيين ومخلصين، غير أنني لا أستوعب تماماً كيف يمكن لمعرفتهم أن تكون عاملاً في المسألة يماثل في حيويته حيوية الخصلتين الأخريين. حتماً إن الأدبيات المتوفرة حالياً، والتي يُضاف إليها المزيد في استمرار، قد باتت كافية.

الثيوصوفي: لا أشير إلى المعرفة الفنية بالعقيدة الباطنية، على أهميتها البالغة، بل تكلَّمت بالحري على الضرورة التي سيكون خلفاؤنا في توجيه الجمعية في حاجتها للمحاكمة الواضحة والمجرَّدة من النزوات. لقد باءت جميع المحاولات المماثلة للجمعية الثيوصوفية حتى الآن بالإخفاق لأنها، عاجلاً أم آجلاً قد انحدرت وتدنَّتْ حتى صارت نُحْلاتٍ، اتخذت معتقدات خاصة بها لا تحيد عنها، ففقدت بذلك شيئاً فشيئاً تلك الحيوية التي وحدها الحقيقة الحية تستطيع أن تمنحها. عليك أن تتذكر أن جميع أعضائنا نشأوا وترعرعوا في كنف مذهب أو دين ما وأنهم جميعاً، إلى حدٍّ ما، أبناء جيلهم، إنْ من حيث الجسد أو من حيث العقلية، ومحاكمتهم، بالتالي، شديدة الميل إلى التحامُل، من حيث لا تدري، من جراء بعض هذا المؤثرات أو كلِّها. فإذا لم يتمكَّنوا، إذن، من التحرر من مثل هذا التحيز الذي طُبِعوا عليه، أو يتعلَّموا على الأقل تمييزه آنياً، وبالتالي تجنُّب الانقياد له، فإن النتيجة ستكون، لا محالة، جنوح الجمعية على ضحلٍ ما من الفكر، تلبث فيه جثةً هامدة مكتوباً عليها أن تتهافت وتموت.

سؤال: كيف يمكن إذاً ابعاد هذا الخطر؟

الثيوصوفي: عند ذلك فإن الجمعية ستبقى حية حتى القرن العشرين وتجتازه. وكالخميرة، سوف تتخلَّل شيئاً فشيئاً الجمهورَ العريض من الناس المفكِّرين والعقلاء بأفكارها السَّمْحة النبيلة عن الدين والواجب والبرِّ بالإنسان. ولسوف تحطِّم في بطء – لكنْ بشكل حتمي – أصفاد المذاهب والعقائد المتحجِّرة، وأمراض التعصب الاجتماعي والفئوي، وسوف تقوِّض كلّل ألوان السدود والحواجز العِرقية والقومية، وتمهِّد

السبيل للتحقيق العملي لأخوَّية البشر قاطبة. وبفضل تعاليمها وبفضل الفلسفة التي جعلتْها في متناوَل فهم العقل الحديث وإدراكه، سيتعلَّم الغرب فهم الشرق وتقديره حقَّ قدره. وعلاوة على ذلك، فإن تنامي القدرات والملَكات النفسانية، التي باتت تبجحاتها ظاهرةً للعيان في أمريكا، سيجري جرياناً صحياً وطبيعياً. وستنجو البشرية من الأخطار المروِّعة، العقلية منها والجسدية، التي يحتِّمها حدوثُ ذلك التفتح، كما ينذر الآن، في كنف الأنانية والأهواء الشريرة كافة. وسيمضي النمو الذهني والنفساني للإنسان متناغماً مع نموِّه الأخلاقي، بينما يعكس محيطُه المادي السلامَ وصدق النوايا الأخوي اللذين سيسودان في ذهنه، بدلاً من الشقاق والنزاع اللذان نراهما في كلِّ مكان من حولنا اليوم.

سؤال: يا لها من لوحة مبهجة! ولكن قُلْ لي: أتتوقع حقاً أن يتم انجاز كل هذا في قرن قصير واحد؟

الثيوصوفي: ليت ذلك! لكن يجدر بي أن أخبرك أنه في الربع الأخير من كلِّ مئة عام، يقوم هؤلاء "المعلمين" الذين تكلَّمتُ عنهم بمحاولة لمساعدة البشرية في تقدمها الروحي، على نحو محدَّد وصريح. فقبيل اختتام كلِّ قرن ستجد، على منوال واحد أن فيضاً أو انتفاضة في الروحانية – أو سمِّها صوفية إذا شئت – قد حدثتْ. ففي تلك الآونة، يظهر شخص واحد أو أكثر في العالم بوصفهم مندوبين عن المعلمين، ويُكشَف عن قدرٍ يزيد أو ينقص من المعرفة والتعليم الغيبيين. فإذا اهتممتَ لأن تقوم بالرجوع، قرناً تلو قرن، إلى أبعد ما تصل إليه سجلاتُنا التاريخية المفصَّلة، لأمكن لك اقتفاءُ أثر هذه الحركات فيها.

سؤال: ولكن بأية صلة يمتُّ هذا إلى مستقبل الجمعية الثيوصوفية؟

الثيوصوفي: إذا نجحت المحاولةُ الحالية، ممثَّلةً بالجمعية الثيوصوفية، أكثر من سابقاتها، فإنها ستستمر كجسم، منظَّم وحيٍّ ومعافى، حتى يحين أوانُ محاولة القرن العشرين. وستكون الحالة العامة لأذهان البشر وقلوبهم قد تحسنت وتطهَّرتْ بفضل انتشار تعاليمها، وكما نوهت سابقاً، وسيكون تعصبُهم وأوهامُهم العقائدية قد أُزيلَتْ، إلى حدٍّ ما على الأقل. لا بل وبالإضافة إلى أدبيات وفيرة مفهومة وفي متناوَل أيدي البشر، ستجد النبضةُ المقبلة جماعة عديدة ومتحدة من الناس مستعدة لاستقبال حامل مشعل الحقيقة الجديد. وسيجد عقولَ البشر مهيأةً لرسالته، ولغةً متاحة له تصلح وعاء للحقائق الجديدة التي سيأتي بها، ومنظمةً تنتظر مجيئه، وتزيل من دربه العوائق والصعوبات ذات الطبيعة الآلية والمادية المحضة. تخيل ما يمكن لشخص يُعطى مثل هذه الفرصة أن ينجزه. قِسْ على ذلك بالمقارنة مع ما حققتْه الجمعية الثيوصوفية فعلاً في السنوات الأربعة عشر الأخيرة، من غير أيٍّ من هذه المزايا ووسط حشود من العراقيل التي لن تعيق القائد الجديد. ضَعْ هذا كلَّه في الاعتبار، ثم قُلْ لي إن كنتُ مغالياً في التفاؤل حين أقول إن الجمعية الثيوصوفية، إذا بقيت على قيد الحياة وظلَّتْ مخلصةً لأداء رسالتها ولنبضاتها الأصلية خلال السنوات المئة القادمة – قُلْ لي، استحلفك، إن كنت أبالغ في تأكيدي أن الأرض ستكون فردوساً في القرن الواحد والعشرين بالمقارنة مما هي عليه الآن.

الملحق الأول[239]

معلومات تتعلق بالجمعية الثيوصوفية[240]

تأسست الجمعية الثيوصوفية في نيويورك في السابع عشر من تشرين الثاني من العام 1875. ولقد كان مؤسِّسوها على يقين من أن المصلحة العليا لكلٍ من الدين والعلم سوف تترقَّى بإحياء النصوص السنسكريتية والبالية والزندية وغيرها من النصوص القديمة التي أودع فيها الحكماء والمُسارَرون في متناول الإنسانية حقائق ذات قيمة سامية تتعلق بالإنسان وبالطبيعة. لقد تبين لهم أن جمعية ذات طابع لامذهبي على الإطلاق، تواصل عملَها عن ودٍّ المثقفون من الأجناس البشرية كلها، في روح من الإخلاص المتفاني بحثاً عن الحقيقة، بهدف نشرها من غير تحيز، من شأنها أن تنهض بالكثير لزعزعة المادية وتعزيز الروح الدينية المتداعية. إن أبسط تعبير عن أهداف الجمعية يتمثَّل فيما يلي:

أولاً: تشكيل نواة للأخوية الإنسانية العالمية، من دون تمييز بين عرق، أو مذهب، أو جنس، أو طائفة، أو لون.

---

[239] تمَّ نشر الملحق الأول والثاني في طبعة لندن الأصلية، 1889. (المترجم).

[240] The Theosophical Society.

ثانياَ: تشجيع دراسة الآداب الشرقية (الآرية وغيرها) والأديان والعلوم.

ثالثاَ: الهدف الثالث – لا يسعى إليه إلا قسم من أعضاء الجمعية فقط – وهو استقصاء القوانين الطبيعية غير المفسَّرة والقدرات النفسانية للإنسان.

لا يُسأل شخصٌ لدى انضمامه للجمعية عن آرائه الدينية، كما لا يُسمَح بالتدخل فيها، ولكن كل امرئ مطالَب، قبل قبوله عضواً، بأن يَعِدَ بإظهار التسامح عينه الذي يطالب به لنفسه في هذا الصدد حيال رفاقه الأعضاء.

مقر رئاسة الجمعية والمكاتب والطاقم الإداري في أديار بالهند من ضواحي مَدراس (تشيناي حالياً)، حيث تملك الجمعية عقاراً مساحته سبعة وعشرون فداناً وأبنية واسعة، يضم أحدُها المكتبة الشرقية، بالإضافة إلى قاعة واسعة تنعقد فيها الهيئةُ العامة سنوياً في السابع والعشرين من كانون الأول.

ليست الجمعية وقفاً بعد، إلا أن هناك نواة لصندوق، سيحوَّل استثمار دخلِه الوارد إلى تسديد نفقاتها الجارية، أما هذه فقد تمَّت تغطيتها حتى الآن من ريع رسوم الانتساب والتبرعات ورسم الاشتراك السنوي الضئيل عن كلِّ عضو. إلا أن الأنظمة المعدَّلة في العام 1989 تجعل الجمعية تقوم على أساس من المساهمات الطوعية، وبذلك تصير متكلة في إعالتها كل الاتكال على كرم أعضائها وغيرهم نظراً لإلغاء رسوم الانتساب والمستحقات السنوية. لا تُدفَع رواتب لأيٍّ كان، والعمل كله ينهض على سواعد متطوعين، يحصلون على البسيط من

الطعام والضروري من الكساء، حين تتطلب ظروفُهم الخاصة مخصَّصات متعلقة بهذه الظروف.

المسؤول الرسمي على أملاك الجمعية بأسرها هو رئيسها الحالي، فعلى التركات والمواريث الموصي بها أن تكون باسمه حصراً، بحسب الصياغة القانونية المعمول بها في الدولة التي ينفِّذ فيها الموصي وصيَّته. فإذا تُرِكَت الوصيةُ للجمعية اسمياً فإنها تُعَدُّ لاغية في نظر القانون. العنوان الكامل للرئيس هو: هنري ستيل أولكوت، أديار، مَدْراس، الهند.

الجمعية، بكونها تنظيم، تتجنب التعاطي بالسياسة وسائر الموضوعات الواقعة خارج نطاق عملها المعلَن. وتحرِّم أنظمتها على الأعضاء تحريماً شديداً كلَّ تهاون في حيادها المتشدد في هذه المسائل.

لقد تشكلت فروع عديدة للجمعية في مناطق مختلفة من العالم وهناك دائماً فروع جديدة في طريقها إلى الانتظام. ويعمل كل فرع بوضع أنظمته الفرعية ويدير شؤونها المحلِّية من دون تدخل من الرئاسة العامة، على ألا تنتهك الأنظمةَ الأساسية للجمعية. والفروع الواقعة ضمن حدود إقليمية معينة (مثل أمريكا والجزر البريطانية وسيلان إلخ، على سبيل المثال) قد تمَّ جمعها لأغراض إدارية في فروع إقليمية. للاطلاع على التفاصيل، راجع الأنظمة المعدَّلة للعام 1889، لتجد أيضاً جميع المعلومات الضرورية فيما يخص الانضمام إلى الجمعية، إلخ.

لقد تأسس حتى تاريخه (1889) 173 فرع للجمعية. وللاطلاع على التفاصيل، راجع أنظمة الجمعية الثيوصوفية، إلخ، التي

تُطلَب من أمين سجلات الجمعية الثيوصوفية، أديار، مَدْراس أو من الأمينين العامين لفرعَي إنكلترا:

إنكلترا: الدكتور. أ. كتلي، 7 شارع ديوك، أدلفي، لندن.

الولايات المتحدة الأمريكية: وليام ك. جَودج، ص.ب. 2659 نيويورك.

الملحق الثاني

الوضع القانوني للجمعية الثيوصوفية

التقرير الرسمي الآتي، الذي صَدَرَ بموجبه مرسومٌ بتأسيس جمعية سانت لويس الثيوصوفية[241]، يُعتبَر وثيقة هامة بما هو شهادة مدوَّنة لرأي محكمة أمريكية في الجمعية الثيوصوفية بعد استجوابٍ دقيق لشهود تحت اليمين القانونية.

أولاً: الجهة الملتمسة ليست تنظيماً دينياً. وإني لأبلِّغ عن هذه الملاحظة السلبية بسبب من أن كلمة "ثيوصوفية" في اسم الجهة الملتمسة قد توحي بملابسة دينية ما. إذ إن العبارة التشريعية "جمعية مشكَّلة لأهداف دينية" لا تنطبق، في ظنّي إلا على منظمة تتشكل جزئياً للعبادة – باعتبار هذه فعلاً فردياً يتضمن التعبد، وربما القدرة العاطفية، وكلاهما بالضرورة فعل فردي، – وإلا فعلى منظمة مشكَّلة لنشر الإيمان الديني. أما مجرد تدريس دين ما كما يدرِّس المرء الجبرَ، فليس، برأيي نشاطاً دينياً بالمعنى الذي تظهر فيه كلمةُ "ديني" في التشريعات والدستور. في وسع رجل أن يشغل كرسياً جامعياً كمدرس للأديان ويدرِّس بصفته هذه عقائد أديان عديدة. وبما

---

[241] جمعية سانت لويس هي فرع من الجمعية الثيوصوفية وليست جمعية مستقلة أو منفصلة.

أن هذه الأديان المختلفة على خلاف واحدها مع الثانية ومتناوئة، فإن الأستاذ لا يستطيع حتماً أن يمارس العبادة وفقاً لها جميعاً، لا بل إنه قد يكون غير متدين. من هنا فإن مجرد تدريس الأديان ليس نشاطاً دينياً بالمعنى التشريعي. جدير بالذكر أنه في المادة الثانية من دستور الجمعية تظهر كلمة "دين" بصيغة الجمع. إن تدريس الأديان عمل تعليمي وليس دينياً. "تشجيع دراسة الأديان" هو جزئياً تشجيع دراسة تاريخ الإنسان. وأضيف إلى ما ذُكِرَ ملاحظةً ملحقة به أنه ليس للجمعية مذهب ديني ولا تمارس أية عبادة.

ثانياً: تقترح الجهةُ الملتمسة تشجيع دراسة الآداب والعلوم. وهذان الهدفان منصوص عليهما صراحة في التشريعات.

ثالثاً: هناك هدف ملازم للسابق يتمثل في "استقصاء القوانين الطبيعية غير المفسَّرة والطاقات النفسانية للإنسان". إن هاتين العبارتين مأخوذتين في معناهما الظاهر، لا اعتراض عليهما. لكن ثمة ما يدعو إلى الاعتقاد بأنهما تتبطَّنان عن معنى غير المعنى الظاهر. وأود لَفْتَ انتباه المحكمة إلى المعنى المتعارَف عليه لكلمة "ثيوصوفيا". فعلى الرغم من أنني جاهل بالثيوصوفيا إلا أنني أعتقد أنه يفترَض فيها أن تشتمل، من بين أمور ثانية على تجلِّيات وظواهر، جسدية ونفسانية خارقة للقوانين التي بات يعرفها الآن الفيزيائيون والميتافيزيائيون وربما غير مفسَّرة أو لا يدَّعي تفسيرَها أو فهمَها حتى الثيوصوفيون أنفسهم. وضمن هذه المجموعة من الممكن ذكرُ الأرواحية، المِسْمِرية، جلاء الرؤية، الشفاء العقلي قراءة الأفكار، وما شابه. ولقد استمعت إلى شهادات حول هذه المسألة، ووجدت أنه في حين أن الاعتقاد بأيِّ نوع من أنواع

التجلِّيات والظواهر هذه ليس مطلوباً، وفي حين أن لكلِّ عضو من أعضاء الجمعية كلَّ الحرية في الاحتفاظ برأيه الخاص، فإن مثل هذه المسائل تشكِّل مع ذلك بحوث للتقصِّي والمناقشة وأغلب الظن أن جمهور الأعضاء يؤمنون فردياً بالظواهر الشاذة وبالقدرات فوق البشرية بقدر ما هو في حدود معرفة العلم. إن مما لا شك فيه أن من حقِّ أيِّ مواطن أن يأخذ بما يحلو له من آراء حول هذه المواضيع، ويسعى كما يشاء لاستقصاء ما هو غير مُفَسر والكشف عما هو كامن. لكن المسألة هنا هي الآتية: هل ستمنح المحكمةُ رخصةً لتيسير مسعًى كهذا؟ الفودووية كلمة تنطبق على ممارسات أناسٍ ماكرين، بين الجهلة والمتطيِّرين، يوقعون احتيالهم بأناس سُذج بين الجهلة والمتطيِّرين. ما من محكمة تمنح رخصة للترويج لممارسات كهذه. على المحكمة أيضاً أن تتريث لتحقِّق في شأن ممارسات المؤسَّسة التي تلتمس تأييد القضاء، وربما في حسن سمعتها. ولست هاهنا في صدد إجراء مقارنة بين الفودووية وبين هذه الفئة من الظواهر التي سأدعوها، لموافقة الغرض، بالغيبيات (مع أني لا أدري إن كنت مصيباً في ذلك). إنما اتخذت الفودووية باعتبارها حالة متطرفة لكي أظهر أن على المحكمة أن تحقِّق. فإذا حقَّقنا الآن في الغيبيات سنجد أنها قد استُعمِلَت في بعض المناسبات، كما تبلَّغنا، لأغراض الاحتيال. لكن هذا لا ينال من سِمَتِها الجوهرية. فدائماً، وفي كلِّ مكان، سيسيئ أناس سيئون استعمالَ أيِّ شيء لأغراض أنانية. إن هدف هذه الجمعية، سواء يمكن بلوغه أو لا يمكن، هو لَهَدف صالح ومفيد، لا شك في ذلك على افتراض أنه توجد ظواهر جسدية ونفسانية غير مفسرة وأن الثيوصوفيا ترمي إلى تفسيرها. وعلى افتراض أنه توجد

قدرات بشرية لا تزال كامنة فإنها تلتمس اكتشافها. قد يكون أن سخافات وتدليسات قد تسربت في الواقع إلى المرحلة الأولى لنشأتها. أما فيما يتعلق بفهمٍ كفهمِ الغيبيات التي تؤكد وجود قدرات يُعتقَد عموماً بأنها فوق بشرية، وظواهر يُعتقَد عموماً بأنها فوق طبيعية، فقد تبين لي أن على المحكمة – مع أنها لن تضطلعٍ بتحديد قضائي لمسألة صحَّتها، قبل أن تمنح الغيبية رخصةً – أن تحقِّق في أمر كونها على الأقل قد فازت بمنزلة طيبة في حسن سمعتها أو في كون المنتسبين إليها مجرد أناس ذوي ذكاء محدود، وفكر ضحل، ويصدقون بسذاجة كلِّ شيء.

استمعت إلى شهادات حول هذه النقطة، وتوصَّلت إلى أن عدداً من السادة الأشراف، ذوي المنزلة الرفيعة في العلم، في أقطار أوروبية مختلفة، وفي هذه البلاد أيضاً، هم من المؤمنين بالغيبيات. فالسير إدوارد بَلْوِر ليتون – وهو كاتب ذو علم واسع ومتنوِّع، وصاحب فكر راجح – كان، على حدِّ ما يؤكِّد عالماً بالغيبيات، وهو تأكيد يؤيده اثنان من كتبه على الأقل. أما المرحوم الرئيس وِيْلاند، من جامعة براون، فقد كتب عن العمليات الذهنية الشاذة، كما تتبدى في جلاء الرؤية، قائلاً: "يبدو الموضوع لي حقيقاً كلَّ الأحقية بالفحص الأشد تمحيصاً وإنصافاً. إنه ليس حَرِي من أيِّ وجه من الوجه بالاستهزاء بل يتطلب انتباه أشد البحوث فلسفيةً." أما السير وليم هاملتون ولعله أذكى – وحتماً أعلم – الميتافيزيائيين الإنكليز قاطبة فقد قال منذ ثلاثين سنة على الأقل: "مهما كان الأمر يدعو إلى العجب، فقد ثبت الآن، بما لا يدع مجالاً لأيِّ شكٍّ عقلاني أن

الإدراكات في حالات معينة شاذة من حالات المنظومة العصبية ممكنة عبر قنوات غير القنوات العادية للحواس".

يكفي الثيوصوفيا هذه الشهادات لكي تتبوأ على الأقل منزلةً محترمة. أما إذا كان في استطاعتها، عبر المزيد من العمل، أن تجعل الحقائق الجزئية حقائق تامة، وفي مقدورها أن تزيل الغلوِّ وتطهِّر نفسَها من الشوائب، إنْ وُجِدَت، فأغلب الظن أن هذه مسائل لن تشعر المحكمة بنفسها مدعوةً للبت فيها. لا أرى جانباً آخر في دستور الجهة الملتمسة مستهجَنة في نظر القانون، وعلى ذلك، فلي الشرف أن أبلِّغ بأنني لا أرى سبباً يوجِب عدم تلبية طلب الملتمسين.

أوغست و. ألكزاندر.

خبير محلَّف منتدَب من قبل المحاكم.